شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ١ إلى الدرس ٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٨/٠٢ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

فإن نِعَم الله ﷻ على عباده كثيرةٌ لا تحصى وعديدةٌ لا تُستقصى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] ، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] . وإن أجلّ نعَم الله تبارك وتعالى على عباده هدايته لهم إلى دينه الحنيف الذي ارتضاه تبارك وتعالى لعباده دينا ، كما قال ﷻ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] . فالإسلام أعظم منّة وأكبر عطية أنعم بها تبارك وتعالى على عباده ، ومَن منّ الله عليه بالإسلام فليعرف نعمة الله العظيمة عليه بهذا الدين ، وليعرف فضل هذا الدين ومكانته؛ فضل الإسلام ، وحقيقة الإسلام ، وما هي الأمور التي تنافي الإسلام أو تنافي كماله الواجب ، يتعلم ذلك ليزداد استمساكاً ومحافظةً على هذا الدين وعنايةً به .

وبين يدنا كتابٌ نافع جداً في بيان فضل الإسلام لإمامٍ وعلَمٍ نفع الله تبارك وتعالى به في مؤلفاته وكتبه القيمة التي انتشرت في أنحاء العالم ؛ بياناً للدين وبياناً للتوحيد وبياناً للإسلام الذي شرعه الله تبارك وتعالى لعباده ، وهو الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له . وبين يدينا كتابٌ له عظيم عنوانه: «فضل الإسلام» ؛ وحقيقةً ؛ عندما تقرأ عن فضل الإسلام تستفيد فوائد عديدة ، أهمها ما يلي :

- أولا : أن تستشعر وتستحضر نعمة الله تبارك وتعالى عليك بهذا الدين الذي هو أعظم النعم وأجلّ المنن ؛ فيوجِد عندك هذا الاستحضار شكراً لله تبارك وتعالى على هذه النعمة العظيمة ، ومن شكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة العمل بالإسلام كما قال الله تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[سبأ:١٣]؛ العمل بهذا الإسلام والمحافظة عليه والاستمساك به والبُعد عن الأمور التي تُنقصه أو تُضعفه كل ذلك من شكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة .
- الأمر الثاني في دراستك وقراءتك عن فضل الإسلام ؛ أن هذا سبب من الأسباب المعينة لك على الثبات على هذا الدين والمحافظة عليه والعناية به .
- الأمر الثالث : أن معرفة فضائل الإسلام تزيد المسلم في إسلامه قوةً وفعلاً لأوامر هذا الدين وبُعداً عما حرمه الله تبارك وتعالى على عباده ، لأن معرفة الفضائل توجِد في العبد الرغبة في الزيادة من هذا الدين والعناية به.

- الأمر الرابع : أن معرفة فضائل الإسلام توجِد عند العاقل زهداً في البدع والمحدثات والأمور التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ؛ لأنها ليست من الإسلام ، وهذه الفضائل مختصة بالإسلام الذي بعث الله تبارك وتعالى به رسله ورضيه لعباده كما مر معنا قول الله ﷻ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، فهو الدين الذي رضيه الله تبارك وتعالى لعباده .
- الأمر الخامس : أن واقع الناس الآن – بسبب كثرة الفتن والصوارف والصواد – فيه ضعفٌ في الاستمساك بهذا الدين ، وضعفٌ في العناية به عقيدةً وعبادةً وخُلُقا ؛ فكان الناس بحاجة إلى أن تُبيَّن لهم فضائل الإسلام ليعودوا من النقص إلى التمام ، ومن الضعف إلى القوة .

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا عنوانه «**فضل الإسلام**» ، وقد ضمّنه مؤلفه رحمه الله فوائد عظيمة تتعلق بالإسلام؛ بياناً لفضله ، وإيضاحاً لحقيقته ، وتحذيراً من الأمور المخالفة له . ونبدأ مستعينين بالله ﷻ في قراءة هذا الكتاب والوقوف على فوائده .

وأشير إلى أمر لابد من الإشارة إليه وهو : أن طريقة هذا المصنِّف – أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله – في كتبه كلها : أنه يجمع الآيات والأحاديث الواردة في الباب ولا يزيد على ذلك ، ولهذا سنرى هذا الكتاب لا تجد فيه كلاماً للمصنف وإنما تجد فيه آيات وأحاديث ؛ فهو رحمه الله جمع لك الآيات والأحاديث التي تتعلق بهذا الموضوع ولم يزد على ذلك ، بخلاف كتب أهل البدع فإنهم يجمعون للناس فيها آراءهم وتصوراتهم وعصارات أفكارهم ، أما هذا المصنِّف وأئمة السلف وعلماء السنة في القديم والحديث فطريقتهم جمع الآيات من كلام الله ﷻ والأحاديث في سنة النبي ﷺ وتبويبها وترتيبها ، وربما علّق بعضهم عليها بما يقتضيه المقام من إيضاحٍ وبيان يستفيد منه القارئ .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في رسالته فضل الإسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . باب فضل الإسلام وقول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

****

قال المصنِّف رحمه الله : ((**بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين**)) ؛ فبدأ هذا المؤلَّف القيِّم بالبسملة مقتدياً بكتاب الله ﷻ ، ومقتدياً بسنة النبي عليه الصلاة والسلام وطريقته في مراسلاته ومكاتباته ؛ فكان يبدأ بالبسملة .

وقول من يكتب «بسم الله» أي : بسم الله أكتب ، والباء في البسملة باء الاستعانة ؛ فالمبسمِل هو في الحقيقة مستعينٌ بالله جل وعلا طالبٌ عونه متيمِّنٌ بذكر اسم ربه تبارك وتعالى في أول عمله وبداية عمله ؛ ولهذا تُشرع

البسملة في بداية الأعمال ؛ بداية الأكل ، وبداية الشرب ، وعند دخول المنزل ، وعند الخروج منه لأي مصلحة من المصالح ، وعند قراءة القرآن ، وفي أول الصلاة ، فتشرع البسملة في أوائل الأعمال تيمناً وتبركاً بذكر اسم الله ﷻ وطلباً لمدِّه وعونه وتوفيقه ﷻ ؛ لأن الباء في «بسم الله» باء الاستعانة ، ومن يكتب ويبدأ كتابته بـ «بسم الله» فتقدير قوله هذا : أي بسم الله أكتب ، فالجار والمجرور متعلقٌ بمحذوف تقديره : أكتب ، وإن كان المبسمِل قارئاً فالتقدير : باسم الله أقرأ ، داخلاً : بسم الله أدخل ، بسم الله أخرج. ويُحذف متعلق الجار والمجرور للعلم به .

قال : ((**بسم الله الرحمن الرحيم**)) ؛ ذكر ثلاثة أسماء حسنى لله جل وعلا :

«**الله**» : وهو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

و «**الرحمن الرحيم**» : اسمان دالان على ثبوت الرحمة صفةً لله ﷻ ؛ و«**الرحمن**» : دالٌ على الرحمة التي هي الصفة القائمة بالله ، و «**الرحيم**» دالٌ على تعلقها بالمرحومين كما قال ﷻ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب:٤٣] ، ولا يوجد "كان رحماناً بالمؤمنين " .

قال : ((**وبه نستعين**)) ؛ به : أي بالله ﷻ ، نستعين : أي نطلب العون .

وطلب العون من الله في كل عمل ديني ودنيوي أمرٌ لابد منه ؛ لأن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله ؛ فلابد من طلب العون والذل بين يدي الله تبارك وتعالى والاستعانة به وحده جل وعلا ؛ لأن الأمور كلها بيده سبحانه فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يستطيع الإنسان أن يقرأ كتاباً إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يحضر درساً إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يعمل بذكرى أو موعظة إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يؤدي صلاةً إلا إذا أعانه الله ، قد قال الله ﷻ : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور:٢١] . فالأمور كلها بتوفيق الله جل وعلا وعونه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : ((يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)) ، وفي سورة الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] . فالاستعانة – وهي طلب العون – عبادة عظيمة لابد منها في كل شؤون الإنسان وأموره ومصالحه الدينية والدنيوية ؛ يطلب عون الله تبارك وتعالى ومدَّه ﷻ وتوفيقه .

قال: ((**بابٌ فضل الإسلام**)) ؛ أي هذا باب معقود لبيان فضل الإسلام، و «**فضل**» هنا مفرد مضاف ، والقاعدة في المفرد إذا أضيف أنه يعُم ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١] أي نِعَم ربك . «فضل الإسلام» : أي فضائل الإسلام ، فالمفرد إذا أضيف يعُم. والإسلام له فضائل لا تحصى ؛ بل أن كل خير يناله العبد في دنياه وأخراه هو ثمرة من ثمار الإسلام ونتيجة من نتائجه ، وكل شر يناله العبد في دنياه وأخراه فسببه تضييع الإسلام ؛ الإسلام سبب العز والرفعة والتمكين والأمن والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وتضييعه هو سبب الحرمان

والخسران في الدنيا والآخرة . ففضائل الإسلام لا تعد ولا تحصى ، وهذا الباب عقده المصنف ليبين شيئاً من فضائل الإسلام وفضائل هذا الدين العظيم .

ومعرفة فضائل الإسلام مفيدة للمسلم ولطالب العلم ؛ لأنها -كما تقدم - تحرك في القلب شكر المنعِم ، وتعين على الثبات ، وتكون سبباً للزيادة من هذا الدين والمحافظة عليه ، وسبباً للبُعد عن الأمور الصادّة عنه والصارفة عنه وهي كثيرة ؛ فمعرفة فضائل الإسلام والعناية بها مفيدة جداً للمسلم ، خاصةً في مثل هذا الزمن الذي راجت فيه الدعوات الباطلة للرذيلة من جهة ، وللضلالات بأنواعها من جهة أخرى ؛ فاحتاج المسلم أن يقف على فضائل دينه لتكون هذه المعرفة لفضائل الدين سبباً لزيادة الاستمساك به والمحافظة عليه والثبات عليه والبُعد عن الأمور المخالفة له ؛ وإن بُهرِجت وزُيّنت وكثرت دعاياتها فلا يغتر بها المسلم ، لا يغتر بها العاقل ، بل يقف على دينه وعلى فضائله ويستمسك به إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى وهو على ذلك ،كما قال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]

قال: ((**بابٌ فضل الإسلام**)) ؛ والإسلام الذي ألَّف المصنف هذا الكتاب لبيان فضله هو دين الله ﷻ الذي رضيه لعباده ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩] ، وقال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥] ، وقال ﷻ : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة:٣] ؛ فالإسلام هو دين الله الذي رضيه تبارك وتعالى لعباده واختاره لهم وأمَرهم به ، ولا يقبل لهم ديناً سواه .

والإسلام : هو الاستسلام لله جل وعلا ، وقد قال مصنف هذا الكتاب في تعريفٍ له قيّم للإسلام : «الإسلام : هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك» ؛ هذا هو الإسلام ، الإسلام : أن تكون مستسلماً ؛ أي منقاداً مطيعاً ممتثلاً ، ما يأمرك الله تبارك وتعالى به تطيعه فيه وتمتثل أمره ﷻ وتنقاد ؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : ((مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَصَلَّى صَلَاتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ)) وقال : ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)).

وأعظم ما يجب في هذا الباب : الاستسلام لله بالتوحيد ؛ بأن تكون عبداً موحداً ، أمَرك الله بالتوحيد والإخلاص وخلقك لذلك ؛ فالواجب أن يستسلم العبد لذلك .

وانظر أروع مثلٍ في تحقيق الاستسلام للملِك العلَّام ﷻ في قول إمام الحنفاء ، وانظر ما جاء قبله من تمهيد وتوطئة لذلك بقوله ﷻ : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ

بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢] ؛ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ ؛ لاحظ هذا الانقياد الفوري والطواعية السريعة والاستجابة بلا تردد ﴿ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ : أي انقدتُ وأنا عبدٌ مطيعٌ منقاد مستسلم لله رب العالمين ﴿ أَسْلَمْتُ ﴾ : أي انقدتُ . فالإسلام هو دين الله ﷻ وهو يعني : الانقياد لله تبارك وتعالى بالتوحيد والإخلاص ، والبراءة من الشرك والبعد عنه ، والامتثال لله تبارك وتعالى بطاعته ﷻ ؛ بأن يكون المسلم عبداً مطيعاً لربه ﷻ فيما يأمره وفيما ينهاه؛ يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي .

وعندما نتأمل في نصوص القرآن والسنة التي ورد فيها ذكر الإسلام نجد أن للإسلام في النصوص إطلاقين :

١- تارة يطلق الإسلام منفرداً .

٢- وتارة يطلق الإسلام مضموماً إلى الإيمان .

- والإسلام عندما يأتي في النصوص مفرداً فإنه يشمل الدين كله ، فقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران:١٩] ، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ [آل عمران:٨٥] وقوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ونحوها من الآيات ؛ المراد بالإسلام هنا : الدين كله ؛ عقائده وعباداته وأخلاقه كل ذلك داخل في قوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، فالإسلام عند الإطلاق المراد به الدين كله بعقائده وأعماله وأخلاقه، المراد به الدين كله عقيدة وشريعة ؛ هذا عند الإفراد .
- الإطلاق الثاني : يأتي الإسلام مضموماً إلى الإيمان ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤] ، ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥] ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦] ، في الحديث قال سعد للنبي عليه السلام : «مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ!! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا» ، فَقَالَ النبي ﷺ : ((أَوْ مُسْلِمًا)) وأعاد سعد وأعاد النبي عليه السلام ، فيأتي في بعض النصوص ذكر الإسلام مضموماً إلى الإيمان ، ففي هذه الحالة يراد بالإسلام : أعمال الدين الظاهرة ، ويراد بالإيمان : عقائد الدين الباطنة كما جاء ذلك في حديث جبريل المشهور قال : ((أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ)) ؛ ففسَّر الإسلام بالأقوال والأعمال الظاهرة . ثم قال: ((أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ ؟ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) ؛ ففسر الإيمان بالعقائد الباطنة التي في القلب ؛ وهي الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة ، والإيمان بالكتب ، والإيمان بالرسل ، الإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره .

فأصبح يراد بالإسلام والإيمان حال اجتماعهما –كما في النصوص التي أشرت إلى جملة منها – يراد بالإسلام : جنس الأقوال والأعمال ، ويراد بالإيمان: جنس التصديق والإقرار ؛ فكل ما كان عملاً أو قولاً فهو من الإسلام ، وكل ما كان تصديقاً وإقراراً بالقلب فهو من الإيمان . وهذا مبني على قاعدة ليست مختصة بهذين الاسمين ؛ بل تتناول كثير من الأسماء الشرعية ، والقاعدة هي قول أهل العلم : «إن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسمياتٍ متعددةٍ عند إفراده وإطلاقه ؛ فإذا قُرِن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دالٌ على باقيها» ، هذه القاعدة تشمل: الإسلام والإيمان ، والبر والتقوى ، والكفر والشرك ، والفقير والمسكين ، وأسماء شرعية كثيرة جداً يعبّر بعض أهل العلم عن هذا النوع من الأسماء بقولهم: «إذا اجتمعت افترقت ، وإذا افترقت اجتمعت» ؛ إذا اجتمعت أي في الذكر – ذُكرت في نص واحد – افترقت في المعنى ، وإذا افترقت في الذكر : أي ذُكر كل واحد منها مفرداً اجتمعت في المعنى . وهذا كما قدمت يتناول الإسلام والإيمان ويتناول أيضا أسماء شرعية كثيرة جداً .

وعلى ضوء ما تقدم لو قيل لنا : من المسلم ومن المؤمن ؟ وهذا سؤال مهم . قد مر معنا قول الله ﷻ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ الآية واضحة أن رتبة الإيمان رتبة أعلى من الإسلام ، ولهذا لما قال هؤلاء الأعراب آمنا وهم لم يصِلوا إلى هذه الرتبة –رتبة الإيمان– قال ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ؛ يعني ما زلتم في رتبة الإسلام ولم تصِلوا إلى رتبة الإيمان بعد . والدين رُتَب ومراتب ؛ ومراتبه ثلاث جاءت في حديث جبريل ، ذكر الإسلام ، ثم ذكر الإيمان ، ثم ذكر الإحسان وقال في تعريفه ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) ، ثم ختم الحديث بقوله: ((ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) ؛ فديننا مراتب ثلاثة : الإحسان، والإيمان ، والإسلام . رتبة الإحسان هي أعلى رتب الدين ، ورتبة الإيمان أقل منها ، ورتبة الإسلام أقل، وليس وراء الإسلام إلا الكفر .

أحد العلماء المتقدمين ضرب مثالاً جميلاً لتوضيح هذه الرتب الثلاث ؛ فوضع ثلاث دوائر كل دائرة في داخل الأخرى ، دائرة صغيرة ، ويحيط بها دائرة أكبر ، ويحيط بها دائرة ثالثة أكبر ، فقال عن الدائرة الصغيرة هذه الإحسان ، والدائرة الأوسع منها قال هذه الإيمان ، والدائرة الأوسع قال هذه الإسلام ، فإذا دخل الإنسان في دائرة الدين أول ما يبدأ بالدخول يكون دخوله في أول رتب الدين وهي الإسلام . وما هو الإسلام الذي هو أول رتب الدين ؟ أن يستسلم ؛ ينطق بالشهادتين ويمتثل ما تقتضيه الشهادتان من طاعة وامتثال لله فهذا مسلم ، يفعل شعائر الدين الظاهرة مع عنايته بالإسلام وفهمه له وتحققه القلبي بهذا الدين وملأ قلبه بعقائده ينتقل من رتبة الإسلام إلى الإيمان ، وهي رتبة أعلى ، وهي عمارة القلب وملأه بحقائق الإيمان ، وقد قال عليه الصلاة والسلام عن عمار بن ياسر ((إِنَّ عَمَّاراً مُلِئَ إِيمَاناً إِلَى مُشَاشِهِ)) يعني إلى أطراف قدميه ، مُلأ من الداخل إيمانا ، هل

يُسوَّى بين من امتلأ قلبه إيماناً وبين من هو مسلم يعبد الله ولكنه على حرف – على طرف– !! ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج : ١١] أقل فتنة تبعده عن دينه !! .

فإذاً المسلم : هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه ، لأن الأعمال الظاهرة بدون شيء من الإيمان يصحح هذا الإسلام لا تُقبل ؛ لأن الإيمان الباطن أساس لقبول العمل الظاهر ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[الإسراء:١٩] ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[النحل : ٩٧]. فإذاً المسلم هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه ، والمؤمن هو الذي عُمِر قلبه بحقائق الإيمان ، وهذا ما جاء الإشارة إليه في قوله ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ : يعني يتغلغل ويتمكن في القلب ، وقد سُئل أحد السلف: أيزيد الإيمان وينقص ؟ قال: «يزيد حتى يكون كأمثال الجبال ، وينقص حتى لا يبقى منه شيء» . فحتى يتغلغل الإيمان في القلب ويتمكن في القلب ويرسخ في القلب ينتقل الإنسان إلى رتبة الإيمان ، وهي الرتبة الأعلى .

ومن نرى فيه خيراً من أهل هذا الدين نحكم عليه بالإسلام ، لأن حُكمنا عليه بالإسلام حُكم بالظاهر – بما ظهر لنا منه – فنقول مسلم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣] ، أما الباطن فأمره لا يعلمه إلا رب العالمين ﷻ . فلا يزكي الإنسان نفسه بذلك ولا يزكي غيره ، وإنما يجاهد نفسه على تحقيق الإيمان وتقويته والبحث عن الأسباب التي تزيده وتقوّيه ، والبعد عن الأسباب التي تضعفه وتنقصه وتوهّيه .

ثم أعلى من ذلك رتبة الإحسان ؛ وهي أعلى رتب الدين . وإذا تصوّرت هذه على ضوء المثال الذي ضربه أحد السلف ؛ تعلم من خلال هذا المثال أن كل محسن مؤمنٌ مسلم ، لأن الذي يصبح في الدائرة الصغرى تحيط به الدوائر الأخرى ، ولا يصل إلى الإحسان إلا من خلالها ، فكل محسن مؤمن مسلم ، وكل مؤمن مسلم .

ثم إذا أردنا أن نعكس نقول : ليس كل مسلمٍ مؤمناً ولا محسنًا ، وليس كل مؤمن محسنا . وهذا واضح في الآية ؛ رب العالمين قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أي لم تصِلوا بعد إلى رتبة الإيمان ، مازلتم في رتبة الإسلام ، فليس كل مسلمٍ مؤمناً ، يعني ليس كل من دخل الإسلام بلغ رتبة الإيمان هذه الرتبة العالية ، متى يبلغها ؟ إذا تمكن الإيمان من قلبه ، إذا تمكن الإيمان وتمكنت عقائد الإيمان الصحيحة من قلبه ورُزق الإيمان في قلبه يبلغ حينئذ رتبة الإيمان ، كثير من الناس تجده يحدَّث عن الإسلام وعن أعمال الإسلام ويراها أعمال جميلة وطيّبة فينطق بالشهادتين ويسلِم ويبدأ يصلي ويصوم ولكن حقائق الإيمان الباطنة ليست متمكنة في قلبه !! فهو

في رتبة الإسلام ، وإذا دخل الإيمان وتمكن من قلبه يصل إلى رتبة الإيمان ، ثم إذا بلغ حاله في عبادة الله والتقرب إليه الرتبة التي جاء بيانها في قوله ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) فهذه رتبة الإحسان . والإحسان له ركن واحد وهو ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)) : أي أن يكون الإنسان في عبادته لله تبارك وتعالى بهذه الصفة العظيمة .

إذاً الإسلام : هو الاستسلام لله تبارك وتعالى والانقياد لأمره ، وهو يشمل الدين كله عند إفراد الإسلام وإطلاقه ، ويكون مختصاً بأعمال الإسلام الظاهرة عند ضمّه للإيمان وقرنه معه في النص الواحد .

قال: ((**باب فضل الإسلام وقول الله تعالى:** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾)) ؛ هذه الآية عظيمة جداً في بيان قيمة هذا الدين ومكانته من جهة ، وبيان تمامه وكماله من جهة أخرى وأنه لا نقص فيه ؛ دين الإسلام دين تام كامل لا نقص فيه .

قوله ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؛ لأن شرائع الدين وأوامره جاءت تباعاً ، لم يؤمر بها الناس كلها في زمن النبي ﷺ دفعة واحدة ؛ وإنما جاءت تتنزّل بالتدريج ، يأتي أمر ثم يأتي آخر ثم يأتي آخر إلى أن كمُل الدين ، جاءت فرائض الإسلام وواجباته واحداً تلو الآخر وأحياناً يكون بين فريضة وفريضة ليس شهر ولا شهرين ربما سنة أو سنتين ، فجاءت فرائض الإسلام وواجبات الإسلام واحداً تلو الآخر إلى أن كمل الدين ؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لم ينزل بعدها حلال ولا حرام وتوفي بعدها النبي بقرابة ثمانين يوماً ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، لماذا ؟ لأن بنزول هذه الآية كمُل الدين .

وهذه الآية الواجب على كل مسلم أن يشتد فرحه بها وأن تعظم في قلبه – والقرآن كله عظيم – لأنها آية تخبرك وتدلّك أن الدين الذي أكرمك الله به دين كامل ، لم يمت عليه السلام حتى أنزل الله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فهو دين كامل لا نقص فيه ؛ كامل في عقائده ، كامل في عباداته ، كامل في أخلاقه ومعاملاته ، كامل من كل وجه ، دين كمّله من أنزله وهو رب العالمين سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاء في الصحيحين عن طارق بن شهاب قال: ((جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا – عرفوا قيمة الآية – قَالَ : وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ ؟ قَالَ قَوْلُهُ عز وجل : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ» ؛ نزلت هذه الآية في هذا اليوم العظيم المبارك الذي هو سيد الأيام على الإطلاق ؛ فيوم عرفة سيد أيام السنة ، ويوم الجمعة سيد أيام الأسبوع ، خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ عرفة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام مبيّنا هذه الخيرية : ((خَيْرُ

الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) .

وتأمل هذه اللطيفة : كان ﷺ في خير الأيام يُكثِر من خير الكلام ، لأن خير الكلام : لا إله إلا الله ، وخير الأيام : يوم عرفة ؛ فناسب غاية المناسبة الإكثار من خير الكلام في خير الأيام ، ليس في الكلام خير من لا إله إلا الله ، وليس في الأيام خير من يوم عرفة ؛ فكان في غاية المناسبة الإكثار من خير الكلام في خير الأيام .

فالشاهد : أن يوم عرفة خير أيام السنة ، ويوم الجمعة خير أيام الأسبوع ، ويوم الجمعة يوم عيد ، فيقول عمر: ((إِنِي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)) ؛ أما الساعة : قال ((عَشِيَّةَ عَرَفَةَ)) ، وأما اليوم : قال ((فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ)) ، فهي نزلت في هذا الوقت المبارك العظيم . ثم مات النبي عليه الصلاة والسلام بعدها بثمانين يوماً تقريباً ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام. إذاً الواجب على أهل الإسلام أن يعرفوا هذه الآية ومكانتها التي تدلهم على فضل الإسلام .

من أعظم فضائل الإسلام: أنه دينٌ كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وإذا عرفت أن دين الإسلام كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه فعليك أن تعرف أن كل بدعة فهي ضلالة كما قال ذلك رسول الله ﷺ ، بل لم يقل ذلك مرة واحدة ولا مرتين ولا ثلاث ولا عشر ،كان إذا خطب الناس قال : ((أما بعد ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) لم يستثنِ ﷺ بل عمّم وأطلق ((كل بدعة ضلالة)) .

اسأل هنا سؤال : لماذا كل بدعة ضلالة ؟ لأن الدين كامل . من يقول : في البدع بدعة ليست ضلالة بل هي حسنة ؛ فإن هذا يعني أن في الدين أمور حسنة مات نبينا ﷺ ولم يبيّنها ، وهذا أمر خطير ؛ ولهذا قال إمام دار الهجرة؛ الإمام مالك بن أنس رحمه الله ، قال كلمة عظيمة جداً : «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً ، فلا يكون اليوم ديناً» ولن يكون دينا إلى أن تقوم الساعة ، الدين هو الدين الذي مات النبي ﷺ وترك الناس عليه ، وما سوى ذلك محدثات وأمور مردودة على فاعلها ؛ ولهذا قال ﷺ ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، قال: ((صلوا كما رأيتموني أصلي)) ، قال: ((لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ)) فالدين هو ما كان عليه رسول الله ﷺ .

قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ؛ اليوم : هو يوم عرفة ؛ في يوم عرفة عشية عرفة والنبي ﷺ واقف في عرفة نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ؛ ففي يوم عرفة الدين كمُل بحلاله وحرامه وفرائضه وواجباته وأوامره . ولهذا بعد يوم عرفة عاش النبي ﷺ فترة ليست بطويلة لم ينزل فيها حلال ولا حرام، لأن الدين كمُل في ذلك اليوم .

﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ؛ تمت النعمة بكمال الدين ؛ وهذا فيه فائدة لك : أن تمام النعمة عليك بحسب حظك من الدين ؛ فكلما كان حظك من الدين أعظم كان نصيبك من النعمة أوفر .

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ؛ وهذه فضيلة من فضائل هذا الدين، وهو أنه دين رضيه الله ﷻ لعباده ، بل لا يرضى ديناً سواه ، ولهذا قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] يعني من ابتغى لنفسه ديناً غير هذا الدين الذي بُعث به النبي ﷺ فلن يُقبل منه ، وليس فقط لا يقبل منه ثم يكون الأمر لا له ولا عليه !! لا ؛ ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

إذاً قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ في هذه الآية ثلاثة فضائل للإسلام :

١) الفضيلة الأولى : أنه دين كامل لا نقص فيه .

٢) الفضيلة الثانية : أن تمام النعمة على العبد لا تكون إلا به.

٣) الفضيلة الثالثة : أنه الدين الذي رضيه تبارك وتعالى لعباده.

ولهذا بدأ المصنف رحمه الله بهذه الآية العظيمة؛ لما اشتملت عليه من بيان فضائل هذا الدين وكمالاته ، وأنه سبب النعم والسلامة من النقم ؛ النعم بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، وكذلك البعد من النقم ، كل ذلك لا يكون إلا بالمحافظة على هذا الدين والعناية به عقيدةً وعبادةً وخُلقاً وسلوكا .

قال رحمه الله تعالى :

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ **الآية** [يونس:١٠٤] .

****

ثم ثنّى بهذه الآية العظيمة وهي أيضاً تبين مكانة هذا الدين وعِظم شأنه ؛ بقوة حُججه وبراهينه وأنه دين واضح ؛ براهينه واضحات ، دلائله جليات ، وما سواه أديان باطلة قائمة على الخرافة وعلى الوهم وعلى الظنون الفاسدة والأفكار الكاسدة ، أما دين الإسلام فهو دينٌ عظيم ، دينٌ قائم على البراهين الواضحة والحجج البيّنة والدلائل الساطعة الشاهدة بصدقه وأنه الدين الحق وأنه ليس دينٌ حقٌ سواه ، ولهذا جاء بهذه الآية مبيناً ذلك في فضل الإسلام ومكانته .

قال : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: أي يا رسول الله يا نبي الله قل للناس : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ ؛ يعني إن كان عندكم شك أو ارتياب في أن الدين الذي أنا عليه هو الدين الحق ، إن كانت قلوبكم مرتابة منه وتظنون أن الدين الذي أنتم عليه هو الدين الحق ؛ فإنني أقول لكم ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ .

وتأمل هنا : تأمل بيان كمال هذا الدين وبطلان ما سواه بهذه الكلمة التي أُمِر النبي ﷺ أن يقولها لكل مرتاب شاك مقبِل على عبادة الأوثان والأصنام تاركٍ عبادة الرب العظيم الخالق لهذه الأكوان المتصرف في المخلوقات خلقاً ورَزقاً وإحياءً وإماتةً وتدبيراً ، فيقول : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ؛ لأن كل من يُعبد من دون الله عبادته من دون الله لم يقم عليها أي دليل ، وليس عليها أي برهان ، وليس فيها أي أثارة من علم ، كل عبادة من دون الله عبادة ليست قائمة على دليل ، ولهذا قال عليه السلام كما أخبر الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم:١٩-٢٣] ، وقال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، وقال تعالى فيما ذكره عن يوسف عليه السلام : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾[يوسف:٣٩-٤٠] . ولهذا كل تعبّدٍ بغير الإسلام وكل عبادة على غير الإسلام فهي على غير برهان وعلى غير حجة ؛ بل قائمة على الخرافة ، وعلى الباطل ، وعلى الفكر القاصر والتصورات الضعيفة القاصرة.

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ لأن كل من تعبدونه من دون الله عبادته من دون الله ليست قائمة على أي برهان ، هاتوا دليلاً واحداً يبين صحة عبادة هذه الأشياء ، هل هذه الأشياء التي تعبدونها تملك لكم ضراً أو نفعا !! عطاءً أو منعا !! خفضاً أو رفعا !! هل تملك شيئاً من ذلك ؟ هل بيدها إحياء !! هل بيدها إماتة !! هل بيدها تصرف ؟؟ هل.. هل؟؟ ، القرآن جاء بأسئلة كثيرة في هذا الباب تبين فساد عبادات هؤلاء القائمة على الشرك وعلى الخرافة ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لأن كل ما يُعبد من دون الله فعبادته قائمة على الباطل.

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ؛ هذا برهان واحد من آلاف البراهين ، خذوا برهاناً واحداً ودليلاً واحداً على صحة هذا الدين وهو الإخلاص لله تبارك وتعالى وإفراده ﷻ وحده بالعبادة : ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ؛ من الذي يتوفاكم ؟ موتكم بيد من ؟ ليس بيد أحدٍ إلا رب العالمين ﷻ . ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾هذا برهان واحد من مئات وآلاف البراهين الدالة على وجوب إخلاص الدين لله والاستسلام لله رب العالمين ؛ الذي بيده أزمّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ، ولهذا ساق لهم دليلاً واحداً وأبان أنهم ليس عندهم أي دليل ليس عندهم أي برهان ، فهذا مما يبين فضل دين الإسلام ومكانته ؛ أنه الدين الذي قامت عليه البراهين الظاهرات والحجج الجليات الواضحات، وأما ما سواه من الأديان والعقائد فهي عقائد ليست قائمة على دليل ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ .

ومما سبق نستفيد فائدة عظيمة بل قاعدة مهمة وهي : أن الأديان الموجودة على وجه الأرض بين الناس ويعتقدونها ويدينون بها هي على قسمين :

القسم الأول : دين نازل ممن خلق هذا الكون وأوجده ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥] ؛ دين نازل نزل من الله ﷻ ، وانظر في تمام هذا التنزل للدين ونزوله من رب العالمين أن خُتم بقوله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ قال عمر ﷺ : «إني لأعرف اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية والساعة التي نزلت فيها هذه الآية ؛ نزلت في عشية عرفة في يوم جمعة» فهو دين نازل ، نزل تِباعاً ، تنزل من رب العالمين إلى أن كمُل وأنزل الله ﷻ مخبراً بكماله وتمامه قوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، وهذا الدين النازل من رب العالمين وحده هو الدين الحق ، وما سواه من الأديان التي على وجه الأرض كلها باطلة ، لماذا؟ لأنها أديان نابتة في الأرض ما أنزل الله بها من سلطان . والسلطان : هو الحجة ، وسميت الحجة سلطانا : لأنها تتسلط على القلب ولا يستطيع أن ينفك عنها ؛ خانقة وماسكة بالإنسان . قال﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة .

ولهذا مما سبق نستفيد قاعدة في الباب وهي : أن كل دين لم ينزِّل الله ﷻ به من سلطان فهو دين نابت في الأرض؛ يعني اخترعه الناس بعقولهم ، بأفكارهم ، بآرائهم ، بتجاربهم ، إلى غير ذلك ، وكل دين نابت فهو دين باطل ؛ لأن الله ﷻ لا يرضى أي دين مهما استحسنه الناس ومهما استجودوه ومهما عظموه ، فهو جل وعلا لا يقبل من الأديان إلا الذين الذي نزل منه .

ولو سألتكم الآن : ما هي الأمارة التي يُعرف بها الدين النازل من غيره ؟ أمارة الدين النازل : قال الله قال رسوله ﷺ . فإذا وُجد الدليل من كلام الله أو كلام رسوله عليه السلام فهذا دليل على أنه دين نزل من رب العالمين ، لكن لو قال لك شخص : " نريد أن نفعل كذا نتقرب إلى الله بهذا لأني جربت أنا وشيوخي جربوا مثلا " تقول هذا ليس دليل . أو قال : نريد نعتقد كذا لأن في تصوري وفي خيالي وفي فكري .. وبدأ يسوق لك عقليات وخيالات ، تقول هذا لا يبنى عليه دين ، الدين لا يبنى إلا على شيء نازل من رب العالمين ، وما لم ينزل من رب العالمين فهو باطل مهما استحسنه صاحبه ومهما استجوده ومهما رآه جميلا ؛ فالله ﷻ لا يقبل من الأديان من الأعمال من العقائد إلا ما كان نازلاً منه ، ولهذا قال عليه السلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه .

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد : ٢٨] .

****

ثم ختم الآيات بهذه الآية الكريمة في بيان فضل الإسلام ؛ قال : ((**وقول الله تعالى** : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾)) ؛ ناداهم باسم الإيمان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وقد قيل في تفسيره هذه الآية: إن المراد بهؤلاء من آمن من أهل الكتاب ، وقيل : إن المراد عموم من آمن. وهو الأقرب والأظهر . ولهذا قيل في معنى ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ : أي من آمن من أهل الكتاب يؤتهم نصيبين وافرين من رحمته ؛ نصيبٌ على إيمانهم بالأنبياء ، ثم نصيبٌ على إيمانهم بخاتم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، وقيل المراد : عموم أهل الإيمان، وإيتاء الكفلين من رحمته ؛ قيل : على التقوى وعلى الإيمان المأمور بهما في الآية ، وقيل : على فعل الأوامر واجتناب النواهي ، وهو ما يقتضيه الجمع بين التقوى والإيمان في النص الواحد ؛ فالتقوى: اتقاء المحرمات ، والإيمان : العقائد الصحيحة وفعل الأوامر والطاعات . وهذا حال اجتماع الإيمان والتقوى في النص الواحد ، أما إذا ذُكر كل واحد منهما مفرداً شمِل معنى الآخر على ما بُيّن في القاعدة المتقدمة .

قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ ؛ ناداهم باسم الإيمان وأمرهم بمقتضيات هذا الإيمان ؛ تقوى الله والإيمان برسوله ، ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ : اتقوا الله وذلك بتحقيق تقواه ﷻ بأن تجعلوا بينكم وبين ما

تخشونه من عقاب الله وسخطه وقاية تقي من ذلك ، وآمنوا برسوله وأنه رسولٌ حق مرسل من رب العالمين ، وهذا الإيمان يقتضي طاعته ﷺ فيما يأمر به ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء : ٦٤] .

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ ؛ وهذه حقيقة الإسلام ، حقيقة الإسلام : تقوى الله والإيمان بالرسول انقياداً وامتثالاً وطاعةً لله ﷻ؛ تقوى الله: بتحقيق توحيده وإخلاص الدين له، والإيمان بالرسول ﷺ : بطاعته وامتثال أوامره عليه السلام واجتناب نواهيه .

أما الفضائل ما هي ؟ قال : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه فضائل للإسلام:

١) الفضيلة الأولى : قال ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ ؛ أي نصيبين وافرين وحظين عظيمين من رحمته ﷻ التي كتبها لأهل الإيمان وأهل الإسلام .

٢) ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ ؛ أي أن استمساك العبد بالإسلام وطاعته لرسوله ﷺ وإيمانه بما جاء به الرسول عليه السلام ومعرفته بذلك هو في الحقيقة نور يضيء له طريقه ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾[الزمر:٢٢] ، فمن كان عنده الإسلام فعنده نور يضيء له الطريق في الظلمات ؛ ولهذا أيضا قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] ، فالإسلام نور وضياء يعرف به صاحبه الحق من الباطل والهدى من الضلال ، يعرف به الطريق الذي يوصله إلى رضا الله تبارك وتعالى وجنات النعيم . قال ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ ؛ أي بهذا النور .

٣) ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ؛ أي يغفر لكم ذنوبكم . والمغفرة : هي العفو والصفح والستر ، وقد قال عليه السلام ((الْإِسْلَام يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)) كما أنه قال : ((الْحَجّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)) كما قال : ((التوبة تجبّ ما قبلها)) فالإسلام وتحقيقه أعظم ما تمحى به الخطايا وتُكفّر به السيئات .

قال: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ خُتمت هذه الآية بهذين الاسمين لتعلقهما بالمعنى الذي ورد في الآية ، فالمعنى الذي ورد في الآية الدعوة للإسلام وتحقيق تقوى الله وطاعة رسوله عليه السلام وبيان ما يترتب على ذلك من الآثار والعوائد ومنها : إيتاء الله ﷻ لمن كان كذلك كفلين من رحمته ، ويجعل له نورًا يمشي به ، ويغفر له ؛ وهذا كله من آثار هذين الاسمين العظيمين «الغفور الرحيم» ، فالله ﷻ إذا أراد بعبده خيراً ورحمةً ومغفرةً وفّقه لهذه الأعمال وجعله من أهلها فينال بذلك رحمة الله ﷻ ومغفرته. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد:

معاشر المؤمنين : في موضوع فضل الإسلام والحديث عن فضائل الإسلام –والإسلام فضائله لا حصر لها ولا عد– قد مر معنا من فضائل الإسلام ما دل عليه قول الله ﷻ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] ؛ فهذه ثلاث فضائل للإسلام ذُكرت في هذه الآية الكريمة ؛ فهو الدين الذي أكمله الله ﷻ لعباده ، وهو الدين الذي به تمام النعمة على العباد ، وهو الدين الذي رضيه الله ﷻ لعباده ديناً ولا يقبل منهم ديناً سواه كما قال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥]

ومر معنا كذلك من فضائل الإسلام : أنه الدين الذي قامت عليه ودلت عليه الحجج الواضحات البينات وكل ما سواه من الأديان ليس لها حجة ولا برهان وما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، وقد مر معنا في هذا المعنى قول الله ﷻ :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤]

ومر معنا كذلك من فضائل الإسلام العظيمة : أن من كان مسلماً مؤمناً متقياً يُؤتى أجره يوم القيامة مرتين ، ويؤتيه الله ﷻ نوراً يُبصر به الطريق ويرى به السبيل ، وتُغفر له ذنوبه كما هو مبيَّن في قوله جل وعلا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨]

وبعد هذه الفضائل المنتقاة من كتاب الله ﷻ ؛ يشرع المصنف رحمه الله وغفر له في ذكر بعض فضائل الإسلام التي وردت في سنة النبي الكريم ﷺ .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ ؛ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ ، ثُمَّ

قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟ فَعَمِلَتْ النَّصَارَى ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ ، فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا : مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً !! قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ ؟ قَالُوا لَا ، قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ))]

****

أورد المصنف هنا هذا الحديث العظيم في بيان فضل الإسلام وأنه أفضل دين أنزله الله ﷻ على عباده وختم به الأديان ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، هذا الدين العظيم الذي هو آخر الأديان المنزّلة من الله ﷻ على عباده، وقد شاء تبارك وتعالى أن يكون هذا الدين الذي هو آخر الأديان المنزّلة وخاتمتها أعظم دين بأحكامه وأعماله وما جاء فيه من أوامر ونواهي وفضائل وأجور مضاعفة ، وهذا فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء .

والآية التي ختم بها المصنف رحمه الله فضل الإسلام يليها قول الله ﷻ : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد : ٢٩] ، فالفضل بيد الله تبارك وتعالى والله ﷻ يؤتي الفضل من يشاء ؛ فالأمور بتدبيره ﷻ ، وهو الذي يحكم بين العباد ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠] ، فالفضل فضله ﷻ ، ولهذا خص هذا الدين العظيم دين الإسلام بأن جعله متميزاً عن غيره من الأديان المنزّلة بأحكامه ، وأجوره المضاعفة ، وفضائله العظيمة ، وخيراته العميمة .

وفُضِّل هذا الدين بالقرآن الكريم الذي هو أعظم كتابٍ أنزل الله تبارك وتعالى على أعظم رسول ﷺ ؛ ولهذا فإن هذا الفضل الذي ناله أهل الإسلام بهذا الدين الذي خُتمت به الرسالات المنزّلة والأديان المنزّلة يرجع إلى فضل الكتاب الذي نُزّل عليهم ؛ وهو القرآن الكريم أفضل كتاب أنزله الله تبارك وتعالى . ولهذا فإن الإمام البخاري في كتابه الصحيح أورد هذا الحديث في فصل عنوانه : «فضائل القرآن» ، والقرآن ليس له ذكر في هذا الحديث ، والإمام البخاري رحمه الله أورد الحديث في فضائل القرآن !! ونبّه أهل العلم في شرح الحديث إلى أن صِلة الحديث بالترجمة : من جهة أن فضل هذا الإسلام وفضل هذا الدين الذي أنزله الله تبارك وتعالى يرجع إلى فضل القرآن الذي أنزله الله ﷻ على أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

ولهذا جاء في هذا القرآن الكريم من الفضائل والخصائص والميزات ما لم يأت في كتاب آخر ، ولهذا جاء في حديث صحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أنزل عليّ سورة لم يأتِ في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها فاتحة الكتاب)) فهذه فضائل .

وجاءه ملَك يبشره بهذه السورة العظيمة كما جاء في الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ – أي جبريل- فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ

فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ – جبريل – هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ – ثم جاء هذا الملك الذي نزل إلى الأرض أول مرة من ذاك الباب الذي فُتح من السماء لأول مرة وجاء إلى النبي ﷺ – فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ ؛ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ)) . فهذه فضائل وخصائص وميزات خص الله بها كتابه العظيم القران الكريم الذي خَتم به الكتب المنزلة .

وجاءت الأجور مضاعفة تضعيفاً لم تكن عليه في الأديان التي قبلنا التي أنزلها الله ﷻ ، وجاءت الأمور فيها من التيسير والتخفيف ما لم يكن أيضا في الأديان التي قبلنا ، وفي الدعاء في القران الكريم في الآيات التي في خواتيم سورة البقرة وقد أوتيها النبي عليه الصلاة والسلام ولم يؤتها نبي قبله يقول الله ﷻ : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ؛ هذا من الخصائص والفضائل التي منَّ الله ﷻ على أمة محمد ﷺ بها.

كان بعض من قبلنا توبته لا تُقبل منه إلا أن يقتل نفسه توبةً إلى الله ﷻ ، وحُمِّلوا من الأمور أموراً خُففت عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ورُفعت عنهم منًّا من الله ﷻ وفضلا ، ولهذا قال ﷻ في أوصاف هذا النبي: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف:١٥٧] ، هذا كله من فضل الله تبارك وتعالى بهذا الدين الإسلامي ؛ الدين العظيم الذي بعث الله ﷻ به رسوله ونبيه محمداً عليه الصلاة والسلام .

ومما تميز به هذا الدين – دين الإسلام – خاتمة الأديان المنزلة : أن الأجور فيه مضاعفة والعمل فيه قليل ؛ الصلاة التي أُمرنا بها مخففة عن خمسين صلاة ، ولما أسري بالنبي ﷺ إلى السماء وكان يتردد بين رب العالمين وموسى عليه السلام ففُرضت الصلاة أول ما فرضت خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ونزل بها عليه الصلاة والسلام مستجيباً ، فلقيه موسى عليه السلام وقال : إن أمتك لا تطيق ذلك فسأل الله التخفيف ، وأخذ عليه الصلاة والسلام في سؤال التخفيف، وكلما نزل بتخفيف آخر قال موسى عليه السلام: إن أمتك لا تطيق ذلك فخُفِّفت الصلاة إلى خمس صلوات في اليوم والليلة ، فهي خمس في العمل وخمسون في الأجر والثواب . فهذا من تخفيف الله ومنّه ﷻ على هذه الأمة أمة الإسلام ، أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فالعمل الذي طُلب من أهل الإسلام قليل والأجور التي أثيبوا بها كثيرة جدا ، والأديان التي قبلنا العمل أكثر والأجر عليه أقل، دون أن يظلم ﷻ أهل تلك الأديان ، لكنه تفضل على أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – بأجور مضاعفة ، ولهذا في الحديث الذي سيأتي معنا الآن شرحه وبيان معناه لما غضبت اليهود والنصارى قال رب العالمين: ((**هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ ؟ قَالُوا لَا ،قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**)) فالأمم التي قبلنا لم يُنقصوا شيئاً من أجورهم ، ولكن الله تبارك وتعالى خص أمة الإسلام بأجور

مضاعفة لم تكن للأمم التي قبلنا . فلله ﷻ الحمد أولاً وأخراً، وله تبارك وتعالى الشكر ظاهراً وباطناً على هذه المنة العظيمة التي نسأله ﷻ أن يوزعنا شكرها وتحقيق القيام بهذا الدين على الوجه الذي يرضيه عنا .

قال : ((**وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ**))؛ أهل الكتابين المراد بهم : اليهود والنصارى ؛ اليهود الكتاب الذي أنزل عليهم التوراة ، والنصارى الكتاب الذي أنزل عليهم الإنجيل ، فهم أهل كتابين أي لكل منهما كتاب؛ اليهود كتابهم التوراة ، والنصارى كتابهم الإنجيل .

ونبينا عليه الصلاة والسلام يضرب هنا مثلاً لحال هذه الأمة مقارنةً بحال اليهود والنصارى في الأجور والثواب والجزاء على الأعمال ، ومحصَّلة هذا المثل : بيان أن الأجر لأمة الإسلام أجراً مضاعفاً وزائداً على الأجور التي كانت لمن قبلنا ، والعمل الذي لأمة الإسلام أقل من عملهم ؛ فالعمل أقل والأجر أكثر ، وأولئك كان العمل عندهم أكثر والأجر أقل ؛ دون أن يُنقصوا شيئا ، ولكنه تفضّل تبارك وتعالى على أمة الإسلام بالتضعيف في الأجور والثواب . وهذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام ليوضح هذا الأمر ، وهو الأجر على العمل لأمة الإسلام مقارناً بالأجر على العمل لليهود والنصارى أهل الكتابين .

والأمثال لها شأن في توضيح الأمور وتبيينها وجعْل الأمر المعنوي بمنزلة الأمر المحسوس المعايَن المشاهَد ؛ فالأمثال يُقصد بها توضيح المعاني وتجليتها بحيث ترى الأمر المعنوي أمامك شيئاً محسوساً بالمثال الذي ضُرب له ، ولهذا كثرت الأمثال في القران ، ففي القرآن ما يزيد على الأربعين مثل ، وكثرت الأمثال في السنة حتى أنها لكثرتها بعض العلماء أفردوها بالتصنيف ، أفرد غير واحد من العلماء في الأمثال ؛ أمثال السنة كذلك أمثال القران في كتب. ففيها توضيح لحقائق الدين وأصول الإيمان وفضائل الدين . والمثل يكون به الأمر المعنوي بمثابة ومنزلة الأمر المحسوس.

فالآن في هذا الحديث سيبين النبي عليه الصلاة والسلام الأجر الذي لأمة الإسلام مقارناً بالأجر الذي لأهل الكتابين ؛ مع كثرة العمل عندهم وقلة العمل عند أمة الإسلام !! واستمع إلى هذا المثل :

قال : ((**مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ**)) أي أستأجر عمّالاً يعملون عنده بأجر وبمقابل، وهؤلاء الأجراء كما هو في الحديث لهم ثلاثة أوقات، ((**فَقَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ**)) من غدوة : من الفجر ، إلى نصف النهار : إلى صلاة الظهر أو قريباً منها ، وهذا وقت طويل ((**مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟**)) وقت العمل طويل والأجر عليه قيراط واحد . وقيل في القيراط : إنه من أجزاء الدينار .

((**عَلَى قِيرَاطٍ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ**)) يعني في هذا الوقت من غدوة إلى نصف النهار والأجرة قيراط .

((**ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟**)) وهذا وقتٌ طويل إلا أنه أقصر من الوقت الذي قبله ، فالوقت الذي من غدوة إلى نصف النهار أطول من الوقت الذي من نصف النهار إلى صلاة العصر ((**فَعَمِلَتْ النَّصَارَى**)) .

((**ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟**)) من صلاة العصر إلى غروب الشمس هذا الوقت أقل من الوقت الذي هو من غدوة إلى نصف النهار ،ومن الوقت الذي هو من نصف النهار إلى العصر ، فالوقت أقل والأجر مضاعف ؛ أولئك الوقت أطول وأمة الإسلام الوقت أقل ، وأولئك الأجر قيراط وأمة الإسلام الأجر قيراطان ؛ يعني ضعف الذي يؤتاه أولئك ، يعني الأجر الذي يؤتاه أولئك مدبولاً ، القيراط معه قيراط آخر .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**فَأَنْتُمْ هُمْ**)) يعني أنتم يا أمة الإسلام هؤلاء الذين عملهم من العصر إلى غروب الشمس وأجرهم قيراطان ، مشيراً عليه السلام بهذا المثل – وعرفنا أن الأمثلة يؤتى بها للتوضيح والبيان ؛ إذ ليس وقت العمل لأمة الإسلام محصوراً في هذا الوقت ، ولا أيضا وقت العمل للنصارى محصوراً في الوقت المشار إليه في الحديث ، ولا وقت العمل لليهود محصوراً في الوقت المشار إليه في الحديث ؛ وإنما هذا مثال للتوضيح والبيان – فقال ((**فَأَنْتُمْ هُمْ**)) أي أنتم الأمة التي حُصت ومُيّزت بعمل أقل وأجر مضاعف ، فهذه فضيلة لأمة الإسلام دل عليها هذا الحديث ؛ أن عملها أقل وأجرها مضاعف على الأمم التي قبلنا .

((**فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً !!**)) ؛ العمل الذي عملناه أكثر والأجر الذي أوتيناه أقل !!

((**قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟**)) ؛ يعني هل الأجور التي لكم نُقِص منها شيء أم أخذتموها وافية ؟ والجواب أنهم أخذوا أجورهم وافية لا نقص فيها .

((**قَالُوا لَا**)) يعني لم نُنقص شيئا من أجورنا .

((**قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**)) فإذا أعطى أولئك أجورهم وافية لم يظلمهم ، وإذا خص أمة الإسلام بمزيد أجر ومضاعفة ثواب فهذا فضله ﷻ يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، والله ﷻ قال في الآية التي مرت معنا مختومةً بها سورة الحديد: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد:٢٩] فهذا من فضل الله .

والواجب على أمة الإسلام أن يستشعروا هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة التي منّ بها عليهم ربهم ﷻ ، وأن يذكروا منة الله تبارك وتعالى عليهم بالإسلام فإنها أعظم المنن ، ورب العالمين ﷻ يحب من أمة الإسلام أن يذكروا هذه النعمة ، بل جاء في صحيح مسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال : «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ

عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ ؟» يعني لماذا هذا الجلوس ما المقصد منه ؟ قَالُوا : «جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا» يعني نذكر منة الله علينا بالإسلام والهداية لهذا الدين والنعمة التي أنعم الله علينا بها بهذا الدين ، وإنقاذ الله تبارك وتعالى لنا من الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء ، فجلسوا في المسجد يذكرون نعمة الإسلام . قال رسول الله ﷺ : ((آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟)) يستحلفهم بالله ؛ آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ يعني ما جلستم إلا لهذا الأمر لا لأمر آخر ؟ قَالُوا : «وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ» والله ما جلسنا إلا لتذكر هذا الأمر ومذاكرة هذا الأمر ، فقال ﷺ ((أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ)) يعني لم أطلب منكم الحلف لأنني أتهمكم على الكذب ، ليس هذا الغرض وليس هذا السبب ؛ إذًا ما هو السبب؟ قال ((وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ)).

فهذا الحديث العظيم وهو في صحيح مسلم يفيد أن الله ﷻ يحب من عباده أن يجلسوا لتعلّم الإسلام وفضائل الإسلام ومكانة الإسلام ونعمة الله ﷻ على عباده بالإسلام ؛ ولهذا جاء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام يخبره بأن الله يباهي ملائكته بهؤلاء الذين جلسوا في المسجد لمذاكرة الإسلام وفضائل الإسلام ومنة الله ﷻ عليهم بالإسلام . وهذا من فضله تبارك وتعالى على عباده وعظيم منّه عليهم ؛ مع أنه سبحانه غني عن العباد وغني عن جلوسهم لطاعته وذكره وعبادته ؛ فهو ﷻ لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ؛ فمن الخير للمسلم أن يتذكر نعمة الله تبارك وتعالى عليه بالإسلام ومنة الله عليه بهذا الدين ، وأن يحرص على تحقيق شكر هذه النعمة ؛ فشكر الله على الإسلام: أن تعمل بالإسلام ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾[سبأ/١٣] ، وأن تحرص على تعلّم الإسلام ومعرفته ومعرفة أركانه وواجباته ومعرفة فضائله ، والنبي عليه الصلاة والسلام شرح الإسلام وبيّنه ووضحه ؛ فتُقبل على سنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ تتعلم هذا الدين العظيم وتجاهد نفسك على القيام به كما أمرك الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

وفيه أيضا عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ؛ فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ؛ حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ ((**أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا**)) ؛ أضل عن الجمعة من كان قبلنا ومنّ الله ﷻ على أمة الإسلام بمعرفة هذا اليوم ، ومعرفة قدره ، ومعرفة عظيم الثواب الذي أعده الله تبارك وتعالى لعباده في هذا اليوم العظيم .

ويوم الجمعة له خصائص عجيبة ومميّزات عظيمة وفضائل كبيرة ، وقد أطال في عدِّها وبيانها وتفصيلها العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» في المجلد الأول منه ؛ فقد تكلم كلاماً بديعاً وعظيماً في خصائص وفضائل يوم الجمعة ، وقد عدَّد من خصائصه وفضائله ما يزيد على الثلاثين ، مما يبين مكانة هذا اليوم وعظيم فضل الله ﷻ على عباده به ، فهذا اليوم العظيم المبارك الذي هو خير أيام الأسبوع وأفضلها أضل الله ﷻ عنه –كما جاء في الحديث – من كان قبلنا وهدى أمة الإسلام إليه .

قال: ((**فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ**)) ؛ فهذه منة الله ﷻ أن هدى أمة الإسلام لهذا اليوم العظيم وعرّفهم بفضائله وخصائصه ومميّزاته ، ولهذا فإن ليوم الجمعة عند أهل الإسلام شأن ، وله مكانه ، وفيه فريضة عظيمة دعا ﷻ إليها أمة الإسلام في كتابه في سورة الجمعة ؛ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[الجمعة:٩] دعاهم إلى هذه الفريضة العظيمة التي في يوم الجمعة ؛ فيجتمع الناس ويغدون ويذهبون إلى المسجد في هذا اليوم المبارك وأجورهم وثوابهم عند الله ﷻ في هذا اليوم بقدر تبكيرهم ؛ فمن جاء في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة ، ومن جاء في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، ومن جاء في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا ، ومن جاء في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ، ومن جاء في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة ، أجورهم متفاوتة في هذا اليوم بقدر تبكيرهم ودنوهم من الإمام وطمأنينتهم في هذا اليوم ، وحرصهم على سماع الخير والعلم الذي يلقى في هذا اليوم في خطبة الجمعة التي كان لها شأن عظيم عند نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ حيث كان كل جمعة يخطب الناس ، وكان في خطبته كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ ، وكان يقول : ((أما بعد ، فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كلام اللَّهِ ، وخير الْهُدَى هُدَى رسول الله ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)) .

وقد جاء في هذا اليوم وفي حضور هذه الصلاة والتبكير لها أجور عظيمة جداً ، ولا يهولك عظم الأجر عندما تسمع به ولكن تأمل في عظمة المعطي والمانّ ﷻ على أمة الإسلام ، وقد جاء في الحديث: ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ؛ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ)) ، وجاء في الحديث: ((مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ فَدَنَا مِنْ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا)) ؛ فهذه فضائل لهذا اليوم العظيم المبارك . وجاء في الحديث أن في يوم الجمعة ساعة تُعرف عند أهل العلم بساعة الإجابة لا يوافقها عبدٌ يسأل الله ﷻ إلا أعطاه الله ما سأل . وهذا اليوم له فضائل وخصائص عظيمة يحسن مطالعتها في كتاب زاد المعاد لابن القيم رحمه الله .

قال: ((**فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ،وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) ؛ يبين ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله: ((**نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) ؛ نحن الآخِرون لأن أمة محمد عليه الصلاة والسلام أخر

الأمم ، ورسالة النبي ﷺ خاتمة الرسالات ، وهو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ؛ فقال: ((**نَحْنُ الْآخِرُونَ**)) يعني حُتمت بنا الأمم ، ((**وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) لأن أمة الإسلام مقدمة على الأمم التي قبلها ، فهم جاءوا آخِراً ولكنهم يأتون مقدمين يوم القيامة . ولعله ينطبق هنا قول الشاعر:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِك المدَلّلِ تَمْشِي رُوَيْداً وَتَجِيء في الأَوّلِ

أمة الإسلام ؛ عمل قليل وأجر مضاعف ، وتأتي هذه الأمة العظيمة مقدَّمةً على الأمم السابقة ؛ سابقةً عليها بالأجر والثواب والجزاء عند الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

وفيه تعليقاً عن النبي ﷺ أنه قال : ((أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ)) انتهى .

****

قال ((**وفيه تعليقا عن النبي ﷺ**)) ؛ فيه : أي في صحيح البخاري . والبخاري رحمه الله أورد هذا الحديث في صحيحه معلقا في ترجمة باب ، لأنه ليس على شرطه في الصحيح ، ولكنه خرّجه بإسناده في كتاب الأدب المفرد، وخرّجه غيره من أهل العلم ، وهو حديثٌ حسن الإسناد .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**)) ؛ وهذا الحديث فيه ذِكْر ثلاثة فضائل للإسلام :

الفضيلة الأولى : أنه أحب الأديان إلى الله تبارك وتعالى .

والفضيلة الثانية : في قوله ((**الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**)) ؛ فهو دين حنيف ودين سمح .

و«**الحنيفية**»: هي البعد عن الشرك ولإقبال على التوحيد ،كما قال ﷻ : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠] ، فالحنيف : هو المائل عن الشرك إلى التوحيد . فدين الإسلام هو دينٌ حنيف ليس فيه خرافات ، وليس فيه ضلالات ، وليس فيه ترّهات وأوهام؛ وإنما هو دينٌ قائم على صحة المعتقد وسلامة الدين وحُسن الصلة برب العالمين بالإقبال عليه ﷻ وحده خضوعاً وتذللاً ورغَباً ورهباً ؛ فهو دينٌ مائل عن الضلالات ، متجافٍ عن الأباطيل والخزعبلات ، قائم على الحق والهدى والإقبال على الله تبارك وتعالى بصدق وإخلاص .

و «السمحة» : هذه أيضا من فضائل هذا الدين العظيمة أنه دين السماحة ودين اليسر ، وما جعل الله ﷻ في هذا الدين على العباد من حرج ؛ أعماله أعمال ميسَّرة لا عنَت فيها ولا مشقة ، وقد قال ﷺ في حديث صحيح ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا)) ؛ وصف عليه الصلاة والسلام هذا الدين بأنه يسر ؛ يُسر في عقائده لأن عقائده عقائد صحيحة واضحة بيّنة ، ليست عقائد قائمة على الخرافة

أو على الضلال ، بل هي عقائد سليمة توافق الفطر وتقبلها العقول السليمة ، وأعماله أعمال ميسرة في فرائضه وواجباته ومستحباته ((صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ)) أمور ميسرة يسرها رب العالمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] ، ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))، فهو دين السماحة ودين يسر وليس فيه مشقة وليس فيه عنت، قد قال الله ﷻ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ؛ فهو دين سمح ، دين ميسر ، دين سهل فيه هذه الصفات العظيمة التي تدل على كماله ورفعته .

قال رحمه الله :

وعن أبي بن كعب ﷺ قال : «عليكم بالسبيل والسنة ؛ فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكَر الرحمن ففاضت عيناه من خشيت الله فتمسه النار ، وليس من عبدٍ على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبِس ورقها فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها ، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة» .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الأثر العظيم عن أبيّ بن كعب وفيه توضيح لحقيقة الإسلام ، وفيه أيضا ذِكر فضائل عظيمة جداً لمن يحافظ على الإسلام كما أمِر بذلك ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢] ، فثمة فضائل عظيمة جداً ينالها من حافظ على الإسلام كما أمره الله ﷻ بالمحافظة عليه ، بخلاف حال كثير من الناس الذين يعملون أعمالاً يظنونها من الإسلام ، ويظنونها من دين الله ، ويظنونها من شرعه ﷻ وهي بخلاف ذلك ، ولهذا جاء في حديثٍ صحيحٍ عن النبي ﷺ رواه البخاري ومسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) : أي مردود على صاحبه غير مقبول منه .

فأبي بن كعب رضي الله عنه وأرضاه في هذا الأثر العظيم يبين لنا حقيقة الإسلام وما يترتب على قيام العبد بهذه الحقيقة كما أمِر وعلى الوجه الذي أُمر به ؛ فيقول : ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) ؛ السبيل والسنة هو الإسلام ، لأن الإسلام هو سبيل الله الذي دعا عباده إلى سلوكه على وفق السنة وما جاء به رسول الله ﷺ ، ولعل مما يبين لنا هذا المعنى ذلك المثل العظيم الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لبيان الدين وبيان الإسلام وحقيقة الإسلام فقال ﷺ : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ)) يعني جداران وتأمل المثل جيداً ؛ صراط مستقيم ، ومبني على جنبتي الصراط المستقيم سوران : أي جداران ((فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ)) وأنت تمشي

مع هذا الصراط على يمينك جدار وعلى يسارك جدار ، وفي الجدار أبواب تمر على يمينك وعلى يسارك، ((وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ)) يعني الأبواب ليس لها أقفال وإنما كل باب عليه ستارة ((وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا)) يعني انتبه ولا تلف عنه لا يمين ولا شمال ، ((وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ)) تدخل ، لا تفتح باب الحرام على نفسك ، لأنك إن فتحت باب الحرام على نفسك دخلت في الحرام ، فاجعل الباب الذي بينك وبين الحرام مغلق لا تفتحه فإنك أن فتحه تلجه ، ((وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى)) لأن لك في طريق الإسلام حدود لا تخرج عنها ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] فلك حدود لا تتعداها ، ((وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ)) هذه أبواب تُخرج الإنسان عن الطريق المستقيم إلى حيث الحرام . ولاحظ هنا ملاحظة عجيبة: أن الطريق الحرام ما يحتاج من داخله إلى وقت لأن عليه باب والباب عليه ستارة ، ومن أراد أن يدخل من بابٍ عليه ستارة هل يحتاج إلى وقت عند الدخول ؟ هل يحتاج إلى أن يقف ويعالج يد الباب ليفتح الباب أو يفتح القفل ثم يفتح ويدخل ؟! الباب الذي عليه ستاره وأنت على هيئتك تمشي تلمس الستارة بكتفك وإذا بك داخل بدون ما يأخذ منك وقتاً أو جهداً، ((وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ﷻ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ في قلب كل مسلم)) ولهذا سبحان الله !! المسلم الذي هو ماضٍ على الطريق المستقيم إذا بدأت نفسه تدخل في معصية يجد في صدره حزة ووخزة ؛ هذا واعظ الله ﷻ في قلب كل مسلم ، لكن هذا الواعظ يتبلد عند الإنسان إذا تعمق في الحرام ومضى فيه فيصبح –والعياذ بالله– يمضي في الحرام ولا يحس ، لأنه تعطل عنده هذا الإحساس وتبلد عنده هذا الواعظ . فهذا مثل عظيم جداً ضربه النبي عليه الصلاة والسلام للإسلام .

إذاً قول أبيّ ((**عليكم بالسبيل**)) أي عليكم بهذا الصراط الذي هو الإسلام .

((**والسنة**)) أي أسلكوا هذا الصراط المستقيم على ضوء السنة التي بُعث بها نبينا عليه الصلاة والسلام . فليس لك أن تعمل متقربا إلى الله ﷻ بما شئت من الأعمال قائلاً أريد أن أسلك السبيل الموصل إلى الله تبارك وتعالى بأعمال أخترعها ، ليس لك ذلك ؛ ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه ، فعليك أن تسلك هذا السبيل على وفق سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . قال: ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) ثم انظر الأجر .

((**فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكَر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار**)) لا تمسه النار.

انتبه لهذا القيد العجيب، القيد العظيم الذي نبه عليه أبيّ ﷺ ، قال: ((**ما من عبد على سبيلٍ وسنة**)) لكن الذي على ضلالة وبدعة وعلى هوىً وخرافة ؛ لو فاضت عيناه بالدموع فهو على خطر عظيم من هذه البدعة

التي هو عليها ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤] هو على خطر عظيم .

ولهذا ينبغي أن يكون العبد –وهذا تنبيه عظيم مبارك من أبي رضي الله عنه– ينبغي أن يكون العبد في خشوعه وبكائه وخشيته وإقباله على الله على السنة ، لا أن يجلس الإنسان خاشعاً باكياً ولكنه على ضلالة وبدعة ، البدعة لا توصلك إلى الله ولا تقربك من الله ، البدعة تبعد الإنسان عن الله ولا تقربه من الله، ولهذا لابد مع خشية الإنسان وخشوعه وبكائه ورقة قلبه من إقبال على الله بسنة النبي ﷺ ، أرأيتم لو أن رجلاً جلس عند قبر خاشعاً باكياً متذللاً دموعه تنهمر لا تقف ويبكي بكاءً متواصلاً وهو على هذه الحال قائماً وعاكفاً عند القبر مناجياً صاحب القبر طالباً متوسلا ؛ هل هذا العمل والبكاء والخشوع يدنيه من الله أو يبعده من الله ﷻ؟ يبعده من الله ما يقربه منه ، لا يقرب من الله ﷻ إلا العمل الصالح الخالص ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠] . ولهذا نبه هذا الصحابي الجليل على هذا القيد المهم ؛ الخشوع ورقة القلب والدموع أمر طيب لكن على سبيل وسنه . أما إذا كانت هذه الدموع وذاك الخشوع على غير سبيل وسنه فالله لا يقبل من العمل إلا الخالص الموافق للسنة . ولهذا قال العلماء : لا يُقبل العمل إلا بشرطين؛ الشرط الأول : الإخلاص ، والشرط الثاني : المتابعة . ولعل في قول أبي بن كعب ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) إشارة إلى هذين الشرطين ؛ فالسبيل : هو الإسلام ، وهو الاستسلام لله على وجه الإخلاص ، والسنة: هي الإتباع والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام . والله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان بهذا الوصف : خالصاً لله موافقاً لسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى في قوله ﷻ : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] : «أخلصه وأصوبه» ، قيل : يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال : «العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ؛ حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة» أي على سنة رسول الله ﷺ .

ثم قال أبيّ : ((**وليس من عبد على سبيلٍ وسنَّة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله**)) لاحظ أيضاً القيد مرة ثانية أعاده؛ ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله ((**إلا كان مثله**)) انظر الثواب ((**كمثل شجرة يبس ورقها**)) يعني جفت وأصبح فيها ورقٌ يابس ((**فبينما هي كذلك إذ أصابتها ريح**)) يعني جاء هواء ((**فتحاتَّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها**)) ؛ هذا مثال .

وهذا المثال الذي ذكره أبيّ جاء ذِكره في السنة ؛ جاء في السنة أَنَّ النبيﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ فَقَالَ: ((إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ

وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)) ، والصحابة يرون الورق يتحات ، فيقول عليه الصلاة والسلام هذا مثل لمن يكثُر ذكره لله تسبيحاً وتحميداً وتهليلا . ولاحظ هنا ؛ ذكر الله بما شرع يحصل به تحات الذنوب ، أما ذكر الله بالبدع والأهواء والخرافات والطقوس التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان هذه لا يتحات بها الذنوب ؛ بل يُخشى على العبد فيها من الإثم ومن العقوبة ، فالأعمال التي يتحات بها الذنوب كما يتحات ورق الأشجار هو التقرب إلى الله بالأذكار المشروعة والعبادات التي أمر الله تبارك وتعالى عباده بها .

ثم ختم هذا الأثر أبيّ بقوله: ((**وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهادٍ في خلاف سبيل وسنة**)) ؛ الاقتصاد : هو التوسط والاعتدال . وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا)) القصد: هو التوسط ؛ لا غلو ولا جفاء ، لا إفراط ولا تفريط ، لا تزيد عن المأمور ولا تنقص عنه ، التوسط هو أن تلزم السبيل والسنة ، حتى وإن قلّ العمل فالعبرة ليست بالكم ولكنها بالكيف ؛ أن يكون العمل موافق للسنة، فأن تقتصد في عمل على سبيلٍ وسنة خيرٌ لك من أن تجتهد في عمل ليس على سبيل ولا على سنة .

اضرب لك مثالًا : لو أنك صليت في ليلة ركعتين بعد صلاة العشاء أو قرب صلاة الفجر وختمتها بركعة الوتر واستغفرت الله ﷻ من ذنبك ، هذا الذي كان منك هذه الليلة ، هذا العمل اسمه «اقتصاد في سنة» ، لأنه عمل مسنون مأمور به ، عليه عند الله تبارك وتعالى ثواب جزيل . ((**اقتصاد في سنة خير من اجتهاد بدعة**)) ، هذا خير لك من أن تحيي الليلة كاملة في بدعة ما أنزل الله بها من سلطان مثل بدعة المولد أو بدعة الاحتفال بليلة الإسراء أو غير ذلك ، لو جلست تلك الليلة مَن صلى ركعتين بدون هذه الأعمال التي ما شرعها الله خيرٌ منك ؛ لأن الله شرع لك في الليل صلاة الليل ، وشرع لك في الليل أن تستغفر ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧] ، فأن تعمل في الليل الأعمال التي شُرعت ولو كان العمل الذي قمت به قليل خير لك من أن تجتهد ليلة كاملة في عمل ليس على سبيل ولا سنة .

وهذا مثال قس عليه بقية الأمور والأعمال ، وهي قاعدة عظيمة احفظها من هذا الصحابي الجليل ، ليست هذه القاعدة من أي أحد ؛ وإنما هي من صحابي عرف الحق وعرف الهدى ولزم النبي عليه الصلاة والسلام أعطاك هذه القاعدة الذهبية : «**اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة**»؛ فإذا كان العمل ليس عليه دليل من السنة دعك منه ابتعد عنه وإن حثك عليه الناس وإن رغّبوك فيه ، ابتعد عنه ، وعليك بالعمل الذي هو على السنة ولو كان قليلا ، فإذا كنت مبتلى في بلدك بمثل هذه الاحتفالات ؛ إذا احتفل الناس توجه إلى بيتك وصلى ما كتب لك الله من صلاة وحافظ على ما تصلي عليه في لياليك واستغفر الله ونام فأنت على خير ، لأن اقتصادك هذا وعملك هذا على سنة ، هو في عمل صالح أمرَك الله به ورغّبك النبي عليه الصلاة والسلام وجاءت فيه أحاديث كثيرة جداً عن النبي ﷺ ، وألّف العلماء فيه مؤلفات كثيرة في فضل قيام الليل وثواب قيام الليل ، فعليك بهذا العمل الصالح الذي فيه فضائل ، ودعك من هذه الأعمال التي يقوم بها الناس ما

أنزل الله ﷻ بها من سلطان ، مثل اجتماعهم على إنشاد القصائد واجتماعهم على الأراجيز وربما اجتماع بعضهم على الطبول وعلى أعمال مثل هذه الأعمال ويعدّونها من صالح عملهم ، وهي ليست من السنة ، ومن يقول إنها من السنة يأتي بالدليل ، السنة بيّنة ومحفوظة وكتبها معروفة ومشهورة وليس فيها دعوة إلى مثل هذه الأعمال .

فالواجب على المسلمين عمومًا أن يتقوا الله تبارك وتعالى وأن يحافظوا على دينهم على هذا النهج المبارك الذي رسمه النبي عليه الصلاة والسلام وسار عليه الصحابة من بعده ، ولا يفتح الإنسان لنفسه في هذا المقام مبررات ، لا تُقبل منك المبررات مهما كانت إذا لم يقم على عملك دليل من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فلنحفظ هذه الوصية المباركة «عليكم بالسبيل والسنة» ، ثم ختم هذه الوصية بقوله : «**وإن اقتصادًا في سبيل وسنه خير من اجتهاد في اختلاف سبيل وسنة**» .

وأتوجه إلى من بيده أزمة الأمور ومن بيده مقاليد السموات والأرض ، أتوجه إلى الهادي ﷻ أن يجعلنا وإياكم كذلك ، نسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا وإياكم على السبيل والسنة ، وأن يعيذنا جميعا من الضلالة والبدعة ، اللهم اجعلنا أجمعين على السبيل والسنة وأبعدنا يا الله عن الضلالة والبدعة.

قال رحمه الله :

وعن أبي الدر داء ﷺ قال : «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم ، ولمثقال ذرة مع تقوى ويقين أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين» .

****

لا إله إلا الله !! تأمل هذا الأثر العجيب عن الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه ، وتأمل هذا الأثر جيدا ينفعك الله ﷻ به ، حتى قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد عن هذا الأثر : «وهذا من جواهر الكلام ، وأدلِّه على فقه الصحابة وتقدّمهم على من بعدهم في كل خير»؛ كلام نفيس جداً ، كلام جواهر ، كلام كما يقولون يُكتب بماء الذهب ، من أنفس الكلام يقوله هذا الصحابي الجليل فتأمله .

يقول: ((**يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم**)) نوم وإفطار ؛ نوم في الليل وإفطار في النهار ، «**ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم**» ؛ يعني أن يكون الإنسان ينام ويفطر ولكنه ماضي على السنة على الجادة على هدي النبي ﷺ مجانِب للبدع والضلالات ، هذا خير من أن يعمل أعمالاً مثل الجبال ليست على سنَّة ، لأن تلك الأعمال التي مثل الجبال على غير السنة لا يقبلها الله ، لأن النبي ﷺ جزَم قال : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، طيب هل أيضا الأمر كفاف لا له ولا عليه ؟! ترد أعماله ولا له ولا عليه! أم أنه يأثم بتلك البدع والإعراض عن سنة النبي عليه الصلاة والسلام ؟! ولهذا يقول أبو الدرداء : ((**ياحبذا نوم الأكياس**)) ؛ يعني كون الإنسان ينام في الليل أفضل وخير من شخص يحيي الليل من أوله إلى آخره على غير سنة ، هذا يصلي العشاء وينام من أول الليل وإذا أذّن الفجر قام وصلى وقد قال عليه الصلاة والسلام ((مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ

فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ)) ، فهذا صلى العشاء مع جماعة وصلى الفجر مع جماعة ، والآخر أحيا الليل في بدع وخرافات وربما لم يصِل وقت صلاة الفجر إلا وهو متعب ومكدود ونام عن صلاة الفجر ، فيقول أبو الدرداء : ((**ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم**)) ؛ أيضا يفطرون وصيامهم قليل لكنهم لا يمارسون أعمالاً مبتدعة وأموراً محدثة ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان .

قال: ((**كيف يُغبنون سهر الحمقى وصومهم**)) ؛ الحمقى : يشير بذلك ﷺ إلى من يسهر على بدع وأيضا يصوم على ضلالة ، ليس كل صوم يُقبل ، أليس قال النبي عليه الصلاة والسلام عن أولئك النفر الذين أتوا إلى بيت النبي ﷺ وسألوا عن عبادته فكأنهم تقالّوها ؛ فقال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا أقوم ولا أرقد ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، فسمع النبي ﷺ بذلك فقال : ((لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) ، هؤلاء عندهم صيام وعندهم قيام ولكنها على غير السنة ، وفي أمثالهم قال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) ، ولهذا قال : ((**يغبنون سهر الحمقى وصومهم**)) الحمقى : الذي يكون سهره على غير سنة ، وصيامه على غير سنة ، وعبادته على غير سنة ؛ هذا نوع من الحماقة لأنه تضييع الأوقات وإهدار للجهود من غير طائل ، بل يأتي وهو يأثم بإعراضه عن السنة وإقباله على البدع والخرافات والضلالات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال ﷺ مبيّناً : ((**ولمثقال ذرة**)) يعني عمل قليل يسير جداً ((**ولمثقال ذرة من بِرّ مع تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين**)) ؛ قارن! مثقال ذرة ويقابلها جبال ، والذرة أفضل من الجبال ، لماذا؟ لأن هذه الذرة وهي العمل القليل كانت من بِر ، والبر: هو الأمر الذي شرعه الله ﷻ مع تقوى ويقين . لاحظ صفات العمل الذي هو قليل ولكنه مقبول وأجره مضاعف : أن يكون من بر ؛ أي : من أمور البر التي شرعها الله ﷻ وأمر عباده بها ، وأقرأ على سبيل المثال في ذلك آية البر في سورة البقرة قال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة/١٧٧] .

فأن يكون العمل من بِر : أي من عملٍ بَرٍّ مشروعٍ أمَر الله به ، وأن يكون مع تقوى ويقين : تقوى لله ﷻ بأن يقع منك خالصاً لا تبتغي به إلا وجه الله ، ويقين بثواب الله وجزاءه وما أعدّه الله ﷻ لعباده المتقين ((**أعظم وأفضل وأرجح**)) وكل واحدة من هذه الكلمات الثلاث تُغني عن الأخرى ، لكن من باب التأكيد ، لو قال أعظم كانت كافية ؛ لكنه أراد أن يؤكد هذه الحقيقة قال: ((**أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من**

المغترين)) ؛ ويشير بالمغترين الذين تمضي أوقاتهم في ممارسات مُحْدثة وأعمال مبتدعة لم يكن عليها هدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فكرر رعاك الله تأمل هذا الأثر وتأمل بدايته العجيبة ((**يا حبذا**)) يقول أبو الدرداء ، والذي كان عليه أبو الدرداء والصحابة الأخيار ومن اتبعهم بإحسان هو الاجتهاد في التقرب إلى الله ﷻ بالسنن والأعمال المشروعة التي أمر الله ﷻ بها عباده ودعوة الناس إلى ذلك .

ونختم بسؤال الله تبارك وتعالى التوفيق لرضاه والإعانة على طاعته وهداه ، وأن يرزقنا إتباع سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وأن يعيذنا من البدع والأهواء .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب وجوب الدخول في الإسلام وقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، **وقوله تعالى:** ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران:١٩] ، **وقول الله تعالى :** ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام/١٥٣] **الآية. قال مجاهد:** «**السبل: البدع والشبهات**» .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**باب وجوب الدخول في الإسلام**)) ؛ هذا بابٌ عظيم ينبغي على كل مسلم أن يتنبه له وأن يعرِف أمر الله ﷻ له بذلك ؛ الدخول في الإسلام ، وذلك بالتزامه بالإسلام ؛ أحكام الإسلام ، وشرائع الإسلام ، وما في الإسلام من أوامر ونواهي ؛ فيكون منقاداً مستسلماً متَّبِعاً مطيعاً ، فهذا أمرٌ مطلوب ، والله ﷻ أمَر أهل الإيمان بذلك ، أمرهم بالدخول في الإسلام وذلك بالتزام أحكامه وتفاصيله وشرائعه كما في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة:٢١٠] والمراد : ﴿فِي السِّلْمِ﴾ أي الإسلام ؛ شرائعه وأحكامه وأوامره ونواهيه وتفاصيله ﴿كَافَّةً﴾ : لا تتركوا منه شيئا ،

جاهدوا أنفسكم على التزام أحكامه ، والتقيد به ، والانقياد التام لما جاء في الإسلام من أوامر ونواهي وفرائض وواجبات .

﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ : أي لا تتركوا منه شيئا ، بل حافظوا على الإسلام واستمسكوا به ، ولا يمكن أن يدخل أحدٌ في السِّلم كافة إلا إذا تخلى عن هوى نفسه ، فالنفس تبحث عن حظوظٍ وعن أمورٍ وعن شهواتٍ قد تصرِف العبد عن هذا الدخول وعن هذه المحافظة على الإسلام ، وأعظم ما يصرف عن هذا الدخول الشيطان الرجيم – أعاذنا الله منه – ولهذا قال تبارك وتعالى في هذا السياق : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ؛ لأن الشيطان يريد نقل الإنسان عن الإسلام عبر طرقٍ يأخذ الإنسان فيها بخطواتٍ تدريجية بالترك والتخلي عن الإسلام ، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ؛ فأفاد هذا السياق العظيم لمن أراد الدخول في الإسلام –شرائعه وتفاصيله– أن يتخلى عن هواه وأن يحذر أشد الحذر من الشيطان الرجيم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ؛ ليست المسألة أمرًا اختياري تأخذ وتدَع حسب هوى النفس ورغبتها ، فما راق للنفس أخذه ، وما لم يرُق لها تركه ، ليس هكذا شأن المسلم ؛ بل المسلم مستسلمٌ لله منقادٌ لله إذا أمره ائتمر وإذا نهاه انتهى ، فإذا كان يعصي في المأمور ويرتكب المحظور فهذا من نقص إسلامه ولم يتحقق له إسلامه ، وهو مطلوبٌ منه أن يجاهد نفسه على الدخول في الإسلام كافة بالمحافظة عليه والعناية به والبُعد عن كل أمر يُنقِصه أو يُخِلُّ به .

وبهذا يُعلم أن انشغال الإنسان بغير الإسلام الذي هو شرع الله ودينه حتى ولو كان على وجه التقرب إلى الله ﷻ وإرادة ثوابه لا يُقبل من الإنسان ، فلا يُقبل من الإنسان إلا الإسلام الذي هو شرع الله ودينه ﷻ وما أمَر به عباده ؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله : ((**بابٌ وجوب الدخول في الإسلام**)) ؛ أي بالالتزام به كما شرع الله وكما أمر الله وكما بلّغت رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ، فالإسلام هو دين الله ﷻ الذي بلَّغته رسله ، فلا يقبل الله ﷻ ديناً سواه، ولا يقبل عملاً إلا ما جاء من طريق الرسل الذين خُتموا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه.

وأورد نصوصاً تبين مدلول هذه الترجمة ؛ فذكر أولاً قول الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ أي غير هذا الدين الذي شرعه الله ﷻ لعباده وأمرهم به وبعث به رسله عليهم صلوات الله وسلامه ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ لا يقبل الله تبارك وتعالى ديناً ولا عملاً ولا طاعةً ولا قربةً إلا ما كان إسلاماً بعث به رسله ودعا إليه عباده ، فليس باب العبادة والتقرب إلى الله ﷻ مفتوحاً للإنسان يعبد الله بما شاء ويتقرب

إلى الله بما شاء ؛ بل عبادة الله ﷻ إنما تكون بما أذِن وبما شرع وبما أمر ﷻ عباده به، ولهذا في قوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ تحذير من مخالفة الإسلام والرغبة عنه وعن أعماله وعن أوامره إلى خرافات باطلة أو ضلالات زائفة أو أهواءٍ منحرفة أو تجارب مدّعاة أو نحو ذلك من الأبواب التي صارت منزلقاً لكثير من الناس في التخلي عن الإسلام والدخول في أعمالٍ ليست منه ولم يشرعها ﷻ لعباده .

قال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ؛ لاحظ هنا قوله ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ في هذا السياق ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ : يعني من طلَب لنفسه دينًا وشرعًا وأحكامًا يلتزمها ويحافظ عليها وربما يتقرب إلى الله بها فكل هؤلاء لا يقبل الله ﷻ منهم ؛ إلا إذا كان دينهم هو الإسلام ، لو تقرب الإنسان إلى الله ﷻ الليل والنهار وأطال القيام والعبادة والعمل على غير الإسلام فكل ذلك لا يُقبل ، ولهذا سيذكر المصنف قريباً قول النبي عليه الصلاة والسلام ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ؛ قوله ((فَهُوَ رَدٌّ)) هو بمعنى قوله ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، ((فَهُوَ رَدٌّ)) : أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ، فالله ﷻ لا يقبل من العبد إلا ما كان إسلاماً بَعَث الله به رسله وأنزل به كتبه وشرعه لعباده وأذِن لهم به ، أما ما سوى ذلك فلا يقبله الله ﷻ ، قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد وهو عدم القبول ؛ بل أنه يكون خاسراً معاقباً آثماً يلحقه الخزي والعقاب لتركه للإسلام الذي شرعه رب العالمين وأمر ﷻ عباده به قال :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أيضا تأمل هنا قوله ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ ؛ وهذا فيه تنبيه أن أعمال الإسلام التي يقوم بها العبد في هذه الحياة المقصود بها الآخرة وليس المقصود بها الدنيا ، وهذه ملاحظه مهمة ، الصلاة والصيام والحج هذه أعمالٌ للآخرة ولهذا قال الله في آيةٍ أخرى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] ، هذه شروط السعي المشكور عند الله : أن يريد به صاحبه الآخرة ، وأن يسعى لها سعيها.

وقد ذم الله تبارك وتعالى من أراد بعمل الآخرة الدنيا في آيات عديدة في القرآن ؛ كقوله ﷻ في الآية التي قبل هذه الآية: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء:١٨] ، وقال ﷻ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود:١٥] ، فذم تبارك وتعالى من أراد بعمل الآخرة الدنيا ؛ يصلي لأجل الدنيا ، ويصوم لأجل الدنيا ، ويتصدق لأجل الدنيا ، ولهذا لاحظ قال: ﴿ وَهُوَ فِي

الْآخِرَةِ﴾ لأن الآخرة هي ميدان الثواب والجزاء على العمل الذي كان في الدنيا ، ولهذا جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه وعن الصحابة أجمعين قال : «ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً ، وَارْتَحَلَتْ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ – يعني للدنيا بنون ؛ لا همّ لهم إلا الدنيا ، وللآخرة بنون همّهم الآخرة – فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ» .

ولهذا فإن من فوائد هذه الآية : أن تكون الآخرة نصب عيني الإنسان في أعماله وفي طاعاته ، وأن يتذكر دائماً أنه سيقف بين يدي الله تبارك وتعالى في يوم الدين ؛ يوم الجزاء والحساب ، فيجازيه ربه ويحاسبه على ما قدّم من الأعمال ، وفي ذلك اليوم تتجلى الأمور وتنكشف الحقائق ويُبعثر ما في الصدور ويجازى الناس على أعمالهم ، فتكون مصيبة الإنسان عظيمة إذا كان قدّم في هذه الحياة الدنيا قربات كثيرة وأعمال عديدة ولكنه يأتي يوم القيامة خاسراً لكون تلك الأعمال وتلك القربات على غير الإسلام ؛ فوجب على العاقل أن يتنبه لهذا الأمر وأن يجاهد نفسه في أن تكون طاعاته وأعماله وقرباته قائمة ومبنية على الإسلام الذي هو دين الله تبارك وتعالى .

وكل خروجٍ عن الإسلام وعن تعاليمه فهو مردودٌ على صاحبه ، والمصيبة في هذا الباب في كثير من الناس عظيمة؛ إذ إنَّ عدداً منهم تجده يمارس أموراً تُخرج من الإسلام وتنقل الإنسان من حظيرة الدين وهو يظن نفسه متقربًا إلى رب العالمين بأعظم القربات ، ومن أعظم الأمثلة على ذلك : حال من يعكف عند القبور باكياً خاشعاً متذللاً منكسراً طامعاً راجياً يجعل المقبورين وسائط بينه وبين الله ﷻ ، حاله كحال من قال الله ﷻ عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[الزمر : ٣] ، وقوله الله ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾[يونس : ١٨] فيتخذ الوسائط بينه وبين الله ﷻ مندّداً مسوياً عادلاً غير رب العالمين به ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام:١] ، وستكون ندامة هؤلاء عظمى لأن الله عز وجل أخبر عن حال من يسوّون غير الله به في ذلهم وخضوعهم وانكسارهم وخشوعهم وتذللهم ورجائهم ورغبهم ورهبهم ؛ ذكر عن ندامتهم فيما ذكره سبحانه في قوله: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] ، بل بلغ الحال بكثير من الناس أنه في صلاته لا يخشع ولا يذل ولا ينكسر ، وعند المقبورين يخشع ويذل وينكسر ويرغب ويرهب ويرجو ويطمع ، أين حقيقة الإسلام هنا ؟! أين الدين هنا الذي شرعه الله تبارك وتعالى لعباده ؟!

ولهذا يجب على الإنسان أن يتأمل هذا الأمر وأن ينتبه له ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، وكذلك من يمضي في عباداته وأعماله على بدع ما أنزل الله بها من سلطان ، وضلالات ليس عليها حجة ولا برهان ؛

متقرباً إلى الله ﷻ به فكل ذلك لا يقبله الله ، وقد أعلن ذلك صريحًا رسول الله ﷺ عندما قال ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه.

ثم ذكر المصنف رحمه الله بعد هذه الآية آية أخرى في المعنى نفسه؛ وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ؛ وهذه الآية بمعنى الآية التي قبلها. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ؛ فالدين الذي يرضاه الله ويقبله من أهله وأصحابه ويثيب عليه ويشكر صاحبه هو الإسلام الذي شرعه الله ﷻ لعباده وأمرهم به وبعث به رسله وأنزل به كتبه ، هذا هو الدين . وكل دين سوى الإسلام فهو ضلال ؛ مهما وضع له صاحبه من المبررات ومهما التمس له من الأعذار فكل دينٍ سوى الإسلام ضلال ، وكل تقربٍ إلى الله ﷻ بغير إسلام فهو بُعدٌ عن الله وليس تقرب ، وكل سيرٍ إلى الجنة وطلبٍ لها بغير الإسلام هو في الحقيقة بُعد عنها، فكل طريق إلى الجنة مسدود إلا من طريق الإسلام الذي هو دين الله ﷻ الذي بعث به رسله وختمهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليه .

ثم أورد في تبيين هذا المعنى والتأكيد عليه قول الله ﷻ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ؛ وهذه الآية ساقها المصنف في هذا الموضع ليبين بها أن الإسلام الذي هو دين الله تبارك وتعالى الذي لا يقبل ديناً سواه هو الصراط المستقيم والسبيل القويم الموصل إلى رضوان الله ﷻ ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فالإسلام هو صراط الله المستقيم . ما هو الصراط المستقيم ؟ أحد الصحابة سُئل عن ذلك ، سئل عن الصراط المستقيم ما هو ؟ قال : «هو طريق تركنا رسول الله ﷺ في أوله ونهايته في الجنة» ؛ طريق مستقيم يوصل صاحبه إلى جنات النعيم .

والله ﷻ ذكر الصراط هنا قال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ وأمَر عباده ؛ بل أوجب عليهم أن يدعوه دعاءً متكرراً بالهداية إلى هذا الصراط في سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، فقوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذا دعاء يتكرر منك كل يوم وليلة سبع عشرة مرة في الصلاة المفروضة ، فهو أوجب الدعاء وأعظمه وأهمّه ، بل ليس في الأدعية أعظم من هذه الدعوة ، هي أكمل الأدعية وأعظمها ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ؛ لأن العبد إذا هُدي إلى الصراط المستقيم سعد في دنياه وأخراه ، ونال الفلاح ، وسلِم من الخسران .

قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ يقول العلماء رحمهم الله: إن صراط الله المستقيم متصفٌ بصفات ثلاث عظيمة :

١) الصفة الأولى : الاستقامة ؛ طريق مستقيم ليس فيه اعوجاج وليس فيه انحراف وليس فيه التواء ، بل هو موصلٌ إلى الحق بطريق مستقيم غير مائل ولا معوَج . والاستقامة تعني : القرب ؛ لأن الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الموصل إلى المقصود بأقرب طريق ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فإذاً من صفاته الاستقامة.

٢) الصفة الثانية : اليُسر ؛ طريقٌ يسير ليس طريقاً وعراً أو صعباً أو شاقاً بل هو طريق سهل ، وقد قال ﷺ : ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ)) ، والله ﷻ قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[الحج:٧٨] فهو دين يسر ، الطريق المستقيم طريق ميسّر ليس معسَّر ، ليس صعباً ، ليس حزْنا ، ليس وعِرا ؛ بل طريق سهلة ميسرة.

٣) الصفة الثالثة : السعة ؛ الصراط المستقيم واسع ، لو دخل الناس من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها في هذا الصراط المستقيم يسعهم ، طريق واسع ليس طريقاً ضيقاً لا يكفي إلا لواحد أو لعشرة أو لعشرين أو لمئة أو لمئتين أو ألف أو ألفين ؛ طريق واسع يسع الناس كلهم من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لو دخلوا كلهم في هذا الصراط لوسعهم .

فإذاً الصراط المستقيم متصف بالاستقامة والسهولة والسعة ، وهو دين الله ﷻ الذي أمر ﷻ عباده به .

وقد بيّن نبينا عليه الصلاة والسلام هذا الصراط بمثل ؛ فكان الصحابة حوله ، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه : ((خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)) ؛ بمعنى أن الإنسان وهو ماضٍ في طريق الله وفي صراط الله المستقيم سيمُرّ مرات كثيرة وأحايين عديدة على يمينه وعلى شماله على سُبل تُخرج الإنسان من صراط الله المستقيم .

والخروج عن صراط الله المستقيم يكون من أحد طريقين :

١) إما طريق الشبهة التي تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم إلى حيث البدعة والضلالة .

٢) أو طريق الشهوة التي تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم إلى حيث المحرمات والموبقات .

والشيطان –كما جاء في بعض الآثار في كلام أهل العلم– يشام القلوب ؛ يعني ينظر إلى ميل القلب ؛ إذا وجد القلب ميالاً للشهوات رغّبه فيها وحثّه عليها وزيّنها له ، وإذا وجده منصرفاً عن الشهوات غير مقبلٍ عليها جعله يتشدد في دينه ويغلو في دينه إلى أن يخرج عن الدين بغلو يفضي إلى البدعة وإلى الضلالة وربما إلى الشرك بالله تبارك وتعالى . فيُخرج الإنسان عن الطريق المستقيم إما عن طريق الشبهة بفساد العلم ، أو عن طريق الشهوة بفساد العمل ؛ الشهوة فساد في العمل ، والشبهة فساد في العلم . وضياع الإنسان بفساد علمه أو فساد عمله ، وصلاح الإنسان واستقامته بصلاح علمه وصلاح عمله ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ؛ فالمنعَم عليهم : من صلح فيهم العلم والعمل ، اجتمع فيهم العلم النافع والعمل الصالح . والمغضوب عليهم : من عنده علم وليس عنده عمل . والضالون : من عندهم

عمل وليس عندهم علم . ولا يكون الإنسان منعَمًا عليه من أهل صراط الله المستقيم إلا إذا جمع بين العلم والعمل؛ علم يهديه وعمل صالح يرقّيه إلى الله تبارك وتعالى ويبلغ به أعالي الدرجات ورفيع الرتب.

وأيضا فإن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر مثالاً آخر عجيباً عظيماً في بيان صراط الله المستقيم -سبق الإشارة إليه وأعيده تأكيداً عليه وتنبيها على أهميته- قال ﷺ : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا ،وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) .

لاحظ الآن الصراط محفوف على جنبتيه بسورين جدارين ، وفي الجدارين أبواب ، حدّك وأنت تمشي على هذا الصراط ألا تخرج عن هذين السورين بحيث تمشي مستقيماً وعلى يمينك السورين ، لا تخرج خارج الأسوار .

ولاحظ هنا ملاحظة بديعة في المعنى الذي ترجم له المصنف : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ؛ لا تخرج إلى حيث الأهواء أو حيث البدع أو حيث الضلالات أو حيث المحرمات ، حافظ على إسلامك بأن تكون باقي داخل هذا الأسوار ماشيا في طريقك المستقيم ، لا تخرج خارج السور إلى حيث الشهوة ، ولا تخرج أيضا إلى خارج السور إلى حيث الشبهة والضلالة .

قال : ((الصراط المستقيم : الإسلام ، والسوران : حدود الله)) وحدود الله ﷻ أمِرْنا ألا نتعداها ، وحدود الله أيضا أمِرنا ألا ننتهكها. لأن حدود الله تارةً يُراد بها القربات والدين نفسه الذي أمِرنا بامتثاله ، وتارة يراد بها المحرمات ، ولهذا يأتي في هذا المعنى ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة:٢٢٩]. ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ : أي المحرمات ، ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ : أي الطريق المستقيم الذي أمِرتم بسلوكه والتزامه والسير عليه .

قال: ((والداعي الذي يدعوا من أول الصراط : كتاب الله)) ماذا يقول كتاب الله ؟ ((يا عباد الله ادخلوا الصراط ولا تعوجوا)) كتاب الله عز وجل يأمرنا بهذا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ .

قال: ((والداعي الذي يدعي من جوف الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم)) هذا الواعظ ماذا يقول ؟ يقول ((يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحته تلجه)) ؛ وهذا والله منة عظيمة من الله ﷻ على المسلم أن جعل في قلبه واعظاً ، جعل في قلبه منبّها ، تجد المسلم المستقيم إذا جنحت به نفسه يوماً من الأيام إلى أمرٍ محرم أحس في قلبه وخزة ، ألم ، عدم ارتياح ، ولهذا النبي ﷺ أشار إلى هذا المعنى بقوله ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ)) يعني تجد في قلبك ريبة، انقباض ، تجد وحشة ، تجد ضيقة صدر ، تجد عدم انبساط ؛ ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ)) ، فالحرام

إذا دخله الإنسان الذي هو على الاستقامة وعلى المحافظة وعلى الدين قلبه ينقبض ، هذا واعظ كأنه يقول لك : ((لا تفتح الباب فإنك إن فتحته تلجه)) . ثم إذا مضى الإنسان في الحرام واستمر في الحرام يتبلد عنده هذا الواعظ بل يتعطل ، ويصبح المعروف عنده منكراً والمنكر عنده معروفاً ، وتنقلب الموازين عنده رأساً على عقب ؛ وهذه المصيبة – والعياذ بالله – ، وهو معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] . فالذنب إذا وقع من العبد نُكت في القلب نكتة سوداء ، فإذا أذنب مرة ثانية نُكت نكتة سوداء إلى أن يغطي الران على القلب ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فيصبح وحالته هذه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً –والعياذ بالله – .

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ ؛ وحَّد الصراط وعدّد السبل : لأن صراط الله ﷻ الموصل إلى رضوانه وجنات النعيم واحد ، والسبل ليست سبيلاً واحد بل هي سبل كثيرة وعلى كل سبيل منها شيطان يدعوا إليه . أحد أهل العلم وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال كلمة عجيبة ، قال: «إذا خرج الإنسان عن الصراط المستقيم إلى البدعة يكون أول خروجه عن الصراط المستقيم شبر ، ثم يكون ذراع ، ثم يمتد بُعده عن الصراط المستقيم إلى مالا حد له ولا نهاية» ؛ أول ما يخرج الإنسان عن الصراط المستقيم يكون بعده عنه شبر، ثم إذا زاد صار ذراعا ، ثم إذا زاد زادَ بعده عن صراط الله المستقيم ، وكلما أبعد عن صراط الله المستقيم أبعد عن السعادة وأبعد عن الفلاح في الدنيا والآخرة.

إذاً ؛ قوله ((**وجوب الدخول في الإسلام**)) يبينه ويوضحه هذه الآيات التي ساقها المصنف ، وأن الدخول في الإسلام لا يكون إلا بسلوك صراط الله المستقيم والمضيّ عليه والثبات عليه إلى أن يلقى العبد ربه وهو على هذا الصراط . وهذا لا يتحقق للعبد إلا بأمرين :

- الأمر الأول : الإلحاح على الله ﷻ بالسؤال ، وأعظم دعاء في هذا دعاء الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وكذلك سؤال الله الثبات ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ)) صح هذا الدعاء عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، وصح عنه ﷺ أنه كان يكثر أن يقول في دعائه ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)) ، ((يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ)) ، والله ﷻ يقول: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧]
- الأمر الثاني : مجاهدة النفس ؛ قال الله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] يجاهد نفسه على سلوك هذا الصراط ومعرفته والعمل به والمحافظة عليه والبعد عن نواقصه ونواقضه،

يجاهد نفسه على الثبات على ذلك إلى أن يلقى الله ﷻ ، والله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

لما ذكر الآية ختمها بهذا النقل عن مجاهد ؛ ((**قال مجاهد**)) ومجاهد من علماء التابعين ((**السبل : البدع والشبهات**)) ؛ السبل في قوله ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ أي: لا تتبعوا البدع ، ولا تتبعوا الشبهات التي تخرجك عن الصراط المستقيم وتبعدك عنه ، بل إن من عجيب أمر هذه الشُّبه أنها تُخرج الإنسان من الصراط المستقيم وتشعِره في الوقت نفسه أنه ماضٍ عليه ثابت عليه!! أعظم ما يكون في خطورة الشبهة أنها تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم وتشعِره في الوقت نفسه أنه ثابت على الصراط ، ولهذا صاحب البدعة هل يُقِرّ أنه على بدعة مثل صاحب المعصية ؟! صاحب المعصية إذا نهيته عن معصيته رأساً يقول لك "ادعوا الله أن يهديني أنا مخطئ ، أنا مقصر ، أنا مذنب" ، أما صاحب البدعة إذا نُهي عن بدعته يغضب ويدافع ويحامي عن البدعة لأنه يرى أن هذا العمل هو دين الله ، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث ((إن الله احتجر التوبة عن صاحب البدعة حتى يدع بدعته)) ، لماذا ؟ لأن صاحب البدعة يرى أن بدعته حقاً ، ويرى السنة باطلاً وضلالاً -والعياذ بالله- ، ولهذا تجده يدافع عن البدعة وينصرها ويحميها ويؤيها ؛ هذه حاله مع البدع ، لماذا ؟ لأنه يرى أنها حق . فهذه مصيبة حال أهل البدع والشبهات؛ أنهم يخرجون عن صراط الله المستقيم ويظنون أنهم على هذا الصراط ، والصراط المستقيم أمارته واضحة لا خفاء فيها وهي : أن يُبنى على الدليل ؛ على قال الله قال رسوله . لكن لو قال قائل : " إننا نعمل هذه الأعمال لأنها مجربة عندنا وعند شيوخنا " ؛ هذا ليس من صراط الله المستقيم ، أو يقول " هذا ذوقي " ، أو يقول الآخر "هذا ما هوَتْه نفسي" أو نحوه ؛ هذه ليست أمارات وعلامات على الصراط المستقيم ، علامة الصراط المستقيم : أن يبنى على قال الله قال رسوله ﷺ . ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) أخرجاه، وفي لفظ ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)).

****

ثم بدا المصنف رحمه الله بسوق الأحاديث الدالة على هذه الترجمة ، وبدأ بهذا الحديث العظيم الذي عدّه غير واحدٍ من أ هل العلم من جملة أحاديث عليها مدار الدين ، فالدين يدور على أحاديث؛ منها: حديث ((إِنَّمَا

الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ، وحديث ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، وحديث ((إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ)) ، فهناك جملة من الأحاديث عليها مدار الدين .

وبهذه المناسبة أوصي الجميع بوصية نافعة وهي : أن يُعتنى بالأربعين النووية التي جمعها الإمام النووي رحمه الله ، لأن النووي رحمه الله عندما قصَد جمع هذه الأحاديث أراد أن يجمع الأحاديث التي عليها مدار الدين ؛ فالدين يدور على أحاديث جامعة ، وبقية الأحاديث التي هي بالآلاف ترجع إلى هذه الأحاديث ، لأن هذه أصول الدين وجوامعه . فكتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى هذا الكتاب العظيم كتاب ينبغي أن يُعتنى به . وكم هو جميل بالأب في بيته والمدرس في مدرسته والمربي في مجاله أن يُعنوا بهذه الأربعين ؛ يحفظها الأبناء وتُشرح لهم وتبيّن وتوضح فهذا فيه خير عظيم ونفع عميم ، أربعون حديثاً لا يأخذ حفظها وقتاً، من حفظه بطئ جداً يكفيه في حفظها شهر واحد ، ويُعتنى بسماع شرح هذه الأربعين أو قراءة شرحها فيما كتبه أهل العلم رحمهم الله ، ففي هذا نفعٌ عظيم لكل مسلم .

قال : ((**وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ. أخرجاه**)) : أي البخاري ومسلم .

((**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا**)) ؛ «أمرنا» : أي ديننا الذي بُعث به عليه الصلاة والسلام .

«أحدث» : أي أنشئ واخترع وأوجد في ديننا

«مَا لَيْسَ مِنْهُ» : أي أمراً ليس من الدين .

وهذا فيه تعريف البدعة ؛ لو قيل لك ما هي البدعة ؟ وقلت : البدعة هي أن يُحدِث في الدين ما ليس منه . أو أن يعمل عملاً ليس عليه أمر النبي عليه الصلاة والسلام كما في الرواية الأخرى ؛ أن يعمل عملاً يتقرب به إلى الله ﷻ ليس عليه أمر النبي ﷺ ؛ فهذا فيه توضيح للبدعة وتحذيرٌ منها .

قال ((**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا**)) : أي هذا الذي بُعث به عليه الصلاة والسلام وترك الصحابة عليه وتلقاه الصحابة منه رضي الله عنهم وصلوات الله وسلامه عليه وبلّغوه لمن بعدهم ، ومن بعدهم بلغوه لمن بعدهم ؛ هذا هو دين الله . دين الله هو : كتاب الله ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

((**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا**)) : أي من أنشأ واخترع في ديننا هذا ((**مَا لَيْسَ مِنْهُ**)) أي أعمالاً ليست من الدين ((**فَهُوَ رَدٌّ**)): أي مردود على صاحبه غير مقبول منه . وهذا فيه أن البدع كلها مردودة ، حتى وأن حسُن قصد صاحبها ، ولا يكفي صحة القصد لقبول العمل ، بل لابد من سلامة العمل وموافقته للسنة .

قد مر معنا في هذا المعنى قول الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله ﷻ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] قال: «أخلصه وأصوبه» ، قيل : يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم

يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ؛ حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة» .

فالله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان موافقاً لسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، أما إذا خالف السنة فإنه يُردّ ، حتى وإن كان قصد صاحبه طيباً وحسنا ؛ يرد على صاحبه ولا يقبله الله تبارك وتعالى منه . وهذا أمر ينبغي أن نتنبه له. وأضرب لكم مثالاً جميلاً جاء في السنة : أحد الصحابة أراد يوم عيد الأضحى أن يذبح أضحيته قبل الصلاة وكان قصده الذي أراده قصداً طيباً – هكذا جاءت الفكرة عنده – قال : أذبحها قبل الصلاة حتى لا ننقضي من الصلاة إلا وهي جاهزة ومهية ومطبوخة ، لأني لو ذبحتها بعد الصلاة يتأخر إعدادها إلى وقت طويل ، لكن أذبحها قبل الصلاة وتهيأ بحيث لا ينصرف الناس من الصلاة إلا وهيئتها لهم . هذا القصد قصدٌ طيّب ، قصد خيراً لم يقصد شرا ، فلما بلغ النبي عليه الصلاة والسلام عمله وهو ذبح فعلاً قبل الصلاة قال له: ((شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ)) يعني ليست أضحية ، الأضحية لها وقت ؛ وقتها بعد الصلاة ، فذبحك لها قبل الصلاة مع أنه ذبحها متقرباً بها إلى الله طالباً بها ثوابه معجلاً في الخير مريداً الإحسان كل هذه لم تشفع ، قال ((شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ)) يعني ليست أضحية ، إذا كنت تريد أن تضحي فالأضحية وقتها بعد الصلاة ؛ فلا يكفي في العمل طيب قصد الإنسان أو حسن قصده بل لابد أن يجاهد نفسه في أن يقع العمل موافقا لسنة النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**وفي لفظ**)) وهذا اللفظ لمسلم : ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**)) ؛ هنا هذا اللفظ فيه فائدة زائدة على اللفظ الأول وهي : أنه قد يظن الإنسان أن الأمر المبتدع إذا لم يكن هو الذي أحدثه فلا شيء عليه ؛ فتأتي هذه الرواية دافعة هذا الوهم الذي قد يظنه بعض الناس ، قال: ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**)) أي سواء كان هذا الأمر المحدَث المبتدع أحدثه الإنسان أو أُحْدِث له ؛ لا فرق ، سواء أحدثه الإنسان أو أحدثه له أشياخه من أهل الضلال والبدع لا فرق في ذلك ، الكل مردودٌ عليه ؛ مردود على من أحدَث ، ومردود على من عمل بالمحدَث ، كل هؤلاء مردود عليهم عملهم ، ولا يقبل الله تبارك وتعالى من العمل إلا ما كان صواباً، ولا صواب إلا ما كان على سنة الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه .

قال رحمه الله :

وللبخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى ، قيل وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ : مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)) .

****

قال : ((**وللبخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**)) : أي إلا من قال أنا لا أريد أن أدخل الجنة . هذا أمر مستغرب ، من الذي يُعرض عليه دخول الجنة ؛ يقال له ادخل الجنة

؛ ويقول : " أنا لا أريد الجنة أنا أريد النار ، الجنة ليس لي فيها خاطر ، وليس لي رغبة فيها أنا رغبتي في النار ، أفضّل أن أكون في النار لا أرغب الجنة " !! هل أحد بهذه الصفة ؟ لا أحد يكون كذلك . ولهذا قالوا: ((**ومن يأبى يا رسول الله ؟!**)) من هو هذا الذي تعرض عليه الجنة ويقال أدخل الجنة ويقول أنا لا رغبة لي فيها ولا أريدها!! فقال النبي عليه الصلاة والسلام مبيّناً : ((**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**)) ؛ والله عندما نقرأ هذا الحديث وأمثاله نرى فيه جلياً نصح نبينا عليه الصلاة والسلام لأمته بالأساليب النافعة المؤثرة التي تأخذ القلوب مأخذاً عجيباً ، يعني هنا لما أراد أن يبين هذه الحقيقة لو أنه قال: " من عصاني لا يدخل الجنة " ألا تدل هذه الجملة تدل على المقصود؟ تدل عليه ؛ لكن من كمال نصحه وبيانه وشده للقلوب وحرصه على الناس ينوّع الأساليب في أحاديثه ﷺ ، فجاء هنا قال : ((**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**)) : أي إلا من رفض أن يدخل، فأوجد تساؤلاً في قلوبهم ((**من يأبى؟**)) من ذا الذي تعرض عليه الجنة ويعرض عليه دخولها ويقول أنا لا أريد ! قال: ((**من أطاعني دخل الجنة**)) : أطاع الرسول عليه الصلاة السلام بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وهو عليه الصلاة والسلام والرسل قبله إنما أرسلوا ليطاعوا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[النساء/٦٤] ولهذا قال: ((**من أطاعني دخل الجنة**)) ؛ فالجنة سلعة غالية ولا سبيل إلى دخولها إلا بطاعة الرسول ؛ وإلا كما قال بعض أهل العلم : «فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الْأُصُولِ ، بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عليه الصلاة والسلام؟!» ، وكيف أيضاً يرام دخول الجنة وبلوغ هذا التمام في المنة بغير إتباع السنة –سنة النبي الكريم ﷺ – فهذا أمر لا يكون ، وهذا بيّن في قوله ((**من أطاعني دخل الجنة**)) ؛ الجنة لها مفتاح ومفتاحها طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام وإتباعه والسير على منهاجه ﷺ . ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء/٦٩] . فلا يكون هذا إلا بطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام .

((**ومن عصاني فقد أبى**)) : أبى أن يدخل الجنة ، الذي يعصي الرسول كأنه يقول أنا لا أريد الجنة ؛ لأن عصيان الرسول عليه الصلاة والسلام يوصل إلى النار لا يوصل إلى الجنة ؛ لا يوصل إلى الجنة إلا طاعة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بامتثال أمره واجتناب نهيه .

لاحظ العموم الذي جاء في أول الحديث ؛ قال : ((**كل أمتي يدخلون الجنة**)) هذا عام ، لكن هذا العموم ليس على إطلاقه ، ولهذا لما كان ليس على إطلاقه لم يتركه النبي عليه الصلاة والسلام مطلقا وإنما قيّده قال: ((**إلا من أبى**)) ، فالعام إذا كان يحتاج إلى تقييد فإن مقتضى نصح الناصح صلوات الله وسلامه عليه ألا يتركه على إطلاقه.

وهنا تستفيد فائدة : قول النبي ﷺ ((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) هل هذا العموم على إطلاقه أو مقيد يُستثنى منه شيء؟ هل يُستثنى منه شيء بحيث نقول : هناك بدع ليست ضلالة بدع حسنة ؟ هل هذا العموم على إطلاقه ؟ لو كان هذا العام ليس على إطلاقه لقيّده الناصح عليه الصلاة والسلام ، كان يكرر كل جمعة ((كل بدعة ضلالة)) ، فلو كان هذا العام ليس على إطلاقه لقيّده كما قال هنا: ((**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**)) ؛ فهذا يفيدنا أن مقتضى النصح – وهو الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه– ألا يترك الأمور العامة على إطلاقها إذا كانت مقيدة كما هو واضح هنا ؛ قال: ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى ؟ يا رسول الله)) إلى آخر الحديث. فإذاً قوله: ((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) هذا عام على إطلاقه ، ولو كان من البدع ما ليس ضلالة لبيَّن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لقال : كل بدعة ضلالة إلا ما كان من البدع مثلا كذا وكذا فهو حسن . لكنه أبقاه على إطلاقه ، فكل بدعة ضلالة ، فلا يسوغ لأحدٍ أن يأتي ويقول بعد هذا العموم المطلق أن هناك بدع حسنة . فهذا فيه خطورة جداً نبّه عليها الإمام مالك بن أنس عندما قال : ((من قال في الدين بدعة حسنه فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فما لم يكن ديناً زمن محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه فلن يكون اليوم دينا)) ، ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة . فالدين هو ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، ((وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)).

وهذه فائدة ذِكرها مناسب ولاسيما مع قربنا من قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) ؛ فكل محدث في الدين مردود ، لا يستثنى من ذلك شيء ؛كل محدث في الدين وكل عمل يُتقرب به إلى الله ليس من دين الله فهو مردود على صاحبه لعموم قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) .

ولما فتح بعض الناس لأنفسهم باباً تحت البدعة الحسنة دخلوا في ضلالات كثيرة وبُعدٍ عن سنة النبي ﷺ ، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله : «من استحسن فقد شرَع» ، من يأتي بأمور في الدين يستحسنها فهذا يشرع في الدين ما لم يأذن به الله ؛ لأنه لو كان من الشرع لأمر به الرسول عليه الصلاة والسلام ، أليس كلنا نعتقد أنه ﷺ ما ترك خيراً إلا ودل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه ؟ إذاً ما الحاجة إلى البدع ؟! يقول ﷺ : ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ)) ، ونبينا عليه الصلاة والسلام بلّغ البلاغ المبين ونصح عليه الصلاة والسلام ، وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه؛ فجزاه الله عن أمته خير الجزاء وصلى الله عليه وملائكته وأنبيائه ورسله والصالحون من عباده .

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ : مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبٌ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ)) رواه البخاري .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : «قوله (سنة الجاهلية) يندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيدة، أي في شخص دون شخص ، كتابية أو وثنية أو غيرهما ، من كل مخالفة لما جاء به المرسلون» .

****

قال المصنف رحمه الله وغفر له : وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ **)) ؛ أولاً هنا فيه إثبات هذه الصفة لله ﷻ أنه يبغض كما أنه ﷻ يحب ، قال في القران ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤] أي أهل الإيمان وأهل الاستقامة أهل الصلاح ؛ فهو يحبهم وهم كذلك يحبونه ، و﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] ، و﴿ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف:٤] ، جاء ذكر محبته ﷻ لعباده ، وجاء أيضاً إثبات البغض في القران ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣] والمقت : شدة البغض ، فالله ﷻ يحب ويبغض .

والعاقل عندما يعرف هاتين الصفتين يجتهد غاية الاجتهاد في معرفة ما يحبه الله ﷻ ليفعله ، ومعرفة ما يبغضه الله ﷻ ليجتنبه ويتركه ، وهذا كما نبّه أهل العلم فيه الثمرة العظيمة التي ينالها من آمن بصفات الله تبارك وتعالى وأسمائه ، أما من يعطلون أسماء الله وصفاته أو يتأولونها على غير مرادها ويحرفونها عن معناها ومدلولها فإن هؤلاء يقطعون على أنفسهم وعلى غيرهم الآثار المباركة والعوائد الحميدة التي تنال بالإيمان بأسماء الله ﷻ وصفاته .

كم للإيمان بهذه الصفة وغيرها من الصفات من الأثر العظيم على العبد!! المسلم عندما يقرأ هذا الحديث ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ**)) يحذر من هذه الصفات غاية الحذر ، لأنها صفات قبيحة ذميمة يبغضها رب العالمين ﷻ ، وهذا الحذر ، وهذا الحذر وهذا الخوف الذي ينشأ عند من يثبت لله ﷻ صفاته لا يتحقق لمعطلة الصفات ممن يحرفونها عن وجهها ويصرفونها عن معناها ومدلولها . والواجب على المسلم أن يكون في هدا الباب على جادة أهل السنة ؛ إمرار صفات الله ﷻ كما جاءت والإيمان بها كما وردت دون تحريف أو تعطيل ودون تكييف أو تمثيل .

قال : ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ**)) ؛ ذِكر الرقم هو من حُسن التعليم وحسن البيان ، فإذا عرفت أن أبغض الناس إلى الله ﷻ ثلاثة فإن ذِكر الرقم يعينك على ضبط المسألة وإتقانها . لم يقل " أبغض الناس إلى الله من فعل كذا ومن فعل كذا ومن فعل كذا" ؛ وإنما ذكر الرقم من أجل أن تُضبَط ، وتكون مضبوطة عند المسلم.

قال : ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ : مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبٌ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ هذه ثلاثة خصال أو ثلاثة صفات أو ثلاثة أعمال أهلها هم أبغض الناس إلى الله ﷻ ؛ «**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**» ، وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ كلها تُعَدُّ من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ، والله ﷻ يقول : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] ، كل هذا من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ببعثة النبيين عليهم صلوات الله وسلامه ؛ فالأنبياء يبعثهم الله ﷻ لإصلاح الأرض ، وهداية الخلق ، ودعوة الناس إلى الخير والفضيلة ، وتحذيرهم من الشر والرذيلة ؛ فمن الإفساد بل من أعظم الإفساد في الأرض فعل هذه الأمور ، وخُصّت هذه الأمور الثلاثة بالذكر لأنها أشد أنواع الإفساد وأخطره . والإفساد في الأرض على نوعين :

- ❖ إفسادٌ في الأرض يتعلق بدنيا الناس وحياتهم .
- ❖ إفساد في الأرض يتعلق بدين الناس وعبادتهم .

وأخطر شيء من أنواع الإفساد في الأرض مما هو متعلقٌ بدنيا الناس وحياتهم : قتل النفوس المعصومة وإراقة الدماء المحرمة وإزهاق الأرواح ؛ ولهذا ذُكر هذا الأمر مضموماً إلى الشرك الذي هو أعظم الذنوب ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الفرقان:٦٨] ، وهذا النوع من الإفساد الذي يتعلق بدنيا الناس وحياتهم ذكَره النبي عليه الصلاة والسلام هنا بقوله: ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ مطَّلب: يعني يبتغي ويريد ويسعى في إراقة دم مسلم بغير حق . والحق لا يحدده هوى الإنسان ومبتغاه ، وإنما يحدده شرع الله ﷻ ، ولهذا قال النبي ﷺ : ((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ)) ، فإراقة الدم بغير حق من أعظم الجرم وأكبر الذنب .

قال: ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ ليهريق دمه : أي يريق دمه ويقتله بغياً وظلماً وعدوانا ، وقد جاء في الحديث ((يَأْتِي الْمَقْتُولُ مُتَعَلِّقًا رَأْسَهُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ، مُتَلَبِّبًا قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، فَيَقُولُ الْمَقْتُولُ لِلَّهِ: رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي)) ، فهذا نوع من الفساد خطير جداً وهو يتعلق بدنيا الناس وحياتهم .

والنوع الثاني من الفساد : فساد يتعلق بدين الناس وعبادتهم ، وهذا القسم على نوعين :

١- نوعٌ يتعلق بمحل العبادة ومكانها .

٢- ونوعٌ يتعلق بالعبادة نفسها والعمل نفسه .

وقد ذكر عليه الصلاة والسلام هذين النوعين من الفساد فقال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) ؛ قوله ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) هذا فساد يتعلق بمحل العبادة ومكانها .

قوله ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) هذا فساد يتعلق بمحل العبادة ومكانها ؛ والحرم الذي فيه بيت الله وهو قبلة المسلمين ، ومهوى أفئدة المؤمنين ، وفيه يطوف الطائفون متقربين لرب العالمين له حرمة ﴿مَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] فهذا فساد يتعلق بموضع العبادة ومحلها ؛ بل يتعلق بأشرف مواضعها وأفضل محالّها ، وقد جاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام أنها بمائة ألف صلاة ، وليس هناك مكان في الدنيا يوازي هذا المكان في هذه الفضيلة العظيمة ؛ ولا حتى المسجد النبوي ، لأن الصلاة في مسجد النبي ﷺ بألف صلاة ، والصلاة في المسجد الحرام تزيد عنه بمائة ضعف ، فإذاً أعظم ما يكون فساداً في الأرض يتعلق بالدين ويتعلق بمحل العبادة: الإلحاد في الحرم .

ولتلاحظ هنا : أن في كل عمل من هذه الأعمال يُذكَر أشنعه ؛ فالإلحاد في الحرم هو أعظم وأشنع أنواع الإلحاد في مواضع العبادة وأماكنها ؛ قال: ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) يعني أن يصل به الحال ويبلغ به الأمر إلى درجة أن أشرف أماكن العبادة وأعلاها شأناً وأرفعها مقاماً ومكانةً يلحِد فيه ، ومن يقع منه الإلحاد في أشرف محالّ العبادة وأعظمها فإن وقوع الإلحاد منه في أماكن العبادة التي هي دون هذا المكان من باب أولى . فهذا يبين لنا شناعة حال وسوء فِعال من يلحد في الحرم ؛ أي من يبلغ به الحال في تجاوزه وتعديه وظلمه وبغيه إلى درجة أنه لا يعرف للمكان فضله وشرفه ومنزلته وقدره ، والله ﷻ يختار من البقاع ما يشاء ومن الأزمنة ما يشاء ؛ حرّم مكة وحرّم الأشهر الحُرم ، حرّم أمكنةً وحرّم أزمنة ، وما يحرّمه الله ﷻ يجب على المسلم ألا يكون فيه من أهل ظلمٍ أو تعدٍّ أو تجاوزٍ أو طغيانٍ ، لأن الظلم والتعدي في كل وقت شنيع ، وفي الزمان الفاضل أشنع ، وفي المكان الفاضل أشنع ، وإذا اجتمع شرف زمانٍ وشرف مكانٍ وسوء فعالٍ فهذا – والعياذ بالله– من شر ما يكون وأفسد ما يكون .

قال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) ؛ الحرم المراد به : مكة التي حرمها الله تبارك وتعالى ، وقد جاء في الحديث: ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ)) ، والمراد بتحريم إبراهيم مكة : أي إظهاره حرمتها ؛ وإلا فالذي يحرم الله رب العالمين ، والمراد بتحريم النبي ﷺ للمدينة : أي إظهار حرمتها ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[النور:٥٤] . فهي بلدٌ حرام حرّمها الله ﷻ ، وقد أكد وذكَّر عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع بحرمة البلد ، وكان أهل الجاهلية يعرفون حرمته ، قال ((أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟)) قالوا : بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام ، فقال: ((فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا)) .

والإلحاد أصله في اللغة : الميل والعدول ؛ يقال ألحد السهمُ عن الرمية : أي مال ولم يُصِب الهدف ، ومنه تسمية اللحد في القبر لحداً لأنه يميل عن الاستقامة إلى جهة القبلة ، والإلحاد دركات . والملحِد في الدين : هو من يكفر برب العالمين ويجعل مكان تعظيم الله وإجلاله والخضوع له ﷻ الجحد والعناد والإنكار ، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:١٨٠] إما بتعطيلها ، أو جحدها ، أو إنكارها ، أو تشبيه أسماء الله وصفاته بخلقه ، أو غير ذلك من أنواع الإلحاد .

في قوله ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) ؛ حدّد النوع المراد بالإلحاد ((ملحد في الحرم)) : أي يفعل الإلحاد ويمارس الإلحاد في الحرم ، والمراد بالإلحاد هنا : الذنوب العظام والجرائم ، ففِعْلها في كل وقت وفي كل زمان حرام ، ولكن فعلها في الحرم أشد جرماً وأعظم إثماً وأكبر خطيئةً ؛ لما قام في قلب فاعلها من عدم الاحترام للبلد الحرام الذي حرّمه الله تبارك وتعالى . قال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) ؛ هذا أعظم الإفساد فيما يتعلق بمحل العبادة .

والنوع الثاني من الإفساد : إفساد يتعلق بالعمل والعبادة نفسها .

قال: ((**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) ؛ **مُبْتَغٍ**: أي مريدٍ وطالبٍ ، **فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**: أي يبحث ويطلب ويريد سنة الجاهلية ؛ فيسعى في إقامتها ونشرها والدعوة إليها والترويج لها ؛ فهذا إفساد ، وأيُّ إفساد أعظم من هذا ؟! الله ﷻ أصلح الأرض ببعثة المرسلين ثم يأتي من يأتي لينشر بين الناس سنة الجاهلية التي أبطلها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام !!

ولكي يظهر لك شناعة هذا الإفساد وعظم هذا الجرم ؛ تأمل في الجهد العظيم والجهاد الكبير الذي أمدّ الله ﷻ به رسولنا ﷺ ومن كان معه من الصحابة الكرام في إظهار هذا الدين ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[الفتح:٢٨] ، فكان منه عليه الصلاة والسلام ومن صحابته جهود عظيمة وتضحيات وبذل في نشر هذا الدين ، وقد بُعث عليه الصلاة والسلام في حال ساء فيه وضع البشرية سوءًا عظيماً وخيّم في أرجاء الأرض الظلام ، قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) يعني إلا قلة ونوادر ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قلائل جداً ، وإلا فالأرض كلها استحكمت بالظلام وخيّم الباطل في أرجائها وضرب بأطنابه في جنباتها؛، فشاع الظلام ، وانتشر الباطل ، وعمّت الخرافات ، والتبس الدين عند الناس فلا يعرفون حقاً ولا يُنكرون منكرا ؛ يراق الدم ولا يدري صاحبه بما أريق دمه ، يكفي في هذا جاهليةً عند أولئك إراقة دماء الإناث ، وهذا شاع فيهم ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨-٩] ، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[النحل:٥٨-٥٩] ؛ جاهلية

جهلاء ، حتى ذكر أهل العلم في هذا الباب أن من جاهلية أولئك في هذا الأمر ومما امتلأت به قلوبهم من ظلام وكراهية وبغضاء للأنثى: أن بعضهم كان لا يتحمل أن تبقى له أنثى على وجه الأرض ولا دقيقة واحدة ، حتى ذكروا في كتب التاريخ أن بعضهم إذا اقترب وقت وضع زوجته يحفر حفرة عميقة بجنبها وتطلق زوجته وتلد بجنب الحفرة ، وأول ما يخرج المولود ينظر فيه الوالد؛ إن كان أنثى ما يبقى ولا لحظة واحدة ، من رحم الأم إلى الحفرة مباشرة ، مجرد ما يخرج من رحم الأم رأسا إلى الحفرة في نفس الوقت ، ربما لا يُسمع له صراخ فيرميه في الحفرة ويهيل عليه التراب . من مِثل هذه المآسي شيء كثير . أنكحة الجاهلية، عدّدت عائشة رضي الله عنها أنواعاً من الأنكحة ؛ فساد في الأعراض ، إراقة في الدماء ، انتهاب للأموال . أما عن باب العبادة والإخلاص لرب العالمين فهذا لا وجود له ؛ بل ليس إلا الوثنية والتنديد والتعلق بالتراب وبالأحجار والقبور والأشجار وتسوية هذه الأشياء بالرب العظيم والخالق الجليل ، قال تعالى : ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧ -٩٨] ، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥] ، يحب حجراً مثل حبه لله ﷻ ، لا إله إلا الله! حجر لا يعطي ولا يمنع ولا يخفض ولا يرفع ولا يملك لنفسه حولاً ولا قوة فيحِبه حباً مساويا لرب العالمين !! ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ انشغلوا بالإقبال على الحجارة وعلى الأشجار يعبدونها ويتبركون بها ويطلبون منها المدد والعون والشفاء والعافية ، وكان لهم في هذا الباب غرائب وعجائب .

كان بعض من أسلم يحكي شيء من هذه الغرائب ؛ مثل قول أحد الصحابة : قال كنا في سفر يعني في وقت الجاهلية ، وكان معهم حجر جميل حسن الشكل فكانوا يعبدونه في الطريق أينما وقفوا وأينما حلوا ، يقول : ففُقد هذا الحجر ونحن في الطريق ، فنادى منادٍ : يا قوم إنا فقدنا ربكم فالتمسوه – ابحثوا عن ربكم ضاع – فتفرقنا في الأودية نبحث عن الرب المفقود ، فإذا بمنادٍ ينادي : يا قوم إنا وجدنا ربكم أو شِبْهَه)) وجدوا حجر آخر ، ففرحوا وأقبلوا عليه يعبدونه ، جاهلية جهلاء !! أنقذنا الله ﷻ من هذه الجاهلية ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] ، فهذه منّة عظيمة منّ الله ﷻ بها على البشرية ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ حيث خلّص الله ﷻ بها الناس من هذه الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء.

ولما بدأ عليه الصلاة والسلام بالدعوة أوذي ﷺ أذىً عظيماً ، وحمل عليه أهل مكة حملة شنيعة ، وآذوه أذىً بالغاً، وطردوه ، ورمَوه ، ووضعوا عليه الأذى وفي طريقه ، وكالوا له أنواع السباب والشتائم ، ووصفوه بشنائع الصفات ؛ وصفوه بالسحر والجنون إلى غير ذلك ، وهو عليه الصلاة والسلام صابر مجاهد حتى كتب الله ﷻ لدينه الظهور ولِما جاء به التمكين ؛ مكّن له ولدينه .

وانظر –رعاك الله– وتأمل في موقف عجيب يتعلق بهذا الباب : عندما حج عليه الصلاة والسلام حجة الوداع وفي يوم عرفة أشرف الأيام وأعظمها وخيرها ؛ لما وقف ﷺ في ذلك اليوم وخطب الناس ماذا قال في خطبته مما يتعلق بموضوعنا هذا ؟! ، وتأمل أن مقولته لهذه المقالة في البلد الذي كان إلى وقتٍ قريب مخيّمة فيه الجاهلية أعظم تخييم ويحارِب أهله الحق أشد محاربة ، فماذا قال عليه الصلاة والسلام في هذا الموضع وفي تلك الخطبة! ، انظر عزة الإسلام وتمكين الله تبارك وتعالى له ، قال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ)) ، أين وضع عليه الصلاة والسلام كل جاهلية ؟ تحت قدميه في مكة ؛ التي خيمت فيها الجاهلية وأظلم فيها الأمر وحورب فيها الحق وعودي أهله ، أعز الله تبارك وتعالى دينه وكتب له الظهور وقال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ)) . هنا لابد أن تنظر متأملاً : النبي ﷺ وضع الجاهلية أين!! تحت القدمين ، فكيف يليق بإنسان يدَّعي أنه متبعٌ للرسول عليه الصلاة والسلام ثم يسعى ليسُنّ في الناس سنة الجاهلية !!

مرة ثانية ؛ نبينا عليه الصلاة والسلام بذل جهداً مُضنياً وجهاداً عظيماً ونصحاً بالغاً ودعوةً متواصلة لإبطال الجاهلية بعون من الله ومد إلى أن وصل إلى هذا الموقف العظيم ، الموقف الذي ظهرت فيه عزة الإسلام والتمكين للدين فقال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ)) ، فكيف يليق بمن يدَّعي إتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ثم في الوقت نفسه يسن في الإسلام سنة الجاهلية !!

وبهذا يتبين خطورة هذا الأمر وأنه أبغض الأعمال إلى الله ﷻ ؛ ((**مُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) يعني بعد أن بذل النبي عليه الصلاة والسلام تلك الجهود الضخمة العظيمة لإبطال الجاهلية وهدمها وإلغائها ووضْعها تحت القدمين ثم يأتي أناس ليسنّوا في الإسلام سنة الجاهلية !! هذا جرمٌ عظيم للغاية وذنبٌ كبير جداً ؛ أن يأتي إنسان ويسعى ليسن في الإسلام سنة الجاهلية فيبوء بإثمٍ عظيم؛ لماذا؟ لأنه يهدم ، لأنه يفسد ، لأنه يُضِل بعد أن أُصلحت الأرض ببعثة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] .

من ينادي لتعظيم الأوثان والتعلق بغير الله والتعلق بالحروز وغيرها مما هو صرفٌ للقلوب عن التعلق بالله ﷻ هذا من أعظم ما يكون في سن سنّة الجاهلية في الإسلام ، وكذلك من يدعو إلى أنواع الخرافات التي كان عليها أهل الجاهلية والضلالات التي كانوا عليها فقد سن في الإسلام سنة الجاهلية. وسنة الجاهلية : الطرائق والأعمال التي كان عليها أهل الجاهلية وقد حاربها النبي عليه الصلاة والسلام .

وهنا يتبين لنا حاجة الإنسان أن يعرف ولو معرفةً مجملة بما كان عليه أهل الجاهلية ليحذر منه ، قال عمر رضي الله عنه ((تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةَ)) ، لماذا؟ لأنه تُدخل عليه الجاهلية من حيث لا يشعر ، ويُدخل عليه فسادها من حيث لا يدري ، ولهذا يحتاج الإنسان أن يكون على معرفة من خلال ما ورد في النصوص والأدلة بأمور الجاهلية ليحذر منها ، وقد نصح مؤلف هذا الكتاب المسلمين نصحاً

بالغاً بتأليفه مصنفاً قيّماً وكتابا عظيمًا نافعًا أسماه : «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» ؛ كتاب من أعظم ما يكون عدّد فيه مسائل الجاهلية وخصال الجاهلية ، وشُرح هذا الكتاب وطُبع طبعات كثيرة . وقراءة المسلم مثل هذا الكتاب ولو مرة في حياته يفيده فائدة عظيمة ؛ لأنه يعرف هذه الخصال من أجل أن يتقيها ويحذرها ويحذِّر منها .

تعلم الشر لا للشر ولكن لتوقيه فإن من لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

فيعرفها ليحذر منها ، " كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!! " ، يقول حذيفة ﷺ : ((كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)) ، فكتاب «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له كتاب من أعظم ما يكون وأنفع ما يكون ؛ لأنه عدّد فيه رحمه الله مسائل الجاهلية وخصالهم وأعمالهم التي جاء الإسلام بهدمها وإبطالها ، التي وضعها نبينا عليه الصلاة والسلام تحت قدميه عندما خطب الناس في حجة الوداع.

ولعل هنا من المناسب الإشارة إلى فائدة تتعلق بمن حج : إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وضع في حجة الوداع أمور الجاهلية كلها تحت قدميه ؛ فيا من أكرمك الله ﷻ بالحج ومنّ عليك بالحج فلتعُد منه وأنت متباعد ومجانِب غاية المجانبة وحذِرٌ غاية الحذر من الجاهلية وخصالها وأعمالها التي وضعها نبينا وقدوتنا صلوات الله وسلامه عليه تحت قدميه عندما حج حجته المعروفة بحجة الوداع ، وكانت وصاياه عليه الصلاة والسلام وصايا مودع ، ومن المعلوم أن وصية المودع لها شأن خاص ((كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا)) ، فمن أكرمه الله تبارك وتعالى بالحج ليستشعر هذا الأمر وليكن على حذر بالغ وحيْطة شديدة من أمور الجاهلية ، ويعينك على تحقيق هذا المرام وتحقيق هذا المطلَب الاستفادة من هذا الكتاب الذي أشرتُ إليه ؛ كتاب «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» تقرأ الكتاب وتعرف هذه الخصال وتلك الأعمال التي كان عليها أولئك وتجتهد وتجاهد نفسك في البعد عنها والحذر من الوقوع فيها مستمداً من الله ﷻ وحده العون والتوفيق.

إذاً قوله هنا ((**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) هذا يتعلق بالفساد في العمل ، و ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) الفساد في محل العمل ، ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) متعلق بفساد الدنيا. وكل هذه الثلاث أعظم وأشنع فساد يُعدّ في بابه وأشنع فساد يُعدّ في بابه ؛ فأعظم فساد يتعلق بمحل العبادة : الفساد في الحرم ، وأعظم فساد يتعلق بالعبادة والعمل : أن يُبتغى فيها سنة الجاهلية ، وأعظم فساد يتعلق بحياة الناس : إراقة دماءهم بغير حق . فجمع النبي عليه الصلاة والسلام هذه الخصال الثلاث في الذكر .

ثم أتبع المصنف رحمه الله هذا الحديث بنقلٍ عظيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية من كتابٍ له أيضا يتعلق بهذا الباب؛ وهو كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» وهو كتاب عظيمٌ جداً في بابه ، جمع فيه مصنفه رحمه الله من أنواع الأدلة والبراهين في باب التحذير من التشبّه بأصحاب الجحيم ، أصحاب الضلال ،

أصحاب الباطل ، أصحاب الكفر . والحاجة ماسة ولاسيما في زماننا إلى قراءة هذا الكتاب الذي كثر في الناس التشبه بأعداء الدين ، وقد بسط شيخ الإسلام رحمه الله في اقتضاء الصراط المستقيم ما يتعلق بالتشبه وأنواعه وأسبابه ، والدلائل من الكتاب والسنة على خطورة هذا الأمر والتحذير منه ، وجمَع من ذلك ما لا تجده في مؤلَّف آخر .

فهذان كتابان عليك بهما :

- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم .
- مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها .

قال : ((**قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : قوله «سنة الجاهلية» يندرج فيه كل جاهليةٍ مطلقة أو مقيدة أي في شخص دون شخص كتابيةٍ أو وثنيةٍ أو غيرهما من كل مخالفة لما جاء به المرسلون**)) .

أورد المصنف رحمه الله هذه الكلمة لشيخ الإسلام لأن فيها بيان للمراد بسنة الجاهلية ، وهذا البيان يُحتاج إليه حتى لا يظن ظان أن المراد بسنة الجاهلية أمر معيّن مخصوص أو عمل معيّن ، فأراد أن ينبّه أن سنة الجاهلية كل أمر كان عليه الجاهلية مما جاء الإسلام بهدمه ومخالفته . وخرج من هذا الكلام بضابط ؛ أن الجاهلية : كل أمر مخالف لما جاء به المرسلون ، لأن المرسلون جاءوا بالحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾[يونس:٣٢]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء :٨١] ، فالجاهلية : كل أمر خالف ما عليه المرسلون ؛ سواء في باب العلم أو في باب القول أو في باب العمل، حتى لو أن إنساناً فعل أموراً هي من خصال الجاهلية وهو عالِم بأنها محرمة عالم بدليل تحريمها ففِعله هذا يُعدّ جاهلية ؛ فالجاهلية: هي مخالفة ما جاء به المرسلون ؛ سواء في العلم أو القول أو العمل . وشيخ الإسلام ابن تيمية له شرْح لهذا الحديث ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ**)) في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» في صفحات تبلغ الأربع أو الخمس صفحات ، وذكر فيه فوائد ولطائف مهمة جداً ينبغي على طالب العلم أن يقف عليها.

من خلال هذا التعريف يتبين لنا أنّ من ابتغى في الإسلام شيئاً من أعمال اليهود أو أعمال النصارى أو أعمال الوثنيين أو أعمال أياً من المنحرفين عن الحق والدين كل أولئك من المبتغين في الإسلام سنة الجاهلية ، فلا تُحصر الجاهلية بما كان عليه المشركون في مكة ، ولا تُقيَّد الجاهلية بعملٍ واحد من أعمالهم ؛ بل سنة الجاهلية: كل أمر يخالف ما جاء به المرسلون .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح عن حذيفة ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا ، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»

****

ثم أورد هذا الحديث قال: ((**وفي الصحيح عن حذيفة ﷺ قال: يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)) ؛ خص في هذه الوصية بالذكر القرّاء ، مع أن هذه الوصية في حق كل مسلم ، ولكنه خص القراء الذين لهم عناية بالقرآن وحفظ له وعناية بإتقانه وضبطه لأنهم أصبحوا موضع قدوة للناس ومحل نظر لهم ، فقال محذّراً وموصياً للقرّاء : ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا**)) أي الزموا الاستقامة . والاستقامة : هي معرفة الحق والثبوت عليه ولزومه ، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[هود:١١٢] ، ولا يمكن للإنسان أن يستقيم كما أمِر إلا أن يعرف أولاً بم أمِر؟ ثم يحافظ عليه ؛ فيعرف المأمور ويحافظ عليه محافظة تامة إلى أن يلقى الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠] . فالاستقامة: هي معرفة الحق ولزوم الحق.

وهذا فيه تنبيه من حذيفة إلى أن قارئ القرآن يحتاج مع قراءته للقرآن وحفظه له إلى أمرين لابد منهما ؛ الأول: معرفة معاني القرآن ودلالاته . والثاني: العمل بالقرآن . وهذا هو المراد بقوله تعالى:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[البقرة:١٢١] قال العلماء : تلاوة القرآن حق التلاوة بأمور ثلاثة : بالحفظ ، والفهم ، والعمل . والعمل نفسه يسمى تلاوة ؛ ليست تلاوة القرآن مجرد إتقان حروف القرآن ؛ تلاوة القرآن : بالحفظ والفهم والعمل بالقرآن . وبعض الناس ينشغل بالقراءة وتنميقها وتحسينها عن الغاية التي أنزل لها القرآن وهو العمل كما نبّه على هذا المعنى الحسن البصري بقوله : «أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً» وأصبحت صناعة ، وأما العمل بالقرآن فهذا لا يُهتم به ، وقد قال الحسن البصري عن جماعة القراء في زمانه : «يقول أحدهم: قرأت القرآن كله فما أسقِط منه حرفا -يعني قراءة متقنة مجوّدة مضبوطة- ، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى عليه القرآن في خُلق ولا عمل، - ثم قال الحسن- لا والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة، وإذا كان الناس مثل هذا فلا كثر الله في الناس مثل هؤلاء» ؛ هكذا قال الحسن في زمانه !!

فالقرّاء لهم اعتبار خاص ولهم وضع خاص ، فخصّهم حذيفة ﷺ بهذه الوصية العظيمة قال : ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا**)) يعني الزموا الاستقامة ، والله يقول: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ، ويقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

((**اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا**)) ؛ لأن القارئ للقرآن تميّز عن غيره بأمر، وهو : قراءته القرآن، وعنايته به ، وحفظه له ، ومحافظته عليه ، وإكثاره من تلاوته ، ومراجعة معانيه ودلالاته ، وكتاب الله عز

وجل كتاب يهدي للتي هي أقوم. ((فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا)) ؛ لأن سبْق من كان هذا شأنه سبْقٌ بعيد ؛ لأن لديه علمٌ واسع وفهمٌ كبير ومعرفة بكتاب الله ﷻ كتاب الهداية.

قال: ((**فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)) ؛ إذا كان قارئ القرآن حافظ القرآن ضابط القرآن يميل يمين وشمال وينحرف هنا وهناك فهذا أخطر ما يكون ، لأن القرآن سيأتي يوم القيامة حجةً عليه كما قال عليه الصلاة والسلام : ((وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)) ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)) رواهما مسلم في صحيحه. فالخطورة فيما يتعلق بأهل القرآن أشد ولهذا خصهم حذيفة بهذه الوصية ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)) .

وإيراد المصنف رحمه الله لهذا الأثر عن حذيفة في ((باب الدخول في الإسلام)) لأن فيه بيان حقيقة الإسلام؛ وهي : الاستقامة على دين الله ﷻ بدون التواء لا يمين ولا شمال وبدون روَغان ، هذا هو الإسلام ، حقيقة الإسلام: الاستقامة على دين الله كما أُمر العبد دون أن ينحرف عنه لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ وهذا الأمر مطلوبٌ من كل مسلم ؛ ليس مطلوب من القراء فقط ؛ مطلوب من كل مسلم، لكن حذيفة رضي الله عنه خص القراء بالذكر لأنهم في موضع القدوة ، والمسؤولية في حقهم أعظم بما آتاهم الله ﷻ من الحفظ والقراءة والمعرفة بكلامه ﷻ ، فكان الأمر في حقهم أعظم ولهذا خصهم بالذكر ، وإلا فإن الاستقامة وعدم الانحراف ذات اليمين وذات الشمال أمر مطلوب من كل مسلم . فالمصنف رحمه الله أورد هذا الأثر في ((**باب الدخول في الإسلام**)) لأن فيه بيان حقيقة الدخول في الإسلام ، وأن حقيقة الدخول في الإسلام: الاستقامة على دين الله كما أمِر العبد دون أن يميل عنه ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ لا إلى بدع محدثات ، ولا إلى سننٍ جاهلية ، ولا إلى غير ذلك من أنواع الضلالات .

قال رحمه الله:

وروى عن محمد بن وضاح عن حذيفة: أنه كان يدخل المسجد فيقف على الحِلَق فيقول ؛ فذكره .

****

((**وعن محمد بن وضاح**)) ؛ محمد بن وضاح له كتاب مطبوع في البدع والنهي عنها وهو من علماء المالكية ، وكتابه هذا قيم ونافع جداً في التحذير من البدع وبيان خطورتها على الناس .

فأورد رحمه الله –أعني محمد بن وضاح في كتابه البدع والنهي عنها– ((**أنه**)) الضمير هنا يعود إلى حذيفة .

أنه أي حذيفة ((**كان يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول" فذكره** ")) ؛ يقف على الحِلق التي فيها يجتمع الطلبة لقراءة القرآن وحفظه ، فكان يوصيهم بهذه الوصية . وكم هو عظيم جداً أن ينشأ من يحفظ القرآن على

رعاية الاستقامة والعناية بها ، لا أن ينشأ قارئ القرآن مع حروفٍ لا يحرص على فهم معناها فضلاً عن أن يعتني بالعمل بما تقتضيه .

وهذا جانب فرّط فيه الناس كثيراً ، فاتجهوا إلى حفظ حروف القرآن مع إهمال بشكل كبير لفهم المعاني والعمل بما يدل عليه القرآن الكريم ، ونشأ عن ذلك أن يخرج الطالب وهو يظن في نفسه أنه من أهل القرآن لأنه جوده وأتقن قراءته ؛فيظن في نفسه أنه من أهل القرآن بمجرد هذا الحفظ وهذا الإتقان ، ولكنه مفرِّط في جانب كان محل اهتمام الصحابة واهتمام السلف رحمهم الله؛ وهو الفهم ومن ثم العمل ، فجمعوا بين العلم والعمل في قراءتهم لكتاب الله ﷻ . يجلس الطالب في الحلْقة عند أستاذه ويحفظ عل سبيل المثال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣-٢٤] ويكتب له المعلِّم مئة من مئة لأنه أتقن الحفظ وأتقن المخارج وأتقن التجويد ؛ ويكون في البيت عاق لوالديه ، من أسوأ ما يكون معاملةً في البيت مع والديه ، ويأخذ درجة كاملة في هذه الآية وهو في الحقيقة صفر !! إذا كان عاق لوالديه ويحفظ هذه الآية فهذه الآية حجة عليه ليست حجة له ؛ فهو لم يأخذ مئة ، أخذ فيها صفر إذا كان بهذه الصفة ، وقل مثل ذلك في بقية آي القرآن .

فيحتاج الطلبة في الحلَق إلى أن يربَّوا على العمل بالقرآن ؛ إذا حفظ أمثال هذه الآيات ينبَّه ويذكّر ويقال له اتق الله وانتبه ؛ هذا رب العالمين يأمرك بكذا كما قال ابن عباس: «إذا سمعت الله يقول : يا أيها الذين امنوا فأرعِها سمعك ، فإنه إما خير تؤمر به أو شر تنهى عنه» ، تربية على العمل وعلى الامتثال وعلى الطاعة والاستجابة .

يقرأ الطالب في الحلقة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ [الحجرات:١٢] وبمجرد ما تنتهي الحلقة يلتفت إلى زميله ويغتاب ، وهو للتوّ قرأ الآية وللتو حفظها وللتو سمّعها لشيخه وأستاذه !! وقُل مثل هذا كثير ؛ فيحتاج إلى هذه الوصية . إذا كان حذيفة يتتبع الحلق في زمانه يوصي بهذا الأمر فكم هي حاجة الناس في مثل هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن وكثرت فيه الصواد والصوارف عن دين الله تبارك وتعالى !! .

قال رحمه الله :

وقال أنبأنا سفيان بن عيينة عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق قال : قال عبد الله – يعني ابن مسعود رضي الله عنه– : «ليس عامٌ إلا والذي بعده أشر منه ، لا أقول عامٌ أمطر من عام ، ولا عام أخصب من عام ،

ولا أميرٌ خير من أمير ؛ لكن ذهاب علمائكم وخياركم ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم ؛ فيُهدم الإسلام ويثلم» .

****

ثم ختم رحمه الله هذا الباب بهذا الأثر عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال : ((**ليس عامٌ إلا والذي بعده شرٌ منه**)) ؛ هذه الكلمة صدرت من ابن مسعود ﷺ على وجه التحذير ، والتأكيد التام على المحافظة على الإسلام والدخول فيه ، والباب ((باب الدخول في الإسلام)) ؛ فأراد المصنف رحمه الله أن ينبه بإيراده لهذا الأثر إلى أن الناس مع مضي الأيام والأوقات الشر يزداد ويكثر ، فيحتاج المسلم حتى يكون من أهل هذا الدين وأهل الثبات فيه واللازمين للدخول فيه كما أمر الله ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ يحتاج إلى جهاد ومجاهدة ومواصلة في العلم وطلبه وتحصيله ، والبعد عن الآفات التي تصرف الناس عن الحق والهدى ؛ لأجل هذا أورد المصنف رحمه الله هذا الأثر في خاتمة هذا الباب ، لأن ابن مسعود أراد التحذير بقوله «**ليس عام إلا والذي بعده شر منه**» ؛ أي انتبهوا واحذروا وعليكم بالمحافظة على الإسلام والرعاية له والعناية به والحرص على تعلّمه والتفقه فيه والحذر من نواقضه ونواقصه .

ثم نبّه ابن مسعود ﷺ أنه لا يعني بـ «شرٍ منه» فيما يتعلق بالدنيا ؛ ((**لا أقول عام أمطر من عام**)) ؛ يعني ليس المراد ب«شر منه» : أي بقلة المطر أو قلة الأرزاق أو حصول الجدب ، ((**لا أقول عام أمطر من عام ولا عام أخصب من عام**)) لا أعني بقولي شر منه فيما يتعلق بالأمطار والخصب والأرزاق.

((**ولا أمير خير من أمير**)) أيضاً لا أعني هذا الأمر ؛ إذًا ماذا ؟!

قال : ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) يعني الشر يكون : بقلة العلماء وقلة الأخيار ؛ قلة العلماء الذين يبينون للناس دين الله ﷻ ، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويصلحون ما أفسد الناس . وقلة الأخيار الذين هم على الاستقامة وعلى المحافظة وعلى طاعة الله ﷻ ، فيكونون في مجتمعاتهم قدوات للآخرين ، إذا شرد الإنسان إلى بعض المعاصي ورأى هؤلاء كانوا له قدوة .

قال : ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) ؛ وإذا ذهب العلماء والأخيار ظهر الفساد وبرز حمَلته ، لأن حملة الفساد لا يبرزون إلا إذا عُدِم أو قلّ حملة الحق . وهذا فيه تنبيه إلى أن وجود حملة الحق ودعاته مزّق للباطل ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾[الإسراء:٨١] ، وأهل الباطل لا يجرؤون في نشره إلا إذا ضعف حملة الحق عن حمله وبيانه .

قال: ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) ماذا يحدث إذا ذهب العلماء والخيار؟

قال: ((**يحدُث أقوام**)) أي يوجد أقوام ((**يقيسون الأمور بآرائهم**)) ؛ يعني يكونون في تقريرهم لمسائل الدين يبنون ذلك على الآراء ، لا يعرفون الكتاب ولا يعرفون السنن وليس لهم عناية بالكتاب ولا بالسنة فيقيسون الأمور

بآرائهم ؛ شأنهم كما قال عمر «أعيتهم السنة أن يحفظوها فأعمَلوا عقولهم» ، فيقيسون الأمور بآرائهم ؛ تجده يقرر الحكم ليس مبنياً على آية ولا مبني على حديث ؛ وإنما مبني على الرأي ، والرأي هنا : هو الرأي المذموم الذي أُحدِثت به البدع وأنشئت به الضلالات ، وعُطلت به أسماء الله ﷻ وصفاته ، والاشتغال بالأقيسة الباطلة التي تُعطل بها الصفات وتلغى بها الأحكام ، "لو أنه كذا لكان كذا" هذه حجة هؤلاء ، ليست الحجة عندهم قال الله ولا قال رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإنما الحجة أقيسه عقلية .

ماذا يحدث إذا وجد هؤلاء ؟ قال : ((**فيُهدم الإسلام ويُثلم**)) ؛ أي بوجود هؤلاء .

إذاً ابن مسعود رحمه الله ورضي عنه قال ذلك محذِّرا وموصيًا بالعناية بالعلم والعمل ؛ العلم النافع كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، والعمل الصالح الذي شرعه الله ﷻ وأمر عباده به ، وأن الإنسان –ولاسيما عند كثرة الشر وكثرة أهله ودعاته– عليه أن يجتهد في تعلّم الدين ومعرفته لعل الله ﷻ يكتبه من أنصار الدين . ودين الله تبارك وتعالى منصور بعز عزيزٍ وذل ذليل ، فيجاهد نفسه على أن يكون من أنصار هذا الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والتوفيق بيد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وما شاء الله كان ، فالأمور بيده تبارك وتعالى وطوع تدبيره ، وقد كان نبينا ﷺ يقول كل يوم بعد صلاة الصبح ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا طَيِّبًا وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا)) .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٥ إلى الدرس ٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

٠٦/٠٨/١٤٤٠ هـ

الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب تفسير الإسلام وقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ **الآية** [آل عمران:٢٠] .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**بَابٌ تَفْسِيرُ الإِسْلاَمِ**)) ؛ بعد أن بيّن رحمه الله في البابين الماضيين فضل الإسلام وعظيم مكانته ووجوب الدخول فيه والمحافظة عليه عقد هذا الباب ليبين به تفسير الإسلام . والتفسير : هو التوضيح والكشف والبيان ؛ فتفسير الإسلام : هو توضيح وبيان حقيقة الإسلام ؛ تفسيره : بيان ما هو ؟ .

وكثير ممن كانوا يأتون النبي ﷺ يسألونه عن الإسلام ، وسيأتي بعض هذه الأحاديث عند المصنف رحمه الله.

الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ والذي هو دين الله ولا يرضى ﷻ ديناً سواه قد بيّنه النبي عليه الصلاة والسلام أتم بيان ، وأوضحه عليه الصلاة والسلام أكمل إيضاح ، فلم يدَع لقائل مقالة ؛ بل بيّنه ﷺ ، وما ترك شيئاً من أمور الإسلام إلا وبيّنها حتى نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] . وعليه ؛ فإن الإسلام هو دين الله الذي بعث به رسله عليهم صلوات الله وسلامه ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩] أي : الدين الذي ارتضاه ينحصر في الإسلام الذي بعث به رسله ، فكل عمل وكل طاعة وكل قربة يُتقرب بها ولم تأتِ عن رسول الله ﷺ فهي ليست من الإسلام ؛ الإسلام هو ما جاء به رسول الله ﷺ .

والإسلام : هو الاستسلام ؛ أسلم لله : أي استسلم له مخلِصاً متقرباً إليه تبارك وتعالى بما يحبه ويرضاه ﷻ.

أسلم لله ؛ هذا فيه أمران : فيه الإخلاص لله ، وفيه الانقياد؛ «أسْلَم» : أي استسلم وانقاد ، «لله» : أي مخلصاً.

فالإسلام لله فيه الإخلاص لله ، وفيه الانقياد لأمره تبارك وتعالى ، ولهذا من عبَد غير الله ﷻ ليس بمسلم؛ لأنه لم يسلم لله وإنما أشرك مع الله تبارك وتعالى غيره ، وكذلك من استكبر ولم يخضع لله ﷻ فهذا ليس بمسلم .

فالإسلام هو الاستسلام لله ، فيشمل أمرين ؛ يشمل الإخلاص والانقياد لله تبارك وتعالى ؛ أصل الإسلام في القلب ، وينبني على علامات القلب عمل الجوارح بالخضوع والانقياد والتذلل والقيام بالعبودية لله تبارك وتعالى .

وقد عرّف المصنف رحمه الله في بعض رسائله الإسلام بتعريف جامع فقال : «الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك»؛ هذه هي حقيقة الإسلام ، حقيقة الإسلام : «استسلامٌ لله» وهذا فيه الإخلاص لله ﷻ ، «والانقياد له بالطاعة» وذلك بلزوم أمره تبارك وتعالى وطاعته فيما أمر عباده به ، «والخلوص من الشرك والبراءة منه» بالبعد عنه والحذر منه ومن أهله . فهذه هي حقيقة الإسلام ، ومن لم يأت بهذه الحقيقة فليس بمسلم ، المسلم هو المستسلم لله ﷻ المنقاد البريء من الشرك البعيد عن الشرك ، ولهذا – كما قدمت – من عبَد مع الله غيره ليس بمسلم ، ومن استكبر عن عبادة الله تبارك وتعالى ليس بمسلم ، فالمسلم هو المستسلم لله الذي أسلم وجهه لله بالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أورد رحمه الله أولاً قول الله ﷻ : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ ؛ ساق هذه الآية ليبين بها تفسير الإسلام وحقيقته ، وهذه الآية يسبقها قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ .

قال : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾: أي إن حاجوك في هذا الدين الذي جئت به وما تدعوا إليه من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين وارتابوا مما جئت به ، إن حاجوك أي إن جادلوك في دينك الذي أُرسلت به وبُعثت به ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ وهذه حقيقة الإسلام ، وهو موضع الشاهد من الآية للباب . ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ تجمع هذه الكلمة أمران كما قدمت ؛ الأول : الاستسلام لله بالانقياد والطاعة والاستجابة والإذعان والامتثال. ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾: أي مخلصاً لا أجعل مع الله تبارك وتعالى شريكا . فالإسلام دين الله تبارك وتعالى الذي يتقرب به إليه ﷻ ، فمن لم يتقرب لله ﷻ بالإسلام فليس بمسلم ، ومن تقرب بالإسلام لغير الله أو جعل مع الله شريكاً فيه فليس بمسلم ، هذه حقيقة الإسلام ، حقيقة الإسلام: استسلام الله ؛ فمن ترك الإسلام وترك الاستسلام لله فليس بمسلم ، ومن جعل مع الله غيره في استسلامه فليس بمسلم ، فالإسلام : استسلام لله ﷻ وحده ؛ بإخلاص الدين له والانقياد له والتذلل بين يديه .

قال: ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ ؛ هذا حقيقة ديني وحقيقة ما جئت به هو إسلام الوجه لله تبارك وتعالى .

﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ ؛ ومن اتبعن : أي يقول بقولي ، أتباعي مثلي وعلى منهاجي وعلى طريقتي ، فأنا ومن اتبعني أسلمنا وجوهنا لله ﷻ ، مثلها قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ

عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[يوسف:١٠٨] ؛ أي أنا وأتباعي على هذا النهج ، وهنا أي أنا وأتباعي على هذا السبيل وعلى هذا الاستسلام لله تبارك وتعالى .

الشاهد : أن الآية فيها تفسير للإسلام وبيانٌ لحقيقته ؛ بأنه استسلام العبد لله ، وإسلام الوجه لله تبارك وتعالى خضوعاً وتذللاً ورغباً ورهباً وقياماً بطاعة الرب ﷻ مخلصاً له الدين .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح عن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((الْإِسْلَامُ : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)) .

****

ثم أورد حديث عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**)) ؛ فسّر عليه الصلاة والسلام الإسلام بهذه الخمس ، وتفسيره للإسلام بهذه الخمس لا لأن الإسلام منحصرٌ فيها ؛ ولكن لأن هذه الخمس هي مباني الإسلام ، فالإسلام عليها يُبنى كما في حديث بن عمر أن النبي ﷺ قال : ((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ)) وذكر هذه الأمور الخمسة وهي تُعرف بـ«مباني الإسلام» . ومعنى كونها مباني الإسلام : أي أن قيام الإسلام وبناؤه عليها ؛ فكما أن البيت لا يُبنى ولا يقوم إلا على عماده ، فالإسلام لا يقوم إلا على هذه المباني ؛ فهي أعمدة الإسلام ومبانيه التي عليها قيام الإسلام . فتفسير النبي عليه الصلاة والسلام للإسلام بهذه الأمور الخمسة لأنها هي الأساس وهي الأصل وهي التي عليها يبنى دين الله ﷻ الإسلام .

وبدأها بالشهادتين وهي أساس الأسس وأول ما يُدخل به في هذا الدين ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، الدين كله يبنى على الشهادتين ؛ الصلاة والصيام والحج وكل طاعة ، الدين كله يبنى على الشهادتين فهي أساس الدين وأصله ؛ الشهادة لله ﷻ بالوحدانية ، والشهادة لنبيه ﷺ بالرسالة .

قال : ((**تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**)) ؛ تشهد : أي تُقر وتعلن وتعترف وتخبِر ، كل هذه معاني للشهادة .

((**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**)) : أي لا معبود بحق سواه ، فهي كلمة مبنية على ركنين وقائمة على أصلين : النفي العام في أولها ، والإثبات الخاص في آخرها . فـ((لا إله)) نفيٌ العبودية عن كل من سوى الله ، و ((إلا الله)) إثبات للعبودية بكل معانيها لله وحده ، وهذه حقيقة التوحيد : نفيٌ للعبودية عن كل من سوى الله ، وإثباتٌ للعبودية بكل معانيها لله وحده ﷻ ، فلا يكون المرء موحداً إلا بهذين الركنين : النفي والإثبات ؛ فمن نفى ولم يثبت فهو ليس بموحد بل ملحد ، ومن أثبت ولم ينفِ فهو ليس بموحد بل مشرك ، وحقيقة التوحيد قائمة على النفي والإثبات ؛ نفي العبودية عن كل من سوى الله ، وإثبات للعبودية بكل معانيها لله وحده ، ولا يكون موحداً إلا

من عرف العبادة فنفاها عن كل من سوى الله وأثبتها لله وحده وخضع وذل لله ﷻ بالقيام بهذه العبادة له ﷻ كما أمر وكما شرع .

((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) : أي لا معبود بحق سوى الله . وعبادة كل من سوى الله مهما علا مقامه ومهما ارتفع شأنه فهي عبادةٌ باطلة ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢] ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الحج:٦] ، فالعبادة الحق عبادة الله ، وأما عبادة من سواه من كان ومهما كان فهي عبادة باطلة .

((**أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**)) ؛ والشهادة لنبينا ﷺ بالرسالة قرينة الشهادة لله بالوحدانية؛ بل أن الله تبارك وتعالى لا يقبل شهادة من شهد له بالوحدانية حتى يشهد لنبيه ﷺ بالرسالة، ولهذا جاءت مقترنة ويقال لهما «الشهادتان» ، وهما متلازمتان لا تُقبل واحدة منهما إلا بالأخرى ؛ الشهادة لله بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة .

ومن شهد له عليه الصلاة والسلام بالرسالة ، فإن مقتضى هذه الشهادة طاعته ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] ، ولهذا فإن حقيقة الشهادة له ﷺ بالرسالة : طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع . من شهد له ﷺ بالرسالة ، فإن الواجب عليه أن يطيعه في أوامره ، وأن ينتهي عن نواهيه ، وأن يصدِّق الأخبار التي جاء بها ، وهذه الأمور الثلاثة هي خلاصة ما جاء به عليه الصلاة والسلام ، جاء بأوامر، وجاء بنواهي، وجاء بأخبار ؛ فمن قال أشهد أنه رسول الله ﷺ فعليه أن يطيعه في أوامره ، وأن ينتهي عن نواهيه ، وأن يصدقه في أخباره ﷺ ، ولهذا عرّف المصنف رحمه الله شهادة أن محمداً رسول الله في بعض رسائله بقوله : «طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، وألا يُعبد الله إلا بما شرع» .

قال : ((**وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ**)) ؛ أي تقيم الصلاة التي كتب الله عليك . والصلاة المكتوبة هي خمس صلوات في اليوم والليلة افترضها الله ﷻ على عباده وأمرهم بإقامتها ، وأخبر نبي الله ﷺ بأن ((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ)) ، وهؤلاء رؤساء الكفر وأعمدة الباطل . فالصلاة كما وصفها النبي ﷺ في حديث آخر ((عماد الدين)) ، وقال : ((الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)) . وعندما يُسأل أهل النار ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾[المدثر:٤٢-٤٣] . فالصلاة شأنها في الإسلام عظيم ، بل جاء عن النبي ﷺ أن أول ما يُسأل العبد عنه يوم القيامة صلاته، وجاء فيها نصوص متكاثرة

تدل على عظم فضلها وعظم مكانتها ، بل قال بعض السلف: «من أراد أن ينظر إلى حظه في الإسلام فلينظر إلى حظه من الصلاة»؛ لعظم مكانة الصلاة في الإسلام ، ولهذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام الصلاة عقب الشهادتين مباشرة، وهذه الأركان في الحديث رُتِّبت حسب أهميتها ومكانتها ؛ فأعظم شيء في الإسلام الشهادتان ثم الصلاة التي هي عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين ، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة كتبها الله تبارك وتعالى على عباده وجعل فيها صلاحهم وفلاحهم وقرة عينهم ، وسميت «صلاةً» : لأنها صلة بين العبد وبين ربه يقرب من الله ويناجي ربه ويتذلل بين يديه راكعاً ساجداً خاضعاً متذللاً منكسراً متطهراً ذاكراً شاكراً ؛ عبادة عظيمة جليلة وقربة لله تبارك وتعالى من أعظم القرب وأجلها .

قال : ((**وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ**)) ؛ والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله ، وكثيراً ما تأتي في القرآن مقرونة بالصلاة ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾، ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ في آيات كثيرة في كتاب الله ﷻ . والزكاة جزء يسير من المال افترضه الله ﷻ على الأغنياء كما قال عليه الصلاة والسلام : ((صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ)). والزكاة ليست واجبة على كل مسلم ؛ وإنما هي واجبة على من آتاه الله مالاً بلغ النصاب ، ولا يُخرج ماله كله ولا نصفه ولا ثلثه ، وإنما يُخرج جزءً يسيراً منه ، وسميت «زكاة» : لأن فيها تزكية للمال ، وتزكية لصاحب المال ، وتزكية أيضا للمجتمع الذي تخرج فيه الزكاة وذهابٌ للشحناء والبغضاء والعداوات بين الناس .

((**وَتَصُومَ رَمَضَانَ**)) وهو شهرٌ واحد في السنة كتب الله ﷻ على عباده صيامه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣] ، وهي عبادة عظيمة يتقرب بها المسلم إلى الله تبارك وتعالى ، وهي سرٌ بين الصائم وبين ربه ﷻ ، ولهذا جاء في الحديث القدسي يقول الله ﷻ: ((الصِّيَامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ)) ؛ لأنه سر بين الصائم وبين الله ﷻ ، يمتنع فيه الصائم عن طعامه وشرابه وشهوته من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في أيام شهر رمضان طالباً بذلك تقوى الله ﷻ ، متقربا بذلك إلى الله ﷻ .

ثم ذكر فريضة الحج قال: ((**وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**)) ؛ والحج فريضة من فرائض الإسلام ، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧] ، فهي فريضة من فرائض الإسلام وليس مفروضاً على كل أحد ؛ وإنما هو مفروض على المستطيع ؛ وهو الذي يجد الزاد والراحلة ، وهو لا يجب على الناس في كل عام ؛ وإنما هو فريضة في العمر كله مرة واحدة ((الْحَجُّ مَرَّةٌ فَمَا زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ)) ، فالحج فريضة وركن من أركان الإسلام ، ولا يجب على الناس إلا مرة واحدة في الحياة كلها وفي العمر جميعه .

فهذه مباني الإسلام ، وإذا تأملت هذه المباني :

- الشهادتان يبنى عليها الدين كله .

- والصلاة : أعمال ميسرة في اليوم والليلة خمس مرات ، وأيضا هي على الاستطاعة ((صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ)) ، لها أوقات محددة ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾[النساء:١٠٣] ، يؤدي المسلم كل صلاة في وقتها على قدر استطاعته ((وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)).
- والزكاة : لا تجب إلا على الأغنياء، ومن بلغ ماله النصاب يُخرج منه جزء قليلا ، وفيه تزكية للمال ((مَانَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ)) بل تزده ، وفيها تزكية للمال وبركة ونماء .
- والصيام : فرض على الناس شهر واحد في السنة ، من أطاقه صام ، ومن كان غير مطيق لمرضه أو لكبره فهو معذور ؛ المريض لا يصوم وإنما يؤجل الصيام حتى يشفى من مرضه ، ومن كان غير قادرٍ على الصيام لكبره وهرمه لا يصوم وإنما يُطعم عن كل يوم مسكين .
- والحج فُرض في العمر كله مرة ، وأيضا ليس على كل أحد وإنما على المستطيع ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .

فإذا قرأت هذه الأركان التي يُبنى عليها الدين ظهر لك أن دين الله ﷻ دين ميسَّر لا عنَت فيه ولا مشقة ،كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ)) ؛ فعقائده صحيحة قويمة تقبلها العقول السليمة وتتلقاها الفِطَر القويمة بانشراح ، وأعماله أعمالٌ يسيرة وسهلة لا مشقة فيها ولا عنت ، يدعو إلى كريم الأخلاق وعالي الآداب ورفيعها ، ولهذا سيأتي معنا ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) ؛ فهذه حقيقة الإسلام وهذه حقيقة الدين ؛ دينٌ سمح ، وقد مر معنا قريبًا ((بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ)) فهو دين سمح ودينٌ ميسَّر فيه رفعة الإنسان وفلاحه في الدنيا والآخرة .

إذًا هذا الحديث حديث عمر بن الخطاب ومثله حديث ابنه ابن عمر فيه تفسير للإسلام بأعظم شيء فيه ، وهي هذه الأسس الخمس والمباني الخمسة التي يبنى عليها الإسلام .

الإسلام عرفنا أنه : الاستسلام لله وهو الانقياد لله تبارك وتعالى مخلِصاً ومطيعاً له ﷻ ، ففسره النبي عليه الصلاة والسلام باستسلام مخصوص ذكر فيه مباني الإسلام الخمسة خاصةً لأنها أعظم شيء في الإسلام ؛ لا أن الإسلام هو هذه الخمس فقط ، ولهذا يأتي في أحاديث أخرى ذِكر أمور أخرى تدخل في الإسلام ويشملها اسمه ، مثل هذا الحديث الذي ساقه المصنف ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)) ، وأحاديث كثيرة وردت عن النبي ﷺ تبين ما يشمله اسم الإسلام من انقياد وامتثال وطاعة لله ﷻ .

قال رحمه الله :

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) .

****

ثم أورد المصنف حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : ((**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)) ؛ عرفنا أن حقيقة الإسلام هي استسلام العبد لله وذلك بخضوعه له مخلصاً منقاداً ممتثلاً ، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الله سبحانه بالقيام بحقوقه التي أمر عباده بها من صلاة وصيام ، والقيام بحقوق عباده .

١) القيام بحقوقه هو ؛ وهي العبادة المحضة التي أمر العباد بالقيام بها من صلاة وصيام وزكاة وحج هذه حقوق افترضها الله ﷻ على عباده ؛ وهي العبادة المحضة ، التقرب إلى الله ﷻ بما شرع وبما أمر عباده أن يتقربوا به من فرائض واجبات.

٢) القيام بحقوق العباد ؛ من بر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الناس ، والبعد عن آذاهم ، كل ذلك يُعدّ عبادةً من جهة أنه طاعةٌ لله ، ويعد إسلاماً لأن فيه استسلامٌ لله بامتثال أمره للقيام بهذه الحقوق ، فهي تسمى عبادة من هذه الجهة ؛ وإلا فإن العبادة المحضة هي التقرب إلى الله ﷻ بالعبادات التي يخضع فيها العبد لله من صلاة وصيام ودعاء وغير ذلك من القرب .

قال : ((**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)) ؛ عرفنا أن من الإسلام القيام بحقوق العباد ، وأعظم ما يكون في ذلك أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وأن تأتي إليه الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك ، يقول عليه الصلاة والسلام ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حق الله وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)) ؛ «فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» حق الله ، «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» حقوق العباد . فحقوق العباد القيام بها من الإسلام ؛ أي من الاستسلام لله ، من الطاعة لله ، لأن الله أمر بذلك ودعا عباده إلى ذلك ؛ أن تأتي إلى الناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك وأن تحب لهم ما تحب نفسك .

وهنا قال: ((**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)) وهذه أقل درجة تُنتظر من المسلم في إسلامه فيما يتعلق بحقوق العباد ؛ أن يسلموا من لسانه ويده ، وإلا الإسلام يتناول مقامات أعظم من كف الأذى ، يتناول: إعانة المسلم ، وصلة الرحم ، بر الوالدين ، الإحسان إلى المحتاج ، إغاثة الملهوف .. إلى غير ذلك من أعمال الإسلام التي دعا إليها وأمر بها في آيات وأحاديث عديدة . فقوله ((**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)) هذه أقل درجة تتعلق بحقوق العباد ، من لم يقم بحقوق العباد من البر والصلة والإحسان والوفاء وغير ذلك فلا أقل من أن يسلم المسلمون من لسانه ويده ؛ أن يكف آذاه عن الناس .

قال: ((**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)) أي : سلِموا من آذاه القولي والفعلي ؛ القولي : باللسان ، والفعلي : باليد أو غيرها من أعضاء الإنسان .

قال رحمه الله :

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال : ((أن تسْلم قلبك لله ، وأن تولي وجهك إلى لله ، وأن تصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة)) رواه أحمد .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم في بيان حقيقة الإسلام ، وهو عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام ، قبل سؤاله للنبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام وعن حقيقة الإسلام قال كلمة عجيبة يتبين الواقع الذي كان يعيش الناس عليه بسبب الدعاية المغرضة ضد دعوة النبي ﷺ ، فيقول والد حكيم لما وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام : «والله يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ عَدَدَ أَصَابِعِي هَذِهِ أَنْ لَا آتِيَكَ» لماذا هذا الحلف ؟ بسبب ما سمع من دعاية حوله ؛ ناس يقولون مجنون ، وناس يقولون ساحر ، وناس يقولون كاهن .. دعايات مغرضة بُثت حوله لصد الناس عن دينه ، فلما سمع عنه هذه الدعايات حلف عدد أصابعه ألا يذهب إليه ، ولهذا لما وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال : «والله يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ عَدَدَ أَصَابِعِي هَذِهِ أَنْ لَا آتِيَكَ ، فَبِالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا الَّذِي بَعَثَكَ بِهِ؟ » ؛ اقتنع أنه بعث عليه الصلاة والسلام بالحق فسأله قال : «مَا الَّذِي بَعَثَكَ بِهِ ؟» قَالَ: ((الْإِسْلَامُ)) ؛ بعثني الله بالإسلام . قَالَ : «وَمَا الْإِسْلَامُ ؟» يعني سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام ، فعرّفه بهذه الكلمات ، قال: ((أن تسلِم قلبك لله ، وأن تولي وجهك إلى لله ، وأن تصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة))

تأمل تفسير الإسلام العظيم هنا ، وأيضا سيأتي في الحديث الذي بعده ؛قال: ((**أن تسلم قلبك لله**)) ؛ ففسر عليه الصلاة والسلام الإسلام باستسلام القلب مع العمل الظاهر ، وتأمل ذلك واضحا في الحديث قال: ((**أن تسْلم قلبك لله ، وأن تولي وجهك إلى لله ، وأن تصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة**)) ؛ فسر عليه الصلاة والسلام الإسلام باستسلام القلب ؛ وهو خضوع القلب وانقياده وإذعانه لله ﷻ ، وبالأعمال الظاهرة ؛ ((أن تصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة)) ، فالنبي ﷺ فسر الإسلام هنا باستسلام القلب لله ومع هذا العمل الظاهر قال : ((تصلي الصلاة المكتوية وتؤدي الزكاة المفروضة)) .

قوله ((**أن تسلم قلبك لله**)) أي : أن تجعل قلبك مسلماً لله ﷻ ، وكيف يكون القلب مسلما لله؟ يكون القلب مسلما لله بانقياده وإذعانه لله ﷻ ، وقبوله لدين الله ، ورضاه به ، وإقباله عليه ، وانشراح الصدر له ﴿ أَفَمَنْ

شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾[الزمر:٢٢] ؛ ينشرح الصدر ويُقبِل على الإسلام ، ويحب الدين وأوامر الدين ، ويذعن وينقاد .((**أن تسلم قلبك لله**)) ؛ و «لله» تتكرر معنا تنبيه على الإخلاص ؛ أي لله وحده دون جعل شريك معه في ذلك .

((**وأن تولي وجهك إلى الله**)) كما قال ﷻ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[الروم:٣٠] تقيم وجهك لله وذلك بإقبالك على أوامر الله ﷻ وتوجهك إليها وامتثالك لها ، وطواعيتك لربك ﷻ فيما أمرك تبارك وتعالى به ، ((وأن تولي وجهك إلى الله)) أي مقبِلا عليه ﷻ وعلى دينه غير معرِضٍ ولا مدبر.

((**وأن تصلي الصلاة المكتوبة**)) : أي التي افترضها الله تبارك وتعالى على عباده .

((**وتؤدي الزكاة المفروضة**)) ؛ فهذا هو الإسلام : استسلام للقلب ، وانقياد للجوارح .

قال رحمه الله :

وعن أبي قلابة عن رجلٍ من أهل الشام عن أبيه أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإسلام ؟ قال : ((أن تسلم قلبك لله ، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك)) ، قال : أي الإسلام أفضل ؟ قال : ((الإيمان)) ، قال : وما الإيمان؟ قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت)) .

****

ثم أورد حديث أبي قلابة عن رجلٍ من أهل الشام عن أبيه ؛ والحديث له شواهد صح بها وثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام .

((**أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإسلام ؟ قال : أن تُسلم قلبك لله ، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك**)) ؛ فجمع في هذا الحديث ما تقدم في الأحاديث الماضية ؛ من أن الإسلام يشمل حقوق الله ﷻ وحقوق العباد .

فقوله ((**أن تسلم قلبك لله**)) اقتصر على إسلام القلب لله ﷻ ولم يذكر الصلاة والزكاة وبقية الأركان وحقوق الله تبارك وتعالى ؛ لأن إسلام القلب لله يقتضي القيام بحقوقه ﷻ ، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)) ، فإذا استسلم القلب لله انقادت الجوارح بالصلاة والصيام وسائر الطاعات ؛ فقوله ((**أن تسلم قلبك لله**)) تنبيهٌ على حقوق الله ﷻ ، وقوله ((**ويسلم المسلمون من لسانك ويدك**)) تنبيه على القيام بحقوق العباد . وعليه ؛ فإن الإسلام هو الانقياد لله ﷻ بالقيام بحقوقه وحقوق عباده ، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: ((اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)) ، ويأتي في أحاديث كثيرة جداً الجمع بين حقوقه وحقوق عباده ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء:٢٣] ثم ذكر بعدها حقوق للعباد عديدة

أضافها كلها إلى حقه ﷻ ، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] ذكر حقه وحقوق العباد . قال ﷺ في الحديث : ((إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ : لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا)) ؛ ذكر حقه تبارك وتعالى وحقوق عباده.

وقوله عليه الصلاة والسلام ((**يسلم المسلمون من لسانك ويدك**)) هذا يتناول التحذير من جميع أنواع الأذى وصنوف الكبائر التي حرّمها الله ﷻ على عباده : الكذب ، والغش ، والسب ، والشتم ، واللعن ، والدخول في أعراض الناس ، والسرقة ، وانتهاك الأعراض ، كلها داخلة تحت قوله ((**أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك**))؛ يسلمون من أذى الإنسان القولي والفعلي ، فلا يؤذي أحداً لا بقول ولا بفعل .

ثم قال : «**أي الإسلام أفضل ؟**» **قال** : ((**الإيمان**)) ؛ كنا عرفنا فيما سبق أن للإسلام إطلاقان : إطلاق يراد به الدين كله ، وإطلاقٌ يراد به الأعمال ؛ لأن الدين إيمان وعمل ، والعمل هو الإسلام –الاستسلام– ، فتارة يطلق الإسلام ويراد به الدين كله، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩] فالإسلام الدين كله . «**فقال : أي الإسلام أفضل؟**» يعني أي الدين أفضل ؟ فالإسلام المراد به هنا الدين كاملاً بعقائده وأعماله ولهذا قال: «**أي الإسلام أفضل ؟**» **قال** : ((**الإيمان**)) . فقوله «**أي الإسلام أفضل؟**» المراد بالإسلام : عموم الدين ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ؛ فهذا يتناول العقيدة والعمل .

«**فقال : أي الإسلام أفضل؟**» **قال** : ((**الإيمان**)) ، **قال**: «**وما الإيمان؟**» **قال** : ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**)) ؛ وهذه الأمور التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام هنا هي أركان الإيمان ، وعليها بناء الأعمال، الأعمال التي هي استسلام لله بالقيام بالعبودية والطاعة والامتثال تُبنى على هذه الأركان التي هي أصول الإيمان التي عليها بناؤه ، قال الله ﷻ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٢٤] ، فالإيمان والدين له أصل في القلب؛ ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) هذه أصول وأركان للإيمان يبنى عليها الدين . ولهذا لا يُقبل أي عمل –لا صلاة ولا صيام ولا حج ولا غير ذلك من الطاعات– إلا إذا كانت قائمة على هذه الأركان ، قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾[المائدة:٥] ، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩] ، فلا يُقبل السعي وهو العمل إلا بالإيمان ، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:٩٧] ، فالإيمان أساس لا تُقبل الأعمال إلا به ، ولهذا لما قال ((**أي الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان ، قال وما الإيمان ؟**)) فذكر هذه الأركان .

وهذا تأخذ منه فائدة : أن أعمال الإسلام وفرائضه لا تكون مقبولةً عند الله تبارك وتعالى إلا إذا وُجد في القلب إيمانٌ يصحِّح الإسلام ، فإن لم يوجد في القلب إيمان لا تُقبل الأعمال الظاهرة مجردةً عن الإيمان ، بل لابد أن يكون في القلب إيمان يصححها ، ولهذا المسلم هو من جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القلبي ما يصحح إسلامه ، أما من جاء بأعمال الإسلام الظاهرة ولم يترك منها عمل دون أن يكون في قلبه إيمانٌ يصحح هذه الأعمال فلا تُقبل منه وإن كثرت ، ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾[التوبة:٥٤] ؛ فانتفاء الإيمان القلبي مانعٌ من قبول العمل الظاهر ، فالمسلم : هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القلبي ما يصحح إسلامه ، فإن انتفى الإيمان القلبي المصحِّح للإسلام لم تُقبل الأعمال كما هو واضح في الآية الكريمة: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، ثم إذا تمكنت أمور الإيمان وخصاله من القلب يرتقي القلب إلى درجة الإيمان كما سبق بيان ذلك .

((قال : وما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت)) ؛ بقي الإيمان بالقدر ، والإيمان بالقدر جاء ذكره في حديث عمر ، قال جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام : ((فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) ، فالقدر تارة يُذكر مع هذه الأصول وتارة لا يُذكر ، فمن الأمثلة على ذكره : حديث عمر ، ومن الأمثلة على عدم ذكره : هذا الحديث ، وكذلك قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾[البقرة:١٧٧] فذكر هذه الخمس ولم يذكر الإيمان بالقدر ، وكذلك قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦] ، فذكر هذه الخمس ولم يذكر الإيمان بالقدر .

وعدم ذكر الإيمان بالقدر في بعض النصوص : لأنه داخل في الإيمان بالله ؛ فمن الإيمان بالله الإيمان بقدره وتقديره للأمور ، قال الإمام أحمد رحمه الله: «القدر قدرة الله» ، فالإيمان بالقدر من الإيمان بالله ، ولهذا تارة يُذكر وتارة لا يذكر ، وعدم ذكره في بعض النصوص لا إشكال فيه لأنه داخل في الإيمان بالله لأن «القدر قدرة الله» ، ولا يؤمن عبدٌ بالله عز وجل حتى يؤمن بالقدر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : «القدر نظام التوحيد ؛ فمن آمن بالله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبه توحيده» ؛ فلا يكون مؤمناً بالله من لا يؤمن بقدر الله تبارك وتعالى . ولا يكون أيضا المرء مؤمنا بالقدر حتى يؤمن بمراتبه الأربعة :

١) علم الله عز وجل الأزلي بما كان وما سيكون .

٢) وكتابته تبارك وتعالى ذلك في اللوح المحفوظ .

٣) ومشيئته ﷻ النافذة.

٤) وإيجاده للمخلوقات وخلْقه لها .

فهذه مراتب القدر : علم ، وكتابة ، ومشيئة ، وإيجاد ؛ وكل هذه من أوصاف الرب ﷻ وأفعاله ، وهذا كله يوضح لنا أن الإيمان بالقدر من الإيمان بالله ، ولهذا – كما قلت – أحيانا يُذكر في بعض النصوص ، وأحيانا لا يذكر لدخوله في الإيمان بالله ﷻ .

- والإيمان بالله : هو أصل أصول الإيمان وإليه ترجع ، ولهذا قال في الآية: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ؛ فأركان الإيمان كلها راجعة إلى هذا الأصل العظيم . والإيمان بالله : هو الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ودين الإسلام سمي توحيداً : لأن مبناه على الإيمان بوحدانية الله في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، فمن لم يوحِّد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته فليس بمسلم ، لأن مبنى الإسلام على التوحيد ، والتوحيد هو الإيمان بوحدانية الله ﷻ في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.
- والإيمان بالملائكة : وهذا الأصل الثاني من أصول الإيمان ، وهو الإيمان بهذا الخلق العظيم وهذا الجند الكبير والعديد الذي خلقه الله ﷻ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١] ، والإيمان بكل ما يتعلق بهم مما جاء في الكتاب والسنة ؛ من أسماء ، أو أعداد ، أو وظائف ، أو أوصاف . هذه أمور أربعة ننتبه لها : الإيمان بالملائكة هو الإيمان بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يتعلق بالملائكة من أسماء أو أعداد أو وظائف أو أوصاف إجمالا فيما أُجمِل وتفصيلاً فيما فُصِّل .
- والإيمان بالكتب : أي المنزلة ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾ [الشورى:١٥] نؤمن بها ؛ ما علمناه منها وما لم نعلمه ، نؤمن بأنها كتب هداية ، وأنها كلام الله ﷻ وتنزيله ، وأن فيها صلاح وفلاح من أنزلت عليهم تلك الكتب ، وأنها خُتمت بكتاب الله ﷻ القران الكريم .
- والإيمان بالرسل : الإيمان بأنهم بُعثوا وأرسلوا من الله حقا ، أرسلهم الله ﷻ ، وأنهم بلّغوا البلاغ المبين ، ونصحوا أممهم ، وما تركوا خيراً إلا دلّوا أممهم عليه ، ولا شراً إلا حذّروهم منه ، والإيمان بأنهم خُتِموا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] ، قد قال عليه الصلاة والسلام ((أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي أنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي)) .
- ((**والبعث بعد الموت**)) ؛ في الحديث الآخر قال: ((وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)) ؛ البعث بعد الموت : أي أن الناس يقومون لرب العالمين ويُبعثون من قبورهم ، من يُدفن لا يبقى في قبره أبد الآباد ، بل سيأتي يوم يُبعث الناس لرب

العالمين ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين:٦] ؛ يقومون من قبورهم . وقيام الناس لرب العالمين ليس مختصاً بمن مات ودُفن في قبر ، هذا الغالب من أحوال الناس أنهم يموتون ويدفنون ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس:٢١] هذا الغالب من حالهم، لكن منهم من يموت ولا يُقبر ؛ منهم من يموت وتأكله السباع ويخرج من أدبارها روثًا ويذهب ولا يبقى له أثر ، ومنهم من تأكله الحيتان ، ومنهم من يحترق في النار فيصبح رمادًا ، إلى غير ذلك من أنواع الميتات والهلكات ، فلا يتناول القيام لرب العالمين من مات فقُبر ؛ بل الجميع يقومون لرب العالمين حتى من أكلته السباع وخرج من أدبارها روثًا يقوم لرب العالمين ، الكل يقومون لرب العالمين ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ الكل يُجمعون لرب العالمين ويبعثون للجزاء والحساب .

فالإيمان باليوم الآخر والإيمان بالبعث هو إيمان بكل ما يكون بعد الموت ؛ أولاً ما يكون في القبر من فتنة وعذاب ونعيم ، ثم القيام لرب العالمين والحشر والدواوين والصراط والجنة والنار إلى غير ذلك من التفاصيل ، فهذه الإيمان بها أصلٌ لا بد منه ، ولا قيام للدين إلا عليه ، ولهذا يأتي في أحاديث كثيرة : "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فليفعل كذا أو ليقل كذا" ؛ لأن الدين يبنى على هذه الأركان .

قال هنا : ((**أي الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان**)) يعني أي الدين أفضل ؟ قال: الإيمان ، ومعلوم أن هذه الأمور مكانتها أعظم من الأعمال الظاهرة ؛ لأنها الأساس الذي تبنى عليه الأعمال الظاهرة ، ولهذا لما قال هذا السائل «**أي الإسلام أفضل؟**» قال : ((**الإيمان**)) ، قال: «**وما الإيمان؟**» قال: ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**)) .

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ((تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ يَا رَبِّ أَنَا الصَّلَاةُ، فَيَقُولُ إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ ، ثم تَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ يَا رَبِّ أَنَا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ أَيْ يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ ، فَيَقُولُ إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ؛ بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي ، قَالَ اللَّهُ تعالى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥])) رواه أحمد .

****

قال المصنف رحمه الله وغفر له : ((**باب قول الله تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾**)) ؛ عقد هذه الترجمة ليبين بها أن الله ﷻ لا يقبل ديناً غير الإسلام الذي أنزله تبارك وتعالى وشرعه وأمر به ، فهو ﷻ خالق هذا الخلق والحُكم له ﷻ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٤٠] ؛ فالله ﷻ لا يقبل من الناس أن يتقربوا إليه بأي دين كان ، وإنما لا يقبل منهم ﷻ إلا التقرب بدين الإسلام كما مر معنا قول الله ﷻ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران:١٩] ، فالدين الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده ولا يقبل منهم ديناً سواه هو دين الإسلام .

وعرفنا في الباب الذي قبل هذا الباب تفسير الإسلام من خلال ما ساقه المصنف رحمه الله من النصوص الشرعية المفسرة للإسلام المبينة لحقيقته . وعرفنا أن الإسلام يعني : استسلام القلب لله ﷻ ، وانقياد الجوارح وامتثالها وطواعيتها لأمره ﷻ ؛ ((أن تسلِم وجهك لله وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة)) .

وعرفنا أيضا أن الإسلام الذي هو استسلام لله تبارك وتعالى لابد فيه من أمرين :

١- أن يكون الاستسلام لله : أي خالصاً .

٢- وأن يكون ذلك بما شرع الله جل وعلا : أي لدينه الذي شرع موافقاً .

فلا يُستسلم لله ﷻ بأي أمر ، ولا أيضا يُجعل الاستسلام لغيره . فحقيقة الإسلام : الاستسلام لله ﷻ بالإخلاص وفِعل ما شَرَع ، وقد قال مصنف هذا الكتاب رحمه الله في شرح الإسلام : «هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك»؛ هذه حقيقة الإسلام : إخلاص للمعبود وإتباع للرسول ﷺ.

((**وقول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾**)) ؛ جاءت هذه الآية في مساق الرد على المجادلين للنبي ﷺ في الإسلام ، المعترضين على هذا الدين العظيم الذي بعث الله تبارك وتعالى به رسوله ﷺ ، وفي القرآن أجوبة كثيرة على هؤلاء وعلى اعتراضاتهم وعلى شبهاتهم وعلى انتقاداتهم وعلى تخطئاتهم للرسول صلوات

الله وسلامه عليه ، قد مر معنا قريبا قول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠] ، وقبلها بآيتين قال: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾، وهنا هذا السياق الذي ورد فيه قوله ﷻ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ ، يقول الله ﷻ في الآية التي قبل هذه الآية وكذلك في الآية التي قبلها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ أي الإسلام الذي شرعه الله وأنزله على رسله عليهم صلوات الله وسلامه ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا ﴾ يعني قل يا أيها النبي لهؤلاء الذين يبتغون غير الإسلام ويطلبون لأنفسهم ديناً غير الدين الذي شرعه الله ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

قوله ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ : أي غير هذا الدين الذي شرعه الله ﷻ وذُكرت خلاصته في الآية التي تسبق هذه الآية ، لأن قوله ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ إلى تمام الآية هذه تُعدّ من جوامع الآيات في بيان خلاصة دين الله تبارك وتعالى ، ونظيرها ما جاء في سورة البقرة ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة/١٣٦] ؛ في سورة البقرة قال ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ ، وفي سورة آل عمران قال: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ؛ ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ لأن القرآن أنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجبريل نزل به على محمد ﷺ ، لم ينزل به على كل فرد من أفراد المسلمين وإنما نزل به على خيارهم وعلى أفضلهم وعلى صفوتهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا فُرِّق بين من أُنزل عليه الكتاب وبين من أُنزل إليهم الكتاب ، فهناك قال: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ ؛ لأنه أنزل إليهم بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ؛ لأنه أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه مباشرة بواسطة الملك ؛ أنزل عليه هو ﷺ .

هذه الآية وآية البقرة هما من جوامع الآيات لبيان حقيقة الدين وحقيقة الإسلام . وذُكر في هذه الآية ما يدل على أن الإسلام عقيدة وشريعة ، إيمان وعمل ؛ صُدِّرت الآية بالإيمان وخُتمت بالإسلام ، وهذه هي حقيقة الدين ؛ حقيقة الدين : إيمان يُعمَر به القلب ، وإسلامٌ تمضي عليه الجوارح وتنقاد ، ولهذا قال ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ هذا هو الإيمان ، ثم خُتمت الآية بالإسلام الذي هو العمل والانقياد ﴿ وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ فجُمع فيها بين حقيقة الدين وهو عقيدة وشريعة ، إيمانٌ وعمل؛ إيمان بالله ﷻ رباً خالقاً رازقاً منعِماً متصرفاً ، إيمانٌ بأسمائه ﷻ الحسنى وصفاته العظيمة ، إيمانٌ بأنه المعبود بحقٍ ولا معبود بحق سواه ، وصرْف العبادة كلها له تبارك وتعالى دون أن يُجعل معه شريك في شيء منها ، وإيمان بالله بالإيمان بكل ما أمر ﷻ به من أصول الإيمان وحقائق الدين، ومن ذلكم : الإيمان بوحيه المنزّل وما تضمّنه من عقائد وما اشتمل عليه من أحكام.

قال : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ؛ وقد أنزل على نبينا عليه الصلاة والسلام القرآن الكريم الذي خُتمت به الشرائع ، فمن الإيمان بالله : الإيمان بالقرآن والإيمان بالكتب المنزلة قبله ، ولهذا قال : ﴿ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ؛ فالإيمان بجميع الكتب المنزلة من الإيمان بالله ، فمن لا يؤمن بكتب الله ﷻ المنزلة ليس مؤمناً بالله ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ ، وكذلك من لا يؤمن برسل الله الذين اختارهم الله ﷻ واصطفاهم واجتباهم وأنزل عليهم وحيه وكلامه وذِكره الحكيم ، من لا يؤمن برسل الله ليس مؤمنا بالله .

فقوله ﴿ أُنْزِلَ ﴾ هذا يتضمن الإيمان بعدة أمور :

- بالمُنزِل؛ وهو رب العالمين الذي أنزل الكتاب وتكلم بالوحي .
- ويتضمن الإيمان بالواسطة الذي تولى الإنزال؛ وهو الملَك .
- ويتضمن من أنزل إليه الكتاب ؛ وهو الرسول ﷺ .
- ويتضمن الإيمان بالكتاب الذي أنزِل .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥] فهذا الجانب الأول من الدين ؛ وهو جانب العقيدة .

والجانب الآخر : جانب الشريعة وهو العمل جاء في خاتمة الآية بقوله ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾: أي منقادون ممتثلون مطيعون ، ما يأمرنا به نفعله وننقاد له ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ، والإسلام : هو الاستسلام والانقياد لله تبارك وتعالى .

فدلت هذه الآية –ونظائرها في القرآن كثير– أن الإسلام عقيدة وشريعة ، إيمان وعمل ، ليس الإيمان اعتقاد بلا عمل ، ولا أيضا عمل بلا اعتقاد ؛ الإيمان اعتقاد وعمل ، الإيمان : عقائد صحيحة عظيمة ينطوي عليها القلب ويدين بها ، وأعمال زاكية صالحة يمتثلها العبد ويقوم بها طواعية لله ﷻ وامتثالاً لأمره . هذا هو الإسلام . وهذه هي حقيقته شُرحت باختصارٍ وإيجاز في هذه الآية الكريمة .

ثم عقبها مباشرة قال : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ؛ أي من يبتغ غير هذا الإسلام الذي شُرع وبُيّن في القرآن الكريم وبُين في إيجاز واختصار في الآية التي قبل هذه الآية فلن يُقبل منه ، من لا يؤمن بعقائد الدين الصحيحة ولا يمتثل لأعمال الدين وطاعاته الزاكية فهو في الحقيقة لم يبتغِ الإسلام دينا ؛ فيتناوله ما ذُكر في الآية وهو الخسران في الدنيا والآخرة ، قال : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ؛ ﴿يَبْتَغِ﴾: أي يطلب لنفسه وأيضا لغيره بالدعوة إلى الضلال والباطل ، ﴿غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ : أي غير دين الله ﷻ ، وقوله ﴿الْإِسْلَامِ﴾ هنا يتناول عقائد الدين الصحيحة ، ويتناول أعماله الزاكية الصالحة ؛ وهذان الجانبان بُيّنا باختصار في الآية التي قبل هذه الآية ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ : أي يُردّ عليه ؛ مهما بذل من عمل ومهما اجتهد ولو واصل الليل والنهار لن يُقبل منه ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤] .

فقوله ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ : أي يُرد عليه ، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد بأن يُرَدَّ عليه عمله ثم يكون الأمر مستوياً لا له ولا عليه! بل يُرد عليه ويبوء بالخسران ، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ؛ خسِر الثواب ، خسِر رضا الله ، خسِر النجاة من عقوبة الله ؛ يأتي يوم القيامة خاسراً ، بخلاف المسلم فإنه يأتي يوم القيامة رابحاً ينال الفلاح ورضا الله وجنته والنجاة من سخطه وعقابه ، وقد مر معنا قريبا قول النبي ﷺ ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)) .

وقول الله ﷻ في هذه الآية ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ ؛ فيه دلالة ظاهرة على أن العمل بغير ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام هو من الأمور المردودة ، لأنها عمل بغير الإسلام ، عرفنا أن الإسلام هو دين الله المنزّل ؛ فمن عمل بغير هذا الدين المنزل فعمله مردود عليه ، فتضمنت الآية في دلالتها إبطال البدع والمحدثات وكل ما يخترعه الناس في باب التقرب إلى الله تبارك وتعالى، فهذا كله ردٌ على صاحبه وغير مقبول منه ؛ ولأجل هذا أورد المصنف رحمه الله في هذا الباب قول النبي ﷺ ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) : أي مردود على صاحبه غير مقبول منه .

ثم أورد رحمه الله في هذه الترجمة حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ ((**تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ يَا رَبِّ أَنَا الصَّلَاةُ فَيَقُولُ إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ تَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ يَا رَبِّ أَنَا الصَّدَقَةُ**

فَيَقُولُ إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ أَيْ يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ فَيَقُولُ إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ)) أي على هذا المنوال ، تأتي الأعمال عملاً عمل ، كل عملٍ يخبر عن نفسه ؛ الصيام يقول أنا الصيام ، والصلاة تقول أنا الصلاة ، والحج يقول أنا الحج ، تأتي الأعمال والله ﷻ يقول في حق كل عمل **((إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ))** .

قال: ((**ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ**)) أنت السلام : أي السلام اسمك ؛ «السلام» اسم من أسماء الله ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر:٢٣] ، و«السلام» اسم فيه تنزيه الله ﷻ عن النقائص والعيوب ، السلام : من السلامة ، والسلامة أي من النقص والعيب ، فالله ﷻ منزه عن النقائص ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢] .

قال **((أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ))** ؛ والإسلام : هو استسلامٌ لله ﷻ وانقياد له وإخلاص للدين له تبارك وتعالى، فيقول الإسلام: **((يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ))** .

((فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي)) ؛ وهذا فيه دلالة على ما سبق ؛ وهو أن الله ﷻ لا يقبل ديناً إلا إذا كان مبنياً على الإسلام ، فإذا جاءت الصلاة وجاء الصيام وجاء الحج وجاءت الصدقة وجاءت هذه الأعمال ؛ إذا كانت مبنيةً على الإسلام قائمة عليه فإنها تُقبل عند الله **((بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي))** ، فلا يقبل الله ﷻ أي عمل ولا يعطي أي ثواب إلا بوجود الإسلام . **((بِكَ آخُذُ))** : أي قبول الله تبارك وتعالى للأعمال . **((وَبِكَ أُعْطِي))** أي إعطاءه تبارك وتعالى للثواب والنعيم . **((بِكَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي))** ؛ فإذا جاء الإنسان بصلاة وصيام وحج ولم يأتِ بالإسلام فلا يُقبل منه صلاة أو صيام أو غير ذلك من الأعمال لأن الإسلام هو الذي به قبول الأعمال ، فإذا وجد الإسلام الذي يتضمن أمرين كما سبق : إخلاص للمعبود ومتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا كان حال الإنسان مخِلاً بهذا لا يقبل الله منه العمل ، الصلاة إذا لم تكن خالصة لا يقبلها الله ، وإذا كانت على غير وفق الشرع المنزل لا يقبلها الله، وقل مثل ذلك في كل عمل ، فبالإسلام قال : **((بِكَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي))** ؛ «**بك آخذ**»: القبول ، «**وَبِكَ أُعْطِي**» : أي الثواب .

قال: ((**ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي، فَقَالَ اللَّهُ تعالى فِي كِتَابِهِ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**)) والآية الشاهد فيها واضح لمعنى الحديث ؛ وذلك بأن الأعمال وأنواع العبادات لا تكون مقبولة مرضية مشكورة عند الله ﷻ إلا إذا كانت قائمة على الإسلام ، والله ﷻ يقول : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى

إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠] فيها أن الله ﷻ لا يقبل الطاعات وأنواع العبادات إلا بالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ؛ الإخلاص في قوله ﴿ وَلَا يُشْرِكْ﴾ ، والمتابعة في قوله ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ ؛ والعمل الصالح هو دين الله الذي أنزله على رسله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه .

قال المصنف رحمه الله : ((**رواه أحمد**)) أي في مسنده . وفي مسند الإمام أحمد عقِب هذا الحديث قَالَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَنِ عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمه الله : «فيه عَبَّادُ بْنُ رَاشِدٍ وهو ثِقَةٌ -يعني في الإسناد- والْحَسَنَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ» ؛ لأن الإمام أحمد رحمه الله ساقه في مسنده من طريق عبّاد بن راشد عن الحسن عن أبي هريرة ﷺ ، فعلّق أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد رحمه الله على هذا الحديث بالإشارة إلى توثيق عبّاد ، وعبَّاد هذا مختلف فيه توثيقاً وتجريحاً ؛ وعدد من أهل العلم ضعّفوه ، والإمام أحمد وبعض أهل العلم وثّقوه . قال عبد الله : «عباد ثقة ، والحسن لم يسمع من أبي هريرة» .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) رواه أحمد .

****

قوله ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا**)) أمْر النبي عليه الصلاة والسلام هو الإسلام ، ورب العالمين قال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ، فالحديث بمعنى الآية ؛ الله ﷻ قال في الآية ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ، ونبينا ﷺ قال : ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**)) أي فلن يقبل منه . معنى قوله ((فَهُوَ رَدٌّ)) هذا مصدر ، أُطلق المصدر وأريد اسم المفعول ، أي مردود ، ((رد)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه . فقوله ((فَهُوَ رَدٌّ)) هو بمعنى قوله ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ . فمن عمل عملاً ليس عليه أمرنا ؛ وأمره ﷺ هو الإسلام الذي بلّغه عليه الصلاة والسلام وافياً بلا نقص ، فمن عمل بغير الإسلام لا يقبل الله منه حتى ولو كان مخلِصاً في عمله ، لا يقبل الله ﷻ منه إذا لم يكن عمله قائم على الإتباع والاقتداء والتمسك بدين الله تبارك وتعالى .

فالمصنف أورد الحديث هنا مع أنه سبق أن مر عند المصنف في بابٍ سابق ؛ أراد بإعادته أن ينبه أن هذا الحديث بمعنى الآية ، فقوله ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**)) هو بمعنى قوله ﷻ : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا

فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ؛ لأن أمْر النبي عليه الصلاة والسلام هو الإسلام ، فمن عمل بغير الإسلام لا يقبل الله تبارك وتعالى منه مهما وضع لنفسه من مبررات . إذا كان المجال مفتوح والباب مُشرع لكل أحد يعبد الله بما شاء يحدِث ويخترع وينشئ ؛ فما الفائدة من بعثة الرسل !! ولهذا مر معنا كلمة الإمام مالك رحمه الله العظيمة في هذا الباب مستدلاً عليها بقول الله ﷻ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] في إبطال البدع والخرافات والأعمال التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال رحمه الله تعالى :

باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه

وقول الله تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ **الآية** [النحل:٨٩] .

****

ثم قال رحمه الله : ((**باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه**)) ؛ الاستغناء هو: الاكتفاء وعدم البحث عن شيء آخر ؛ أن يكون غنياً ومستغنياً بما أنزل الله تبارك وتعالى على رسله الكرام .

قال : ((**باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب**)) : أي بلزوم ما جاء في كتاب الله ﷻ . والكتاب المراد به هنا: الكتاب المعهود المعروف المنزّل على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وهو القران الكريم خاتمة الكتب المنزلة ؛ الاستغناء به : أي الاكتفاء به ، وإلى هذا الاكتفاء جاءت الإشارة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥١] ؛ أي أنه فيه كفاية وفيه غُنية ولا يحتاج الناس إلى شيء آخر سواه لأنه كافي وفيه غنية ، قال ﷻ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] .

وأورد قول الله ﷻ: ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل:٨٩] ؛ فالكتاب فيه الوفاء وفيه الغنية وفيه الكفاية فوجب الاستغناء به ؛ أي الاكتفاء بكتاب الله ﷻ عن كل ما سواه ، يعني عن كل أمر سوى كتاب الله تبارك وتعالى من الأمور المحدثات ، والأعمال المخترعات ، والبدع والأهواء ، والتجارب التي يبنى عليها أديان وأعمال ، وأيضا الأعمال المبنية على العقول والتخرصات ، وكذلك الأعمال المبنية على القصص والمنامات ، إلى غير ذلك من طرائق الاستدلال التي وُجدت عند الناس هاجرين بها كتاب الله ﷻ ، كتاب الله ﷻ بينهم يُتلى ثم إذا أراد المستدل منهم أن يستدل في الدين يقول : "رأيت في المنام كذا "!! أو يقول " جرّبت وجرب أشياخي " !! أو يقول " هذا أمرٌ أجد فيه ذوقا " !! أو يحكي قصة يبني عليها دين وعمل !! كتاب الله ﷻ الذي نزّله ونزّل به شرعه ودينه يُتلى حجة الله ﷻ على عباده بين أيديهم ؛ ثم تُترك الحجة وتبنى الأديان على عقول وعلى أذواق

وعلى قصص وعلى منامات وعلى حكايات وعلى تجارب إلى غير ذلك !! فهذا كله هجر لكتاب الله ﷻ، ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠] ؛ هذا هجر للقرآن ، وهجر القرآن – كما بيّن العلماء – بهجر التلاوة ، وهجر الفهم ، وهجر العمل ؛ يهجر القرآن بأن لا يتلوه ، ويهجر القرآن بأن لا يحرص على فهمه ، ويهجر القرآن بترك العمل بما جاء في القرآن الكريم .

فما سوى القرآن يشير المصنف إلى هذه المصادر . القرآن هو المنبع العذب الصافي النقي الذي لا كدر فيه ولا شائبة ، ويشير بقوله ((وترك ما سواه)) إلى هذه المصادر . ومصادر الاستدلال لدى الناس لا حدّ لها ولا عدّ ، وأنت إذا أردت أن تعرف سبب تنوع العقائد وكثرتها ، وأيضا تباين الأعمال وتعددها واختلافها بين الناس ؛ فالسبب وراء ذلك كله تنوّع المصادر ، ناسٌ مصدرهم العقل ، وآخرون التجارب ، وآخرون المنامات ، وآخرون القصص والحكايات ؛ وهكذا ؛ مصادر اتخذها الناس لطلب الدين وابتغاء الدين فنشأت عندهم أنواع الضلالات والباطل. ولهذا عقد المصنف رحمه الله هذه الترجمة مبيّناً وجوب الاستغناء بكتاب الله ﷻ ، ومعنى الاستغناء بكتاب الله: أي الاكتفاء بالقرآن عن كل ما سواه .

وسنة نبينا ﷺ العمل بها من العمل بالقرآن ؛ لأن من لم يعمل بالسنة هو في الحقيقة لم يكتفِ بالقرآن لم يعمل بالقرآن ، لأن معنى الاكتفاء بالقرآن : يقول ((**الاستغناء بمتابعة الكتاب**)) ؛ هل من لا يعمل بالسنة متّبع للكتاب ؟ أين إتباعه لقول الله ﷻ : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧] ؟ أين إتباعه لقوله ﷻ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[النساء:٦٥] ؟ أين إتباعه لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[النساء:٦٩] ؟ ، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور:٥٤] ؟ أين إتباعه لقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] ؟! فالذي لا يعمل بالسنة هو ليس من أهل القرآن ، لأن القرآن فيه آيات كثيرة جداً فيها الأمر بإتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتحكيمه وامتثال أمره والانتهاء عن نهيه ، وقرَن رب العالمين طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام بطاعته في آيات كثيرة في القرآن الكريم .

فقول المصنف رحمه الله ((**الاستغناء بمتابعة الكتاب**)) لم ينص عليها بالذكر هنا لأنها من إتباع الكتاب ؛ من لا يعمل بالسنة هو في الحقيقة لا يعمل بالقرآن الكريم ، الله ﷻ قال : ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[الأنعام:٧٢] كيف نقيمها ؟ هذه الصلوات الخمس بعدد ركعاتها وأعمالها وأنواع شروطها وواجباتها تفاصيل ذلك أين جاءت ؟! أيضا بقية الأعمال ؛ الحج ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عمران:٩٧] ، أعمال الحج كيف جاءت ؟! قال: ((لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ)) ، في الصلاة قال: ((صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي)) . فالذي لا يعمل بالسنة هو في الحقيقة لا يعمل بالقرآن . وفي الأزمنة المتأخرة نشأت طائفة سمّوا أنفسهم «القرآنيون» ؛ يزعمون أنهم لا يعملون إلا بالقرآن فقط

ولا يعملون بالسنة ، وهؤلاء ليسوا من أهل القرآن ولا من حزب القرآن ، هؤلاء من حزب الشيطان ومن أولياء الشيطان ، وحقيقة أمرهم عدم العمل بالقرآن ، أين عملهم بالقرآن في آيات كثيرةً جداً فيها الدعوة إلى إتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعته والاقتداء به والتحاكم إليه ورد النزاع إليه ؟! ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [النساء:٥٩] ، والسنة هي وحي ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤] ، الحكمة: هي السنة وحي منزل من رب العالمين ، قال تعالى:﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:٣-٤] ، فالسنة وحي . فالذي لا يعمل بالسنة هو في الحقيقة لا يعمل بالقرآن ، ومن لم يكن من أهل السنة والعمل بها ليس من أهل القرآن .

قال: ((**باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه**)) ؛ «عن كل ما سواه» ضع تحتها كل مصادر الاستدلال التي وُجدت عند أهل البدع والضلال . وما هي مصادر الاستدلال عند أهل البدع ؟ كثيرة ؛ العقل مصدر ، والهوى مصدر ، والمنامات مصدر ، والقصص مصدر ، والتجارب مصدر ؛ هذه كلها مصادر يستدلون بها ، فهذه كلها داخلة تحت قول المصنف: ((**عن كل ما سواه**)) . فالدين قال الله قال رسوله ، وفيهما غُنية وكفاية كما قال الله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ .

ثم أورد رحمه الله قول الله ﷻ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ هكذا وصف الله ﷻ الكتاب المنزل القرآن الكريم ، وصفه الله ﷻ بهذه الصفة العظيمة ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ يعني لا يحتاج الناس إلى شيء تتحقق به سعادتهم وفلاحهم وسلامتهم وفوزهم في الدنيا والآخرة إلا وبُيّن في كتاب الله ﷻ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ فإذا كان نُزِّل إلى الناس كتاب بُيِّن فيه كل شيء اشتمل على مصالح الناس وما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم فلِم يهجرونه ويقبِلون على ما سواه ؟! وهذا وجه الاستدلال بالآية للترجمة ؛ الترجمة : «**باب وجوب الاستغناء بالكتاب عن كل ما سواه**» ، والكتاب بُيِّن فيه كل شيء ، كل ما يحتاجه الناس في صلاحهم وسعادتهم وفلاحهم وسلامتهم في الدنيا والآخرة بُيِّن في الكتاب كما أخبر من نزَّل الكتاب ﷻ قال: ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ فالواجب الاستغناء به عن كل ما سواه . وسنة النبي عليه الصلاة والسلام شارحة للقرآن ومبيّنة له وموضحة لأحكامه ، وهي تفسير للقرآن الكريم ، ولا يمكن لأحد أن يعمل بالقرآن مع التخلي عن سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله :

روى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب ﷺ ورقةً من التوراة فقال : ((أمتهوِّكون يا ابن الخطاب ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حياً واتبعتموه وتركتموني ضللتم)) ، وفي رواية ((لو كان موسى حياً ما وسعه إلا إتباعي)) . فقال عمر: «رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا» .

****

قال رحمه الله: ((**روى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب ﷺ ورقةً من التوراة**)) ؛ والتوراة هو : الكتاب الذي أنزله الله تبارك وتعالى على عبده ورسوله موسى عليه صلوات الله وسلامه. والتوراة وكذلك الكتب المنزلة قبله وبعده اعتراها التحريف والتغيير والتبديل فلم تبقَ سليمةً كما أُنزلت ؛ بل أدخل فيها ما ليس منها وأخرِج منها ما هو منها ؛ فزيد فيها ونُقِص ، وغُيِّر فيها وبُدِّل ، فهي كتب مبدلة محرفة مغيرة ، وهي كتب أيضا منسوخة نُسخت بالقرآن ، فكل كتابٍ قبل القرآن نُسخ بالقرآن . وبعد نزول القرآن لا يجوز العمل بأي كتاب حتى لو كان سليماً من التبديل والتغيير ، فجميع الكتب التي أنزلت قبل القرآن كتب منسوخة بالقرآن الكريم ؛ فتُترك ويُعمل بالقرآن وحده ويكون الإتباع للقرآن وحده ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ))، لأن الله ﷻ بعث محمداً ﷺ بالقرآن وجعل القرآن ناسخاً للكتب التي قبله فلا يُعمل إلا به. وهذا وجه الاستدلال في الحديث للترجمة : «**الاستغناء بكتاب الله**» ، لأن الله ﷻ أنزل القرآن أعظم كتاب على رسول الله عليه الصلاة والسلام أفضل رسول ، وجعل الرسول خاتم الرسل والقرآن خاتم الكتب المنزلة ، فهو أعظمها وأجلّها فكيف لا يُستغنى به !! كيف لا يُكتفى به !! ولماذا والقرآن بين أيدي الناس تُقرأ الكتب التي قبله ويُنظر في الكتب التي قبله !! فالكتب التي قبل القرآن جاء القرآن بنسخها ، ولا يجوز أن تُقرأ تلك الكتب ، ولا يجوز أن تكون مع الإنسان يتصفحها ويقرأها ؛ لما رأى النبي ﷺ في يد عمر ورقة واحده من التوراة – ليست التوراة كاملة – قال: ((**أمتهوكون يا ابن الخطاب**)) ، وعمر هو من هو في الفقه والعلم والدين ؛ فلا يجوز أن تُقرأ التوراة أو الإنجيل أو الكتب المنزلة الأخرى ، بل الواجب الاكتفاء والاستغناء بالقرآن الكريم .

والعلماء رحمهم الله قالوا : النظر فيها قد يسوغ في حالة واحدة للعلماء الأكابر فقط في مقام الرد على هؤلاء وإبطال دينهم ؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام في مقام الرد على هؤلاء نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران:٩٣] ، ففي مقام الرد وإبطال عقائد هؤلاء وبيان ضلالهم من قِبَل العلماء الأكابر الراسخين في العلم قد يسوغ هذا في مثل هذه الحالة ، أما عوام الناس وطلاب العلم والمبتدئين في الطلب يقتني التوراة ويقرأ ويقول ننظر ما عندهم !! أو يفتح الإنترنت ويبدأ يدخل في مواقع ويقرأ هنا وهناك ويسمع لهذا وذاك ؛ هذا من أعظم أبواب الضلال والانحراف.

قال: ((**رأى النبي ﷺ في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقةً من التوراة**)) ؛ ورقة واحدة ((**فقال: أمتهوكون يا ابن الخطاب**)) ؛ التهوّك : هو التسرّع والدخول في الأمر بدون رويّة أو نظر ؛ هذا من معاني التهوك التي ذُكرت في كتب اللغة ؛ التهوك: التسرع أو فعل الأمر بدون روية ونظر .

قال: ((**أمتهوكون يا ابن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية**)) ؛ قوله: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية» فيه دليل للترجمة : الاستغناء بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، مثل الآية ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ هذا دليل على وجوب الاستغناء بما جاء به الرسول ، وقوله هنا ((**جئتكم بها بيضاء نقية**)) هذا دليل على وجوب الاستغناء بما جاء به الرسول ، إذا كانت جاءت بيضاء نقية واضحة جامعة وافية ألا يُستغنى بها ؟!

قال: ((**لقد جئتكم بها بيضاء نقية**)) ، في الحديث الآخر قال : ((تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا)) يعني واضحة وافية ؛ فهذا كله من الدلائل على الاستغناء بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وترك ما سواه .

قوله فيما سبق ((**وترك ما سواه**)) يدخل تحته هنا على سبيل المثال لا الحصر : الأخذ عن بني إسرائيل ، أو عن التوراة ، أو عن الإنجيل ، أو عن الزبور أو غيرها ؛ هذا على سبيل المثال ، فهذا مما وجب تركه ، وأيضا مما وجب تركه : كل مصادر الاستدلال الذي سبق الإشارة إلى شيء منها .

قال: ((**ولو كان موسى حياً واتبعتموه وتركتموني ضللتم**)) ؛ يعني لو كان موسى عليه السلام موجود بين أظهرهم سيدعوهم إلى ماذا ؟ سيأخذون من موسى الدين الذي بُعث به بدون تحريف ، يعني سيأخذون دين غير محرف ، لكن التوراة التي توجد بين أيدي الناس ليست هي الدين الذي بُعث به موسى عليه السلام بل هي محرفة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يذكر لهم أعظم هذا ، يعني أعظم من النظر في التوراة التي بين أيديهم ، لو أن موسى عليه السلام كان بين أظهرهم واتبعوه وتركوا النبي عليه الصلاة والسلام لضلوا ؛ لماذا؟ لأن الأحكام التي أنزلها الله ﷻ على موسى جاء في الإسلام نسخها أو نسخ كثير منها ، ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[الأعراف:١٥٧] ، جاء في الإسلام وضْع أمور ، ونسْخ أمور ، وإلغاء أحكام ، ومجيء أحكام كما قال الله ﷻ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨] ، فالدين الذي جاء به موسى لقومه ثم بعث الله ﷻ عيسى ، ولما بعث محمد عليه الصلاة والسلام الأخذ بأي دين سواه لا يجوز، لماذا ؟ نرجع للآية ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ [آل عمران:٨٥] الإسلام ما هو؟ استسلام لله ، فإذا بعث رسولاً عقِب رسول وأمر بإتباع الرسول الآخر وقال قائل : "أنا لا أتبع الرسول الآخر وإنما أتبع الرسول الأول" ، هو ليس مستسلم لله ، أين إسلامه ؟! الإسلام : هو الاستسلام لله تبارك وتعالى .

ولهذا دارت مناظرة جميلة جداً بين ابن القيم وبين أحد النصارى ذكرها رحمه الله في كتابه «الصواعق المرسلة» ، يقول : «دارت بيني وبين أحد النصارى مناظرة قلت له فيها : لقد سببتم الله –أي أنتم أيها النصارى– سبّة ما سبه بها أحد من العالمين ، فقال: معاذ الله كيف ذلك؟ فقلت لهم : أن الرسول ﷺ محمد بعثه الله وأيَّده بالحجج والبراهين ومكّن لدينه ولا يزال دينه في ظهور وأعدائه في سفول ، ويؤيده بالحجة تلو الحجة وبالبرهان تلو البرهان ، لا يزال مؤيَّدا محفوظاً منصوراً ، وأنتم تقولون أنه نبي كاذب ، فإما أن يكون الله عالمٌ به – يعني عالمٌ بهذا الرجل الذي يزعم بزعم النصارى أنه رسول وهو في الحقيقة ليس رسول بزعمهم – أوليس عالما به ، فإن قلتم ليس عالم به فقد سببتم الله ، وإن قلتم عالما به ؛ فإما أن يكون قادر على الأخذ على يده ومنعه ورده وإما أن يكون غير قادر، فإن قلتم ليس قادر أيضا سببتم الله ، والله يقول ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧] ، فإن قلتم إن الله عالم به وقادر عليه وأيضا تركه في رِفعة مؤيّدًا محفوظاً فهذا كله سب لله ﷻ ، فتنبه ذلك الرجل وقال : نحن لا نقول أنه نبي كاذب بل هو نبي صادق وأتباعه سعداء ، والعقلاء منا يقولون ذلك ، قال : قلت له: إذا قلت أنه نبي صادق وأن أتباعه سعداء فما الذي يمنعك أن تتبعه وتكون من هؤلاء السعداء ؟ فقال نحن من أتباع عيسى ، وأتباع عيسى أيضا سعداء كما أن أتباع موسى أيضا سعداء ، قال : إن قلت إنه نبي صادق – أي محمد ﷺ – فإن مما جاء به تكفير من لم يؤمن به ، وفي الحديث ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)) ، فإما أن يكون صادقًا في هذا فيلزمك إتباعه ، أو لا يكون صادقًا في هذا فرجعنا إلى الكلام الأول . فقال الرجل: حدِّثنا في غير هذا – أي ابحث لنا في موضوع آخر نتباحث فيه ، أما هذا ما نواصل الحديث فيه» قامت عليه الحجة ولكنه أبى أن يستسلم .

قال: ((**ولو كان موسى حيا**)) هذا فيه فائدة – كما قدمت – وهي : أنه ليس الأمر مقتصراً على التوراة المحرف، ة بل موسى عليه السلام بشخصه ونفسه لو جاء وكان بين أظهر الناس لا يجوز إتباعه ؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله تعالى ، والله ﷻ ختم الرسالات ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ فليس بمسلم . قال ((**ولو كان موسى حيا وأتبعتموه وتركتموني ضللتم**)) .

قال ((وفي رواية : **لو كان موسى حيا ما وسعه إلا إتباعي**)) ؛ وهذا المعنى أعظم من الذي قبله . ولاحظ التدرج في البيان ، عندنا ثلاثة أمور الآن :

- الأمر الأول : التوراة التي بين أيدينا لا يحل النظر فيها ، والنظر فيها والبحث عن الهدى من خلالها ضلال

.

- والأمر الثاني : ما ذكره النبي ﷺ على وجه الافتراض البياني والإيضاحي قال: ((**لو كان موسى حيا وأتبعتموه وتركتموني ضللتم**)) ؛ يعني لو كان بين أظهركم موسى وأتبعتموه وتركتم إتباعي ضللتم.

- وأمرٌ أعظم من ذلك ؛ قال: ((**لو كان موسى حيا ما وسعه إلا إتباعي**)) .

ومما يبين هذا المعنى أن عيسى عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان لا يحكم الناس بالإنجيل وهو الكتاب الذي أنزل عليه ، وإنما يحكم الناس بالقرآن الكريم ، فبعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ونزول القران الكريم وجب الاستغناء بالقرآن عن كل ما سواه ؛ سواء في الكتب المنزلة قبله أو غير ذلك من المصادر التي جعلها الناس مأخذًا لهم في الاستدلال .

((**قال عمر** رضي الله عنه : **رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد** ﷺ **نبيا**)) ؛ وهذا فيه سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم وحُسن استسلامهم ، ونهجهم في ذلك نهج الأنبياء ؛ مسارعة بدون تردد وبدون توقف . مر معنا قريبا آية عظيمة في هذا الباب ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١] ، فهنا مجرد ما نُبِّه عمر إلى هذا الأمر أو إلى هذا الخطأ قال: ((**رضيت بالله ربا**)) ؛ مباشرة بدون تردد وبدون تفكير وبدون نظر ، ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[المؤمنون:٦١] يسابق للاستجابة والامتثال والانقياد ، بعض الناس إذا عُرض عليه الدين الحق يقف متردداً وربما ينتظر ليستشير ، يُعرض عليه الحق البيّن الواضح الظاهر الجلي الذي لا التباس فيه ولا غموض فيقف متردداً!! فعمر رضي الله عنه لما بيّن له النبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر ((**لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا إتباعي**)) قال : «رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا» ؛ فذكر عمر رضي الله عنه الأصول الثلاثة التي قال عنها ﷺ ((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺرَسُولًا)) ، وعن هذه الأصول الثلاثة يُسأل كل ميت إذا أدخل قبره ؛ يقال له : «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك ؟» ؛ هذه فتنة القبر ، ثلاث أسئلة محددة معيّنه ، وكل من أدرِج في قبره يأتيه ملكان سود الوجوه زُرق العيون يقال لأحدهم «المنكر» ويقال للآخر «النكير» ؛ لأنهما يأتيان على هيئة منكرة غير مألوفة ولا معروفة ، ويقال لهما «الفتّانان» لأنهما يفتنان الإنسان يمتحنانه في قبره ، والأسئلة التي يمتحن فيها الميت هي هذه : «من ربك؟ ، وما دينك ؟ ، ومن نبيك ؟» .

ولهذا هذه الكلمات الثلاث يحتاج المسلم إلى عناية بها متواصلة ومستمرة ، ومن العناية المتواصلة بهذه الأمور الثلاثة: أن يقول هذه الكلمات عند سماع الأذان ، لما يقول المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمد رسول الله يقول : «وأنا أشهد، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا» كما ثبتت بذلك السنة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وجاء في بعض الأحاديث أنها تقال في الصباح ثلاثا وفي المساء ثلاثا «رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا» ، على اختلاف بين أهل العلم في تحسين أو تضعيف الحديث الوارد في ذلك

. فيحتاج الإنسان إلى عناية عظيمة جداً بهذه الأصول، لأنها تعتبر ركيزة وأصول يقام عليها دين الإسلام ؛ الرضا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا .

ومن نصح مؤلف هذا الكتاب لعموم المسلمين شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ألَّف رسالة أسماها «الأصول الثلاثة» ؛ شرَح فيها هذه الأمور الثلاثة ((**رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا**)) وذكر مع كل أصل من هذه الأصول الثلاثة دلائله من القرآن والسنة كما هي طريقته في جميع كتبه، فهو رحمه الله طريقته في كتبه جمْع الآيات والأحاديث ، فهو في كتابه الأصول الثلاثة جَمَع طائفة من الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه الأصول الثلاثة وكتبها بعدة أساليب ؛ كتبها للأطفال، وللعوام، ولطلبة العلم ، ونفع الله برسالته هذه نفعاً عظيماً ، وكان كبار السن يُلقَّنون هذه الأصول تلقينًا وكانت تسمى «الدِّين» ويؤتى بهم ويلقنون هذه الأصول .

كنت من وقت قريب في زيارة لرجل عمره قارب المائة وضعُف ونحُل فلما جلستُ عنده قال لي مستذكراً : الطواغيت كثيرون لا كثّرهم الله ورؤوسهم خمسة ، ثم أخذ يعدِّدهم واحداً تلو الآخر، قال بقي خامس الآن نسيته تذكرني به ؟ فذكرته به . حفظوها منذ الصغر يسمونها «الدين» .

فالمصنف رحمه الله كتَب الأصول الثلاثة بأسلوب مبسط وسهل وكان يحفَّظ الكبار هذه الأصول ويستذكرونها بين الوقت والآخر ، ولما أهمل الناس دينهم دخلت عليهم أنواع من الضلالات انشغلوا بها عن أصول الدين وانشغلوا بها عن هذه الأصول الثلاثة التي يُسأل عنها كل ميت في قبره ؛ ولهذا ينبغي أن تتظافر الجهود من طلبة العلم والدعاة والخطباء وأئمة المساجد على بث هذه الأصول الثلاثة ونشرها بين الناس ، فهي أعظم ما ينبغي أن يُعنى به ويُهتم به ؛ لأنها الأصول التي يُسأل عنها كل ميت عندما يدرج في قبره ؛ الرضا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيا .

- والرضا بالله ربا : أي الرضا به تبارك وتعالى خالقاً رازقاً منعِماً متصرفاً ، والرضا به معبوداً بحق ولا معبود بحق سواه ، والرضا به حاكماً آمِراً ناهياً ، له الحكم جل وعلا ، وله الأمر ﷻ .

- والرضا بالإسلام : بتلقي الإسلام بالقبول ، وعدم ابتغاء دينٍ سواه ، ومعرفته ، وتعلّمه .

- والرضا بالنبي عليه الصلاة والسلام رسولا : بتصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، وتلقي ذلك كله بانشراح صدرٍ وإقبالٍ وطواعيةٍ وامتثال.

ونسأل الله تبارك وتعالى أن يكتب لنا أجمعين التوفيق والسداد والهداية والرشاد والإعانة على كل خير ، إنه سميع مجيب .

الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام

وقوله تعالى ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾[الحج:٧٨] .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**بابٌ ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام**)) ؛ أي ما جاء في التحذير من ذلك والنهي عنه ، وبيان أن الواجب على من حباه الله بالإسلام ومنّ عليه بهذا الدين وأكرمه بأن كان من أهله ؛ أن يكون انتماؤه إليه ، وانتصاره له ، وعمله لأجله ، ودعوته لتحقيقه ؛ فيجمع الفضائل : فضيلة الامتثال والعمل بالإسلام ، وفضيلة الدعوة إلى الإسلام وإلى شرائعه وأعماله والسعي في نشره ، وفضيلة الانتماء إليه ، وهذه ثلاثة فضائل عظيمة جداً. ومن كانت فيه هذه الفضائل فليس هناك من هو أحسن منه حالاً ، كما قال الله ﷻ في جمْع هذه الفضائل العظام الثلاث وبيان أنه لا أحد أحسن ممن كانت هذه حاله قال ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] ؛ ثلاث فضائل عظيمة امتدح الله ﷻ المتصف بها وبيّن أنه لا أحد أحسن منه ، فمن منّ الله ﷻ عليه بالإسلام عليه أن يحمد الله تبارك وتعالى على هذه النعمة ، وأن يسعى جاهدًا في تكميل إسلامه في نفسه، وتحقيق دينه والسعي في البلوغ به إلى عالي الرتب ، وأيضًا يسعى في نشره ودعوة الناس إليه وترغيب الناس فيه ، قال عليه الصلاة والسلام لعلي ﷺ ((ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ)) ثم قال له : ((لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ)) ، وفي الآية المتقدمة قال رب العالمين: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ ، ونبينا ﷺ أمِر كما جاء في القران ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:١٠٨] ، وأن يكون انتماؤه إلى هذا الدين ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ؛ وهذا الاسم العظيم اسمٌ سمى الله ﷻ به أهل الإسلام في كتابه العظيم القران الذي ختم به الكتب المنزلة منه تبارك وتعالى على عباده ، وسماهم بهذا الاسم قبل القرآن ، ولهذا جاء المصنف بهذه الآية التي خُتمت بها سورة الحج مبيّنا عظمة الانتماء إلى الإسلام والاعتزاء إلى هذا الدين ،

قال ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ ؛ ﴿ وَفِي هَذَا ﴾: أي في القران الكريم ، و﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾: أي في الكتب المنزلة قبله على رسل الله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه .

وقوله ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ ﴾ : أي الله وليس إبراهيم عليه السلام ، قال قبلها: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ ، فبعض المفسرين قالوا : ﴿ هُوَ ﴾ : أي إبراهيم ﴿ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ ، ولكن هذا خلاف الصواب ، الصواب أن الذي سمى أهل هذا الدين بالمسلمين هو رب العالمين . ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ ﴾ : أي الله ،﴿وَفِي هَذَا ﴾: أي في القران الكريم ، و﴿مِنْ قَبْلُ ﴾: أي في الكتب التي أنزلها على رسله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه . فيكون عمل المرء بالإسلام ، ودعوته إلى الإسلام ، وانتمائه إلى الإسلام ؛ فهو دين الله تبارك وتعالى الذي رضيه ودعا عباده إلى الإيمان به ، وإلى العمل به ، ودعاهم أيضا إلى الانتساب والانتماء والاعتزاء إلى هذا الدين .

فإذا سُئل من منّ الله عليه بدخول هذا الدين وأكرمه بأن كان من أهله عن دينه قال : «ديني الإسلام» ، فهو دينه الذي يدين الله ﷻ به ؛ يحافظ على عقائد الدين ، ويحافظ على أعمال الدين ، ويحافظ على أخلاقه وآدابه، ويسعى جاهداً في حياته إلى دعوة الناس إلى هذا الدين ، لا يدعو الناس إلى شخصه ، ولا يدعو الناس إلى شهرة يطلبها ، ولا يدعو الناس إلى تحزّبات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، وإنما يدعوهم إلى دين الله بالإسلام ، وهمّه انتشار هذا الدين ، قال بعض السلف : «وددتُ لو دخل الناس في دين الله أفواجا ولو قرّض جسمي بالمقاريض»، لم يكن همّ الواحد منهم سمعةً يكتسبها ، أو شهرةً وصيتاً يذيع له ، أو زعامةً يطلبها ، أو أصواتاً يكتسبها أو غير ذلك ، وإنما كان همّهم انتشار دين الله ، ودخول الناس في الإسلام ، ومعرفتهم بهذا الدين ، وذهاب الباطل وزهاقه ، وانتشار الحق وعلو كلمته . هذا همّ المسلم ؛ همُّ من امتدحه الله ﷻ في الآية المتقدمة بقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، ولهذا قال المصنف رحمه الله : ((**باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام**)) .

وأرباب المذاهب الباطلة المنحرفة يُنسب باطلهم إلى من أسسه أو من اخترعه أو من أوجد تلك البدع ؛ فيُنسبون إلى المؤسسين أو يُنسبون إلى البدع نفسها ، أما أهل الحق والاستقامة والتمسك بالإسلام الصحيح فإن نسبتهم إلى هذا الإسلام أو إلى الألفاظ الشرعية التي تدل على حقيقة الإسلام الخالص ، فهي تسمية صحيحة شرعية تدل على حقيقة الإسلام الخالص ؛ مثل تلقيب من ليسو من أهل البدع الذين هم أهل المحافظة على الإسلام الخالص والدين الصحيح البعيدون عن البدع والخرافات والضلالات ونحوها بـ«أهل السنة والجماعة»، فهذه

التسمية تسمية صحيحة لأنها نابعة من الإسلام وهي انتساب إلى الإسلام ، ليست انتساباً إلى شخص ، ولا انتساباً إلى حزب ، ولا انتساباً إلى شعار من الشعارات الزائفة ؛ وإنما هو انتساب إلى الإسلام ، لأن الإسلام حقيقته تمسُّك بالسنة ولزومٌ للجماعة .

قال: ((**باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام**)) ؛ أي باعتزاء لأشخاص أو شعارات أو نحو ذلك ينبني عليها التفرق وتشيّع الناس إلى شيَع وأحزاب وتفرّق كلمتهم واختلال صفّهم وأن يدب الوهن والضعف فيهم، فهذا أمرٌ ذمه الله ﷻ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:١٥٩] ، والواجب أن ينضوي أهل الإسلام تحت الإسلام ملتزمين به ، محافظين على شعائره ، منتمين إليه ، داعين إليه .

قال رحمه الله :

وعن الحارث الأشعري ﷺ **عن النبي** ﷺ **أنه قال** : ((**آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ : السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالْجِهَادُ وَالْهِجْرَةُ وَالْجَمَاعَةُ ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يراجع ، وَمَنْ دعا بدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ**)) **فَقَالَ رَجُلٌ** : «**يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟**» **قَالَ** : ((**وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ**)) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

****

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما وسياقه طويل ، واقتصر المصنف رحمه الله على موضع الشاهد للترجمة من الحديث ، ولكن لأهمية سياق الحديث ولعظيم ما فيه من فوائد نذكر الحديث بتمامه ؛ فعن الحارث الأشعري ﷺ أن نبي الله ﷺ قال : ((إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَام بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، فَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ فَقَالَ لَهُ عِيسَى عليه السلام : إِنَّكَ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ؛ فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ ، فَقَالَ : يَا أَخِي إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي ، قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ فَقُعِدَ عَلَى الشُّرَفِ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ ؛ أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ –هذا مثل المشرك– فَأَيُّكُمْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ –يعني يعمل ويعطي الغلة لغير السيد!!– وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)) تأمل هذا المثل البديع الذي يوضح حال المشرك ؛ حال المشرك مثل رجل عنده عبد اشتراه بخالص ماله ثم يعمل ذلك العبد ويعطي الغُلة والمكسب والربح لغير السيد ، والله ﷻ خلق العبد وأوجده من العدم ويرزقه صنوف النعم وأنواع

المنن ثم يجعل عبادته ودعائه لغير الله تبارك وتعالى !! ، قال: ((وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا ، وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ – هذا مثل الصدقة والإنفاق في سبيل الله – ، وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ – أي أدركه عدوه ولحقه عدوه – فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ)) . انتهت وصايا يحي لقومه ، وقد ذكرها النبي ﷺ منوّهًا بها مبيناً عظمتها ومكانتها ، وهي وصيةٌ بالتوحيد ، ووصيةٌ بالصلاة ، ووصيةٌ بالصيام ، ووصيةٌ بالصدقة ، ووصيةٌ بالإكثار من ذكر الله ﷻ ، مع ضرب مثل لكل وصية من هذه الوصايا الخمس يبين مكانة هذه الوصية وعظيم منزلتها .

ثم إن نبينا ﷺ لما أنهى ذكر هذه الوصايا –وصايا يحي عليه السلام– قال: ((وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ : السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْجِهَادِ وَالْهِجْرَةِ والْجَمَاعَةِ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنْ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ)) فقال رجل : يَا رَسُولَ اللَّهِ وإن صلى وصام ؟ قَالَ وَإِنْ صلى وصام فَادْعُوا بدعوى الله الذي سماكم الْمُسْلِمِينَ والْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ)) . المصنف رحمه الله ساق هذا الجزء من الحديث المشتمل على وصايا نبينا الكريم ﷺ الخمس لأمته وأمْره أمته بهن ، وقال: ((**إني آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ**)) ؛ فالله ﷻ أمر بها نبيه عليه الصلاة والسلام ، ونبينا ﷺ أمر بها أمته مبلغاً ما أمره الله تبارك وتعالى به . فذكَر هذه الوصايا الخمس .

قال : ((**السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)) ؛ هذه الوصيتان الأوليان : السمع والطاعة ؛ أي السمع لمن ولّاه الله ﷻ أمر المسلمين. وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بذلك ((عَلَيْكم السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ)) ، ((اسْمَعْ وَأَطِعْ)) ، وهنا قال ((السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ)) أي : لمن ولاه الله ﷻ أمر المسلمين ؛ يُسمع كلامه ويطاع أمره ، وذلك لأن الإسلام وجماعة المسلمين واجتماع كلمتهم والتئام شملهم وانتظام أمرهم لا يكون إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ، فجماعة المسلمين واجتماعهم على الإسلام مطلوب ، والاجتماع على الإسلام واجتماع الناس عليه وكون كلمتهم واحدة هذا لابد فيه من إمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ؛ ولهذا جاء الإسلام بالتأكيد على السمع والطاعة ؛ جاء ذلك في القران وجاء ذلك أيضا في سنة النبي ﷺ ؛ في القران قال الله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[النساء:٥٩] ، والسنة مليئة بالأحاديث عن النبي ﷺ في الأمر بالسمع والطاعة لمن ولاه الله ﷻ أمر المسلمين ، يُسمع ويطاع حتى وإن لم يكن هذا الذي وليَ أمر المسلمين عدلا

، حتى وإن لم قائماً بالعدل ، حتى وإن كان عنده ظلم وشيء من الحيف ، ولهذا أكد النبي ﷺ على ذلك قال: ((اسْمَعْ وَأَطِعْ ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ)) ؛ لماذا؟ لأن نزع اليد من الطاعة والخروج من السمع فيه شق لكلمة المسلمين ، فيه تفرقة لصفهم ، فيه خلخله لجماعتهم ، فيه زعزعة لأمنهم ، بل فيه إراقة دماء ، وانتهاب أموال ، وانتهاك أعراض ، واختلالٌ للأمن ، وذهابٌ للكلمة ، ولهذا جاء الإسلام بالسمع والطاعة والصبر ، يصبر على ظلم الولاة إن وُجد ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله : «اصبر حتى يستريح بَرّ أو يُستراح من فاجر» . فجاء الإسلام بالوصية بالسمع والطاعة وعدم نزع اليد من الطاعة وعدم الخروج على الجماعة ؛ لما في ذلك من الشر العظيم والفساد العريض .

والطاعة التي أمِر بها هنا في قوله ((السمع والطاعة)) ليست طاعةً مطلقة في كل ما يأمر به ، ولهذا قال الله ﷻ ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ولم يقل "وأطيعوا أولي الأمر منكم" ، لأنه ليس له طاعة مطلقة ، يبين ذلك قول النبي ﷺ : ((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ)) و ((لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ)) ، فإذا أمر بمعصية لا يطاع ، يعني إذا أمر بترك الصلاة أو أمر بشرب الخمر أو بالفواحش لا يطاع ، ولا أيضا تُشق العصا وإنما يُمتنع من طاعته فيما يدعو إليه من حرام ومن الأمور التي نهى الرب تبارك وتعالى عنها لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

قال: ((**السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْجِهَادِ**)) ؛ أي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولنصر دينه تبارك وتعالى ، وأيضا الجهاد الذي هو أساس هذا الأمر وهو جهاد النفس على طاعة الله ﷻ والبعد عما حرّم ،كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ)) ، ومن انهزم أمام نفسه ولم يجاهدها في طاعة الله ليس أهلاً أن يجاهد العدو الخارجي وهو لم يجاهد العدو الداخلي الذي بين جنبتيه ، من لم يجاهد نفسه على طاعة الله فلا يستطيع أن يجاهد نفسه ليصلي الفجر مثلا ليس أهلاً أن يجاهد العدو . ولهذا قال بعض أهل العلم مشيراً إلى هذا المعنى وملْمِحاً إلى هذه الحقيقة : «أعظم أسباب النصر المحافظة على صلاة الفجر» ، قاصدا بذلك الإشارة إلى هذا المعنى ؛ من لم يجاهد نفسه على الصلاة وخاصةً صلاة الفجر التي هي باكورة اليوم ومفتتحه وينهزم أمام نفسه فينام عن الصلاة ويقدّم النوم على هذه الصلاة هذا ليس أهل أن يجاهد عدواً أو أن ينصر دينًا، لأنه لم ينصر دين الله ﷻ في نفسه فليس مؤهلاً أن ينصر دين الله ﷻ وأن يكون من أعوان نصر دين الله ﷻ ، من لم ينتصر على نفسه ليس أهلاً أن ينتصر لدين الله ﷻ ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ)) ؛ فالذي يجاهد نفسه في طاعة الله تأهل بهذا الجهاد لنصرة دين الله تبارك وتعالى ، أما إذا كان منهزم أمام ألد أعدائه وهي نفسه التي بين جنبيه تذهب به إلى كل حرام وتجنح به إلى كل باطل وتبعِده عن كل فضيلة وهو منهزم أمامها ، فهذا من باب أولى أن يكون منهزماً أمام عدوه ، ولهذا أعظم أسباب تسلط الأعداء على المسلمين هي هزيمة المسلمين الداخلية مع أنفسهم ، عندما يُهزم المسلم داخلياً مع نفسه فيضيّع دينه

ويغشى الحرام ولا يبالي ويضيّع الواجبات ولا يبالي فيكون بهذه الهزيمة يُهزم من الأعداء ، وإذا انتصر على نفسه بالمحافظة على الدين ورعاية هذا الدين فالله جل وعلا ينصره ويمكّن له ، وتأمل هذا في قول الله ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥] ؛ أمْن وتمكين وعز ونصرة ، والشرط : ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ؛ يؤمنون ويعملون الصالحات . فالمجاهد من جاهد نفسه على طاعة الله تبارك وتعالى ، وبهذا يتأهل لأن يكون من أنصار الدين وأعوانه .

قال: ((**وَالْهِجْرَةِ**)) ؛ هذا اللفظ العظيم يتناول الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ، ولما كانت مكة دار كفرٍ كانت الهجرة منها واجبة ، ثم لما فتح النبي ﷺ مكة قال: ((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ)) لأنها أصبحت دار إسلام والكلمة فيها للإسلام ليست للمشركين ، و ((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ)) : أي من مكة ، أما ديار الكفر فالهجرة منها إلى ديار الإسلام باقي الحكم ؛ لكن ((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ)) أي من مكة لأنها أصبحت دار إسلام فلا هجرة منها واجبة لأنها أصبحت دار إسلام .

وكذلك ((**الهجرة**)) تتناول : هجرة المعاصي والذنوب والتوبة منها والإقبال على الله ﷻ ، ولهذا أيضا صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ((وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)) ؛ هذا ذكره النبي ﷺ في خطبة له في حجة الوداع قال : ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ،وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)) .

فالهجرة تكون بالانتقال من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ، وأيضا تكون الهجرة بهجر البدع بتركها والبعد عنها إلى السنة ، وترك المعاصي والذنوب إلى الطاعة ؛ فيتوب إلى الله ﷻ من البدع ، ويتوب إلى الله من المعاصي ، ويقبِل على الله ﷻ تائباً منيباً ، فهذه هجرة إلى الله تبارك وتعالى وإلى دينه وإلى سنة نبيه ﷺ . وهذه المعاني تكلم فيها بإجادة وإفادةٍ بديعة ابن القيم رحمه الله في رسالة له صغيرة عنوانها «الرسالة التبوكية» عظيمة الفائدة في هذا الباب، وتكلم عنها بتوسع في كتابه «طريق الهجرتين» .

قال: ((**والْجَمَاعَةِ**)) وهذه الوصية الخامسة ؛ الأولى: السمع ، والثانية: الطاعة ، والثالثة: الجهاد ، والرابعة: الهجرة، والخامسة: الجماعة .

والجماعة : أي لزوم جماعة المسلمين . ولزوم الجماعة يتناول لزوم أمرين :

❖ الأول : لزوم الحق الذي عليه جماعة المسلمين ؛ وهو دين الله ﷻ ، ومن لزم الحق الذي يجب أن يكون عليه أهل الإسلام وأهل الدين فهو جماعة ولو كان وحده بلزومه للحق ، ولهذا قال الله ﷻ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بلزوم الحق والمحافظة عليه .

❖ والأمر الثاني في الجماعة : لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ؛ فإذا كان المسلمون مجتمعون وكلمتهم مجتمعة على إمام واحد فالسمع والطاعة واجب ، ولزوم الجماعة واجب ، ونزع اليد من الطاعة محرم وذنب عظيم وجرم وخيم يجر على صاحبه وعلى غيره هلكة وشر في دينه ودنياه ، ولهذا لزوم الجماعة جاء التأكيد عليه في أحاديث كثيرة، بل قال عليه الصلاة والسلام ((الجَمَاعَة رَحْمَة وَالْفُرْقَة عَذَاب)) وهذه كلمة دالة على حقيقة الأمر بأحسن ما يكون وأوجز ما يكون ؛ ((الجماعة رحمة)) ، لما يكون المسلمون مجتمعون على إمام واحد حتى لو كان هذا الإمام ظالم وجائر وعنده نقص ؛ اجتماعهم عليه خيرٌ من تفرقهم بلا إمام ، لأن تفرق الناس بلا إمام يعني إراقة الدماء ، يعني انتهاك الفروج والحرمات ، يعني انتهاب الأموال ، يعني اختلال الأمن ، لا يستطيع الناس أن يجلسوا في المساجد ، ولا يستطيعون أن يطلبوا العلم ، ولا يستطيع الإنسان أن يحفظ ماله أو عرضه أو أهله أو بيته إلى غير ذلك ، كل هذه تضيع ، ولكن إذا كان عليهم إمام ولو كان فيه شيء من الجور أو الظلم أو الأثرة بالمال أو نحو ذلك هذا أرحم لهم ((الجماعة رحمة)) ، ((والفرقة عذاب))؛ الفرقة ويلات على الناس وشر وبلاء لا يعلم به إلا الله ﷻ .

ولهذا جاء الإسلام بحفظ الجماعة والمحافظة عليها ، وأن يجتمع الناس على إمامهم وعلى أميرهم وأن يسمعوا له ويطيعوا ويحافظوا على جماعتهم بإصلاحها لا بإفسادها ، الخروج على جماعة المسلمين ليس إصلاحاً بل هو إفساد، وإراقة للدماء ، واختلال للأمن ، وضياع للكلمة وتجرئة لأعداء الدين على أهله ؛ ليس فيها خير، الخير في اجتماع المسلمين واجتماع كلمتهم ، ولهذا جاء الإسلام ليس بالخروج على ولي الأمر وإنما بالنصيحة له ، قال عليه الصلاة والسلام : ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ ؟ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)) ؛ ولأئمة المسلمين : بالنصيحة لهم ، لا بالخروج ونزع اليد من الطاعة وشق العصا وتفرقة الكلمة ؛ فهذا كله شر ، ومن مارسوا هذه الأمور بنية الإصلاح لم يترتب على هذه الممارسة على مر التاريخ إلا الفساد ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رصدٍ له لمن مارسوا مثل هذه الأعمال : «فما أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا» ؛ لا يقام الدين بمثل هذه الممارسات ، ولا تبقى دنيا الناس ؛ بل يحصل فساد عريض وشر كبير ، ولهذا جاء الإسلام بحفظ الجماعة .

وأعيد ما قدمته وهو : أن أمر المسلمين لا ينتظم إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة؛ ولهذا جاءت هذه الأمور مرتبطة ؛ الوصية بالسمع والطاعة والوصية بلزوم الجماعة . يقول العرباض بن سارية ﷺ ((وَعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ لَهَا الْأَعْيُنُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا ، قَالَ : أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى بَعْدِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) . فلزوم الجماعة بلزوم الحق ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم

وعدم الخروج ؛ هذا من الأمور التي أكد النبي ﷺ عليها تأكيداً عظيماً في أحاديثه ، بل إنه ﷺ ثبت عنه أنه قال في خطبة له في حجة الوداع : ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ – وفي رواية اعبدوا ربكم – وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ)) لاحظ؛ قرَن طاعة ولي الأمر ورتب عليها دخول الجنة قرنها بالصلاة والصيام والزكاة وكلها رتب عليها دخول الجنة قال ((أطيعوا ذا أمركم)) .

وإذا وجدت الشبهات بين الناس في هذا الباب أفسدت عليهم قبول أحاديث النبي ﷺ التي فيها الأمر بالسمع والطاعة – ولننتبه لهذا – تجد بعض الناس إذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالصلاة انشرح صدره ، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالصيام انشرح صدره لحديثك ، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالزكاة انشرح صدره لحديثك ، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة انقبض صدره واستوحش ، هذا الانقباض وهذه الوحشة من السنة ومن الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة سببها الشبهات والأهواء التي تدخل على النفوس ؛ وإلا كلها سنن ، كلها دين ؛ ((وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ)) الذي أمر بطاعة ولي الأمر هو الذي أمر بالصلاة هو الذي أمر بالصيام ؛ فلماذا آيات الصلاة والصيام والحج تُقبل بانشراح ، والأحاديث والآيات المتعلقة بما يتعلق بولي الأمر تُقابَل باستيحاش !! لولا الأهواء التي تدخل على النفوس وعلى القلوب فتُمرِضها وتصدها عن دين الله ﷻ .

ولهذا ينبغي على المسلم أن يعالج نفسه بالسنة ، وأن يقرأ أحاديث النبي ﷺ وأن يؤمّرها على نفسه ، قال بعض السلف : «من أمّر السنة على نفسه نطق بالحكمة» ، لكن الذي يؤمِّر الهوى على نفسه ينطق بالبدعة وبالضلالة، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يؤمّر السنة على نفسه بمعنى أن يجعل السنة هي قائده .

لما ذكر الوصية بالجماعة قال مؤكداً : ((**فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ**)) ؛ لاحظ هذه الكلمة «**قِيدَ شبر**» ، قيد بكسر القاف أي قدر شبر ، والشبر قدر يسير جدا . مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْر يعني ولو مسافة قليلة ولو جزءً يسير ولو أمراً قليلاً ((**فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يراجِع**)) .

((**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةِ**)) ؛ أي جماعة المسلمين ونزع اليد من الطاعة وخرج على جماعة المسلمين يقول عليه الصلاة والسلام: ((**فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ**)) ؛ الربقة في اللغة : هي الحبل الذي يُلف به عنق الدابة حتى لا تشرد وحتى لا تضيع وحتى لا تكون نهبةً للسباع تأكلها ، ومن خرج من الجماعة أصبح نهبةً للسباع وعرضة للضياع والهلكة ، ولهذا قال: ((**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ**)) أي قدرا يسيرا قليلا ((**فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ**)) ؛ لأن هذا ضياع للدين ، الدين يتحقق بالأمن والطمأنينة وهذه الأمور إضاعة للكلمة ونشر للشر والفساد ، ولهذا إذا وُجد في بلدٍ من البلدان مثل هذه الأمور اختل الدين وقويت شوكة أهل الباطل وضعُفت كلمة أهل الحق ، ولم يتمكن الناس من الصلاة في مساجدهم ولم يتمكنوا من طلب العلم ولم يتمكنوا من أبواب الخير ، ويضيع أمرهم .

قال: ((**فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يراجِع**)) ؛ يعني يتوب إلى الله ﷻ من هذا الافتيات وهذا الخروج وهذا النزع والمفارقة لجماعة المسلمين .

قال: ((**وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**)) ؛ دعوى الجاهلية : أي عزاؤها وهو عصبيتها ؛ إما عصبية لعِرق ، أو لقبيلة، أو لشخصٍ ، أو لفئة أو نحو ذلك ، عصبيةً عمياء على الحق والباطل ، وعلى الهدى والضلال ، وانتصارٌ في هذا التعصب لمن يتعصبون له حتى في ظلمه وعدوانه وبغيه . كان أهل الجاهلية إذا اعتدى أحدهم على آخر ثم غلبه من اعتدى عليه نادى هذا المعتدي الظالم الباغي عشيرته : "يا لفلان" ، ثم جاءوا منتصرين له على ظلمه ؛ عصبيةً جاهلية ، وانتماءاتٍ باطلة ، ونُصرة للظلم والهوى والضلال ، هذه دعوى الجاهلية ؛ ينصرون الظالم بإعانته على ظلمه وعلى بغيه وعلى عدوانه .

قال: ((**وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**)) ؛ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ: أن يوجِد لنفسه انتماءً حتى ولو كان هذا الانتماء انتماءً مباح مثل: الانتماء إلى القبيلة ، أو الانتماء إلى البلد الذي وُلد فيه ونشأ فيه الإنسان ، هذا انتماء مباح لا شيء فيه ، أو الانتماءات أيضاً المستحبة مثل : انتماء الإنسان للهجرة "مهاجر" ، أو النصرة "أنصاري" ؛ هذه انتماءات صحيحة كلها ، لكن إذا جُعلت هذه الانتماءات من أجل التعصب الباطل ودعوى الجاهلية وعزائها فهذا أمر محرم جاء الإسلام بتحريمه والمنع منه كما سيأتي بيان ذلك .

قال: ((**وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ**)) ؛ من جُثى جهنم : أي من جماعاتها الذين يلقَون فيها ومن حطبها ووقودها ، فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ أي أن الله يلقيه في النار يوم القيامة . وهذا وعيد شديد لمن كان بهذا الوصف «مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ» وأيضا ضُبطت ((من جُثِيّ جهنم)) أي ممن يجثون في جهنم . والجثي : هو على الركب؛ جثى يجثو جثيًا أي على ركبه ، فهو من جثي جهنم ؛ ممن يجثون في جهنم أي يُلقَون فيها .

((**فقال رجل : يَا رَسُولَ اللَّهِ وإن صَلَّى وَصَام!!**)) ؛ يعني من دعا بدعوى الجاهلية حتى وإن كان من أهل الصلاة ومن أهل الصيام ولكنه يدعو بدعوى الجاهلية فهل أيضا العقوبة نفسها ؟

((**قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَام**)) ؛ يعني حتى وإن كان محافظًا على الصلاة محافظا على الصيام ؛ من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم . ((قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَام)) أي فهو كذلك حتى وإن صلى وصام .

((**فَادْعُوا بدعوى الله الذي سماكم الْمُسْلِمِينَ والْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ**)) وجاء في بعض الروايات قال: ((فادعوا المسلمين بما سماهم الله؛ المسلمين المؤمنين عباد الله)) ، وهنا قال: ((**فَادْعُوا بدعوى الله الذي سماكم الْمُسْلِمِينَ والْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ**)) ؛ ولهذا انتماء الإنسان من باب التعريف لبلده أو لقبيلته هذا أمر مباح ؛ أنا من قبيلة كذا أنا من بلد كذا هذا مباح ، أما إذا كان هذا الانتماء نوع من عزاء الجاهلية ودعوى الجاهلية وتعصب للعشيرة أو للبلد بالحق والباطل ، بالهدى والضلال ، بالسنة والبدعة فهذا أمر محرم ، وهذه هي دعوى الجاهلية التي حذّر منها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح ((مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قيد شِبْرٍ فَمَاتَ؛ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ)) ، وفيه ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!)) قال أبو العباس : «كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية ، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين ، وقال الأنصاري: يا للأنصار قال ﷺ ((أبدعوى الجاهلية وأنا بي أظهركم)) وغضب لذلك غضبا شديدا» .

انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

****

قال وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال ((**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قيد شِبْرٍ**)) : أي قدر شبر كما تقدم .

((**فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**)) وهذا فيه وعيد لأن ميتته كانت على هذه الجاهلية ، جاهلية أهل الشرك والضلال الذين من شأنهم مفارقة الجماعة ، ومن شأنهم عدم السمع والطاعة ، ومن شأنهم ترك التوحيد ؛ هذه الأمور الثلاث من أبرز صفات الجاهليين : ترك التوحيد ، ومفارقة الجماعة ، وعدم السمع والطاعة ، يأنف الواحد منهم أن يسمع ويطيع للأمير ويستكبر عن السمع والطاعة ؛ مع أن السمع والطاعة فيه انتظام للكلمة واجتماع للصف ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ)) ، لا يغل : يعني لا يجد قلب المسلم على هذه الأمور غل ، بل يقبلها بانشراح وطمأنينة ، أما المشركون ففي قلوبهم غل لهذه الأمور الثلاث .

ومن فارق الجماعة ففيه شعبة من شعب الجاهلية التي كان عليها أهل الجاهلية ، ولهذا مصنف هذا الكتاب في كتابه الذي سبق أن أشرت إليه «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» بدأ بهذه الأمور الثلاث؛ لأنها أبرز صفاتهم : ترك التوحيد وترك السمع والطاعة وترك الجماعة ، ((**فمن فارق الجماعة قيد شبر فمات مات ميتة الجاهلية**)) ، لأن هذه من خصالهم ومن شعَب الجاهلية ليست من شعب الإسلام ، فمن مات على هذه الحال مات ميتةً جاهلية.

قال: ((**وفيه**)) أي في الصحيح ((**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم**)) أي لم أمت بعد ؛ أبدعوى الجاهلية يعني تدعون وأنا بين أظهركم لم أمت بعد !! وهذه قالها النبي ﷺ في قصة حصلت كما جاء في الصحيحين وهي أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة فكَانَ أحد الْمُهَاجِرِينَ لَعَّابًا ، قالوا في شرحها : أي كثير اللعب ؛ يحب المزاح واللعب، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا ؛ قالوا كسَعَه : أي ضربه مع قفاه بيده أو بظهر طرف قدمه ، يحب اللعب ويحب المزاح فمن باب المزاح واللعب ضربه بيده أو بطرف قدمه ، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا ، وهما شابان، فَقَالَ "يَا لَلْأَنْصَارِ" ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: "يَا لَلْمُهَاجِرِينَ" ، فبلغ النبي ﷺ هذه المقالة فقال: ((**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم**)) ؛

لاحظ مجيء هذه الكلمة في هذا الوقت وقت انتصار كلٌ ينتصر لصاحبه أياً كانت صفة صاحبه ، هذا يقول "يا للمهاجرين" وهذا يقول "يا للأنصار" ، وكلٌ يطلب النصرة من جماعته أو ممن هو منهم ، وينتصرون له كيفما كان الأمر !! هذا عزاء الجاهلية .

الانتماء للمهاجرين والانتماء للأنصار ؛ هذا الاسم «مهاجر» و«أنصار» اسم شرعي أو غير شرعي ؟ الله ﷻ سماهم به ؛ مثل ما سماهم مسلمين سماهم مهاجرين ، اسم شرعي ، قال الله ﷻ:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾[الحشر:٨] ، وقال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ﴾ [التوبة:١٠٠] ؛ فهو اسم شرعي سماهم الله ﷻ به ، ليس هو من الأسماء المباحة التي هي انتماء الإنسان لقبيلته أو بلده –هذا مباح إذا كان لمجرد التعريف – بل هذا اسم ممدوح شرعاً والله سماهم به ، الذي سماهم مسلمين سماهم أيضاً مهاجرين وسماهم أنصار في غير ما آية في القرآن ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ ؛ فالتسمية من حيث هي صحيحة أو لا؟ وشرعية أو غير شرعية؟ اسمٌ سماهم الله به ، والحديث الذي مر معنا قريباً قال: ((فادعوا المسلمين بما سماهم الله به)) ؛ هذا اسم سماهم الله به .

فإذا قيل في إنسان هذا مهاجر ، أو واحد من أنصار الدين قيل أنصاري هذا صحيح أو خطأ؟ ؛ هذا اسم شرعي صحيح لا شيء فيه، لكن لما جاء في هذا الموضع موضع عزاء الجاهلية كلٌ ينتصر أو يطلب النصرة سواء بالحق أو بالباطل فهذا ذمه الإسلام ، ولهذا لو رُفعت في الإسلام شعارات صحيحة تجلب للناس عصبيةً باطلة وفرقًة واختلافًا تُمنع إذا كانت رُفعت لأجل هذا الغرض . ولهذا لما قال الأنصاري "يا للأنصار" ، وقال المهاجري "يا للمهاجرين" قال النبي ﷺ: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!!)) فبينوا له ﷺ القصة وسبب ذلك وقالوا إن المهاجري كسع الأنصاري فقال ﷺ : ((دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ)) .

الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام حذر من ذلك أشد التحذير .

ثم نقل المصنف كلاما عظيماً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو في كتابه «السياسة الشرعية» في الصفحة السابعة والتسعين قال : ((**قال أبو العباس : كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسبٍ أو بلدٍ أو جنسٍ أو مذهبٍ أو طريقةٍ فهو من عزاء الجاهلية**)) ؛ هل يقصد شيخ الإسلام بقوله «من نسب أو بلد أو جنس» حرمة الانتماء إلى البلد أو النسب أو الجنس للتعريف ؟! عندما يقال لأحدنا من أنت ؟ يقول من قبيلة كذا ، أو أنا من بلد كذا؛ للتعريف ، هل هذا مقصود هنا ؟ لا ؛ المقصود هنا دعوى الجاهلية وهي الانتماء بتعصب للبلد أو النسب أو نحو ذلك بالحق والباطل ، بالهدى والضلال ، قال : ((**من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية**)) ، وعزاء الجاهلية : هي دعوى الجاهلية وتعصباتها الباطلة التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان .

قال: ((**بل لما أختصم مهاجري وأنصاري** – في القصة التي أشرت إليها وهي في الصحيحين – **فقال المهاجري يا للمهاجرين ، وقال الأنصاري يا للأنصار قال رسول الله ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم !! وغضب لذلك غضباً شديدا . انتهى كلامه** –أي كلام ابن تيمية– **رحمه الله**)) ؛ وغضب لذلك غضبا شديدًا : أي غضب لهذا العزاء ولدعوى الجاهلية الباطلة وتعصباتها المقيتة التي تفرق ولا تجمع ، وتمزق الكلمة ، وتفرق الصف وتوجد العدوات ، ولا يترتب عليها خير ، ولهذا قال ﷺ ((**أبدعوى الجاهلية**)) يعني تدعون!! وبعزاء الجاهلية تعلنون!! ((**وأنا بين أظهركم**)) أي حي بينكم لم أمت بعد ، قال ذلك عليه الصلاة والسلام محذِّرا من ذلك أشد التحذير .

أشير مرة ثانية إلى أن "مهاجري وأنصاري" هذه أسماء شرعية سماهم الله بها في القرآن ، فهي ليست خارجة عن دعوى الإسلام والقرآن ؛ هي تسمية صحيحة ، تسمية شرعية ليست مباحة فقط وليس مكروهة ، بل هي مستحبة ؛ أسماء امتدحها الله وامتدح أهلها وأثنى عليهم . ابن تيمية رحمه الله في «اقتضاء الصراط المستقيم» قال : «هذه الأسماء مستحبة ليست مباحة ولا مكروهة لأن الله سماهم بها في القرآن» ، لكن إذا أعلن هذا الاسم ورُفع من أجل تفرقة وعزاء الجاهلية فهذه دعوى الجاهلية ، حتى وإن كان الاسم شرعياً إذا قُصد به التعصبات الباطلة وإيجاد العدوات والشحناء ونحو ذلك .

المصنف رحمه الله أورد هذه الترجمة في كتابه «فضل الإسلام» ليبين مكانة الإسلام ووجوب الانضواء تحت لوائه ، والسعي في نصرته ، والانتماء إليه ، وأن يكون همّ الإنسان تحقيق الإسلام في نفسه ودعوة الناس إليه .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

الدرس الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله وغفر له وللشارح وللسامعين :

باب وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه

وقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة:٢٠٨] ، **وقوله تعالى:** ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية [النساء:٦٠]] .

****

قال المصنف رحمه الله: ((**بابٌ وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه**)) ؛ وجوب الدخول في الإسلام كله : أي في شرائع الإسلام وأوامر الإسلام وتكاليف الإسلام ، الواجب على كل مسلم أن يدخل فيها كلها ممتثلاً منقاداً مستجيباً مطيعاً ما استطاع من ذلك ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)) ، والله ﷻ قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] . فالواجب على كل مؤمن أن يدخل في الإسلام كله ؛ بمعنى أن يجاهد نفسه على تحقيق الإسلام وتكميله والمحافظة على شرائعه من فرائض وواجبات ورغائب وسنن ومستحبات ، وكلما عظم نصيبه وحظه من الإسلام عظم حظه من الخير في الدنيا والآخرة وكان من المفلحين .

قال: ((**وجوب الدخول في الإسلام كله**)) ؛ أي في جميع شرائع الإسلام ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، مجاهداً لنفسه على تتميم إسلامه وتكميل دينه وتحقيقه على الوجه الذي يرضي الله تبارك وتعالى .

((**الدخول في الإسلام كله**)) ؛ وهذا أيضا فيه إشارة إلى أن دخول المرء في الإسلام ليس دخولاً انتقائيًا ؛ بمعنى أن ما يروق للإنسان من الأمور التي أُمر بها فعله وما لا يروق له تركه ؛ وهذا حال عدد من الناس ، يعمل ما يروق له من الأعمال وما يوافق لهوىً في نفسه ، وما لا يروق له ولا لهواه لا يعمل به ولا يأبه به ، وقد قال ﷺ : ((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئتُ بِهِ)) . فالدخول في الإسلام كله لا يكون إلا إذا كان الإنسان بهذه الصفة ؛ راضت نفسه على تلقي الدين وأوامره بانشراح صدر وارتياح قلب وحسن إقبال على طاعة الله ﷻ ، فبمثل هذا يمكن يتيسر للإنسان بإذن الله تبارك وتعالى أن يدخل في الإسلام كله في شرائعه وواجباته.

قال: ((**وترْك ما سواه**)) أي: من الضلالات والبدع والخرافات ، وأيضا ترك ما سواه من الأمور المحرمات والمعاصي والآثام وإتباع شهوات النفس ، فالواجب على المسلم أن يكون مستسلماً لله ؛ فيفعل ما هو داخل في الإسلام من واجب ومستحب ، وترك محرم ومكروه ، وفعل مباحٍ يستعين به على تحقيق إسلامه وتكميل دينه ، وما سوى ذلك يدَعُه . ولهذا صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ)) ؛ وقوله «تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ» : أي ما لا يعنيه في الإسلام ؛ لا ما لا يعنيه في رغبته وهواه ؛ فهذا هو الواجب على المسلم أن يكون اهتمامه بإسلامه واجبات ومستحبات ، وتركٍ للمحرمات والمكروهات ، وفعلٍ للأمور المباحات ليستعين بها على تحقيق إسلامه ؛ لأن الإسلام هو الغاية التي وُجد لأجلها وخُلق لتحقيقها.

قال : ((**وقول الله تعالى** : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾)) ؛ ناداهم أولاً باسم الإيمان الذي يقتضي من صاحبه فعل ما يأمره به ربه ﷻ ، لأنه يؤمن بالله رباً

خالقاً حاكماً آمراً ناهياً ، فمن مقتضيات هذا الإيمان أن يستجيب لأمر الله وأن ينقاد له ، فخاطبهم باسم الإيمان قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ؛ أي جميعاً لا تتركوا منه شيئا ، حافظوا عليه ، ادخلوا فيه كله ، لا يكون دخول الإنسان في الإسلام حسب هوى الإنسان ، وإنما حسب ما ينال به رضا الرحمن ﷻ.

﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ : أي اجتهدوا في فعل ما تؤمرون به واجتهدوا في البعد عما تنهون عنه ؛ لا يترك شيئاً بل يجاهد نفسه على فعل كل ما أُمِر به ما استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ هذا فيما يتعلق بالأوامر ، أما النواهي لم يعلَّق الأمر بالاستطاعة قال: ((وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)) لأن النهي ترك ، والترك مستطاع.

قال: ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ؛ ولما كان أعظم ما يحُول بين الإنسان وبين الدخول في السلم الذي –هو الإسلام – هو الشيطان الرجيم حذّر رب العالمين في هذا السياق المبارك من خطوات الشيطان ، قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ؛ لماذا؟ لأن الشيطان – أعاذنا الله جميعاً منه – ينقل الإنسان عن الإسلام عبر خطواتٍ يجعله يخطو بها خطوة من بعدها خطوة إلى أن يتخلى عن الدين ، فيأخذ الإنسان أخذاً بعيداً عن الدين ولكنه بالتدريج ، ولهذا حذّر رب العالمين من إتباع خطوات الشيطان وبيّن تبارك وتعالى أنه عدو ، وقد قال بعض السلف : «عدوٌ يراك ولا تراه لشديد المؤنة»؛ أي يجب أن تحترز منه غاية الاحتراز وتحتاط من مكره وكيده وهمزه ونفثه ووسوسته بالاعتصام بالله ﷻ والاستعاذة به ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾[المؤمنون:٩٧] ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[الناس:١-٦] ، فالمسلم بحاجة إلى الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان ؛ وذلك ليمضي في إسلامه دون أن ينحرف عنه يميناً أو شمالاً عبر خطوات الشيطان التي يضعها له عثراتٍ في طريقه.

﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ وهذا فيه إشارة ؛ أن دخول المسلم في الإسلام وعنايته الشديدة به وشدة محافظته عليه تزيد في اتجاه الشيطان إليه ولإضلاله وإغوائه وصده عن سبيل الله ، وهذه فائدة مستفادة من هذا السياق ؛ لأن الله ﷻ لما قال: ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ حذّر من خطوات الشيطان ؛ وهذا فيه إشارة إلى أن الشيطان أحرَص ما يكون على الإنسان إذا اجتهد في الاستمساك بالدين والمحافظة عليه والمحافظة على صلاته وعبادته ؛ فيتسلط عليه بالوساوس والهمز والنفخ والنفث ، يتسلط عليه بالنزغات ، فيحتاج من دخل في السلم كافة بعون الله تبارك وتعالى أن يُكثر من الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان الرجيم ليُحفَظ ويوقى من شره وكيده . وقد جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: إن اليهود تزعم أن الشيطان لا يوسوس لها

في صلاتها -يعني لا يأتيهم وساوس في الصلاة - قال: «وماذا يصنع الشيطان ببيت خرب!!» يعني ليس له فيه حاجة ، الشيطان يتجه اهتمامه إلى المقبِل على الله ، المقبِل على الإسلام ، الحريص على المحافظة على الدين ؛ مثل هؤلاء يقبِل عليهم الشيطان لصدهم عن هذا الخير ، ولهذا صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ)) ؛ أي ما من طريقٍ يسلكه ابن آدم ويمضي فيه إلا والشيطان قاعد له فيه ؛ إن كان خيراً صده ، وإن كان شراً أزّه إليه .

ولهذا في الآية تنبيه إلى أن من دخل في السلم ووفقه الله ﷻ إلى هذا الأمر فعليه أن يُكثر من الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان الرجيم ؛ لأن الشيطان قاعد له في هذا الطريق ومستمر في القعود والصد إلى أن يموت الإنسان ، ولهذا يؤثر أن الإمام أحمد رحمه الله لما حضرته الوفاة سمعه من عنده - وأظنه ابنه عبد الله — سمعه يقول : «لا بعد ، لا بعد» فسأل والده عن هذه الكلمة «لا بعد» فقال: «الشيطان جالس بحذائي ويقول : فُتَّني يا أحمد ، فقلت: لا بعد». يعني حتى يموت الإنسان ويخرج من هذه الدنيا ؛ وإلا الفتنة في الشيطان حتى في اللحظات الأخيرة ، بل في اللحظات الأخيرة عندما يحضر الإنسان الوفاة يكون أشد ما يكون حضوراً وحرصاً على الإنسان ليقول كلمةً باطلة أو مقولةً سيئة يموت عليها - والعياذ بالله - . فيحتاج المسلم إلى آخر لحظة أن يتقي الله ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويحافظ على إسلامه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

ثم أورد قول الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ؛ وانتبه أيضا في هذا السياق ما جاء في السياق الذي قبله ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ ﴾ ؛ فالشيطان لا يريد للإنسان دخوله في السلم ومحافظته على الإسلام ، بل يريد منه كفراً بالله ، وتحاكماً إلى الطاغوت ، وإعراضاً عن دين الله ، وأن يضل الإنسان ضلالاً بعيدا ؛ هذا الذي يريده الشيطان .

والسياق هنا في ذم جماعة من المنافقين ﴿ يَزْعُمُونَ ﴾ أي يدّعون لأنفسهم أنهم يؤمنون بالرسول ﷺ وبما أنزل إليه ، ويدّعون أيضا أنهم يؤمنون بما أنزل على الأنبياء الذين قبله ؛ يزعمون أنهم مؤمنون بالقرآن وبالكتب المنزلة قبل القرآن ومع هذا الادّعاء ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ أي أمروا في القرآن وفي الكتب المنزلة التي يدّعون أنهم يؤمنون بها أن يكفروا بالطاغوت. والطاغوت : مشتقٌ من الطغيان ؛ وهو ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع . فمن حكم بغير شرع الله ونصب نفسه حاكماً بغير شرع الله فهذا من الطواغيت ، وهذا نوع من الطغيان . ولا يُتحاكم إلى الطاغوت ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ

أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠] . فالتحاكم إلى الطاغوت : هو التحاكم إلى غير شرع الله ﷻ؛ فكيف يجتمع دعوى الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على الأنبياء من قبله وفيه الأمر بالكفر بالطاغوت ثم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت !! كيف يجتمع هذا وذاك ؟ ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ .

وقد ذكر العلماء في كتب التفسير أن هذه الآية نزلت في رجل من المنافقين ورجل من اليهود اختصما ؛ فقال اليهودي : "نتحاكم إلى محمد ﷺ" لعلمه أنه لا يأخذ الرشوة – يحكم بالعدل ولا يقبل رشوةً – ، وقال المنافق: "نتحاكم إلى كعب بن الأشرف" لعلمه أنه يأخذ الرشوة ، ثم اتفقا أن يتحاكما إلى كاهن أو رجل من جُهينة. فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ . والعبرة بعموم اللفظ ؛ فاللفظ عام ، فمن ادّعى الإيمان بالله ﷻ وبما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام فليحكِّم الكتاب والسنة وليكن معوّله كتاب الله وسنة رسولهﷺ ، وليأمِّر كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام على نفسه . وهذا هو وجه الاستشهاد بهذه الآية للترجمة ؛ الآية في التحذير من التحاكم إلى الطاغوت في مقام الأمر بالدخول في السلم كافة وترك ما سوى ذلك ؛ وذلك باستجابة المرء المسلم لله تبارك وتعالى وانقياده لأمره وتحاكمه إلى شرعه وردّه نزاعه إلى كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ ، واطِّراحُ هوى النفس أو نحو ذلك من الأمور التي جعلها بعض الناس معوّلاً لهم وهجروا دين الله وكتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله تعالى :

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ الآية [الأنعام:١٥٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ الآية[آل عمران:١٠٦] : «تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف ، وتسود وجوه أهل البدع والاختلاف» .

****

قال : ((**وقوله تعالى** ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾)) ؛ ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ﴾ يعنى من كان هذا وصفهم وهذه حالهم: ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ ؛ فرقوا دينهم بسبب الأهواء التي اتّبعوها ، فكلٌ اتبع لنفسه هوى ، واتخذت كل طائفة منها هواها ديناً لها فنشأ عن ذلك التفرق والتشيّع ، فِرق وشيَع و ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢] .

﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ ؛ بماذا فرقوا دينهم ؟ بالأهواء ، وقد جاء عن النبي ﷺ الإشارة إلى أن هذا التفرق حدث فيمن قبلنا وسيحدث أيضا في أمته عليه الصلاة والسلام قال : ((وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً)) في الأهواء ، فالأهواء هي سبب التفرق ؛ يتخلى الإنسان عن دينه وعن كتاب ربه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فيقعون في التفرق، وكل فرقةٍ لها هوى تتبعه وتميل إليه يخالف هوى الفرقة الأخرى ، ولا يسْلم من هذا التفرق إلا من ترك هواه ولزم كتاب ربه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا من كان من أهل الأهواء فهو من أهل الفرقة شاء أم أبى .

ولهذا أصبحت الفرقة قريناً للهوى والبدعة ، ولهذا يقال «أهل البدعة والفرقة» ، لأن الفرقة قرينة البدعة ؛ متى وُجدت البدعة ووُجد الهوى وجدت الفرقة ، ومتى وجدت السنة وُجد الاجتماع ، ولهذا يقال «أهل السنة والجماعة» ؛ لأن السنة تجمع والبدعة تفرّق ، إذا وُجدت البدعة فرقت الناس . ولهذا قال بعض العلماء في قوله عليه الصلاة والسلام ((وَلَا تَبَاغَضُوا)) فيه نهي عن البدعة ، لأنها إذا وجدت وُجدت البغضة ، فالبدعة تفرّق والأهواء تفرّق ، ولا يجمع الناس إلا الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[آل عمران:١٠٣] ؛ لا يمكن أن يكون اعتصام واجتماع وترك للفرقة إلا بلزوم كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ ؛ هذه الخطوة الأولى ، الخطوة الثانية : ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ ، والخطوة الثانية ناشئة عن الخطوة الأولى ؛ إذا فرّق الناس دينهم بالأهواء حدث فيهم الفرقة وحدث فيهم التشتت والتمزق وأصبحوا أحزاباً ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ فحذّر الله تبارك وتعالى من ذلك .

فأهل الأهواء ليسو من النبي عليه الصلاة والسلام في شيء ، فهم مجانبون لطريقته ، منحرفون عن نهجه ، قد تخطّفتهم الأهواء وتلقفتهم الشبهات وصنوف الباطل . والآية فيها دعوة إلى الاجتماع ، وقد مر معنا في وصايا النبي عليه الصلاة والسلام الخمس ((الْجَمَاعَة)) ، والجماعة لابد فيها من لزوم الحق والهدى الذي بُعث به رسول الله ﷺ . وفي الآية ذم الفرقة والافتراق والاختلاف في الدين بالأهواء والضلالات ، وفيها التحذير من البدع ؛ فكل ذلك تنتظم هذه الآية التحذير منه.

((قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾)) ؛ وهذا يكون يوم القيامة يوم الجزاء والحساب والوقوف بين يدي الله ﷻ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ نسأل الله الكريم من فضله ؛ فهذه حال الفريقين : فريق يأتي وجهه مسود ، وفريق يأتي ووجهه مبيض ؛ ابيضَّ وجهه بنور القرآن ونور السنة ونور الإسلام ونور الصلاة ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ [الشورى:٥٢] ، ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزمر:٢٢] ، ((الصَّلَاةُ نُورٌ)) ، ((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا)) ؛ فيأتي بنور الإسلام، نور السنة ، نور العبادة والعمل والطاعة ، وصاحب الضلال والباطل يأتي مظلمًا ، يأتي وهو يحمل ظلمة الباطل .

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ؛ وهذا البياض والسواد ناشئ عن بياضٍ وسواد أيضاً : بياض وسواد في الدنيا ، فمن كان مع بياض السنة وبياض الدين ((تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ)) ، وقريبا مر معنا قول النبي ﷺ لعمر ((لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً)) ؛ فمن كان على هذا البياض – بياض السنة – محافظاً عليه في حياته الدنيا يأتي يوم القيامة من هؤلاء الذين ابيضت وجوههم ، ومن كان في حياته الدنيا ماضياً مع سواد البدعة وسواد الضلال فإنه يأتي يوم القيامة بهذه الحال ؛ مسوداً وجهه ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ يعني يأتي مسوداً وجهه.

والبدعة تكسوا صاحبها ظلمة ؛ حتى قال عبد الله بن المبارك رحمه الله وهو من أجِلّة التابعين كما روى ذلك اللالكائي في كتابه «شرح الاعتقاد» : «صاحب البدعة على وجهه ظلمة وإن ادّهن في اليوم ثلاثين مرة» يعني لو جاء بالدهون والمرطبات ودهن وجهه ، الظلمة باقية ، فالبدعة ظلمة على صاحبها في دنياه وأخراه ، والسنة ضياء للإنسان . وكذلك معصية الله ﷻ ظلمة ووحشة ؛ ولهذا أيضا قال الحسن : «وَإِنْ هَمْلَجَتْ بِهِمْ الْبَرَاذِينُ وَطَقْطَقَتْ بِهِمْ الْبِغَالُ فَإِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ فِي رِقَابِهِمْ يَأْبَى اللَّهُ إلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ» ، فيأتي في ذلته وقيد المعصية الذي طوقه ، فهذه حال المعاصي وحال البدع وحال الضلالات مع أهلها ، وأيضا تلك حال السنة والهدى والحق مع أهلها .

قال: ((﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ **الآية ، قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والإتلاف ، وتسود وجوه أهل البدعة والاختلاف**)) ؛ ولاحظ هنا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية؛ ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي وجوه أهل السنة ؛ لماذا؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام ترك لهم السنة بيضاء نقية فأخذوا بها ، فبياضهم من بياض السنة التي تمسكوا بها واعتصموا بها وحكَّموها على أنفسهم ، فهذا البياض الذي كساهم هو بياض السنة ونورها وضياؤها ، والنبي عليه الصلاة والسلام بعثه رب العالمين ليخرج الناس من الظلمة إلى النور ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق:١١] ، فلا ينال النور والضياء والبياض إلا بالسنة التي بُعث بها رسول الله ﷺ ؛ فمن كان من أهلها كان من أهل هذا البياض ومن أهل النور ، ومن كان من أهل البدعة والأهواء فهو من أهل الظلمة .

وأيضا تأمل في كلام ابن عباس ؛ قرن الائتلاف بالسنة والاختلاف بالبدعة ، وهذا فيه فائدة : أن السنة إذا وُجدت وجد الائتلاف ، والبدعة إذا وجدت وُجد الاختلاف ؛ فالائتلاف قرين السنة ، والاختلاف قرين البدعة؛ والسنة تجمع ، والبدعة تفرق .

هنا لما يقال : سنة وبدعة ، وأهل سنة وأهل بدعة ، لا يُقبل في هذا الأمر مجرد الدعاوى ؛ دعوى الإنسان أنه من أهل السنة مع إقامته على البدع والضلال لا يكفي ، الدعاوى ما لم يقم عليها بيّنات لا تكفي ، لابد من إقامة البرهان على صدق الدعوى ، فمن قال أنه من أهل السنة يلزم السنة ويحكّم السنة على نفسه ويؤمّرها على نفسه ويجعلها حاكمةً عليه ؛ لا أن يجعل الهوى هو الحاكم على السنة ، فلا يكفي في هذا مجرد الادِّعاء ، بل الواجب أن يكون من أهلها حقاً وصدقاً. ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلمة عظيمة في هذا الباب تبين من هم أهل السنة ومن هم أهل البدع ؟ قال: «أئمة السنة تضاف السنة إليهم لأنهم مظاهر بهم ظهرت السنة ، وأئمة البدعة تضاف إليهم لأنهم مصادر عنهم صدرت البدعة» ؛ فمن ظهرت عليه السنة مستمسكاً بها محافظاً عليها معوّلاً عليها فهو من أهلها ، ومن صدرت منه البدعة ونافح عنها ودعا إليها فهو من أهلها وإن قال عن نفسه أنه من أهل السنة ، فإن مجرد الادِّعاء لا يكفي.

قال رحمه الله :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ : ((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً ، قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)) . فليتأمل المؤمن الذي يرجوا لقاء الله كلام الصادق المصدوق في هذا المقام خصوصا قوله ((مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)) ، يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة . رواه الترمذي، **ورواه أيضا من حديث أبي هريرة وصححه لكن ليس فيه ذكر النار وهو في حديث معاوية عند أحمد وأبي داود ؛ وفيه : ((إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ)) . وقد تقدم قوله ((مُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)) .**

****

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وأورد أيضا شواهد الحديث عن أبي هريرة وعن معاوية ، وله شواهد عديدة عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ ، وهو حديث صحيح ثابت عن نبينا ﷺ ودل على معناه القرآن الكريم ومن ذلكم قول الله ﷻ ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [التوبة:٦٩] .

قال : ((**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**)) ؛ في حديثٍ آخر قال : ((لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) ، ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذةِ بالقذة)) القذة : ريشة السهم ، ولو جئت بريَش السهم ووضعتها وأردت أن تقارن بينها لا تجد بينها فرقاً ، فقوله «حذو القذة بالقذة» يعني عملاً مطابقاً ، ولا

أبلَغ في التأكيد على المطابقة من قوله ﷺ ((**حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ**)) ؛ علانية : يعني في قارعة الطريق أمام الناس . هذا أمر لا يخطر ببال أحد ولا يظن أحد أنه يُفعل ؛ فيقول النبي ﷺ حتى هذا الأمر إن كان وُجد فيهم فسيوجد في هذه الأمة من يفعله ، لأنه مطابق ((حذو القذة بالقذة)) هات ريش السهم وضعها أمامك وقارن بينها لا تجد بينها فرقا تجدها متماثلة متطابقة. فالأمر كذلك ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)) ، ((لَتَرْكَبُنَّ سنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) ، وهنا قال ((**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**)) ؛ كل ذلك قاله النبي عليه الصلاة والسلام .

وهنا لابد من سؤالٍ يُنبَّه به على المقصود وهو : هل ذِكر النبي ﷺ لهذا الأمر ((لَتَرْكَبُنَّ سنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) ، ((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ)) ونظائره في السنة من الأحاديث كثير ، هل هذا هو مجرد معلومة للناس يعرفونها وخبر من الأخبار يكون عندهم علم به ؟ أو أن المراد التحذير ؟ ولهذا قال العلماء : هذا خبرٌ خرج مخرج التحذير ؛ يحذِّرنا من إتباعهم ، قال لنا ذلك محذراً ؛ انتبهوا ، احذروا ، لأنه سيوجد في الأمة إتِّباع لبني إسرائيل شبراً شبرا ذراعاً ذراعا ، حتى قال عليه الصلاة والسلام ((حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)) ؛ جحر الضب يتميز عن بقية جحور الدواب أنه جحر ملتوي ومتعرج ولا يوصَل إلى عمقه إلا بوعورة وصعوبة ، فلو ركبوا ما ركبوا من الأعمال والأمور الوعرة والأشياء المستهجنة والمستكرهة؛ كل ما فعلوه سيُفعل ((لتتبعن سَنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ، فكل ذلك ذكره عليه الصلاة والسلام ناصحًا ومحذِّرا لأمته من أن تكون حالهم كحال أولئك ؛ تحذيرا للأمة .

والعاقل عندما يسمع هذا التحذير يخاف على نفسه ، ولاسيما في زماننا هذا الذي استطاع أعداء الدين المشار إليهم في هذا الحديث أن يوصِلوا أفكارهم وسمومهم وعفَنَهم وباطلهم وكفرهم ومجونهم إلى كثير من بيوتات المسلمين في قعر دورهم عبر القنوات الفضائية وعبر الشبكات العنكبوتية ؛ استطاعوا أن يصلوا إلى كثير من العقول عقول الشباب والشابات في البيوت، كانوا قبل ذلك لا يصِلون إلى عقول الشباب ولا إلى عقول الشابات إلا بصعوبة ؛ لكن جاءت هذه القنوات تحمل سموم هؤلاء وعفنهم ومجونهم وإلحادهم وكفرهم وضلالهم وأصبح في أبناء المسلمين من يجلس أمام هذه الشاشات الساعات الطوال يصغي إلى هؤلاء وينظر إلى أعمالهم ؛ فماذا يُنتظر!! مع أيضا إعراضٍ عن السنة وإعراضٍ عن معرفة سيرة النبي ﷺ ، ونشأ بسبب ذلك في أبناء المسلمين من لا يعرف عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام شيئا ولا سير أصحابه ، حتى بعضهم لو قيل له : من هم الخلفاء الراشدون الأربعة ؟ لا يعرف ، وفي الوقت نفسه يعرف أسماء كثيرة من أسماء أولئك وأعمالهم وأوصافهم . فهذه من المصائب العظيمة التي وُجدت في هذا الزمان ، ونبينا عليه الصلاة والسلام حذّر من ذلك أشد التحذير . وتزايدت في هذا الوقت مع القنوات الفضائية والشبكات العنكبوتية الإنترنت ، فتلوثت الأفكار والعقول وأشربت بالفتن والشهوات بسبب هذه القنوات وتلك المجالات التي فُتحت على الناس وهي أبواب شر .

قال: ((**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**)) ؛ انظر قبل قليل ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:١٦٨] ؛ الشيطان خطى بأولئك خطوات -أعني بني إسرائيل- وخطَوْها هم إتباعاً للشيطان ، خطى بهم خطوات إلى ماذا؟ إلى الكفر ، إلى الضلال ، إلى الباطل ، إلى المعاصي ، والخطوات نفسها أيضاً يريد الشيطان أن يخطو الناس بها في أمة محمد ﷺ ، ونبينا عليه الصلاة والسلام قال هنا : ((**حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**)) يعني الخطوات التي خطوها أولئك إتباعاً للشيطان سيوجد في أمة محمد ﷺ من سيخطوها كما خطاها أولئك إتباعاً للشيطان ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة:٦٩] ، يخطو الإنسان خطوات أولئك ، ويخوض خوضهم ، ويفعل فعلهم ، سيوجد في الأمة من يكون ذلك ، كل ذلك يقوله نبينا ﷺ نصحاً وتحذيراً ، وفي أحاديثه في هذا السياق أعطانا أمثله تبين وتؤكد ؛ هنا قال: ((**حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**)) ، وفي الحديث الآخر ((حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّة)) وفي الحديث الآخر ((شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ)) يعني جميع خطواته بالتفصيل بالدقة ؛ ((شبراً شبرا ، ذراعاً ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) يعني لو فعلوا وساروا مسارات ملتوية وباطلة أيضا يوجد من يسير مسارهم ويسلك مسلكهم ، ((لتركبن سنن من كان قبلكم)) .

قال: ((**حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ** - يعني من بني إسرائيل - **مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً**)) يعني جاء أمه على قارعة الطريق ((**كَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ**)) أي كل ما يفعله أولئك يوجد في الأمة من سيفعل ذلك .

العاقل عندما يسمع هذا الكلام يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويستعيذ بالله تبارك وتعالى من أن يكون على نهج أولئك وعلى طريقتهم ، ويخاف على نفسه . وبعض الناس قد يسمع هذه الأحاديث ويكون قد وقع في اتّباعٍ لبني إسرائيل في أمور كثيرة ويظن أن هذا الحديث لا يعنيه ، ويحاول أن يلتمس لنفسه مبررات فيما يصنعه من أعمال ، والواجب على الإنسان أن يحكِّم السنة على نفسه ، لا أن تكون نفسه مالت إلى أمرٍ معيّن وهواه مال لأمر معيّن فيحاول أن يوجِد لنفسه مبرراً .

قال: ((**وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**)) ؛ تفرقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة ، هذا التفرق سببه الأهواء ، ولهذا في حديث معاوية الذي أشار إليه المصنف ولم يذكر لفظه قال : ((في الأهواء)) ؛ تفرقوا في الأهواء : يعني كل منهم اتبع هواه وجعل هواه ديناً له ولم يحكِّم شرع الله ﷻ ، والأهواء ليست هوىً واحداً ، الأهواء متعددة ، ولهذا إذا حُكِّمت الأهواء تنوعت العقائد والأديان لأن الأهواء مختلفة ، وإذا حُكمت العقول تنوعت العقائد والأديان ، ولهذا قال بعض السلف قديماً : «لو كانت الأهواء هوى واحداً لقيل إنه الحق» ؛ ولكنها أهواء، وعليه فإن تحكيم الأهواء يُنشئ التفرق .

قال: ((**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً** -أي بسبب الأهواء- **وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً**))

((**كُلُّهُمْ فِي النَّارِ**)) ؛ وهذا وعيد ذكره النبي عليه الصلاة والسلام ، وإلحاق الوعيد بالمعيّن لابد فيه من شروط ، وله موانع ، فلا يُلحق الوعيد بمعيّن ، وفرْقٌ بين التعميم والتعيين في مثل هذه الأحكام ؛ فكلهم في النار هذا حكمهم ، لكن إلحاق الوعيد بأصحاب البدع أو بأصحاب الفِرَق ممن لم يصل الأمر بهم إلى الانتقال من الملة والخروج من دين الإسلام هذا متوقف على وجود شروط وانتفاء موانع . قال ((**كُلُّهُمْ فِي النَّارِ**)) .

والمراد بقوله : ((**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي**)) : أي أمة الإجابة ، ليس المراد أمة الدعوة ، يعني من استجابوا للرسول ودخلوا في الإسلام يفترقون إلى هذا العدد من الافتراق ثلاث وسبعين فرقة ، قال: ((**كُلُّهُمْ فِي النَّارِ**)) أي هذا حكمهم ؛ كلهم في النار، لكن إلحاق الوعيد بالمعيَّن هذا يحتاج إلى ضوابط معلومة عند أهل العلم .

قال: ((**كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً ، قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟**)) هذا السؤال طرحه الصحابة ﷺ . لماذا هذا السؤال ؟ ما الدافع إليه ؟ ما الباعث إليه ؟ هذا سؤال من يريد لنفسه النجاة ، عندما يسمع أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة يبحث عن طريق النجاة ، فلما ذكر لهم عليه الصلاة والسلام هذا الخبر قالوا ((**مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟**)) ؛ لاحظ هنا أن الصحابة ﷺ يدركون الأمر الذي سبقت الإشارة إليه وهو أن هذا الخبر خرج مخرج التحذير ؛ أي أنه قال ذلك محذِّراً ، فلما قال لهم ذلك محذرا قالوا ((**مَنْ هِيَ؟**)) يعني الفرقة الواحدة هذه ؟ .

والعلماء أخذوا من هذا الحديث لقباً أضيف إلى ألقاب أهل السنة وهو «الفرقة الناجية» ؛ أهل السنة والجماعة: الفرقة الناجية . ولهذا ابن تيمية رحمه الله بدأ كتابه العقيدة الواسطية بقوله : «وبعد ؛ هذا اعتقاد الفرقة الناجية» من أين أخذ قوله «الناجية» ؟ من قول النبي ﷺ ((كلهم في النار إلا واحدة)) ؛ فهذا فيه إشارة إلى النجاة .

((**إِلَّا وَاحِدَةً ، قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟**)) يعني من هي هذه الفرقة الواحدة الناجية ؟ ما صفتهم ؟ ما حليتهم ؟ ما علامتهم ؟ ما أمارتهم ؟ أذكرها لنا .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ((**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**)) ؛ يعني من كان على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو من هؤلاء الناجين ، ولهذا مر معنا سابقاً قول مالك رحمه الله: ((ما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون اليوم دينا)) ، ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة ؛ الدين ما كان عليه محمد ﷺ وصحابته الكرام ، ((ما أنا عليه وأصحابي)) ، فالفرقة الناجية هم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام .

مثل هذا الحديث تماماً يطابقه حديث العرباض بن سارية قال : وَعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فقلنا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا؛ فَقَالَ : ((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيًّا ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِى فَسَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً)) ؛ قوله ((فَإِنَّهُ مَنْ

يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً)) هذا مطابق لقوله: ((**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فرقة**)) ، وهناك قال : ((سَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً سيرى اختلافاً كثيرا)) يعني تفرقاً كثيرا ذكر عدده في الحديث الآخر قال: ((ثلاث وسبعين فرقة)) ، ما هو المخرج ؟ ذكره عليه الصلاة والسلام دون أن يُسأل عنه ، المخرج هو نفس المخرج في حديث عبد الله قال : ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُحْدَثَاتِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ)) ؛ فأرشد عليه الصلاة والسلام إلى المخرج . ولهذا حديث العرباض يصلح شاهداً لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه ذكر الافتراق الكثير وذكر المخرج منه ؛ وهو أن يكون المسلم على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

ولما ذكر الخلفاء وصفهم بصفتين : ((الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ)) ؛ الرشاد والهداية ، وبهذين الوصفين وصف الله ﷻ نبيه في أول سورة النجم قال ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم:٢] ؛ نفي الضلال فيه إثبات الهداية ، ونفي الغواية فيه إثبات الرشاد . فوصَف النبي ﷺ خلفاءه بهاتين الصفتين اللتين وصفه الله ﷻ بهما في القرآن الكريم . والمهتدي : هو من عرف الحق ، والراشد : هو من عمل به .

وقوله: ((الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ)) فيه تنبيه على صلاح العلم وصلاح العمل ؛ صلاح العلم بوصفهم بالاهتداء ، وصلاح العمل بوصفهم بالرشاد ، فالمهتدي هو من عرف الحق وهُدي إليه ، والراشد هو من لزم الحق وعمل به ؛ فوصفهم بهاتين الصفتين : صلاح العلم ، وصلاح العمل .

قال: ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ)) ؛ إذاً سبيل النجاة من هذا الافتراق والاختلاف وهذه الضلالات : أن يلزم الإنسان ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام .

قال المؤلف رحمه الله ناصحًا : ((**فليتأمل المؤمن**)) أي ليطيل النظر والتدقيق والتفكر في هذا الأمر .

((**فليتأمل المؤمن الذي يرجوا لقاء الله كلام الصادق المصدوق في هذا المقام**)) ؛ يعني دقق النظر وأعد النظر وتفكر في هذا الأمر الذي ذُكر لك ((**وخصوصاً قوله : ما أنا عليه وأصحابي**)) قف عند هذه متأملاً ، يعني تأمل في أمرين ذكرهما النبي ﷺ :

١- الأمر الأول : أن الافتراق سيوجد وبكثرة في الأمة ، وكان قبل هذا قال: ((ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل)) فلينتبه الإنسان لذلك تماماً .

٢- ثم لينتبه في الوقت نفسه أنه لا نجاة من هذا كله إلا بطريق واحد وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، فيبدأ يحاسب نفسه على هذا الأساس ؛ ما حظه مما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام ؟ .

قال: ((**يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة**)) هذا الإمام رحمه - أعني شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب - كم اتهِم اتهامات هو بري منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليهما الصلاة والسلام !! ولم يكن يوماً ما يدعو لنفسه ، يكفيك أن تقرأ هذه الكلمات التي نحسب أنها نابعة من قلبٍ صادق ، ما يدعو إلى

نفسه؛ يدعو إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، لم يخترع أعمالاً هو من نفسه يدعو الناس إليها كما هي حال أهل الطرق وأهل الضلال وأهل البدع والخرافات ، لم يدعو يوما من الأيام إلى شيء يخصه هو أو يتعلق بشخصه ، وهنا يتكلم بحرقة وبألم وبنصح وبدعوة يقول: ((**فليتأمل**)) ثم يقول: ((**يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة**)) ؛ فما كان رحمه الله داعية إلا إلى ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام . وفي كتابه «التوحيد» لما أورد قول الله ﷻ : ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨] قال : «وفيها تنبيه على الإخلاص وأن الداعي إذا دعا يدعو إلى الله لا إلى نفسه» ، فهو ما كان يدعو إلى نفسه ولكن خصومه وأعدائه من أهل الباطل لقّبوه وأتباعه بالوهابية تنفيراً عن الحق ، وأخذوا يفترون عليه الكذب ، وقال بعضهم فيه أنه لا يصلي على الرسول ﷺ ، وقال بعضهم أنه يشتم آل البيت ، وقال آخرون فيه مقالات كثيرة هي كذب عليه ؛ كل ذلك من أجل التنفير ، وهذا الأمر فُعل مع دعاة الحق ومع الأنبياء ، والد حكيم مر معنا حديثه قريبا ؛ بهز بن حكيم روى حديثاً عن أبيه عن جده قال : «أتيت رسول الله ﷺ وقلت له : والله ما أتيتك إلا بعد أن حلفت عدد أصابع يدي أن لا آتيك»؛ لماذا هذه الحلوف وهذه الأيمان عدد الأصابع أن لا يأتيه؟ بسبب الدعاية المغرضة، تُبث دعاية مغرضة فينفر الناس ، من يُقبَل كلامه إذا كان والعياذ بالله يشتم آل البيت !! أو لا يصلي على النبي ﷺ ! أو لا يحب الرسول عليه الصلاة والسلام أو لا يحب الأولياء ! لا نحسب مسلماً هذه صفاته فضلاً عن عالم وإمام من أئمة المسلمين ، ثم تُلصق هذه المفتريات به فيقولون لا يحب الرسول عليه الصلاة والسلام!! ويقولون يشتم آل البيت !! ويقولون لا يصلي ولا يسلم على رسول الله !! هذه أمور لا يوصف بها آحاد من المسلمين فضلاً عن أن يوصف بها علَم من الأعلام وإمام من الأئمة وأحد أكابر المسلمين وعلمائهم ، لكن هذه الدعايات المغرضة يبثها أعداء الدين للصد عن الحق وعن الهدى ، فهو يوماً من الأيام ما دعا إلى نفسه، حتى أتباعه أو الذين استفادوا من كتبه لم يدعو يوماً إليه وإنما يدعون إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا سمعنا أحداً من الأشياخ والعلماء يقول "كونوا من الوهابيين" ما سمعنا ذلك ، الذي نسمعه دائما : "عليكم بالسنة " ، هذا الذي أوصى به هذا الإمام وأوصى به تلاميذه وأوصى به جميع علماء المسلمين ، وانظر إلى دعوته هنا يقول : ((**فليتأمل المؤمن الذي يرجو لقاء الله كلام الصادق المصدوق في هذا المقام خصوصا قوله «ما أنا عليه وأصحابي» يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة**)) ؛ القلب تصيبه حياة ويصيبه موات ، وإذا كتب الله له حياةً أبصر الطريق وما لجرحٍ بميّتٍ إيلام ؛ الميت لا يستفيد منه ، لكن الحي إذا كان القلب حياً عرف الطريق وعرف الجادة وانتفع بما يُلقى إليه من الخير والعلم .

((**رواه الترمذي** -أي هذا الحديث- **ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة وصححه لكن ليس فيه ذكر النار**)) ؛ أي ليس فيه ((كلها في النار إلا واحدة)) ؛هذه الزيادة ليست عند الترمذي من حديث أبي هريرة ، لكن ثابتة في حديث عبد الله بن عمرو وفي حديث معاوية وفي أحاديث أخرى جاءت في هذا المعنى .

قال: ((**وهو في حديث معاوية**)) ؛ يعني هذا القول «كلها في النار إلا واحدة» هو في حديث معاوية ((**عند أحمد وأبي دواد ، وفيه**)) يعني حديث معاوية زيادة على هذا ؛ يعني حديث معاوية فيه ((افترقت اليهود على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)) وفيه زيادة أشار إليها المصنف .

قال: ((**وفيه أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ**))؛ «تلك الأهواء» إشارةً إلى ماذا؟ إلى الأهواء التي أوجدت الافتراق ، لأنه قال: ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء)) يعني بسبب الأهواء التي اتبعوها ، عقب ذلك قال : ((**وإِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ**)) ؛ معنى تتجارى : أي تدخل فيهم وتسري في أبدانهم إلى الأعماق .

ضرب لنا مثالاً قال : ((**كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ**)) ؛ الكلَب : هو داء يصيب الإنسان بسبب عضة الكلْب الكلِب ، فالكلْب الذي به هذا المرض الكلَب إذا عض الإنسان – والعياذ بالله – في موضع من بدنه يسري أثر هذه العضة إلى البدن كله ويدخل في البدن كله ، يعني لا يستقر ألم هذه العضة وأثرها على موضع العضة ؛ وإنما يسري في البدن كله، ويُنشئ في الإنسان – والعياذ بالله – اختلالاً في عقله وفساداً في فكره وجنوناً وخبَلاً ، وفي الغالب أنه لا ينتهي به الأمر إلا بالموت على إثرها ؛ يعني يضطرب البدن ويختل ويسري فيه كله ويؤثر حتى على عقله فيختل ويُجن وتكون النهاية في ذلك هي الموت . هذا داء الكلَب ، وهو معروف ، داء يعرفونه .

فالنبي ﷺ ضرب مثالاً ليتضح به هذا الأمر قال: ((**تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ**)) ؛ يعني تدخل فيهم الأهواء وتسري في أعماقهم ((**كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ**)) ؛ يعني كما يدخل الكلَب بصاحبه ويتعمق فيه ويُفسد عليه بدنه كله بما فيه عقله وفكره . وهذا شأن الأهواء تدخل الإنسان رويداً رويدا ، تدريجاً تدريجا إلى أن تتعمق فيه وتغطي فكره ويصبح لا يرى إلا ما يملي عليه هواه ، تأتيه السنة الواضحة والحجج البينة فيأبى ؛ لأن الهوى سيطر عليه وملأ جوانحه ومُلئ به من الداخل وتجارت به الأهواء وأصبحت تعصف به في كل وادٍ من أودية الضلال والباطل .

كان يكفي في معرفة هذا الأمر قوله: ((**كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ**)) ؛ الكلَب داء معروف تعرفه العرب ويعرفون أنه إذا أُصيب به الإنسان تجارى به بحيث يصل إلى جميع بدنه ، فلم يكتفِ ﷺ بل زيادة في البيان قال: ((**فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**)) ؛ يعني إلا دخله هذا الهوى مثل ما يتجارى الكلَب بصاحبه حتى يصل كل عرق وإلى كل مفصل من الإنسان ، وهنا تكون مصيبة الإنسان عظيمة جداً ؛ إذا انتشر الهوى في بدنه كله وتجارى به الهوى حركة يده عندما تتحرك تكون تحركت بالهوى ، قدمه إذا خطَت خطت بالهوى ، عينه إذا

نظرت بالهوى ، أذنه إذا سمعت بالهوى ، أصبح كل بدنه يحركه الهوى ، في خطواته ، في أخذه ، في عطائه ، في ذهابه ، في رواحه ، في جميع حركاته الذي يحركه هو الهوى الذي تجارى به وسرى في بدنه ودخل في أعماقه.

والنبي ﷺ قال ذلك محذراً قال : ((**إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**)) ؛ نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يحفظنا أجمعين . اللهم أحفظنا بالإسلام قائمين، واحفظنا بالإسلام قاعدين ، واحفظنا بالإسلام راقدين، ولا تشمت بنا الأعداء ولا الحاسدين يا ذا الجلال والإكرام .

ثم قال: ((**وقد تقدم قوله** – أي قول النبي ﷺ : **ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية**)) ؛ في الحديث المتقدم ((أبغض الناس إلى الله ثلاثة – وذكر منهم – مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية)) أي من يطلب ويريد في الإسلام سنة الجاهلية، ما هي سنة الجاهلية ؟ أي طرائقهم وأعمالهم ؛ هذا الذي قاله النبي ﷺ ((ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية)) إشارة إلى أن هذا سيوجد أو أنه لن يوجد ؟ سيوجد ، فساقه المصنف رحمه الله لأنه مطابق لقوله ((لتركبن سَنن من كان قبلكم)) ؛ بمعنى أنه سيوجد من يفعل سنة الجاهلية ، وسيوجد أيضا من يدعو إلى سنة الجاهلية ، وعرفنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله المتقدِّم أن سنة الجاهلية تتناول ما كان عليه المشركين وما كان عليه اليهود والنصارى ، وقد مر معنا كلامه رحمه الله سابقاً فليراجَع .

وعلى كل حال ؛ سنة الجاهلية : ما عليه اليهود ما عليه النصارى ما عليه المشركين ؛كل هذه الأعمال سيوجد في الأمة من يطلبها ويبتغيها ويريد أن يسنها في الإسلام ، وهذا من الثلاثة الذين هم أبغض الناس إلى الله ﷻ كما مر الحديث بذلك .

فهذا الحديث ونظائره مما ذكره المصنف رحمه الله وما لم يذكره في هذا الباب ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة كلها تجعل المسلم ينتبه ويحذر غاية الحذر ؛ في باب العقائد وهي أهم ما يكون ، وفي باب العبادات ، وفي باب الأخلاق والمعاملات ، فيحذر على نفسه وعلى أهله وعلى ولده وعلى بيته من أن تكون حاله من حال هؤلاء الذين ذمهم النبي عليه الصلاة والسلام .

وهذه الأمور توجد في الناس بسبب قلة العلم أو فساد القصد ؛ إذا كان الإنسان قليل العلم في الدين ومعلوماته الشرعية قليلة فإنه قد تدخل عليه هذه الأمور . ولنختم هنا بحديث أبي واقد الليثي وهو حديث صحيح يقول : «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا» أي يمكثون عندها وقتاً طويلاً «وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ» أي يعلقون أسلحتهم على تلك الشجرة التماساً للبركة ، حتى تبارك الأسلحة بتعليقها على تلك الشجرة «فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» اختر لنا شجرة مثلهم نعكف عندها ونعلّق عليها أسلحتنا للبركة . أبو واقد يعتذر عن هذا الكلام الذي قالوه بقوله : "كنا حدثاء عهد بكفر" يعني مسلمين جُدد ، فقلة العلم بالدين وبتفاصيله ينشأ عنها هذا وأمثاله ، فَقَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ : ((اللَّهُ أَكْبَرُ)) وفي رواية قال : ((سبحان الله)) ؛ سبح الله وعظّمه وكبّره عن هذه المقالة العظيمة الخطيرة، قال: ((اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ)) ماذا تعني هذه الكلمة «إنها السنن» ؟ ((لتتبعن سَنن من كان قبلكم)) هي سنن ماضية باقية في الناس ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن)) في سنن باقية ، ((اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بنو إِسْرَائِيلَ : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٨] قلتم مثلهم ! وهذا معنى قول الله في الآية ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ هذا عام ؛ كل ما يفعله الناس مما كان يفعله من قبلهم من ملل الكفر خوضٌ في الذي خاض فيه أولئك ، فلينتبه العاقل كما قال المصنف رحمه الله «فلينتبه وليحذر» ، قال عليه الصلاة والسلام: ((لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) يعني لتركبن الطريق الذي ركبه من كان قبلكم . وإذا كان هؤلاء الصحابة الذين هم حدثاء عهد بكفر وهم يمشون مع النبي ﷺ جنباً إلى جنب وبأيديهم السلاح وماضون لمقاتلة المشركين ويقولون «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» فما لكم بمن بعدهم ؟! إذا كانت هذه المقالة بسبب الجهل بالدين وقعت من هؤلاء وهم يمشون مع النبي عليه الصلاة والسلام جنبا إلى جنب ؛ فما بالكم في مثل هذه الأزمان المتأخرة التي قلّ فيها العلم ، وقلّت الدراية بالسنة ، وقلّ نصيب الناس من السنة !! هؤلاء يمشون جنبًا إلى جنب مع النبي صلى الله عليه وسلم ومتجهين بأيديهم السلاح وماضين لقتال المشركين ويقولون «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»!! خصص لنا شجرة نعكف عندها ونعلق عليها أسلحتنا للبركة ، فيقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعلنا إلها كما لهم آلهة)) ؛ إذا كان هذا وجد في هؤلاء وهم في هذا المقام العظيم فكيف بمن بعدهم مع قلة العلم وقلة السنن !!

وهذا يبين لنا سبب انتشار الخرافات والباطل والشركيات والضلالات بين الناس وضياع الدين . والواجب على العاقل أن ينصح لنفسه وأن يتأمل هذه الأحاديث العظيمة التي ساقها المصنف رحمه الله في هذا الباب ، وأن يحقق الترجمة التي عنوَن المصنف ناصحاً وموردا تحتها هذه الأحاديث بقوله رحمه الله «باب وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه» . هذه نصيحة بليغة من المصنف ، وهي دعوة إلى الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه من هذه الأهواء والتشبهات والضلالات والشركيات والخرافات والبدع ،كل هذه ليست من الإسلام ؛ الإسلام : ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ، وما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة .

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٩ إلى الدرس ١٢

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٨/١٦ هـ

الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله وغفر له وللشارح وللسامعين :

باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[النساء:١١٦،٤٨] ، وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٤٤] ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥] .

****

قال المصنف رحمه الله وغفر له ((**باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر**)) ؛ الأبواب الماضية اشتملت على تحذيرٍ بالغ من البدعة وبيانٍ لخطورتها ، وقد مر معنا قول الله ﷻ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، كذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، ولكن أراد المصنف رحمه الله بعقده لهذه الترجمة أن يزيد في بيان هذا الأمر والتحذير من البدع المحدثات التي هي ليست من دين الله ﷻ ؛ وإن كان فاعلها يفعلها تديناً وتقرباً إلى الله ﷻ إلا أنها ليست من دينه ولا يقبلها الله ﷻ من فاعلها ، لأن شرط قبول الدين : أن يكون لله خالصًا وللسنة موافقًا ، فإن لم يكن كذلك فهو مردود على فاعله غير مقبولٍ منه .

والبدعة : هي الحدَث في دين الله ﷻ ، كما قال ﷺ ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) ، والحدَث في الدين سواءً كان في باب العقيدة أو في باب العبادة والعمل يعدّ بدعةً ويعدّ حدَثًا في دين الله ﷻ ، وهو مردود على صاحبه غير مقبول منه ؛ فكل عقيدةٍ ليست في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهي بدعة ضلالة، وكل عملٍ يُتقرب به إلى الله ﷻ وليس في نصوص الشرع دلالة على مشروعيته سواءً استحبابا أو وجوباً فهو بدعة ضلالة ، والبدع تكون في الاعتقاد وتكون في الأعمال ، ومن أحدث في دين الله ﷻ ما ليس منه سواءً في باب العقيدة أو في باب العمل والعبادة فهو بدعة ضلالة .

وقد تنوعت البدع الضالة التي أحدثها الناس في باب الاعتقاد وفي باب العمل ، وكلها تنشأ عن الأهواء الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، قد قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[القصص:٥٠] ، فكل من لم يلزم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهو متّبعٌ للهوى ؛ وهذه قاعدة دلت عليها الآية المتقدمة ؛ كل من لم يتبع الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ فهو متبعٌ هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ . البدعة تكون في جانب الاعتقاد وتكون في جانب العمل .

أيضا البدعة قد تكون بدعةً حقيقية بمعنى أنها لا أصل لها مطلقاً في شرع الله ﷻ، وتارةً تكون بدعة إضافية بمعنى أن لها شائبتين : شائبة من جهة الشرع ، وشائبة مما لا أصل له في الشرع ؛ وهذه بدعة إضافية ، كأن يأتي المتعبّد لعبادةٍ مشروعة فيوظفها في كمّها أو كيفها في أوقاتٍ مخصوصة على غير ما شرع الله ﷻ ، ومن خصَّص فقد شرع؛ من خصَّص ما لم يشرعه الله بوقتٍ أو بحالٍ أو عمل فقد شرع في دين الله ﷻ ما لم يأذن به الله ﷻ .

والبدعة شأنها على الإنسان خطيرٌ جداً ؛ لأن الإنسان يقوم بها ويظن أنها تُدْنيه من الله وتقرّبه منه وأنها عملٌ صالح يحبه الله ﷻ ، بخلاف المعصية ؛ المعصية فاعلها يعلم من نفسه أنه على معصية وأنه على ذنب ولكن شهوته تغلبه ، ويمارس شهوته أو المعصية وهو يعرف أنه مذنب ، بينما المبتدع صاحب البدعة يمارسها وهو يظن أنه على سنة وأنه على هدى وعلى خير وعلى عمل صالح يحبه الله ﷻ ، ولهذا البدعة أخطر من المعصية ، وهذا ما ترجم المصنف واستدل له بآيات وأحاديث قال : ((**باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر**)) ، جاء عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يُتاب منها» ، ومعنى قوله «البدعة لا يُتاب منها» : أي أن صاحبها يرى أنها دين وشرع فلا يتوب منها بل يدافع عنها ويسعى في نشرها ، بينما المعصية يتاب منها لأن صاحبها يرى أنه عاصٍ وأنه مذنب ويندم كثيراً على فعله لها ؛ فهو قريب من التوبة ، بينما المبتدع بعيد من التوبة لأنه لا يرى نفسه أصلاً مذنباً وإنما يرى نفسه على سنة وعلى حق وعلى صواب ، ولو قيل له هذا خطأ أو هذا ليس من دين الله لغضب ولما قبِل ، لأنه يرى أن العمل الذي يمارسه من الدين ومن شرع الله ﷻ ، ولهذا قال: «البدعة لا يُتاب منها والمعصية يتاب منها» لأن صاحبها يرى أنه على سنة وعلى حق وعلى صواب.

والمصنف رحمه الله هنا يقول: ((**أن البدعة أشد من الكبائر**)) ؛ البدعة التي هي حدَث في دين الله ﷻ أشد من الكبيرة ؛ الكبيرة يتاب منها وصاحبها في الغالب الأعم يعلم أنه مذنب وأنه مقصر في جنب الله وأنه مرتكب لإثم وخطيئة ، يعلم ذلك لكن تغلبه شهوته ، بينما المبتدع لا يرى أنه على خطأ بل يرى أن العمل الذي هو عليه هو الصواب . فهي أشد من هذه الجهة ؛ من جهة أن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . وهي أشد من

جهة أخرى أنها إحداثٌ في دين الله ما ليس منه ، أما المعصية لم يحدِث في الدين وإنما عصى الله ﷻ بفعله للذنب ، والحدَث في دين الله شأنه خطير لأنه قولٌ على الله وفي الله بغير علم ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] ؛ فهذه خطورة للبدعة وأنها أكبر من الكبائر .

وأيضا البدعة أكبر من الكبائر لأن البدعة – كما يقول أهل العلم – بريد الكفر وبريد الشرك بالله ﷻ ، لأن المبتدع فتح لنفسه باب الحكم في دين الله بغير شرع الله ، وإنما يحكم في دين الله بهواه وبما لم يأذن به الله ﷻ ، وهذا بابٌ يفضي به إلى الكفر والشرك بالله ﷻ، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ؛ الحكم الكوني والقدري والشرعي والجزائي لله ﷻ ليس له شريك في ذلك ، فمن ترك شرع الله إلى المحدثات فهذه خطورة بالغة أشد من مجرد فعل الكبيرة أو المعصية .

فالبدعة أشد من الكبيرة من وجوه عديدة ، والمصنف رحمه الله عقد هذه الترجمة في كتابه «فضل الإسلام» تحذيراً من البدع لأنها ليست من الإسلام ، والله ﷻ لا يقبل إلا الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ، البدع ليست من الإسلام ، ليست من دين الله ، والله ﷻ لا يقبل إلا الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ، ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩] .

ثم أورد أول ما أورد رحمه الله من أدلة لهذه الترجمة قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ؛ وتصدير المصنف لدلائل أو لبيان أن البدعة أشد من الكبيرة بهذه الآية التي تبين خطورة الشرك في دين الله ﷻ لأن :

- البدع منها ما هي بدع شركية ؛ يمارسها المبتدع وهي شرك بالله ﷻ ، كقصد القبور بالعبادة والتبرك وطلب المدد والنذور والطواف وغير ذلك من القرَب التي هي لله وحده ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ .
- ومن البدع ما هي وسائل للشرك بالله ﷻ ؛كالبناء على القبور ، قال عليه الصلاة والسلام: ((لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) ، أو الصلاة إلى القبور أو إسراجها أو غير ذلك من البدع التي هي وسائل مفضية إلى الشرك بالله ﷻ .

بل البدع بعامة بريد للشرك ؛ لأن المبتدع فتح لنفسه باب التفلت من الاستسلام لله بما شرع إلى ممارسة الأهواء والبدع ، ولأجل ذلك صدَّر المصنف رحمه الله هذه الترجمة بهذه الآية الكريمة التي تحذِّر من الشرك، لأن البدعة إما

شرك بالله ﷻ أو مفضية إلى الشرك بالله والكفر به ﷻ ، قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] . وكذلك أيضا التصدير بهذه الآية فيه إشارة إلى ما دل عليه قول الله ﷻ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣] وهذا نوع من الشرك بالله ﷻ .

فهذه الآية فيها تحذير من البدع وبيانٌ لخطورتها ، ومن المعلوم أن أعظم الذنب الشرك بالله ﷻ ، وقد سئل عليه الصلاة والسلام: ((أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ الشِّرْكُ بِاللهِ)) ؛ والمصنف رحمه الله استدل بالآية هنا على خطورة البدعة وأنها أشد من المعصية لأن البدعة إما هي في ذاتها شركٌ بالله ﷻ ، أو أنها مفضية إلى الشرك ؛ والشرك أعظم الذنوب وأخطرها ، ولهذا لا تقارن البدع بالمعصية ، البدعة أشد وأخطر على صاحبها من المعصية .

وهنا ينبغي أن يلاحظ أن هذا الكلام لا يعني التقليل من المعاصي والتهوين من شأنها ، المعاصي خطيرة وخطرها بالغ ؛ لكن معرفة الإنسان لتفاوت المعاصي فيه فائدة له في الحذر من المعاصي كلها ، ولهذا كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن التفاوت بين المعاصي والذنوب ؛ «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟» ؛ هذا باب من الفقه مهم ، ولولا أهميته لما سأل عنه الصحابة ولما أجابهم عنه الرسول ﷺ ، فهذا بابٌ عظيم من الدين لا بد من فهمه، وعندما يختل فهم الناس لهذا الباب ترى فيهم من يمارس معصية أعظم ويتورع عن معصية دون ذلك ، يتورع عن دم البعوض ولا يتورع عن قتل مسلم بغير حق ، عندما يختل فهم الإنسان لفهم تفاوت الذنوب وعظم جرمها وتفاوتها في ذلك تجد من الناس من يتورع عن معصية هي من صغائر الذنوب ولا يتورع عن الشرك مثلا أو عن بدعة من عظائم البدع ، ولهذا هذا الباب من العلم في غاية الأهمية ؛ «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟» هكذا سأل الصحابة رسول الله ﷺ ، وهم لم يسألوا هذا السؤال من أجل الاستهانة بالأصغر أو الأقل إثماً ؛ ليس هذا القصد ، وإنما من أجل معرفة الأخطر ليزداد البعد عنه .

ولهذا أعيد ما سبق وهو : أن ذِكر أن البدعة أشد من المعصية لا يعني بأي حال التقليل من المعاصي ، المعاصي خطيرة ، ولكن يُقصد منه مزيد الحيطة والحذر من البدع التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ وهذا أيضا مما يبين خطورة البدعة والحدث في دين الله تبارك وتعالى ، لأن الله ﷻ حكم على هؤلاء بأنه لا أحد أظلم منهم ، والاستفهام في هذه الآية بمعنى النفي ؛ قوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كانت هذه صفته وهذه حاله؛ يفتري على الله الكذب ليضل الناس بغير علم ؛ يفتري على الله ويفتري على رسول الله ﷺ ويقول هذا حلال وهذا حرام وهذا مشروع وهذا من الدين وهذه من القرب كذباً وافتراءً على الله تبارك وتعالى وقولاً عليه ﷻ بغير علم . والقول على الله تبارك وتعالى بغير علم أعظم المحرمات وأخطرها وأشدها إثماً في جميع

الشرائع المنزلة ، أخطر الذنوب القول على الله بلا علم ، ويدخل في القول على الله بغير علم الشرك والبدع ؛ كل ذلك من القول على الله وفي الله وفي دينه بغير علم .

قال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ ليضلهم : أي عن دينهم الذي شرعه الله ، وليخرجهم من الإسلام إلى نقيضه من الشرك وأنواع الضلالات . وكم من مفتريات افتُريت على رسول الله ﷺ ترويجاً للباطل ، وأعظم ما افتُري على الرسول ﷺ مفتريات يروّجها بعض أئمة الباطل ودعاة الضلال فيها ترويجٌ للشرك الذي أمضى عليه الصلاة والسلام حياته كلها في محاربته ، ومن أشنع ذلك وأفظعه قول أحدهم كاذبا مفتريا على رسول الله ﷺ زاعماً أنه ﷺ قال ((إذا أعْيَتْكم الأمور فعليكم بأهل القبور)) ؛ ينسب ذلك كذباً وافتراء إلى رسول الله ﷺ ليروّج الشرك الذي هو أعظم الذنوب بالكذب على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وآخر يكذب عليه أنه قال ((من اعتقد في حَجَر نفَعَه)) ؛ وهذا كله من كذب عبَّاد الأصنام أهل الشرك بالله تبارك وتعالى ؛ ترويجا لباطلهم وضلالهم ، وهذا كله مما يبين لنا خطورة البدع وأنها فتْح باب شر على الناس وفي دين الله ﷻ لأنها تُلصَق بالدين ويعدُّها أربابها ومن تُرَوَّج عندهم جزءً من دين الله ﷻ ، ويمارسونها على أنها دين وقربة يتقربون بها إلى الله ﷻ . قال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ والعلم: قال الله ، قال رسوله ﷺ .

ثم أورد قول الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ وهذه أيضا من أخطر ما يكون في بيان حال أهل البدع ودعاة البدع وأئمة الضلال ؛ فالداعي إلى الضلال يحمِل إثم نفسه فيما يمارسه من بدع وضلالات ، ويحمل إثم أتباعه ومن أضلّهم بغير علم ، فهو يحمل وزر نفسه ووزر أتباعه ؛ وليس فقط وزر أتباعه الذين تلقوا عنه مباشرة ، بل يحمل وزر الأتباع ، وأتباع الأتباع ، وأتباعهم إلى يوم القيامة ، وهذا من أخطر ما يكون ، يلج الداعية إلى الضلال قبره ويُدرج في قبره ولا يزال على مر التاريخ تتوالى عليه الأوزار وتُكتب عليه الذنوب يوماً تلوَ يوم ، وهو ميت في قبره وكل يومٍ يأتيه في قبره أوزار ، ربما أنه مات قبل ألف سنة أو أكثر أو أقل ولا يزال الذنب يأتيه ، وقد قال ﷺ : ((لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا)) لأنه أول من سنّ القتل ، وقد قال ﷺ كما سيأتي: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا)) ؛ فهذا مما يبين خطورة الدعوة إلى البدعة ، وأن الداعي إلى البدعة وإلى الضلالة يحمل إثم نفسه وإثم أتباعه إلى يوم القيامة وهذا غاية في الخطورة ، والله جل وعلا يقول : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ؛ أي أن ما ارتكبوه من وزر وذنب هو من أعظم السوء وأشنعه .

إذاً هذه الآيات الثلاث تدل على خطورة البدعة من جهاتٍ عديدة يمكن أن نلخصها في نقاط :

- الأولى : أن البدعة شركٌ أو بريدٌ إليه .
- الثانية : أن هذا من أعظم الظلم .
- الثالثة : أنها افتراء كذبٍ على الله جل وعلا ، وعلى رسوله ، وفي دينه .
- الرابعة : أنها ضلال ، قال: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ .
- الخامسة : أنها قول على الله تبارك وتعالى بغير علم .
- السادسة : أن صاحبها الداعي إليها يحمل إثم نفسه وإثم أتباعه إلى يوم القيامة .
- والسابعة : أن ذلك الوزر أسوأ الوزر وأفظعه ، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج : ((أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ)) ، ((لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ)) ، وفيه ((أنه ﷺ نهى عن قتل أمراء الجور ما صلَّوا)) .

****

ثم أورد هذين الحديثين : الأول يتعلق بأهل البدع ، والثاني يتعلق بأهل المعاصي . وأراد المصنف رحمه الله في إيراده لهذين الحديثين أن يبين أن حال البدعة أخطر من حال المعصية .

قال : **وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج : ((أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ))، ((لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ))** ؛ حكَم فيهم ﷺ هذا الحكم ؛ قال: **((أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ))**، وقال :**((لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ))** ، بينما أمراء الجوْر – والجور ظلم وهو ذنب من الذنوب التي يُعصى الله ﷻ بها – قال في أئمة الجور : **((نهى عن قتل أمراء الجور ما صلوا))** ؛ هناك أولئك قال: **((اقْتُلُوهُمْ))** وهنا قال: **((نهى عن قتلهم ما صلوا))** فهذا مما يبين أن البدعة أخطر من المعصية ، وضررها في المجتمع أشد من المعصية .

وأنت في هذه المسألة قارن بين شخصين : شخصٌ يحمل عقيدة الخوارج بما فيها من فكر فاسد وضلال عظيم وما يترتب عليها من أضرار في المجتمع لا حد له ، وأمير الجور وما عنده من ظلم وظلمه فيه ضرر على مجتمعه، لكن قارن بين المضرتين ؛ أمير الجور مع وجوده جائراً أمور الناس في عباداتهم ، في أمنهم ، في حفظ أعراضهم ، في تحقق مصالحهم ماضية ، ساعة بإمام جوْر خيرٌ للناس من أزمنة بلا إمام ؛ إمام جور تنتظم فيه أمورهم يصلّون ويمارسون أعمالهم ويأمنون على أعراضهم إلى غير ذلك من المصالح التي لا تتحقق لو لم يوجد إمام ، فإمام جور خير من بقاء الناس بلا إمام ، لكن وجود بدعة الخوارج ونظائرها وانتشارها في المجتمع يترتب عليها اختلال الأمن

وإراقة الدماء وانتهاك الأعراض واستلاب الأموال وغير ذلك من المفاسد التي لا حد لها ، ولهذا دعا عليه الصلاة والسلام إلى القضاء عليها فوراً ؛ قال ((**فَاقْتُلُوهُمْ**)) ، ((**لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**)) ؛ أمر بالقضاء الفوري عليهم ، لأن بقاؤهم في المجتمع يترتب عليه أنه ينشر فكره في المجتمع ولاسيما في حُدثاء الأسنان ويمرِّر عليهم ضلاله على أنه جزء من الدين الذي يتقرب به إلى الله ﷻ ، أما إمام الجور أو أمير الجور فوجوده يترتب عليه حفظ الأمن وبقاء العبادة وصلاح أحوال الناس مع الظلم الذي قد يُمارس في حقهم ، وعليهم في هذا الباب كما قال السلف أن يصبروا حتى يستريح بر أو يُستراح من فاجر . وعلى الناس في مثل هذه الحال أن يُصلِحوا حالهم يُصلح الله ﷻ مَن عليهم ، يرفعوا الظلم عن نفسهم ويرفع الله عنهم ظلم ولاتهم ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ [الأنعام:١٢٩] ؛ فيرفع الإنسان عن نفسه بتقوى الله وصلاح حاله وإقامة دين الله ﷻ في نفسه وفي بيته وفي جيرانه بالدعوة إلى الله ﷻ .

ولهذا ليس هناك مقارنة بين من يحمل فكر الخوارج وبين من هو إمام جور ، والنبي عليه الصلاة والسلام فرّق ؛ في الخوارج قال: ((**اقْتُلُوهُمْ**)) ، وفي أمير الجور قال: ((**لا، ما صلَّوا**)) . طيب اسأل هنا سؤالاً : هنا قال ((**لا ما صلوا**)) الخوارج هل يصلُّون أو لا يصلون ؟! ؛ النبي ﷺ قال للصحابة: ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ)) ليس فقط يصلون ؛ قال: ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ)) ليسوا تاركين للصلاة يصلون ، وهنا في أئمة الجور قال ((**لا ما صلوا**)) ، وأولئك لم يذكر أمر الصلاة لأنها معروفة عندهم مشهورة بينهم ، مع وجود الصلاة قال: ((**لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**)) مع أنهم يصلون ويقرؤون القران ويذكرون الله تبارك وتعالى ، ولم يقل هنا في الخوارج ((لا، ما صلوا)) لا تقتلوهم إذا ما رأيتموهم يصلون أو رأيتموهم محافظون على الصلاة لم يقل ذلك ، وفي أئمة الجور قال: ((لا ما صلوا)) فرّق بينهم .

وهنا تلاحظ ملاحظة تُستفاد هنا : أن الظالم تنفعه صلاته ، وقد تكون صلاته سبب لحجزه عن ظلمه ، أما المبتدع فإنه لا يستفيد من صلاته ؛ لأن قلبه قائم على الهوى ويعتقد أن ما يعمله من عمل باطل شأنه مثل الصلاة وربما أعظم من الصلاة ، فهو لا يرى نفسه مذنباً تحجزه صلاته عن ذنبه ، بخلاف الظالم عندما يصلي ويقف بين يدي الله ويستحضر عظمة الله عليه واطلاعه عليه ربما أن صلاته تمنعه ، أما هذا يصلي وفي صلاته يدعو أن يمكن الله له في باطله الذي يرى هو أنه حق وأنه من دين الله تبارك وتعالى، فلا يقارن بين هذا وذاك ، البدعة أخطر من المعصية .

وهذا مثال عظيم جدًا ساقه المصنف ليبين به الفرق بين البدعة والمعصية ؛ في الخوارج الذين هم أهل بدع قال النبي ﷺ: ((**أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**))، ((**لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**)) مع إخباره عنهم أنهم يصلّون ، بل قال: ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وقراءتكم مع قراءتهم)) ، وفي أئمة الجور يعني أمراء الظلم والجور قال: ((**نهى**

عن قتلهم)) وقال ((**لَا مَا صَلَّوْا**)) ، مادام يصلون لا تفعلوا ذلك ، وفي رواية قال: ((لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ))، وفي رواية قال: ((إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)) ؛ لاحظ!! عدة قيود ؛ قال ((إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا)) ولم يكتف بهذا قال: ((كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)) يعني انتبهوا ؛ لا أنّ الإنسان يبدوا له من أول وهلة أن هذا الأمر كفر ثم يشرع في قتال ، بل انتبهوا ((إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)) ؛ بل قواعد الشريعة تدل أنه لو كان الإمام عنده كفر بواح عند الناس فيه من الله برهان، وكان في خروجهم عليه من الفساد والضرر أعظم من عدم الخروج يُنهون عن الخروج عليه ويسعون في صلاح الأمور من أبواب أخرى .

ومن الأخطاء الشائعة أن ينشغل الناس بظلم الولاة عن الظلم الذي يمارسونه هم ، تجده هو نفسه ظالم لنفسه بترك الصلاة ، ظالم لنفسه بفعل المحرمات ، ظالم لنفسه بفعل الذنوب ، ظالم لنفسه بترك الواجبات ، وينسى ظلم نفسه ولا يتحدث إلا عن ظلم الولاة !! وهذه من الأخطاء ؛ المفترض في الإنسان أن ينظر أولاً في نفسه ويصلح نفسه ويجاهد نفسه على الاستقامة على طاعة الله ولزوم شرع الله تبارك وتعالى يُصلح ولده ، يصلح بيته ، يصلح جيرانه بالدعوة إلى الله حتى ينتشر فيهم الخير ويُصلح لهم الله تبارك وتعالى الأمر .

الشاهد أن هذا الإيراد من المصنف رحمه الله إيرادٌ عظيم لهذين الحديثين في التنبيه على أن جرم البدعة أعظم من جرم المعصية ، والتفرقة بينهما ظاهرة في حديث النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قول المصنف ((**وفيه**)) أي في الصحيح ((**أنه ﷺ نهى عن قتل أمراء الجور ما صلّوا**)) أشار إلى معنى الحديث ، والحديث جاء في الصحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ((خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ)) يعني تدعو لهم ويدعون لكم ((وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ ،وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ)) ، قَالُوا: «قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟» يعني نحمل عليهم السيف؟ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ يعني إذا بلغ الحال هذا المبلغ ؟ قَالَ : ((لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي -أي الوالي- شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)) ؛ فانظر هذا التحذير البالغ .

وفي هذا المعنى جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه أحاديث ، ويمكن أن يقف المسلم وطالب العلم على طرف كبير منها في كتاب الإمارة من صحيح مسلم . وبعض من أصابهم هوى يستوحش من كتاب الإمارة في صحيح مسلم ولا يستوحش من كتاب الصلاة في صحيح مسلم ، ولا من كتاب الزكاة ، ولا من الكتب الأخرى! وكتاب الإمارة يستوحش منه وربما لا يطيق قراءته!! مع أن الذي في كتاب الإمارة أحاديث صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوت أحاديث الصلاة وثبوت أحاديث الزكاة ، فلمَ الاستيحاش من هذا والاستئناس بذاك وكله دين الله ؟!

بل جمع عليه الصلاة والسلام بين هذه الأمور في بعض الأحاديث مثل قوله ﷺ في حجة الوداع : ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ)) كلها ساق بمساق واحد ، فبعض الناس بسبب الهوى يستوحش من الأحاديث التي تتعلق بالإمارة ولا يستوحش من الأحاديث التي تتعلق بالصلاة والصيام ويصاب بعنترية الجاهلية وأنَفتهم ، ومن أمور الجاهلية التي خالفها الإسلام وجاء الإسلام بمخالفتها «عدم السمع والطاعة» ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة المسلمين ، ولزوم جماعتهم)) ؛ لا يغل : يعني لا يجد في قلبه غلاً ، لا يجد حسيكة في قلبه بل صدره منشرح لها ؛ الإخلاص لله بالتوحيد ، ولزوم الجماعة ، ومناصحة ولاة الأمر وعدم غشهم . وقد ثبت في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لا تسبوا أمراءكم)) ؛ الأمراء إذا كان عندهم ظلم أو عندهم ذنوب يُدعى لهم بالصلاح ، يُدعى لهم بالهداية ، الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: «لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان» أي أن يهديه الله ، لأن صلاح السلطان فيه صلاح لرعيته ومجتمعه ، وهذا لا يقوى عليه كل أحد وإنما يقوى عليه الأئمة الأكابر .

قال رحمه الله :

وعن جرير بن عبد الله ﷺ أن رجلاً تصدق بصدقة ثم تتابع الناس فقال رسول الله ﷺ ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)) رواه مسلم . **وله مثله من حديث أبي هريرة ولفظه: ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى .. ثم قال : وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ)).**

****

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث جرير بن عبدالله البجلي ﷺ **((أن رجلا تصدق بصدقة ثم تتابع الناس))** تتابع الناس في الصدقة **((فقال رسول الله ﷺ : مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ.** رواه مسلم)) ؛ المصنف رحمه الله لما أورد الحديث أشار إلى قصة الحديث .

والحديث له قصة وهي : أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في المسجد وجاء إليه وفد وكانوا فقراء أعياهم الجوع والفقر والحاجة ؛ فدعا النبي ﷺ إلى الصدقة على هؤلاء ، فبادر أحد الأنصار وجاء بمال يصعب عليه حمله من ثِقله ووضعه بين يدي النبي ﷺ ، فرآه الناس فتتابعوا في الصدقة على إثر هذه الصدقة الكبيرة التي قدّمها . أرأيتم لو كان أناس في مجلس فعُرض عليهم الإنفاق في أمر معيّن وذُكر لهم ثمرته وفائدته قد لا ينشط كثير من الناس ، لكن لو قام أحدهم وقال: "هذه عشرة آلاف ريال منّي لهذا المشروع" ؛ تجد كلٌّ ينفق ، حتى الفقير إذا كان عنده

درهمين أخرج واحداً ، هذه سنة حسنة بالقدوة ، والقدوة بفِعل المأمور ، فيسُن الإنسان للناس سنة حسنة بفعل المأمور فيقتدي الناس به فيكون بذلك سنَّ سنة حسنة . حينئذ قال النبي ﷺ: ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**)) ؛ القصة توضح لك معنى الحديث .

لو قيل لك ما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**)) ؟ الجواب : من عمل عملاً مشروعا ثابتاً في السنة عن النبي ﷺ واقتدى به الناس فإنه بهذا العمل سنَّ في الناس سنة حسنة ؛ لأنه دعاهم إلى المشروع ورغّبهم فيه بالقدوة ، وكذلك بالدعوة والترغيب .

((**فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**)) ؛ لو كان في مجتمع يجهل الناس سنة من السنن الثابتة عن النبي ﷺ فذكّرهم بها وعلّمهم وبيّن لهم الدلائل عليها وعمِلوا بها يُكتب له أجره وأجرهم ((**فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**)) فيُكتب له أجره هو لعمله ، وأجورهم هم من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

قال: ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**)) ؛ الذين يمارسون البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ويُحدثونها يستدلون بهذا الحديث ؛ وهي ما يسمونها بـ«البدع الحسنة» ، يُحدِثون في الدين ما ليس منه ثم يسمونه حسناً ، وهي تسمية باطلة لأن النبي ﷺ وصف كل بدعة بأنها ضلالة ولم يستثنِ ، وتسمية بعض البدع بأنها حسنة مناقَضة ومصادَمة ومصادرة لقوله عليه الصلاة والسلام ، ثم يستدلون لها بهذا الحديث ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**)) .

وفي الرد على هؤلاء نقول : الحديث ليس فيه ذكرٌ للبدعة هنا ؛ وإنما ذِكر للسنة . ما هي السنة الحسنة ؟ التي جاءت عن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وإلا يلزم هؤلاء إلزام لا مفك لهم عنه وهو أن هناك سنن حسنة من دين الله تركها النبي عليه الصلاة والسلام دون بيان ، ولأجل ذا قال مالك رحمه الله : «من قال في الدين بدعة حسنه فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، فما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون اليوم دينا» ولن يكون ديناً إلى قيام الساعة .

قال: ((**وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا**)) ؛ هنا تدخل البدعة ؛ ليس في القسم الأول أو الجانب الأول من الحديث . وصاحب البدعة يأتي إلى الحديث ويستدل به فيما لا دلالة في الحديث عليه، ويدَع من الحديث ما فيه ردٌّ عليه!! وهنا يقول النبي عليه الصلاة والسلام: ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً**)) ؛ أي بالبدع والمحدثات وغيرها ((**كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**)) رواه مسلم.

قال : ((**وله**)) أي لمسلم ((**مثله من حديث أبي هريرة ولفظه** : مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا)) . والهدى ما هو ؟ النبي ﷺ كان يقول كل جمعة : ((أما بعد ، فإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا)) ؛ فقوله ((الهدى)) مثل قوله ((سنة حسنة)) ؛ والمراد: دين الله الذي شرعه وجاء عن رسول الله ﷺ ، وما سوى ذلك هو سنة سيئة وهو في الوقت نفسه ضلالة ؛ لأنه ليس من دين الله ﷻ.

في هذا الحديث والذي قبله فائدة عظيمة جداً لمن وفقهم الله ﷻ للدعوة إلى الله وإلى دينه بالقدوة الصالحة وبالبيان؛ فهؤلاء لهم أجرٌ عظيم لا يعلم قدره إلا رب العالمين ﷻ ؛ لماذا؟ لأن له من الأجر مثل أجور من تبعه ، وهو من الصدقة الجارية كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ –وذكر منها – وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)) ؛ ولهذا دعاة الهدى الذين ماتوا من قريب أو من بعيد لا تزال الأجور تتوالى عليهم في قبورهم يومًا بعد يوم ، ساعةً بعد ساعة ، لحظةً بعد لحظة ؛ وهو في قبره تتوالى عليه الأجور وتتكاثر عليه الأجور يومًا بعد يوم لم ينقطع عمله . العابد الذي عبادته لا تتعداه ينتهي الأجر عند هذا الحد إلا إن قيّض الله له ولداً صالحاً يدعو له ، أو ترك صدقة من ماله جارية يُستفاد منها ؛ فلا يزال الأجر يأتيه ما استُفيد منها وما بقيت منتفَعٌ بها ، ودعاة الحق والهدى لهم هذه الأجور العظيمة وهي بقاء الأجر والثواب المستمر بعد وفاتهم ، وهذا مما يجعل الإنسان يجاهد نفسه على تحصيل العلم النافع ومعرفة سنن النبي ﷺ ونشرها وبثها في الناس ودعوة الناس إليها ؛ حتى يبقى له بعد مماته عمر ثاني تترى وتتوالى عليه وتُكتب في حسناته وتنزل عليه في قبره وتتوالى عليه الأجور ، فهذا بابٌ عظيم من الخير دل عليه هذا الحديث .

ومن فوائد هذا الحديث : عظم مكانة النبي ﷺ ؛ لأن كل أجور الأمة له مثلها عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة ، لأنه هو الذي دعاهم ودلهم إلى هذا الخير فله مثل أجور أمته عليه الصلاة والسلام .

وأيضا هذا الحديث يدل على عظم فضل الصحابة الذين نقلوا للأمة ما عهد إليهم النبي ﷺ من السنن والخير ؛ فبلَّغوه وافياً تاماً بأمانة وبدقة وبعدالة وبثقة ، هذا يدل على مكانة الصحابة ويدل أيضا على أن الطعن في الصحابة طعنٌ في دين الله ؛ لماذا؟ لأن دين الله تبارك وتعالى لم يصِل إلينا إلا من طريقهم ، فالطعن في الناقل طعنٌ في المنقول ، الطعن في الصحابة طعن في الدين نفسه لأن الدين لم يصل إلينا إلا من طريقهم .

فهذا الحديث يدل على عظم مكانة الصحابة ، ويدل أيضا على عظم مكانة أهل العلم وفضلهم ومكانتهم وأن العالم شأنه أعظم من العابد ؛ لأن الخير الذي عنده متعدي ، وليس متعدٍ لمن حوله في زمانه ؛ بل متعدٍ لأقوام وأجيال وأمم تأتي بعده ، الآن عندما تقرأ عِلم ابن تيمية ، علم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، علم الأئمة قبلهم وبعدهم ، الإمام أحمد ، الشافعي ، الإمام مالك ، سفيان الثوري ، وغيرهم من أئمة الإسلام هل النفع

الذي حصل منهم قاصر على التلاميذ الذين كانوا حولهم ؟ نحن إلى يومنا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا نزال نقول : قال الإمام الشافعي ، قال الإمام مالك ، قال الإمام سفيان الثوري ، قال الإمام فلان وفلان وفلان ، عِلمهم متعدي ؛ ليس علمهم متعدي إلى من حولهم فقط بل إلى أجيال وأمم بعدهم لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى ، فهذا يبين مكانة العلماء وعظم الأثر والخير الذي يجريه الله ﷻ على أيديهم.

وأيضا هذا الحديث يدل على فضل طلب العلم ، ومكانة العلم ، وأهمية الحرص عليه بغرض نفع النفس ونفع الغير، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله : «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية» قيل وما صلاحها ؟ قال : «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك» .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام رحمة الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة

هذا مرويٌ من حديث أنس ومن مراسيل الحسن . وذكر ابن وضاح عن أيوب قال : كان عندنا رجل يرى رأياً فتركه ، فأتيت محمد ابن سيرين فقلت: أشعَرتَ أن فلاناً ترك رأيه ؟ قال : انظر إلى ماذا يتحول !! إن آخر الحديث أشدُّ عليهم من أوله ((يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه)) . وسُئل أحمد ابن حنبل عن معنى هذا الحديث فقال : لا يوفق للتوبة .

****

قال رحمة الله ((**بابٌ ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**)) ؛ هذا الباب هو بمثابة التفريع للباب الذي قبله ؛ في الباب الذي قبله قال: «باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر» ، والبدعة أشد من الكبائر لوجوه عديدة ؛ منها ما ثبت في الحديث ((أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ، فهذا الباب بمثابة التفريع للباب الذي قبله في بيان خطورة البدعة وأنها أعظم من الكبيرة.

وقوله ((**احتجز التوبة على صاحب البدعة**)) أي: يُحال بينه وبينها ، كما قال أهل العلم أي لا يوفق للتوبة .
والسبب في ذلك :

- أنه لا يرى نفسه مخطئاً أو مذنباً بل يرى نفسه على هدى وعلى حقٍّ وعلى صواب، بخلاف صاحب الكبيرة ، صاحب الكبيرة يرى أنه مخطئ وأنه على ذنب ولهذا تكون التوبة قريبة منه ؛ لأن أول التوبة العلم بالذنب والعلم بالخطأ، وصاحب البدعة عِلْمه أنه على صواب وأنه على هدى ؛ ولهذا لا يوفق للتوبة لأنه يرى أنه على الحق .
- وأيضا من جهة أخرى ؛ أن قلبه أشرِب البدعة ، وقد مر معنا قريباً قول النبي ﷺ : ((إِنَّهُ سيكون في أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ))؛ وهذا معناه تمكن الهوى والبدعة منهم وتغلغلها فيهم وأن قلوبهم أشربت البدعة ، فمثل هؤلاء لا يوفقون للتوبة .

وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) .
والتوبة ما هي ؟ التوبة : ندمٌ على الذنب ، وإقلاعٌ عنه ، وعزمٌ على عدم العودة إليه ؛ "ندم على الذنب" لكن المبتدع ما الذي يرى نفسه عليه ؟ هل يرى نفسه على ذنب أو على معصية ؟ ليس عنده شي يُندم عليه ؛ بل إنه يسأل الله أن يميته على هذا العمل وأن يلقى الله به ويعُدّه في صالح عمله ، فليس عنده ندم على عمله فضلاً عن أن يكون منه إقلاع وعزم ، بخلاف العاصي ؛ العاصي يرِد عليه الندم مرات ، وتارة يقلع ويعود تغلبه نفسه ، ويعزم على الإقلاع ويرجع ، وهكذا وهو والذنب سِجال ، أما صاحب البدعة لا يندم ، وعلى ماذا يندم !! وهو يرى أن هذا هو الهدى وهذا هو الحق ، وهو دين الله ﷻ .
قال: ((**إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**)) ؛ هل معنى ذلك أن صاحب البدعة لا يتوب ؟ وهل أيضاً معنى ذلك أن صاحب البدعة لو تاب لا يُقبل منه ؟ الجواب لا ؛ ليس هذا معنى الحديث ؛ وإنما معنى الحديث : بيان خطورة البدعة على صاحبها وتغلغلها من نفسه وكونه يرى أنها الحق ؛ فمثل هذا لا يوفق للتوبة ، وقد يمن الله ﷻ على بعض المبتدعة أو كثير منهم فيتبصّرون الحق ويعرفون الهدى ويرجعون إليه ، ومن يقرأ التاريخ يجد أن عددًا من المبتدعة وبعضهم كانوا رؤوساً في البدعة هداهم الله ﷻ إلى الحق وبصَّرهم به وتابوا وندموا مما كانوا عليه من خرافة أو بدعة أو ضلالات المتكلمين ، تاب عدد منهم ورجعوا عن الباطل الذي كانوا عليه وأعلنوا توبتهم صريحةً إما في كتاب أو في مجلس أو في خطبة جمعة أو نحو ذلك .
فقد يوفَّق ؛ يعلم الله ﷻ منه صدقاً ونصحاً وحرصاً ، وقد يكون يلهج بالدعاء إلى الله ﷻ أن يهديه فيُهدى إلى صراط الله المستقيم ، لكن الغالب أن من أشرب البدعة لا يتحول منها إلا إلى بدعة أخرى ، ولا ينتقل من عقيدة فاسدة إلى إلا عقيدة أخرى مثلها في الفساد أو أشد ، ولهذا كان السلف قديما يذمُّون أهل البدع بالتلوّن والتنقل من مذهب إلى آخر ومن بدعة إلى بدعة ، كانوا يذمونهم بهذا وكانوا يقولون في ذم البدع : «إياكم والتلون في

الدين» لأن هذا حال أهل البدع يتلوَّنون ويتنقلون من دين إلى آخر ومن عقيدة إلى عقيدة ليس عندهم ثبات . وقد قال بعض السلف : «مَنْ جَعَلَ دِينَهُ عُرْضَةً لِلْخُصُومَاتِ أَكْثَرَ التَّنَقُّلْ» أي : من دين إلى دين ومن مذهب إلى مذهب ومن عقيدة على عقيدة . وهذا التنقل في البدع وليد الضلال ، أما من كان على حق وعلِمه ولزمه لا ينتقل عنه بإذن الله ﷻ ولا يتحول منه إلى غيره ولاسيما إذا اجتمع له في طريق الحق صلاح الباطن وصلاح الظاهر. ولما ذكَر النبي عليه الصلاة والسلام تحوّل بعض الناس من الهدى إلى الضلال أشار إلى شيء من فساد الباطل ، قال: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ -كما في حديث سهل- حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا)) .

وقد نقل ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد» عن بعض أئمة العلم أنه لا يُعرف من كان على عقيدة صحيحة عرفها وفهمها وعُمِر قلبه بها ثم يتحول منها إلى عقيدة باطلة ؛ هذا التحول لا يكون إلا من إنسانٍ عمل بظاهر الإسلام ولم يُعمر باطنه بحقائق الإيمان ، أما الذي دخل الإيمان في قلبه وذاق طعمه وعرف لذته وعرف قدره ومكانته ثم يتحول! فهذا لا يُعرف ، كما نقل ذلك ابن القيم وكما يدل ذلك الأحاديث عن رسول الله صلوات الله وسلم عليه .

والعقيدة الصحيحة تقوّي صلة العبد بالله ﷻ صدقاً معه ﷻ ولجوءً إليه ودعاءً وتذللاً وإيماناً بقضائه وقدره ﷻ وكل ذلك من أسباب الثبات على الحق والهدى ، وكذلك العقيدة الصحيحة تدعو صاحبها إلى صالح العمل وسديد القول وحسَن الخُلق ؛ وكل ذلك من أسباب الثبات على الحق والهدى . بينما البدعة تحُول بين صاحبها وبين الخير والحق والهدى وتشغَل صاحبها بأنواع من الضلالات التي تُبعده من الله ﷻ. فكل هذا يبين لنا معنى هذا الحديث والمراد به ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) .

وتأمل قوله ((**صاحب البدعة**)) ؛ هذا فيه إشارة إلى ملازمته لها وصحبته لها ومحافظته عليها ودفاعه عنها ، أما الشخص الذي يقع في زلة أو في خطأ أو يقع في بدعة وقلبه مستوحش منها هذا قريب من التوبة ليس ببعيد عنها، لكن الذي أشرِب قلبه البدعة وتجارت به الأهواء كما يتجارى الكلَب بصاحبه فهذا على خطر عظيم من هذا الوعيد الذي جاء في الحديث .

قال المصنف : ((**هذا مروي** -أي عن النبي ﷺ- **من حديث أنس**)) أي: بن مالك رضي الله عنه ، والحديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، ولفظه في بعض مصادره: ((إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة)) أي : يحول الله ﷻ بينه وبينها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:٢٤] ، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ .

قال ((**ومن مراسيل الحسن**)) أي البصري رحمه الله ؛ والمرسل من أقسام الضعيف لكنه يصلح شاهداً لحديث أنس ابن مالك. ((**ومن مراسيل الحسن**)) بمعنى هذا الحديث ، جاء عن الحسن مرسلاً بمعنى حديث أنس بن

مالك ﷺ.

قال: ((**وذكر ابن وضاح عن أيوب**)) ؛ ابن وضاح من أئمة المالكية وله كتاب مطبوع بعنوان «البدع والنهي عنها» وهو كتاب قيِّم ونافع ، في هذا الكتاب نقل ابن وضاح عن أيوب السختياني : ((**قال : كان عندنا رجل يرى رأياً فتركه**)) ؛ يرى رأياً : أي كان على بدعة وعلى ضلالة ، وتعبير السلف رحمهم الله عن البدعة بالرأي لأن هذا هو ما بُنيت عليه البدعة . البدعة تُبنى على الآراء وعلى العقول وعلى التخرصات ، فكان يرى رأياً : أي ابتدع بدعةً مبنيةً على الرأي .

((**كان يرى رأياً فتركه**)) : يعني رجع عن ذلك الرأي الذي كان عليه ، لكن إلى أين ؟ مر معنا قريبًا أن من صفات أهل البدع كثرة التنقل والتلوّن؛ يرى رأياً ثم يتركه إلى رأي آخر وإلى بدعة أخرى ، تنقلٌ في أودية الضلال .

قال: ((**فأتيت محمد ابن سيرين**)) أي أيوب السختياني ذهب إلى محمد ابن سيرين .

((**فقلت أشعرتَ أن فلانا ترك رأيه**)) يعني هل بلغك أن فلان ترك رأيه ؟ يعني ترك البدعة التي كان عليها هل شعرت بذلك ؟ هل بلغك شيء من ذلك ؟

((**قال** – أي محمد ابن سيرين – **انظر إلى ماذا يتحول**)) يعني هو ترك بدعةً ولكن إلى ماذا تحول انظر!! ستجده تحول إلى بدعة أخرى ، وهذا الذي قاله محمد ابن سيرين علِمَه على ضوء ما دلت عليه النصوص ، وعلى ضوء أيضا حال أهل البدع حيث عُرِفوا بكثرة التنقل من بدعة إلى بدعة وضلالة إلى ضلالة . ((**قال انظر إلى ماذا يتحول**)) يعني ما هي العقيدة الجديدة التي ذهب إليها أو البدعة الأخرى التي تحول إليها ؟

((**إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله**)) ؛ ما هو آخر الحديث؟ ((**يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه**))؛ هكذا قال الرسول ﷺ ((**ثم لا يعودون إليه**)) ؛ يمرق ثم لا يعود . قوله ((**ثم لا يعودون**)) هي أشد من قوله ((**يمرقون**)) لأن الذي يمرق ويعود أمره أهون من الذي يمرق ولا يعود ، فآخر الحديث أشد ، فهو لم يقتصر في وصفه لهم بقوله ((**يمرقون من الدين**)) بل زاد على ذلك أمر أشد وهو عدم العودة قال: ((**يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه**)) ؛ ولهذا قال ابن سيرين : «آخر الحديث أشد عليهم من أوله» وهو إخبار النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يعود .

وهنا يتساءل متسائل : لماذا إذا مرق من الدين إلى البدعة والضلالة وأُشرب قلبه البدعة لا يعود؟

عرفنا ذلك فيما سبق ؛ لأن البدعة التي أشربها قلبه قد أحبها ومال قلبه إليها وأعتنقها ورأى أنها هي الحق والصواب فلا يعدل عنها ولا يرجع إلى الحق والهدى ، وإذا كان اكتسب بهذه البدعة زعامةً أو رئاسةً أو حظوظاً عظيمة من الدنيا فهذه أيضا تزيده تمسكاً بالباطل الذي عليه ، بل جاء في الحديث في شأن من يطلب لنفسه زعامة كيفما كان ؛ أن الرجل يقرأ القرآن ثم يقول أنه لم يجد أحداً اتبعه فيفتح باب ضلالةٍ حتى يجد أتباعاً ، جاء حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام في سنن أبي داود وغيره بهذا المعنى قال «مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أفتتح لهم باب

ضلالة» يريد زعامة فقرأ القرآن فلم يجد أتباعًا له ثم يقول«مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أفتتح لهم باب ضلالة» ، جاء هذا الأثر عن أحد الصحابة: «يُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ : مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ ،مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ» ؛ فبعض الناس قد يكون سيره في البدعة لزعامةٍ ولرئاسةٍ ولتسلطٍ على الناس ولإشباع غرائز باطلة ، فمثل هذا لا يوفق للتوبة ويشمله قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) .

قال : ((**إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله ؛ يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون**)) ؛ هذا الحديث ورد في بدعة الخوارج ، وقد سبقت الإشارة إليه قريباً ، وبدعة الخوارج هي من أشد البدع التي يتعصب لها أصحابها ويستمسك بها أربابها ، وذلك لأنهم يرون في أنفسهم أنهم الوحيدون على وجه الأرض حماة الدين وأنصاره وأن حماية الدين لا تكون إلا بطريقتهم ، فهو لا يرى نفسه فقط على الدين ؛ بل يرى نفسه أنه هو الوحيد الذي يعمل لحمايته ، وأن حماية الدين لا تكون إلا بهذا الطريق الذي سلكه ، فمثل هذا لا يوفق للتوبة ؛ لأنه يرى أنه هو الذي على الدين ويرى أيضا أنه هو الذي يحمي الدين . وقد كان من طريقة هؤلاء الدعاة إلى عقيدة الخوارج في قديم الزمان وحديثه كان من شأن هؤلاء في بث العقيدة : أول ما يبدؤون به مع من يدعونه بقطع صلته بأهل العلم وأهل الحق وأهل الهدى وتزهيده فيهم وانتقاصهم عنده وسبهم حتى يسقطوا من عينه ولا يبقى لهم مكانة في قلبه ، وهذا أيضا من الحوائل والحجُب التي توضع لأمثال هؤلاء لئلا يعودوا إلى الحق والهدى ، لأن قلبه كره أهل العلم ، كره حملة الحق كره أنصار الحق وأعوانه ؛ فإذا حيل بينه وبينهم ومُلئ قلبه كراهيةً ومقتاً لهم كيف يكون منه سماعٌ لهم فضلاً عن أن يكون منه قبول !! فهو لا يسمع أصلاً لهم كلمة فضلاً عن أن يتقبل حقاً يدعون إليه ، وهذه كلها من الأشياء التي تؤكد معنى الحديث من حيث واقع أصحاب البدع ولاسيما وخاصةً الخوارج الذين قال فيهم عليه الصلاة والسلام : ((يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه)) .

قال : ((**وسئل أحمد بن حنبل عن معنى ذلك**)) الإشارة في قوله «ذلك» : أي إلى الحديث الذي هو قول النبي ﷺ ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ؛ سئل كما في مصادر هذا الأثر عن الإمام أحمد رحمه الله عن معنى ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ما المراد به ؟

((**فقال : لا يوفق للتوبة**)) أي لا يوفقه الله ، والتوفيق بيد الله ، وفي القرآن : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:٨٨] ، فالتوفيق بيد الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

((**قال : لا يوفق للتوبة**)) وهنا أيضا أمر آخر أشير إليه في عدم توفيق هؤلاء للتوبة وهو : أن هؤلاء زُيّن لهم سوء عملهم فرأوه حسنا كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[فاطر:٨] ، زُيّن له سوء عمله : أصبح عمله في عينه زيناً وحسناً وجميلاً وطيباً فلِمَ يتوب منه

وهو يراه من أحسن الأعمال وأطيبها؟ وكيف يتوب منه وهو يراه عملاً صالحا !! فالبدعة من مصيبتها على أصحابها أنها تتزين لهم وتتجمل ، وأيضا دعاتها يجمّلونها ويزخرفونها في أعين من يدعونهم إليها ، وهذه أيضا من الحجب التي تحُول بين الإنسان وبين التوبة من البدعة والرجوع إلى الحق ، لأن البدعة تُزيَّن له وتتزين له ويراها حسنة فيكون ذلك حائلا وحاجبا بينه وبين أن يتوب إلى الله تبارك وتعالى من بدعته .

وأمر آخر : وهو ما دل عليه قول الله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد:١٧] ؛ اهتدوا: أي ساروا في طريق الهدى ، والهدى: هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ)) ؛ فمن سار في طريق الهدى الذي هو السنة وأمّر السنة على نفسه وسعى في طلبها وجدّ واجتهد في تحصيلها ولم يجعل في نفسه حائلاً من قبولها ، فمثل هذا يزداد هدىً وصلاحاً كما قال الله: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ، أما الذي لا يعظّم السنة ولا يعرِف حُرمتها ويُذكر له الحديث فيردّه ويكذّبه أو يسعى جاهداً في تحريفه وصرفه عن معناه وعن دلالته وأطره إلى بدعته ؛ فمثل هذا وقع في هذه الحوائل التي تحول بينه وبين التوبة . وهذه الحوائل وضعها أئمة البدع لأتباعهم لتكون حائلاً بينهم وبين التوبة إلى الله ﷻ ، وحتى لا يقبلوا الهدى الذي جاء في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام؛ فوضعوا طرائق لرد معاني الآيات وطرائق لتكذيب الأحاديث الثابتات عن رسول الله ﷺ تحريفاً للنصوص وتكذيباً، فهذا التحريف والتكذيب هو في الحقيقة من الحوائل والحجب التي تحول بين الإنسان وبين الحق والهدى.

وعلى كل حال ؛ قول النبي ﷺ ((**إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**)) معناه : أن البدعة وما يكتنفها تكون حائلاً للقلب عن قبول الحق والرجوع إليه . وليس معنى ذلك – كما قدّمت – أن صاحب البدعة توبته غير ممكنة ، توبة صاحب البدعة ممكنة وواقعة أيضاً ؛ الخوارج الذين ورد فيهم هذا الحديث ((**ثم لا يعودون**)) لما ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما رجع منهم أربعة آلاف ، لما ناظرهم في مناظرة مشهودة مشهورة رجع منهم عدد كبير جداً ، وأيضا العلماء يشيرون إلى أن الغالب في الرجوع في العوام وفي الأتباع وفي من لم تتغلغل البدع في قلوبهم ، أما الذي أشربت – والعياذ بالله – قلبه بدعة وأظلم قلبه ببدعة فإنه لا يقبل الحق ، ولهذا لما وصل ابن عباس إلى أولئك من أجل المناظرة أراد بعض كبراء هؤلاء أن يقطعوا وأن يحولوا بين الناس وبين التوبة فقالوا محذرين للناس من ابن عباس : «إنه من قريش ، والله ﷻ قال عن قريش ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف:٥٨] فاحذروه» ، فنزّلوا ما وصف الله ﷻ به المشركين في هذا الصحابي الجليل حَبر الأمة الذي جاء لدلالتهم على السنة ، فوضعوا حائل. ومثل هذا الكلام قد يخلْخِل الجاهل ويؤثّر فيه .

فالكبراء الذين أشربت قلوبهم البدع الأمر فيهم أعسر وأشد ، وأما الأتباع والجهال والعوام وبسطاء الناس فهؤلاء قريبون من الحق وقريبون من الهدى ، وإذا قيل له كلمة الحق وبُصِّر بها ودُل عليها رجع ، بخلاف الذي هو متمكن

من البدعة ولُقِّن الحجة ، وكان السلف رحمة الله عليهم يحذّرون من مجالسة أهل البدع يقولون لأن صاحب البدع ملقَّنٌ حجته ، فما كانوا يستمعون إليهم لأن لهم شبهات ، والشبهات توهي القلوب وتفسد الأفكار وتُضر بالناس غاية الضرر ، فكانوا يحذِّرون من مجالسة أهل البدع وخاصةً الرؤوس الذين يحملون أنواع الشبهات ، أما العوام والبسطاء فما أقربهم من الحق ، قريبون جداً من الحق ، وكلمات قليلة تكفيهم في الرجوع إلى الحق والعودة إليه .

والقصص في هذا عبر التاريخ في عودة عدد من المبتدعة ممن وقعوا في البدعة القصص في ذلك كثير ، يعودون أفرادً ويعودون أيضاً جماعات؛ مثل رجوع أربعة آلاف من الخوارج بعد المناظرة التي كانت بين ابن عباس وبين الخوارج . وأيضا من تلوثوا بهذه الأفكار في زماننا وصلت إليهم كلمة أكابر أهل العلم وكتب الله ﷻ لهم هدايةً فتابوا وألقوا أسلحتهم ورجعوا إلى الحق والهدى بمنّ الله تبارك وتعالى وفضله .

هنا عندما يقرأ الإنسان هذا الحديث ((**إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة**)) والله إن هذا الحديث يجلب لقلب العاقل خوفاً أن يدخل في هوى من الأهواء ثم يتجارى به هذا الهوى إلى أن يتغلغل في نفسه ويتمكن منه ويدخل في كل عرق ومفصل منه ثم لا يعود إلى الحق والهدى ، يمشي في هذه الحياة يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، فهذا الحديث يجلب للقلب خوفاً من البدع والضلالات والأهواء ، ويجلب له أيضاً انكساراً وذلاً بين يدي الله ﷻ أن يعصمه وأن يحميه وأن يسلّمه وأن يقيه من هذه البدع وغوائلها وجناياتها على أصحابها وأربابها ، يسأل الله ﷻ أن يعيذه من ذلك ، ولهذا صح في الدعاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول ((اللَّهُمَّ إني أعوذ بك مُنْكَرَاتِ الأَخْلاقِ، وَالأَعْمَالِ، وَالأَهْوَاءِ، وَالأَدْوَاءِ)) . والهوى الذي هو البدع شأنه خطير على قلب الإنسان إذا دخل على القلب ، وهو أخطر على الإنسان بمراحل كثيرة من المعصية ؛ المعصية مع خطورتها أمرها أهون ، لكن البدعة شر مستطير وفساد عريض إذا دخل فيه الإنسان، فهذا الحديث يخيف العاقل من البدع .

ثم هنا إذا وجد الخوف في قلب الإنسان من البدعة ما الذي عليه أن يفعله ؟ ثمة أمور عديدة هنا ينبغي أن يسلكها من خاف على نفسه البدعة :

- الأمر الأول : أن يكثر من الالتجاء إلى الله ﷻ والإلحاح إليه ﷻ أن يهديه صراطه المستقيم ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧] ، يسأل الله الهداية كما في دعاء الفاتحة ويتعوذ بالله ﷻ من الضلال كما في أدعية كثيرة عن رسولنا عليه الصلاة والسلام ؛ ومنها ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ كان يقول في دعائه: ((اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي ، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)) ، الشاهد قوله «أَنْ تُضِلَّنِي» ؛ يتعوذ بالله ﷻ من الضلال . بل كان عليه الصلاة والسلام في كل مرة

يخرج من بيته يقول: ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)).

- الأمر الثاني : أن يعظّم السنة في قلبه وأن يكون لها حرمة في نفسه ، وإذا بلغه كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يقدِّم عليه قول أحد كائناً من كان مهما علا قدره وعلت منزلته ، إذا كان ابن عباس رضي الله عنه قال في مسألة من مسائل الفروع والمفاضلة بين الأنساك : «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ؛ أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!!» ؛ فكيف بمن يردّ السنة الصحيحة الصريحة ويقبل البدعة التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان !! والإمام أحمد رحمه الله يقول: «عجبت من قوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي فلان وفلان ، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]». فالأمر الثاني أن يعظم الإنسان السنة وأن يؤمّرها على نفسه ، وقد قال أهل العلم قديماً : «مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ»، وقال الإمام مالك رحمه الله : «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق وهلك». فيتعوذ بالله ﷻ من البدع ويعظّم السنة ويجاهد نفسه على لزومها علماً وتعلّماً وعملاً وتعليماً .
- الأمر الثالث : أن يحترم العلماء الذين هم دعاة للسنة وهداة إليها ، وأن يعرف أقدارهم ، وأن يحذر أشد الحذر من انتقاصهم أو سماع انتقاصهم ؛ لأن هذا من الحوائل والحُجب التي توضع بين الناس وبين قبول الحق والهدى: الوقيعة في حملة السنة ودعاة الحق والهدى ، فهذا أمر ينبغي أن يتنبَّه له الإنسان .
- الأمر الرابع : أن يحذر من مجالسة أهل البدع ، قال الحسن البصري رحمه الله : «ليس للمرء أن يجلس مع من شاء» ، وقال بعض السلف : «من فقه الرجل مأكله ومشربه وممشاه» ، وأعظم من ذلك قول النبي ﷺ فيما صح عنه في سنن أبي داود وغيره أنه قال : ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)) وكانوا يقولون : «اعْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَخْدَانِهِمْ» يعني انظر إلى جليس الشخص تعرف توجهه وعقيدته . فيحذر الإنسان أشد الحذر من مجالسة أهل البدع ودعاة البدعة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ على أمتي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)) ؛ أي دعاة الضلال ودعاة الباطل ، فإذا كان النبي ﷺ يخاف على أمته من هؤلاء فكيف يجالسهم الإنسان ويسمع إليهم!! .
- الأمر الخامس : وهو أن لا يقرأ كل كتاب ؛ وإنما يقرأ الكتب التي بُنيت على السنة وأسست على الحق والهدى، أما الكتب التي أقيمت على الفكر وعلى العقول وعلى الأهواء وعلى الآراء فكل هذه يحذر منها الإنسان ، لأنه قد يقرأ فيها فتجره عبارة منمقة أو كلمة مزوقة وتشده إلى الضلال والبدعة .
- الأمر السادس : وهو ما استجدَّ في زماننا هذا من وسائل جرّت إلى الناس شبهات كثيرة وهي : القنوات والشبكة العنكبوتية ، بعض الشباب يجلس أمامها ومن باب حب الفضول وحب الاستطلاع يدخل في مواقع

أهل البدع ويقول ننظر ماذا عندهم وماذا يقولون؟ فيسمع لهذا ويسمع لذاك حتى يُشرَب قلبه البدعة – والعياذ بالله – ، وإذا كان الأئمة الأكابر يوصون تلامذتهم المتميزين في العلم والطلب والمتأهلين للرد على أهل البدع بعدم التعمق في النظر إلى البدعة عند الرد عليها ، مثل تلك الوصية العظيمة التي أوصى بها شيخ الإسلام تلميذه ابن القيم ، ويقول ابن القيم : «نفعني الله بهذه الوصية نفعاً عظيما ؛ قال لي : اجعل قلبك للشبهة مثل المرآة ولا يكن قلبك للشبهة مثل الاسفنجة » ؛ المرآة تعكس الشيء مباشرة ، أما الاسفنجة فهي تشرب وتمتص . فلا يمتص الإنسان الشبهة ويمكّنها من قلبه ، إذا كان في مقام الرد ، أما إذا كان ليس أهلاً للرد فلا ينظر أصلاً ، ونظره وجلوسه وسماعه وهو ليس من أهل الرد على البدع مخاطرة بدينه ، وقد قال السلف رحمهم الله: «إن كنت مخاطِراً بشيء فلا تخاطر بدينك» . ومع ما تقدم كله يقول أحد أهل العلم: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا» ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] ، والتوفيق بيد الله ﷻ فهو الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

ونسأله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يهدينا إليه جميعا صراطا مستقيما ، وأن يثبتنا على الحق والهدى ، وأن يعيذنا من البدع والأهواء ، وأن يصلح لنا شأننا كله؛ إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء ، وهو أهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام رحمه الله وغفر له وللشارح وللسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ **إلى قوله** ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧] ، وقوله: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة:١٣٠] .

****

قال المصنف رحمه الله : **باب قول الله تعالى** ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ جعل المصنف رحمه الله هذا السياق العظيم المبارك من سورة آل عمران عنواناً لهذه الترجمة التي أراد من خلالها أن يبين أن حقيقة الإسلام ونيل فضائله العظام لا يكون بالانتساب المجرد ؛ وإنما لابد مع ذلك من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام لله ﷻ ، ولزوم نهج الأنبياء ، وتحقيق التوحيد الذي دعَوا إليه ، وأن لا يرغب الإنسان عن شيء منه ، أما مجرد الدعوى فإنها لا تكفي ، فكم من أناس يدّعون أشياء وهم في الحقيقة أدعياء «والدعاوى مالم يُقَم عليها بيّنات فأصحابها أدعياء» ؛ فأراد رحمه الله أن يبين بهذه الترجمة أن الإسلام لا يكفي فيه الانتماء المجرد ، بل لابد فيه من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام ، ولزوم التوحيد والإيمان الصحيح الذي بعث الله تبارك وتعالى به أنبياءه ورسله، وإلا الدعاوى كثيرة ، وادّعاء الإنسان ما ليس فيه كثير ، كأن يدّعي لنفسه أنه من الأتقياء ، أو يدّعي لنفسه أنه من الصالحين ، أو يدّعي لنفسه أنه من المحسنين ، أو نحو ذلك ، أمر الدعوى يسيرٌ على كل لسان وسهلٌ على كل إنسان لكن ذلك لا عبرة به ، والعبرة في حقيقة الاستسلام لله ﷻ . فالمصنف رحمه الله أراد أن يبين هذا الأمر ، وأن فضل الإسلام وفضائله العظام لا ينالها أحد بمجرد ادِّعائه ، بل لابد من معرفة الإسلام ولزومه والاستمساك به وعدم الرغبة عنه ، فمن كان كذلك فهو الذي ينال فضائل الإسلام وخيراته .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى آخر السياق المبارك ، هذا سياقٌ جاء في الرد على اليهود والنصارى في دعوى مجردة ادَّعوها ؛ اليهود ادّعت أن إبراهيم ما كان إلا يهودياً ، والنصارى ادّعت أن إبراهيم ما كان إلا نصرانياً ، ومعنى ذلك أنهم يدَّعون لأنفسهم أنه معهم وأنهم معه ، وأنه منهم وأنهم منه . وقد ذكر بعض أهل العلم أن للآية سبب نزول وهو : أن أحبارًا من اليهود وجماعةً من نصارى نجران تجادلوا عند النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فقال أحبار اليهود: ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ؛ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآيات الكريمات ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ أي ليس لكم عقول ؟!

والله ﷻ أبطل دعوى هاتين الطائفتين أن إبراهيم منهم بعدة أمور بُيِّنت في هذا السياق العظيم المبارك :

- الأمر الأول : أن ادّعاءهم هذا مبنيٌ على خوضٍ منهم فيما ليس لهم به علم ؛ قال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ

عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ؛ فهذا رد على هؤلاء أن خوضهم في هذا الأمر خوضٌ في أمرٍ لا علم لهم به ، ولو أن خوضهم هذا وجدالهم هذا في أمرٍ لهم به علم مما أنزِل عليهم في التوراة بيانه من أحكام الحلال والحرام لقُبِل ذلك ، لكن هذه محاجة في أمرٍ لا علم لهم به ،. وقد استفيد من هذه الآية : تحريم خوض الإنسان ما ليس له به علم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]. إذًا هذا الوجه الأول في الرد على هؤلاء أن هذه الدعوى مبنية من هؤلاء في أمر لا علم لهم به ؛ وهذا باطل ومحرم .

- الوجه الثاني في الرد على هؤلاء وإبطال دعواهم: من الناحية التاريخية ؛ فالله ﷻ يقول : ﴿ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ؛ ولهذا نبه بعض علماء التفسير أن من فوائد هذه الآية : أهمية العناية بالتاريخ في باب الرد على دعاوى أهل الباطل ، فهنا أبطِلت دعوى هؤلاء من ناحية تاريخية ؛ اليهود يقولون أن إبراهيم عليه السلام يهودياً ، والنصارى يقولون إن إبراهيم عليه السلام نصرانياً ، والتوراة التي أنزلت عليهم والإنجيل الذي أنزل على النصارى ما وُجدت وما أنزلت إلا بعد إبراهيم ؛ فكيف يكون إبراهيم يهودياً وكيف يكون نصرانياً والتوراة التي أنزلت على موسى والإنجيل الذي أنزل على عيسى لم يكن إلا بعد إبراهيم بزمان ؟! فهذه إبطال لهذه الدعوى من الناحية التاريخية .

- الوجه الثالث في إبطال دعوى هؤلاء : تبرئة إبراهيم عليه السلام من هؤلاء ومما هم عليه ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ هذه تبرئة له من هؤلاء ، ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ وهذا أيضا فيه تعريض ببيان حال هؤلاء وما هم عليه من الشرك والكفر بالله ﷻ ، وأن إبراهيم عليه السلام براء من ذلك كله فهو حنيف ؛ أي مائل متجانب عن الشرك وعن الباطل وعن أنواع الضلال إلى الإخلاص لله وتوحيده والاستسلام له ﷻ وامتثال أمره ، هذا شأن إبراهيم ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ ليس على ما عليه اليهود ولا على ما عليه النصارى ؛ بل كانت ملته ودينه الحنيفية ، قال تعالى في آية أخرى ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج:٧٨] ، الحنيفية هي ملة إبراهيم ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠] ؛ فهذه ملة إبراهيم البعد عن الشرك، ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ «حنيفاً» : أي مائلا عن الشرك وعن كل باطل ، و«مسلماً» : أي مستسلما لله منقاداً له ﷻ ، وسيأتي قول الله ﷻ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ ؛ فهذا شأن إبراهيم الخليل عليه السلام : إسلام لله واستسلام لأمره تبارك وتعالى .

إذًا هذا السياق العظيم المبارك أفاد أن مجرد الدعوى لا تكفي ، الآن كما نرى ؛ اليهود ادّعوا أن إبراهيم منهم، والنصارى ادّعوا أن إبراهيم منهم ؛ وهذا يعني أنهم أتباعه وعلى ملته ، وأولئك أيضًا يدّعون أنهم أتباعه وعلى ملته، وكذلك المشركون يدّعون لأنفسهم أنهم على ملة إبراهيم ، وكل هذه دعاوى لا قيمة لها ولا تفيد الإنسان . فعُلم من ذلك أن مجرد الدعوى لا تكفي ؛ وإلا أمر الدعوى سهل ؛ ادّعى اليهود لأنفسهم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة:١٨] ، وأيضاً تخاصموا هم والنصارى في ادعاءات قالوا : ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾[البقرة:١١١] ؛ أمر الدعوى سهل ، سهل أن يحرك الإنسان طرف لسانه بادعاءات وزعم كاذب ولكن كل ذلك لا قيمة له ، لابد من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام لله ﷻ ، ولهذا الله ﷻ بعد ذلك لما كشف زيف الدعوى وأوضح بطلانها قال عقب ذلك : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ لاحظ كلمة ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ ؛ أما مجرد الدعوى هذا لا قيمة له . ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ولو كان من الناس من هو أقرب الناس إليه ولم يتبعه ليس من إبراهيم وإبراهيم ليس منه ، ولهذا تبرأ إبراهيم من أبيه ومن قومه ؛ مع أن أبا إبراهيم أقرب الناس إليه نسباً تبرأ منه ، لأن الأمر يعود إلى وجود حقيقة الإسلام والإتباع . ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ هؤلاء هم أولى الناس به .

﴿ وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ : أي محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : أي معه مع محمد ﷺ . هؤلاء هم أولى الناس بإبراهيم. أولى الناس بإبراهيم هم أتباعه الذين آمنوا به وصدّقوه وساروا على نهجه ، وكذلك نبينا ﷺ الذي بُعث بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ﴾[الحج:٧٨] ، فملة إبراهيم هي ملة محمد ﷺ وهو على ملته ويدعو إلى ملته صلوات الله وسلامه عليه . فإذًا أولى الناس به أتباعه ، ونبينا عليه الصلاة والسلام ، وأتباع نبينا ﷺ ، أما المشركون واليهود والنصارى وغيرهم من أرباب الديانات وإن ادّعوا أن إبراهيم منهم أو أنهم منه فهذه دعوى زائفة وكلام كاذب ليس هناك واقع يصدّقه ، بل الواقع على نقيض ذلك وعلى خلافه ؛ إبراهيم له نهج وهؤلاء لهم نهج آخر ، والله ﷻ يقول : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١] ، ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ : أي أن مجرد الدعوى لا تكفي .

قال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ قوله هنا في هذا السياق ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ دليلٌ واضح على أن أصحاب الدعاوى الزائفة لا عقل لهم ، يعني أن من يقول عن نفسه أنه على ملة إبراهيم وهو على الشرك بالله ﷻ ، أو يقول أنا على ملة محمد ﷺ وهو لا يلزم نهجه بل

على البدع والخرافات ؛ هذا دليل على عدم العقل ؛ لأن قوله "إنني على ملته" هذا يدل على وجود قناعة عنده بأن ملته هي الملة المرتضاة وهي الملة المقبولة ولهذا انتسب ، ولولا وجود هذه القناعة لم ينتسب ، ثم مع وجود هذا الانتساب المدّعى يناقض أعماله فأين العقل!! أين العقل في حق من عرف أن ملة إبراهيم هي الملة المرتضاة وهي الملة المقبولة ثم ادّعى لنفسه أنه على ملته ثم أخذ يمارس في واقعه العملي أعمالاً على نقيض ما كان عليه إبراهيم وما كان عليه الأنبياء عموماً عليهم صلوات الله وسلامه من التوحيد والاستسلام لله ﷻ!! فلا توحيد لله ولا استسلام لله ثم يدَّعي لنفسه أنه على ملة إبراهيم !! هذا دليل على فقدان العقل ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . إذاً هذا يفيدنا أن أرباب هذه الدعاوى الباطلة لا عقول لهم ، وإلا لو كان عندهم عقولٌ راجحة لأتْبعوا الدعوى ببرهانها وبما يصدّقها من الاتباع لنهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه .

قال: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ حاججتم في أمور لكم بها علم أي مما وجد تبيانه في التوراة والإنجيل من الأحكام والأوامر ونحو ذلك ، فلِمَ هذا الخوض والمجادلة في أمرٍ ليس لكم به علم ؟ وهو خوضكم في إبراهيم عليه السلام وادّعاء كل طرف منكم أن إبراهيم على ما هم عليه ؛ فاليهود يقولون منا والنصارى يقولون منا ، فهذا خوضٌ بلا علم وهو من أعظم الآثام ومن المحرمات العظام ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ثم برأ الله ﷻ نبيه إبراهيم من ذلك ومما عليه هؤلاء قال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ ليس على ما ادّعاه النصارى ولا على ما ادعاه اليهود بل كان حنيفاً مسلماً ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ هذه ملة إبراهيم قائمة على أمرين : الحنيفية والإسلام ، الحنيفية تعني ترك الشرك . والإسلام : يعني الاستلام لله بما شرع والخضوع له تبارك وتعالى بما أمر . فهذه ملة إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه .

ثم قال : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ لما زيّف دعوى أولئك وبيّن بطلانها من وجوه بيّن من هم الذين هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام ، فذكر أن أولى الناس بإبراهيم : أتباعه السائرون على نهجه ، والنبي محمد ﷺ فهو على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وكذلك أتباع نبينا محمد ﷺ ؛ قال: ﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

ثم قال: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ وتأمل ختم الآية بهذه الخاتمة العظيمة : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي الله ﷻ يتولاهم حفظاً وتأييداً ونصراً وعوناً ، أما من سواهم فليس لهم حظ من ذلك ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة:٢٥٧] .

إذاً هذا السياق المبارك المراد من إيراد المصنف له : أن يبين أن حقيقة الإسلام لا تكون بالانتماء المجرد ؛ بل لابد من لزوم نهج الأنبياء ، والاستسلام لله ، وإخلاص الدين له ، والقيام بتوحيده وبشرعه كما أمر تبارك وتعالى؛ فهذا هو الإسلام الذي به تُنال فضائل الإسلام العظيمة .

ثم قال : ((**وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾**)) ؛ ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ : أي يميل عنها ويعدل عنها ويبتغي غيرها ويطلب غيرها . الرغبة تكون في الشيء وعن الشيء ؛ رغب فيه : أي طلبه وحرص عليه واجتهد في تحصيله. ورغب عنه : أي عدل عنه ومال عنه إلى غيره وتركه وتخلى عنه .

قال: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؛ وملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة وهي البراءة من الشرك ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ هذه ملته ؛ ملته الحنيفية السمحة ، ملته البراءة من الشرك صغيره وكبيره ، ملته الإسلام والاستسلام لله تبارك وتعالى .

فمن رغب عن هذه الملة فقد ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ، ومعنى ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ : أي حكَم على نفسه بالسَّفَه ، والسفه : هو خفة العقل، والسفيه هو خفيف العقل؛ عقله خفيف : أي ليس عنده عقل راجح وعقل متزن بل في عقله خفة . ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ : أي إلا من حكم على نفسه ورضي لنفسه بسفَه العقل، وهذا مثل قوله قبل قليل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ هذا كله من السفه ومن عدم العقل أن يمضي الإنسان في دعاوي مجردة بلا حقيقة ولا برهان ، وتكون حقيقة الإنسان الرغبة عن ملة إبراهيم التي هي ملة جميع الأنبياء وهي التوحيد والاستسلام لله ﷻ ، في السياق الأول قال ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، وفي هذا السياق قال ﴿ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ . ومفهوم المخالفة يدل على أن من رغب في ملة إبراهيم وحرص عليها وجدّ واجتهد في تحقيقها وتتميمها فهذا يدل على رجاحة العقل ورزانته .

قال: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ثم بيَّن الملة التي كان عليها إبراهيم وأنه عبد الله المجتبى ورسوله المصطفى قال: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ اصطفاه الله أي اجتباه ليكون عبداً مقرباً ونبياً مرسلا ، بل هو من خيار الأنبياء ومن أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ ﴾ أي اجتبيناه ، ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ اجتباه في الدنيا فكان من صفوة عباد الله واختاره الله تبارك وتعالى ليكون رسولاً يبلغ الناس دين الله بشيراً ونذيراً ، فقام بما أُمر به وافياً على التمام والكمال ، فما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذّرها منه صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ أي أهل المنازل العالية والدرجات الرفيعة في جنات النعيم . فهذا شأن إبراهيم الخليل عليه السلام .

ثم قال جل وعلا ممتدحاً له: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ أي استسلمت وانقدت لله ممتثلاً أمره منقاداً لشرعه مذعناً بطواعية وبدون تردد ، ما أن قال له ربه ﴿ أَسْلِمْ ﴾ إلا وأعلن إسلامه واستسلامه .

فهذه ملة إبراهيم الملة الحنيفية ، وهي الملة التي وصى بها إبراهيم ذريته وأتباعه ، وبها أيضاً وصى الأنبياء ، فهذه هي الملة الحنيفية ، ولا يكون الإنسان من أهلها إلا بلزومها . وهذا هو المقصود من هذا الباب .

قال رحمه الله تعالى :

وفيه حديث الخوارج وقد تقدم .

****

قال: ((**وفيه حديث الخوارج وقد تقدم**)) ؛ يشير رحمه الله إلى قول النبي ﷺ في الخوارج ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ)) ، وكان قبل هذا وصف عبادتهم قال: ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وقراءتكم مع قراءتهم يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)) .

لاحظ هذه الأمور التي اتصف بها الخوارج على ضوء ما دل عليه هذا الحديث ؛ الخوارج قوم يصلّون ويقرؤون القرآن ، وصلاتهم فيها اجتهاد وقراءتهم للقرآن فيها اجتهاد أيضا ؛ إذاً هم قوم ينتسبون إلى الإسلام وينتسبون لهذا الدين ، ويجتهدون في الصلاة والمحافظة عليها ، ويجتهدون في قراءة القرآن ومداومة القراءة والإكثار من قراءته كل ذلك يفعلونه ، ولكن وصفهم النبي مع ذلك كله بقوله: ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)) ، والسهم معروف إذا أطلق وصوّب نحو رمية معيّنة ثم خرج من طرفها الآخر فلا يبقى ولا يستقر وإنما دخولٌ وخروج ومروق، وقد وصفهم عليه الصلاة والسلام بأنهم يصلّون ويجتهدون في قراءة القرآن بل قال مخاطبًا الصحابة ((تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وقراءتكم مع قراءتهم)) أي للقرآن الكريم ، ومع ذلك قال: ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ)) لماذا ؟ هنا سر وسبب هو أساس الموضوع ؛ وهو أنهم لم يجعلوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حاكماً عليهم ؛ مع أنهم رفعوا شعار لا حُكم إلا لله ورفعوا المصحف ويصلّون ويقرؤون القرآن باجتهاد! ومع ذلك كله قال النبي ﷺ ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)) . والسبب في ذلك : أنه لم يوجد عندهم تحكيم لكتاب الله وسنة نبيهﷺ ، وإنما حكّموا أهواءهم ، كانت الأهواء هي المحكمة ، لم يكن العلم المستمد من الكتاب والسنة هو المحكّم . ولهذا

لما ناظرهم ابن عباس بالقرآن واحتج عليهم بالقرآن رجع منهم أربعة آلاف لوضوح الأمر ، الأمر واضح والدلائل بينة ليس معهم حجة ولا برهان وإنما الذي معهم هو الأهواء ، يحكمون أحكاماً بأهوائهم لا دليل عليها من كتاب الله ولا دليل عليها من سنة رسول الله ﷺ ، وإنما يمارسون أنواعاً من الظلم والبغي والعدوان والجور وإراقة الدماء والاعتداء على الأموال إلى غير ذلك من الأمور يفعلونها تديناً ويزعمون أنهم فيها على بينة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وكل ذلك ادّعاء ، ومن كتب الله ﷻ له الهداية منهم عرفها من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام لما بُينت لهم بالدليل الواضح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ؛ ولهذا قال المصنف هنا: ((**وفيه حديث الخوارج وقد تقدم**)) ؛ الخوارج شأنهم كما تقدم أهل صلاة وأهل قراءة للقرآن وأهل انتساب للإسلام ، ومع ذلك قال فيهم رسول الله ﷺ : ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)) .

ويأتي هنا السؤال الذي يتضح به مراد المصنف من إيراده لحديث الخوارج وهو: لماذا قال النبي ﷺ في الخوارج : ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ)) ؟ مع أنهم يصلون ويقرأون القرآن وينتسبون إلى الدين ، لم ينتسبوا لا إلى اليهودية ولا إلى النصرانية ولا إلى ملة أخرى وإنما هم منتسبون إلى الإسلام فقط ، ويصلون ويجتهدون في قراءة القرآن ويكثرون من ذكر الله ﷻ ، ولما سُئل علي عنهم قيل له أمنافقون هم ؟ قال : «المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا وهؤلاء يذكرون الله كثيرا» ، فإذاً لماذا وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ)) ؟

يأتيك الجواب وهو : أن مجرد الانتساب للدين والصلاة وقراءة القرآن وحدها لا تكفي ، لابد من وجود حقيقة الإسلام ؛ وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة ؛ أن يكون في عبادته موحداً مخلصاً ، وأن يكون لحكم الله وأمره وشرعه منقاداً مستسلماً . أما الذي يجعل هواه هو الحاكم على شرع الله ﷻ فأين الاستسلام؟ وأيضا من لا يخلص العبادة لله ﷻ أين الإسلام وأين الاستسلام ؟ وهذا أمرٌ سبقت الإشارة إليه ؛ من استكبر عن عبادة الله وطاعته أين إسلامه ؟ ومن جعل لله شريكاً معه في العبادة أين إسلامه ؟ فلا يكون الإسلام إلا بالإخلاص للمعبود ﷻ ، والاستسلام له تبارك وتعالى بالطاعة ، وتحكيم شرعه سبحانه ، والانقياد لحكمه ﷻ .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: ((إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء ، إنما أوليائي المتقون)).

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث أيضا ليبين هذا الأمر ، وأن مجرد قرابة الإنسان من النبي ﷺ أو نحو ذلك لا يكفي ، قال عليه الصلاة والسلام : ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون**)) ؛ «آل أبي فلا»ن يشير النبي ﷺ إلى بعض من لهم به صلة من قرابة ، فيقول: ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء**)) لماذا؟ لأنه لم يوجد فيهم حقيقة الإسلام ولم يوجد فيهم التوحيد لله ﷻ ، فقرابة الإنسان بنسبه من النبي عليه الصلاة والسلام لا

تفيده ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[المؤمنون:١٠١] ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] ؛ فالعبرة بتحقيق التقوى لله تبارك وتعالى ولهذا قال : ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء**)) من الوَلاية – بفتح الواو وليس بالكسر– أولياء وهي المحبة ؛ أي ليسو من أحبتي ، ليسو من أهلي ، ليسو من أهل ولايتي أي ممن أحبهم .

إذاً من هم أولياءه ؟ قال ((**المتقون**)) ؛ أي لله ﷻ ، فمن كان مؤمناً تقياً كان لله وليا. بالإيمان والتقوى تُنال الوَلاية ؛ لا بمجرد الادِّعاء ولا بمجرد أيضا صلة القرابة ، ولهذا الشرك أبعَدَ أبا لهب مع أنه عم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونزل في ذلك وحي يتلى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [سورة المسد] ، وأبو لهب عم النبي عليه الصلاة والسلام أخو والده ، وقرّب الإسلام سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال وهم من الموالي . فالذي يقرّب هو الإسلام ، والذي يبعِّد هو الكفر وعدم الاستسلام .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون**)) ؛ الحديث يدل على أن الادّعاء لا يكفي ؛ لابد من تحقيق تقوى الله ﷻ ، وتقوى الله أحسن ما عُرِّفت به ؛ قول أحد التابعين : هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله ؛ فهذه حقيقة التقوى .

في معنى قول النبي ﷺ ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون**)) يقول أحدهم نظماً وقد أورده ابن رجب رحمه الله في كتابه جامع العلوم والحكم :

لَعَمْرُكَ ما الإنْسَانُ إلاَّ بِدِينِهِ ... فَلا تَتْرُكِ التَّقْوى اتِّكَالاً عَلَى النَّسَبْ

لَقَدْ رَفَعَ الإسْلاَمُ سَلمَانَ فَارِسٍ ... وقَــدْ وَضَعَ الشِّــرْكُ الشَّقِيَّ أبَا لَهَــبْ

قال رحمه الله :

وفيه أيضا عن أنس : أن رسول الله ﷺ ذُكر له أن بعض الصحابة قال: أمّا أنا فلا آكل اللحم، وقال آخر: أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر فقال ﷺ : ((لكنني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)) . فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسُمِّي فعله رُغوباً عن السنة فما ظنك بغير هذا من البدع؟ وما ظنك بغير الصحابة؟ .

****

قال رحمه الله : ((**وفيه أيضا عن أنس أن رسول الله ﷺ ذُكر له أن بعض الصحابة قال: أما أنا فلا آكل اللحم، وقال آخر: أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر**)) ؛ هؤلاء نفر من أهل الاجتهاد والحرص على العبادة والتديّن جاءوا وسألوا في بيت النبي ﷺ عن عبادته ، عن صلاته ، عن قيامه لليل ، عن صيامه ؛ فوجدوا أنه عليه الصلاة والسلام متزوج وله أكثر من زوجة ، والزواج والصلة بالزوجة له متطلبات و ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي)) ، وجدوا أيضا أنه يأخذ حظه من نوم الليل ؛ ينام حظاً من الليل ويقوم حظا منه ، وأيضا ليس كل وقته في صلاة ، بل يصلي ويقوم بأعمال أخرى في أوقات أخرى ، فسألوا عن عبادته فوجدوها بهذه الصفة فتقالوها ورأوا أنها أقل من المطلوب ؛ قالوا هذا قليل !! تقالوا عبادة من ؟ أفضل عباد الله ﷻ !! ليس في عباد الله أفضل عبادةً منه عليه الصلاة والسلام ، فتقالوا العبادة ثم نشأ عندهم مخالفة .

لاحظ هنا متى تنشأ المخالفة عند الإنسان ؟ عندما يوجد فيه شيء من الرغبة عن السنة . والرغبة عن السنة لها أسباب ومولدات ، ومن مولداتها : أن يرى الإنسان في السنة ما لا يكفي ، انظر هذا على سبيل المثال فيمن يجتهدون في الأذكار المحدثة ؛ تجد أحدهم في يده سبحة فيها ألف خرزة ولا نعرف في الأذكار الشرعية ما يُعدّ ألف مرة ، وتجده يعُد أشياء بالآلاف بسبحته تضبط له هذا العدد ، وفي الوقت نفسه سنن صحيحة ثابتة عن النبي عليه الصلاة والسلام في ذكر الله هو من أجهل الناس بها !! فيجتهد فيما ليس مشروع ويدع المشروع ، ولو ذكرتَ له المشروع مثلاً من أذكار الصباح والمساء يقول : "هذا قليل ؛ نحن نشتغل من بعد صلاة الفجر إلى الساعة العاشرة بالآلاف ، هذه ما تكفي، قليلة" ، فتجده يرغب عن السنة ولا يراها كافية ويراها قلية ، ويشتغل بما ليس بسنة وبأمرٍ ليس مشروعًا ، فيمضي يعد أعدادًا معينة يضبطها بخرزته أو بسبحته وهي لا دليل عليها ، ولو كان يذكر الله الذكر المطلق لا إشكال في ذلك ، فالإنسان مطلوبٌ منه أن يجتهد في التسبيح وذكر الله في كل أوقاته وجميع أحايينه ، لكن هذا التقييد وبأعداد معينة هذا أمرٌ لا دليل على مشروعيته من هدي النبي عليه الصلاة والسلام وسنته .

فهؤلاء تقالوا عبادته ﷺ ، ولما تقالوا العبادة ألزم كل واحد نفسه باجتهادٍ في أمر لا دليل على مشروعيته .

((**فقال أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم**)) ؛ يعني من الآن والوقت القادم لن آكل لحماً ، والنبي ﷺ يأكل اللحم، وكان يحب عليه الصلاة والسلام الذراع أو الكتف ويأكله ﷺ.

((**وقال الآخر : أما أنا فأقوم ولا أنام**)) ؛ يعني الليل كله لا أنام ، أظل قائما أصلي .

((**وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء**)) ؛ كأنه بزعمه أن الزواج يشغل عن الصلاة وعن العبادة .

((**وقال الآخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر**)) يعني أمضي أيامي كلها صائماً لا أفطر .

فسمع النبي عليه الصلاة والسلام بكلام هؤلاء فقال : ((**لكنني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم**)) ؛ يعني كل هذه الأشياء التي قالوها هي على خلاف هديي وعلى خلاف سنتي ؛ أنا أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم كل هذه الأمور أفعلها .((**فمن رغب عن سنتي فليس مني**)) .

الآن لاحظ ملاحظة مهمة في الموضوع ؛ هؤلاء الذين فعلوا هذه الأمور فعلوها تديناً وتقرباً واجتهاداً في التقرب إلى الله ﷻ وطلب ثوابه ، ومع ذلك يقول ﷺ : ((**إني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**)) يعني هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني .

الآن أكل اللحم ؛ لو كان الإنسان لا يأكل اللحم قال أنا لا آكل اللحم لأنه ثبت لي أنه يضرني صحيا هل هذا يؤثر على تدينه على اتباعه للسنة ؟ إنسان نُصح أن لا يأكل اللحم ، قيل له إن معك المرض الفلاني واللحم يضرك فترك أكل اللحم لهذا الغرض هل يؤثر ؟ لا ، لكن لو قال أنا لا آكل اللحم متقربا إلى الله ﷻ يتدين ويتقرب إلى الله بترك أكل اللحم ، فهذا تقرب إلى الله ﷻ بما لم يشرع ، لو أن إنسانا قال : والله أنا ما آكل لحم لأني لا أشتهيه ولا أحب أكله ،نفسي ما ترغبه أجدني أعافه ، النبي ﷺ امتنع من أكل لحم الضب مع أنه مباح قال: ((أَجِدُنِي أَعَافُهُ))؛ فامتناع الإنسان من أكل اللحم خوفاً على صحته لمرض معه أو لأن نفسه لا تقبله أو نحو ذلك هذا لا يضر ، لكن هذا الذي قال ((**أنا لا آكل الحم**)) فعل ذلك على وجه التدين يريد أن يتقرب إلى الله ﷻ بهذا ، وهذا أمر ما شرعه الله له ، فالتدين والتقرب إلى الله بما شرع ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني**)) .

وذكر أنه يتزوج النساء أيضاً ؛ من ترك الزواج مثلا لفقره أو لا إربة له في النساء أو لسبب آخر هذا لا يضره، لكن لو ترك الزواج يتدين بذلك ويرى أن هذه من القربات ومن العبادات ومن الأعمال الصالحات التي يتقرب بها إلى الله ﷻ فتقرب إلى الله بترك الزواج هذا ليس على سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

وكذلك من يُلزم نفسه بإلزام هؤلاء يصلي ولا ينام ، ويصوم ولا يفطر فهؤلاء كلهم ليسو على سنة النبي ﷺ .

لاحظ في حق من صلى وصام واجتهد في الصلاة والصيام ومع ذلك سمى النبي ﷺ هذا الاجتهاد في الصلاة والصيام رغبةً عن السنة !! إذاً لا يكفي مجرد الانتساب ومجرد الصلاة والصيام ؛ بل لابد من وجود حقيقة الاستسلام والاتباع والاهتداء بهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال: ((**ولكني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني**)) قارن قوله ((**فمن رغب عن سنتي**)) بقوله قريباً ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ فالرغبة عن ملة إبراهيم عليه السلام والرغبة عن سنة النبي الكريم ﷺ لا يؤدي بالإنسان إلا إلى الهلكة والخسران ، والذي يجب على المسلم أن تقوم فيه رغبةٌ في ملة إبراهيم ورغبةٌ في سنة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ حفظاً لها ومحافظةً عليها وعنايةً بها واجتهاداً في تعلمها والعمل بها ليكون من أهل سنته وليكون من أهل ملة إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا

وعلى جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه. فهذا كله يبين أن الأمر لا ينال بمجرد الدعاوى بل لابد من وجود حقيقة الاتباع والالتزام بسنة النبي ﷺ .

مرة ثانية أو ثالثة : هؤلاء الآن النفر الذين أتوا إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام وسألوا عن عبادته ؛ اسأل هنا ما سر هذا السؤال؟ رغبة في الخير أو رغبة في الشر؟ رغبة في الخير ؛ يريد أن ينظر في عمل النبي ﷺ الذي هو القدوة ، فنظر في عمله فوجده بظنه قليلاً ، فالتزم لنفسه صلاةً أكثر وصياما أكثر من باب حرصه على الخير وحرصه على العبادة ، فالذي وُجد منهم صلاة وصيام، والذي قاله النبي ﷺ في حقهم: ((من رغب عن سنتي فليس مني)) ، صلاة وصيام ونبينا ﷺ يقول: ((من رغب عن سنتي فليس مني)) !! هذا يدلنا على أن الصيام والصلاة لابد أن يكون على السنة .

أحد السلف مرةً رأى رجلا يصلي متنفلاً بعد صلاة العصر فنهاه قال له ليس هذا وقت صلاة ، فقرأ الرجل في حقه قول الله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾[العلق:٩-١٠] ؛ يعني تنهاني عن الصلاة والله يقول ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ ؟ قال : أنا لا أنهاك عن الصلاة ولكن أنهاك عن البدعة . فالصلاة وهي صلاة – صلة بين الله وبين عبده – إذا كانت على المخالف للمشروع لا تكون من سنة النبي ﷺ بل تكون رغبةً عن سنته، ((**ومن رغب عن سنتي** -يقول عليه الصلاة والسلام**– فليس مني**)) ، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون في صلاته وفي صيامه وفي ذكره لله وفي عباداته ملتزماً بهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ليكون من أوليائه ﷺ حقاً وصدقا .

ثم قال المصنف رحمه الله معلقًا على الحديث الأخير : ((**فتأمل**)) أي تفكر وتدبر في هذا الأمر ينفعك الله به. ((**تأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة**)) ومعنى التبتل : أي الانقطاع للعبادة وشغل الوقت كله بها ، يعني ليس عنده وقت إلا للعبادة ؛ لا يأكل لحم وذاك لا ينام وذاك لا يفطر وذاك لا يتزوج أراد أن يتبتل أن ينقطع للعبادة ((**قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسُمي فعله رغوباً عن السنة**)) أي رغبةً عنها وعدولاً عنها، قال فيهم النبي ﷺ هذا القول الغليظ: ((فمن رغب عن سنتي ليس مني))؛ سمى فعلهم رغبةً عن السنة وقال هذا القول الغليظ: ((ليس مني))؛ يعني من كان على هذا النهج .

وتأمل مرة ثانية : يصلي باجتهاد ويصوم باجتهاد والنبي ﷺ يقول ((ليس مني)) ، ويقول: ((من رغب عن سنتي))!! فتبين بهذا أنه لابد من وجود حقيقة الإسلام وهي الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة واتباع النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ولزوم ما جاء به ، ولهذا قال العلماء: لا يُقبل من الإنسان دينه وعمله إلا

بشرطين : إخلاص العمل لله ، وموافقة العمل لسنة رسول الله ﷺ ، وقد جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١٠] .

قال الفضيل ابن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ : أخلصه وأصوبه ، قيل يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال : «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ؛ والخالص: ما كان لله ، والصواب: ما كان على السنة» .

قال المصنف رحمه الله: ((**فما ظنك بغير هذا من البدع؟ وما ظنك بغير الصحابة؟**)) ؛ أمرين ينبه عليهما رحمه الله :

- الأمر الأول : يقول ((**فما ظنك بغير هذا من البدع؟**)) ؛ الصلاة والصيام عبادات مشروعة لكن الصفة التي التزمها هؤلاء في أداء هذه العبادات ليست مشروعة ؛ وهي أن يصوم ولا يفطر والآخر يصلي ولا ينام هذا أمر غير مشروع، مع أن الصلاة من حيث هي مشروعة والصيام أيضا مشروع ، والابتداع الذي وُجد هنا في هذا العمل يسمى «بدعة إضافية» ، وقد مر معنا أن البدعة تنقسم إلى قسمين : بدعة إضافية ، وبدعة حقيقية . فإذا كان النبي ﷺ قال هذا في حق هؤلاء الذين أرادوا فعل أمرٍ مشروع ولكنهم أضافوا وزادوا فيه على المشروع وأتوا فيه بأمرٍ غير مشروع ، فكيف بمن جاء ببدعة حقيقية ليس لها أصل في الشرع واجتهد فيها وحافظ عليها!! مثل من يُحيون ليالي بمسميات معيّنة – ليلة كذا وليلة كذا – يحيونها بأعمال لا دليل عندهم على مشروعية الإحياء ولا على وقته ولا أيضا على الأعمال التي يمارسونها في ذلك الإحياء لتلك الليالي ، فهي بدع حقيقية ويجتهدون فيها !! إذا كان النبي ﷺ قال في حق من قال : أصوم ولا أفطر ، وحق من قال : أصلي ولا أنام ((من رغب عن سنتي فليس مني)) ، فكيف بمن يأتي بأمور لا أصل لها في الشرع ولا وجود لها في الشرع لا في وقتها ولا في حقيقتها ولا في الأعمال التي تمارس فيها ، فكيف الأمر بمثل هذه الأعمال!! فالمصنف ينبه على هذه الفائدة ؛ يقول : إذا كان النبي ﷺ قال هذا في أعمالٍ هي مشروعة في الأصل فكيف بمن جاء بأعمال لا أصل لها في الشرع ؛ محدثة من أساسها في صفتها وفي كيفيتها وفي وقتها من أساسها محدثة ثم يفعلها متقربا بها إلى الله!! إذا كان النبي ﷺ قال في أولئك ((من رغب عن سنتي)) فماذا يقال في هؤلاء ؟ هذه واحدة.
- الثانية : قال ((**وما ظنك بغير الصحابة ؟**)) فالذين قال أحدهم أصوم ولا أفطر ، والثاني قال أصلي ولا أنام إلى آخره ، هؤلاء من الصحابة ولكنهم أخطئوا من باب شدة الحرص والرغبة في الخير ونبههم النبي عليه الصلاة والسلام على هذا الخطأ وبيّن أنه رغوب عن السنة ، وأن من كان كذلك فليس من النبي ﷺ ، والذي يُظن أن هؤلاء بلغهم هذا التوجيه وعدَلوا عن هذا الأمر الذي توجهوا إليه من باب الرغبة ورجعوا إلى ما وجههم

إليه النبي عليه الصلاة والسلام . فإذا كان النبي ﷺ قال هذا في حق بعض الصحابة فكيف بمن هو ليس من الصحابة!! ، فهذه لفتة عظيمة ينبه لها المصنف رحمه الله وكأنه يقول لك: اتق الله وانتبه ؛ ولا تتقرب إلا إلى الله مخلصًا له الدين ، ولا تتقرب إلى الله إلا بما شرعه الله لك .

- فمن لم يجعل تقربه لله خالصاً لم يُقبل منه عمل ، قال الله تعالى في الحديث القدسي: ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)) .
- ومن تقرب إلى الله بغير ما شرع لم يُقبل منه ، قال النبي ﷺ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه .

فالواجب على المسلم أن يجتهد في تحقيق حقيقة الإسلام بالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف الإمام رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] ، **وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾** [البقرة:١٣٢] ، **وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾** [النحل:١٢٣] .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**باب قول الله تعالى:** ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾)) ؛ هذه الترجمة عقدها المصنف رحمه الله ليبين بها حقيقة الإسلام ، وأن فضائل الإسلام العظيمة التي ينالها أهل الإسلام لا تُنال إلا بإقامة الوجه للدين ؛ بالتزامه والمحافظة عليه والعناية به والسعي في تحقيقه وتتميمه وتكميله ، وأعظم شيء في ذلك إخلاصه لله ﷻ والبعد عن الشرك ، وأن يكون المسلم حنيفاً مخلصاً بعيداً عن الشرك بالله وصرف العبادة لغير الله مقبِلاً على الله ﷻ بفعل ما أمر وإقامة فرائض الدين وواجباته . فحقيقة الإسلام ونيل فضائله العظام لا تكون إلا بهذا ؛ ولهذا أورد المصنف رحمه الله هذه الترجمة وجعل عنوانها هذه الآية الكريمة لكونها دالة على المقصود ، وساق من الآيات والأحاديث ما يبين هذا الأمر .

قال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ إقامة الوجه تكون بالإخلاص لله ﷻ بأن يقبل في أعماله وعبادته وجميع طاعاته بوجهه إلى الله ﷻ ؛ فيقصده وحده ويبتغي وجه الله بالعمل يريد بعمله ثواب الله . هذه إقامة الوجه ، إقامة الوجه: بإقباله على الله تبارك وتعالى وانصرافه عما سواه ، وأن يكون مقبلا بقلبه ووجهه وعبادته وأعماله وطاعاته إلى الله جل وعلا، لا يجعل لأحدٍ بها حظا أو نصيبا ، وإنما تقع منه كلها لله تبارك وتعالى فيقصده وحده. ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ ؛ والدين: هو توحيد الله وعبادته والصلاة والصيام وكل ما شرع الله تبارك وتعالى من أوامر تُفعل ونواهي تُترك ؛ كل ذلك يشمله قوله ﴿ الدِّينِ ﴾ . الدين هو شرع الله عز وجل وما أمر الله تبارك وتعالى عباده به .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾: أي استقم على دين الله تبارك وتعالى مخلصاً له ؛ فثمة أمران هنا لابد منهما : وهو ابتغاء الله بالعمل ، والثاني : الجد في العمل بالمحافظة عليه وحفظه والعناية به ؛ فبهما يتحقق للعبد إقامة وجهه للدين ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ بالاستقامة على الدين محافظةً عليه ، وبإيقاعه خالصا لله ، ولهذا نعيد هنا ما سبق وهو: أن من استكبر عن العمل لم يُقِم وجهه للدين ، ومن صرف العمل لغير وجه الله لم يُقِم وجهه للدين ؛ فإقامة الوجه للدين لابد فيها من الإخلاص والاستسلام ؛ الإخلاص لله: بأن يبتغى بالعمل وجه الله ﷻ ، والاستسلام له ﷻ : بفعل ما أمر. هذا معنى قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ .

وقوله ﴿حَنِيفًا﴾ ؛ الحنيف : هو المائل عن الباطل والضلال إلى الحق والهدى ، عن الشرك والكفر إلى الإيمان والتوحيد . ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ : اتجِه بقلبك وقالبك لإقامة دين الله الذي شرعه لك مخلصاً له ، وكن متجافياً مائلاً حذراً مبتعداً عن الباطل الذي أخطره وأشرّه على الإنسان الشرك بالله ﷻ . والحنيفية : ملة إبراهيم

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠] هي ملته ، فيكون العبد بهذه الصفة يعيش حياته بهذه الصفة ويبقى مجاهداً نفسه على تحقيق هذا المعنى إلى أن يتوفاه الله كما يأتي إيضاح هذا المعنى في الآية الثانية ، أن يقيم الإنسان وجهه لله بإقامة دينه مخلصا له ويثبت على ذلك إلى أن يموت على ذلك ويلقى الله ﷻ بالإسلام .

قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ ؛ هذا الذي طُلب من الناس إقامة الوجه للدين حنيفاً هو الفطرة، والفطرة : ما جُبل الناس عليه ، وما خُلق الناس مفطورون عليه ، ليس أبناء المسلمين فقط بل أبناء بني آدم كلهم فُطروا على ذلك ، فُطِروا على إقامة الوجه لله ، هكذا فطروا على الملة ، على الحنيفية ، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال : ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ، وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)) ، البهيمة عندما تنتُج وتولد تراها جمعاء ؛ ليست مقطوعة أذن ولا مكسورة قرن ولا مقطوعة يد تجدها جمعاء أي مكتملة الأطراف ، وإذا رأيت فيها جدعاً ؛ أذناً مقطوعة أو قرناً مكسورًا أو يداً مبتورة فهذا الجدع لم تولد به ((حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)) ، فهذا مثل ضربه النبي ﷺ لبيان حال المواليد من بني آدم وأنهم يولدون على الفطرة . والفطرة كما في الآية : إقامة الدين لله ، ولهذا قال العلماء : المراد بالفطرة هنا الإسلام ، وليس هذا يعني أن المولود يولد عالماً بالإسلام وتفاصيله ، وإنما المراد أن المولود يولد على الفطرة بإقامة الوجه لله تبارك وتعالى والإقبال عليه وطلب الثواب منه وأداء العبادة له ، أما تفاصيل الدين لا تُعرف بالفطرة لابد فيها من الوحي ، ولهذا قال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] الشاهد قوله ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ، والمراد بقوله ﴿ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ : أي تفاصيله ، فتفاصيل الإيمان وتفاصيل الشرائع لا سبيل إلى العلم بها إلا من جهة الوحي ، وأما تهيؤ الإنسان وإقباله وقبوله وإقامة وجهه وإخلاصه لله هذه أمور فُطر الناس عليها ؛ وهي الإسلام ، وهي الدين القيم ، ولو خُلِّيَ بين الإنسان وفطرته ولم يُعبَث بها لما أقبل على غير الدين ولما قبِل غير الإسلام ؛ لأن كل العقائد مصادمة للفطر ، وغرْسها في الناس حرفٌ للفطرة ، بخلاف غرس الإسلام والتربية عليه هذا بناء للفطرة ، وقابلية القلب له قوية جداً لأنه يتواءم مع الفطرة التي فُطر عليها ، بينما كل عقيدة أخرى فغرسها في القلب حرفٌ للفطرة .

ولهذا أخذ كل العلماء من هذا فائدة عظيمة : أن التربية على الإسلام ليست عسيرة ، لأنك تربي فيه شيئاً يتواءم مع فطرته ليس شيئاً مصادماً لها ، بينما التربية على العقائد الباطلة إقحام أمور مناقضة للفطرة في القلب ومباينة لها، ولهذا يعيش أبناء الكفار صراعاً في قبول أمور فاسدة تردُّها فِطَرهم وتأباها ولكنها تُفرض عليه وتُغرس فيه

بالمخاوف وبالترغيب وبالتهديد وبذكر أمور تُغرس فيه إلى أن تذهب الفطرة ويحل محلها فساد العقائد ، ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ، ولاحظ الإجتيال : نزع الإنسان وإخراجه من شيء ثابت فيه وُلد عليه فُطر عليه ، في الحديث قال : ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)) ؛ فهو يولد على الفطرة ، على الإسلام ، على الإقبال على الله ، على إخلاص الدين لله ﷻ ، يمضي على هذه الحياة ؛ وإلا هو إذا نشأ ابناً لأحد الكفار وبين أبوين كافرين وفي مجتمع كافر ، الأبوان والمجتمع يحدُث منهم اجتيال لهذه الفطرة وقتلٌ لها ، لأنه ينشأ على أمور لا تبني فطرته بل تهدمها ، لا تقيم فطرته بل تحرفها ، وكما قدمت ينشأ في صراع إلى أن ينشأ على ما عوّده عليه أبواه وما اعتاد عليه مجتمعه من الانحراف ، وإلا في البداية يرى أموراً غير مرغوبة .

أحد المهتدين يحدّث عن نفسه وكان من عبدَة الأصنام ، نشأ في مجتمع فيه عبادة الأصنام ، يقول : " فأخذني والدي إلى المعبد فلما دخلت وجدتُ أحد الكلاب يبول على الصنم فانقبضت نفسي منذ ذلك اليوم عن هذا الدين ووجدته دينٌ مقيت ، دين مبغوض ، آتي إلى هذا الحجر لأطلب منه حاجتي وعليه كلب يبول !! يقول وبقيت على هذه العقيدة وأنا كارهٌ ومبغض لها ؛ لكن هذا هو ديني وهذا دين آبائي وهذا دين مجتمعي " ، ثم يسّر الله له أن جاء عاملاً في هذه البلاد ورأى التوحيد وأعلن توبته وأعلن كراهيته لدينه منذ صغره ولكنه لم يجد مجالاً للتخلي عنه والإقبال على دينٍ صحيح يُعرَّف به . ولهذا كثير منهم تجده كاره لدينه مبغض له لكنه معتنق له مع مجتمعه ، وما أن يلوح له أمارات التوحيد وضياء الإسلام إلا ويُقبل عليه بانشراح . وهذا يدلنا على حاجة البشرية الماسة إلى إشاعة نور التوحيد والدعوة إليه وبيان محاسن الدين حتى يُعاد الناس إلى فطرهم الصحيحة التي حُرِفت عما خُلقت له وما أوجدت عليه من إقامة الوجه لله ﷻ دون سواه .

وذكّرتني قصة هذا المهتدي بقصة مشركٍ أوردها ابن جرير الطبري رحمه الله في كتابه التفسير في أوله، ذكر أن أحد المشركين قصد صنماً من الأصنام وقطع مسافات طِوال إليه لعرض حاجاته وطلباته عليه فلما وصل إلى الصنم وجد فوق رأسه ثعلب يبول ، والبول يصب من فوق رأس الصنم إلى أخمص قدميه ، فنظر إلى هذه الحال وأنشد بيتاً من الشعر ورجع ، قال: أَرَبٌّ يَبُولُ الثّعْلبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثّعَالِبُ

فعلى كل حال ؛ الإسلام هو دين الفطرة ، والله ﷻ فطر بني آدم كلهم على الإسلام ؛ قبوله والإخلاص لله ونبذ الشرك والحنيفية السمحة ؛ وتفاصيل هذا الدين لا تُعرف إلا بالوحي ؛ وحي الله ﷻ .

قال : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ؛ خَلْقِ الله : أي ما فطرهم ﷻ عليه وهو دين الإسلام ، دين الفطرة الذي لا يقبل تبارك وتعالى ديناً سواه ، فمن بدّل أو غيّر أو ابتغى لنفسه غير هذه الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها فهي مردودة عليه ، لا يقبل الله ﷻ من الناس ديناً إلا ما فطرهم عليه وهو إقامة الوجه للدين حنيفا.

قال : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ؛ أي دين الفطرة الذي هو الإسلام ، الذي هو إقامة الوجه لله ، الذي هو الاستسلام لله ﷻ ؛ هو الدين القيِّم ، الدين المستقيم الموصل إلى رضوان الله ﷻ وجنات النعيم . وكل طريق سواه فلا يوصِل إلى رضا الله ولا يوصل إلى جنته ، فلا يُنال رضاه تبارك وتعالى ولا تُبلغ جنته إلا بإقامة الوجه للدين ؛ الذي هو دين الله تبارك وتعالى القيم .

ثم ختم الآية بقوله ﷻ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هذه الحقيقة مع جلائها ووضوحها وكونها مغروسة في الفطر مركوزة في النفوس لكن الواقع ﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فأكثر الناس مجتالةٌ فطرهم ، لم يبقوا على الفطرة التي فُطروا عليها بل انحرفوا إما إلى مجوسية أو إلى يهودية أو إلى نصرانية أو غير ذلك من الأديان التي لا حصر لها .

﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ الذين يعلمون أقل الناس ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] ،﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦] . والآيات في هذا المعنى كثيرة ، فأكثر الناس على غير الفطرة ، فطَرهم بُدِّلت وغُيِّرت ، والأقل هم الذين سلِمت لهم فطرهم وبقيت دون تغير ودون تبدل ، وهذا أيضا يفيد أن العبرة ليست بالكثرة ، ولهذا قال بعض السلف: «عليك بالحق وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ ولا تستوحش من قلة السالكين» ، لأن العبرة ليست بالكثرة، وليس المقياس بكثرة العدد ، المقياس هو وجود الحق ولو كان الإنسان وحده ، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : «الجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الحَقّ ، وَإِن كُنْتَ وَحْدَكَ» . لو كان الإنسان وحده وهو على الحق وعلى الدين الصحيح الذي فطر الله ﷻ الناس عليه ، يقيم وجهه لله وما سواه على الشرك ؛ فالحق معه وليس معهم ، ولهذا وصف الله ﷻ إبراهيم الخليل ﷺ بأنه أمّة ؛ أي إمامٌ في الخير وحده ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثم أورد رحمه الله قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ منبّهاً بذلك رحمه الله إلى أن إقامة الوجه للدين حنيفاً الذي هو فطرة الله ﷻ هو دين الأنبياء ووصيتهم ، فوصية الأنبياء إقامة الوجه لدين الله حنيفا بالإخلاص للمعبود في الأعمال كلها ، والاستسلام له بفعل ما أمر وطاعة رسله عليهم صلوات الله وسلامه ؛ فهذا هو دين الأنبياء ووصيتهم وميراثهم ، قد قال ﷺ : ((وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)) ، والعلم الذي ورّثه الأنبياء هو هذا؛ إقامة الوجه للدين حنيفا؛ بالبعد عن الشرك والإخلاص لله ﷻ والاستسلام له ﷻ وطاعة رسله.

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصى بها : أي هذا الأمر وهو الإسلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصاه بالإسلام والاستسلام لله ﷻ وإقامة الوجه له وإخلاص الدين له والبعد عن الشرك بأنواعه ؛ هذه وصية أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه .

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصية الأب لابنه هي وصية المشفق الحريص الذي يختار خير أمرٍ وأعظم أمرٍ يعهده لابنه . فهذه وصية الأنبياء لأبنائهم ولأممهم ؛ وصيةٌ بتوحيد الله وإخلاص الدين له ﷻ والبعد عن الشرك .

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أي ووصى بها يعقوب بنيه قائلين : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ هذه الوصية الآن ، أعادها مع أنه أشير إليها بالضمير في قوله ﴿ وَوَصَّى بِهَا ﴾ أعاد ألفاظها تبييناً واهتماماً بها ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ هذه وصية الأنبياء وهذه خلاصتها ، وهذه الخلاصة التي هي وصية الأنبياء هي في حقيقة الأمر زبدة رسالتهم وخلاصتها وصفوها .

﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ اصطفاه : أي اختاره ورضيه ، ولا يرضى ﷻ ديناً سواه، وقد مر معنا آيات بهذا المعنى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران:١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، اصطفاه: أي اختاره دينا ولا يقبل ديناً سواه ؛ فعليكم بهذا الدين الذي اصطفاه لكم واختاره لكم ولا يقبل منكم ديناً سواه ، ولو أقام الإنسان وجهه حياته كلها على غير ما اصطفاه الله له ورضيه ديناً له لا يقبله الله منه ، لو واصل الليل بالنهار عاملاً كادًّا مجتهداً لا يقبل الله منه ، فكما أنه ﷻ لا يقبل من العمل إلا العمل الخالص؛ فهو لا يقبل من العمل إلا العمل الذي شرع وهو الدين الذي اصطفاه ﷻ لعباده وهو قائم على أمرين : إخلاص له، وعمل بما شرع لا بالضلالات والأهواء والبدع .

قال:﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ والدين: شرْعه تبارك وتعالى القائم على توحيده وإسلام الوجه له ﷻ.

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ : أي أقيموا وجوهكم لهذا الدين مستمرين عليه ماضين عليه محافظين عليه مجاهدين أنفسكم على الثبات عليه إلى الممات ، وهذا هو معنى قوله : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، وهذا مثل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] ؛ والأمر بالموت على الإسلام في قوله : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني الاستقامة على الإسلام والمحافظة عليه

وإقامة الوجه للدين حنيفا والمضي على ذلك إلى أن يموت الإنسان . والإنسان لا يدري متى يموت ؛ قد يموت بعد يوم وقد يموت بعد ساعة ، وقد يموت بعد سنة وقد يموت بعد مئة سنة ، أمر مغيّب لا يدري عنه الإنسان ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان:٣٤] ، ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[الرعد:٣٨] ، والموت لا يفرّق بين صغير وكبير ، قد يدخل الموت إلى بيت فيه رجل مسن جاوز السبعين أو الثمانين أو جاوز المئة ويدَعه ويأخذ طفلاً صغيرًا في البيت ، وكم من بيوت عندهم رجل مسن وبين ساعة وأخرى يتوقعون أن يفتقدوه ثم يفاجئون بافتقاد طفل صغير !! فالموت لا يفرق بين صغير وكبير ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

فقوله : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ بأن يحافظ الإنسان على إسلامه مستقيماً عليه مجتهداً في تتميمه وتكميله إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى على الإسلام .

قال: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أمرٌ بالموت على الإسلام ، وهذا الموت على الإسلام يرجع إلى الثبات عليه ، والله ﷻ قال: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

ثم أورد رحمه الله قول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا تتويج للمعنى السابق ؛ لما ذكر في الآية الأولى إقامة الوجه للدين حنيفا وبيّن في الآية الثانية أن هذا هو دين الأنبياء ووصيتهم ومنهم إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام توّج المعنى بقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ .

وهنا تقول : ما هي ملة إبراهيم التي أمِر نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام وأمته باتباعها ؟ ملته ما جاء في هذا السياق ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ ﴾ ، ملته هي وصيته التي أوصى بها بنيه ودعا إليها قومه : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، هذه هي ملة إبراهيم : الحنيفية السمحة التي أمر نبينا عليه الصلاة والسلام باتباعها قال: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة ؛ إقامة الوجه للدين مخلصاً لله مطيعاً له ممتثلاً أمره عابداً له ﷻ بما شرع . ثبت عن نبينا ﷺ في أذكار الصباح أنه كان يقول – ولاحظ اجتماع هذه المعاني في هذا الذكر – : ((أَصْبَحْنَا عَلَى

فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) كان يقول ذلك إذا أصبح ، ويقول ذلك إذا أمسى : ((أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) .

ومما ينبغي أن يُعلم هنا ويتأكد العلم به والعناية به : أن هذه الأذكار ليست مجرد كلمات تقال ، يقولها الإنسان إذا أصبح وإذا أمسى مجردةً عن العلم بمعانيها وتحقيق مضامينها ؛ ليس هذا شأنها ، وإنما هذه الأذكار فيها تجديد للتوحيد وتجديد للفطرة وتجديد للملة الحنيفية ملة إبراهيم ، تجديدٌ للزوم العهد بإتباع الأنبياء ولزوم نهجهم ، تجديدٌ لأخذ الميثاق على النفس بالبُعد عن الشرك الذي هو أظلم الظلم وأكبره ، تجديدٌ للإيمان بلزوم الحنيفية السمحة ، أرأيتم شخصاً يصبّح ويمسي بهذه الكلمات متأملاً في مضامينها مجتهداً في تحقيق ما دلت عليه ؛ فإنه يصبح على خير يوم ويمسي على خير حال ، على خير يبيت ويمسي ويصبح إذا كان على هذا الأمر ماضٍ مجدداً إيمانه مجدداً توحيده مجدداً حنيفيته وبراءته من الشرك ، مجتهداً في تحقيق هذه المعاني .

وكل المضامين التي مرت معنا اجتمعت في هذا الذكر العظيم المبارك الذي يقال كل صباح ومساء ويشرع للمسلم أن يواظب عليه ؛ ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) . لاحظ هذه الكلمات الثلاث : «حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ» هي التي مرت معنا الآن في الآيات : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ، وفي الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، وفي الآية الثالثة : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ولاحظ الارتباط بين جُمَل هذا الذكر الأربع : «فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ،كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ» ؛ هذه الأربعة شيء واحد أم مختلفة ؟ الفطرة : هي التوحيد ، هي لا إله إلا الله ، هي ملة محمد ﷺ ، هي دين أبينا إبراهيم عليه السلام ، فالفطرة هي لا إله إلا الله هي توحيد الله إخلاص الدين لله ، وهو الدين الذي بُعث به محمد ﷺ ، وهو ملة إبراهيم الذي أمر نبينا عليه الصلاة والسلام بإتباعه وأمِرت أمته بإتباعه ، هذا هو دين الله وهو دين الأنبياء كلهم من أولهم إلى آخرهم ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى:١٣] ، قوله في حق الأنبياء وما شرعه الله عز وجل لهم هو هذا المعنى ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ ، وهنا قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ ؛ فهذا هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث

الصحيح : ((الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)) ؛ الدين الذي عليه الأنبياء واحد لكن الشرائع ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨]

حقيقة الدين : إخلاصٌ لله واستسلام لأمره ، فمن لم يستسلم لأمر الله ﷻ بما أمره به لم يقِم وجهه للدين ، وبهذا يتبين أيضا معنى سبق إيضاحه وهو : بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام وما شرع الله لنبيه ﷺ لا يقبل الله من عباده ديناً سواه ، ومن عبَد الله ولو كان بشرعٍ غير مبدل –دعك من المبدَّل– بعد بعثة محمدﷺ لا يقبل الله منه، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ لأنه ﷻ لا يقبل في كل زمان إلا ما شرع وما أمر وأوحى إلى رسله به من الشرائع ، سوى ذلك لا يقبله تبارك وتعالى .

إذًا هذه الترجمة وما فيها من الآيات وما فيها من الأحاديث التي سيأتي ذكرها عند المصنف تبين حقيقة الإسلام التي تنال به فضائل الدين العظام ؛ أنه إقامة الدين لله مخلصاً حنيفاً ثابتاً على ذلك محافظاً عليه إلى أن يتوفاه الله ﷻ على ذلك ؛ هذا هو الإسلام الذي تُنال به فضائله.

قال رحمه الله :

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ ، وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم وَخَلِيلُ رَبِّي ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨] **رواه الترمذي .**

****

قال : ((**وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ**)) ؛ أي أحبة ، لأن الولاية تعني الحب ، والمراد هنا بأن له ولاة : أي له أحبة ؛ الأنبياء لهم مكانه خاصة ولهم مزية خاصة ولا يعني ذلك انتفاء المحبة عمن سواهم . والأنبياء كلهم قد أخِذ عليهم الميثاق بالإيمان بكل رسول يبعثه الله والتزموا بذلك ، ولهذا الأنبياء كلهم على طريقة واحدة ، وعلى منوال واحد ، وعلى سبيل واحد ، وعلى نهج واحد ،كلهم ماضون على مسلك واحد، كلهم دعاة إلى الله وتوحيده ، يجمعهم دين الله والحب فيه والدعوة إليه وبلاغه للناس ودلالة الناس على الخير والحق والهدى . وهنا قال: ((**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ**)) ؛ يعني لهم شأن .

قال: ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم وَخَلِيلُ رَبِّي**)) والله ﷻ لم يتخذ من عباده خليلاً إلا اثنين : إبراهيم الخليل عليه السلام، ونبينا ﷺ . وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)) . فيقول عليه الصلاة والسلام : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ، ونبينا ﷺ من ولد إبراهيم ؛ لأن نسبه يصل إلى إسماعيل بن إبراهيم ، فإبراهيم أبوه ولهذا قال : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) .

((**وَخَلِيلُ رَبِّي**)) ولاحظ تنصيص النبي عليه الصلاة والسلام على الخلة التي ارتبط بها المعنى السابق وهو قوله : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ؛ وهذا يبين أن النبي ﷺ في حبه وفي ولاءه ينطلق من حب الله ﷻ ، فالله اتخذه خليلا فكان من شأنه عليه الصلاة والسلام أن قال : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ، خصه الله ﷻ بالخلة وهي أعلى درجات المحبة وأرفع منازلها .

((**ثم قرأ قول الله** ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾)) ؛ وفي هذا تنبيه على أمرٍ سبق إيضاحه عند المصنف في ترجمة مستقلة وهو أن هذا الباب لا يكفي فيه مجرد الدعوى ومجرد الانتماء ، وكم من أناس على ملل باطلة وأديان زائفة ويدّعون أنهم أوْلى بإبراهيم ، وقد مر معنا قول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:٦٥] ، ومر معنا سبب النزول؛ وأن اليهود قالوا: إن إبراهيم يهودياً ، والنصارى قالوا: إن إبراهيم نصرانياً ، ورد الله ﷻ عليهم وكذّب دعواهم في هذا السياق المبارك . وعقب هذا السياق الذي فيه تكذيب دعوى هؤلاء قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ أولى الناس به ليسو من يدّعون أنهم أولياؤه وأحباؤه وهم على غير ملته وعلى غير دينه وعلى غير الحنيفية التي كان عليها ليسو أولياءه ، وقد قال نبينا ﷺ كما في حديث مر معنا قريبا : ((إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما أوليائي المتقون)) . فهنا فيه تنبيه على هذا المعنى : ((**ثم قرأ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾**)) ، كثيرون من يدّعون أنهم محبون له وأنهم أوْلى به ، اليهود يدّعون ذلك ، والنصارى تدّعي ذلك ، والمشركون الذين بُعث فيهم ﷺ يدّعون ذلك ، كلٌّ يدّعي ولكن الدعاوى ما لم يُقَم عليها بينات فأهلها أدعياء .

قال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ وفي ختم الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنبيهٌ على أن الأدعياء لا حظ لهم من ولاية الله لعبده ، وإنما ولاية الله لعبده تُنال بالإتباع ؛ إتباع ملة إبراهيم الحنيفية السمحة .

قال رحمه الله :

وعن أبي هريرة ﷺ **قال : قال رسول الله** ﷺ : ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ليبين أيضاً المعاني السابقة وليؤكد عليها ، وليوضح أن ولاية الله لعبده وتأييده لعبده وحفظه له ونيل العبد لثوابه وعظيم موعوده لا ينال إلا بتحقيق ما سبق ؛ ولهذا قال هنا في هذا الحديث : ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ لا ينظر إلى الجسم من حيث الطول أو القصر أو البياض أو السواد أو وجود العيب أو السلامة من العيب ، وجود البصر أو عدم وجود البصر ، وجود السمع أو عدم وجوده أو ضعفه ؛ كل الأمور التي تتعلق بالأجسام لا ينظر الله إليها ، وقل ما شئت فيما يختص بالجسم كله ليس محل النظر ؛ لا طول ولا قصر ولا صحة ولا سلامة أعضاء ولا غير ذلك ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ**)) .

((**وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ المال : ما يملكه الإنسان من أموال ، من نقود ، من تجارات ، من مزارع ، من بيوت ، من مركوبات ؛ كلها مال له ؛ فهذه كلها ليست محل للنظر . لا ينظر الله لا إلى الأجسام ولا إلى الأموال ، جسم الإنسان بجميع أجزائه ، وأمواله بجميع أشكالها وأنواعها لا ينظر الله إليها وليست هي محل الاعتبار في التقريب من الله ﷻ ونيل الثواب .

ومعنى قوله ((**لَا يَنْظُرُ**)) ؛ المراد بالنظر هنا نظر الرحمة والإثابة والإنعام والقبول والرضا ، وإلا فالله ﷻ يبصر جميع المبصرات ويرى جميع المخلوقات ، والنظر المنفي هنا : هو نظر والإنعام والرحمة والرضا والقبول والإثابة ، فلا ينظر إليهم ﷻ هذا النظر ؛ ولهذا يكثر في الأحاديث مثل هذا المعنى: ((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))؛ فالمنفي هنا : نظر الإكرام وكلام الإكرام والإحسان ، وإلا فالكفار الذين نُفي الكلام عنهم يقول الله لهم يوم القيامة ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ . هل قوله ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا﴾[المؤمنون:١٠٨] يتنافى مع قوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:١٧٤] ؟ لأن الكلام المنفي كلام الإكرام والرحمة والإحسان والرضا ، والكلام المثبت أمرٌ آخر . فقوله هنا ((**إن الله لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ المراد بالنظر المنفي هنا: نظر الإكرام والإحسان والرضا والقبول .

((**لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) ؛ النظر إلى هذين : إلى القلوب والأعمال ، والقلوب والأعمال –وهذا موضع الشاهد من إيراد المصنف لهذا الحديث– بماذا تصلح ؟ بماذا يصلح القلب وبماذا يصلح العمل ؟ قال: ((**لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) ، فما هو القلب والعمل الذي نال رضا الله ﷻ ؟ أكُلُّ قلبٍ ينال رضا الله ؟ أكُلُّ عملٍ يُنال به رضا الله ؟ حاشا وكلا ، إذاً ما هو الأمر الذي يُصلَح به القلب وتُصلح به الأعمال فينال الإنسان رضا الله ﷻ وثوابه ؟

الجواب في الآيات المتقدمة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ، ومر معنا في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال للرسول عليه الصلاة والسلام ما الإسلام ؟ قال : ((أن تسْلم قلبك لله ، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن

تصلي الصلاة المكتوبة ، وأن تؤدي الزكاة المفروضة)) ؛ فالقلب والعمل لا يصلحان إلا بإقامة الوجه للدين حنيفا ؛ بإصلاح القلب بالتوحيد والبراءة من الشرك ، وإصلاح العمل بالمحافظة على أوامر الله ﷻ.

وتقديم القلب على العمل لأنه أساس قيام الأعمال ، وقد قال عليه الصلاة والسلام منبهًا على عظم شأن هذا الأساس : ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ،وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) ، والأعمال بمجردها لا تُقبل إلا إذا كانت مؤسسة وقائمة على التوحيد والإخلاص لله ﷻ . وقوله في الحديث ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ؛ النية تارة تُطلق ويراد بها ما يميز به عمل عن عمل وفريضة عن فريضة وواجب عن واجب ، وتارةً تطلق ويراد بها الإخلاص لله ﷻ في العمل . فالعمل لا يُقبل إلا إذا أقيم على الإخلاص لله ﷻ وصلح القلب بذلك ، وهو معنى قوله : ((أن تسْلم قلبك لله)) أي مخلِصاً مذعِناً مستسلماً ، ثم الجوارح تكون تبعٌ للقلب ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)).

والعاقل إذا وقف على هذا الحديث وأمثاله من الدلائل في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام يجاهد نفسه على إصلاح قلبه وتزكية نفسه ، يجاهد نفسه على الإخلاص لربه تبارك وتعالى والاستسلام لأمره ، وإتباع نهج رسله عليهم صلوات الله وسلامه ، ويجاهد نفسه على المحافظة على ذلك والثبات عليه إلى أن يلقى الله ﷻ حنيفاً مسلماً ؛ فيرضى عنه ربه ويفوز بثوابه ونعيمه تبارك وتعالى الذي أعده لعباده المسلمين .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ١٣ إلى الدرس ١٦

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٨/٢٦ هـ

الدرس الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما .

قال المؤلف رحمه الله وغفر له وللشارح وللسامعين :

ولهما عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، وليُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ من أمتي حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي ، فيقال: إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ)). ولهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا ، قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ، قَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ ؟ قَالَ أَرَأَيْتم لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ ، فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا)). وللبخاري: ((بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ ، فَقُلْتُ أَيْنَ ؟ قَالَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ ، قُلْتُ وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى ، ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ – فذكر مثله – قال فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ)) .ولهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : ((فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المائدة:١١٧])).

****

هذه الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله هنا في هذا الباب ؛ باب قول الله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم:٣٠] ؛ هذه الأحاديث ساقها رحمه الله لأنها مبيّنة وموضّحة لحقيقة إقامة الوجه للدين ، لأنها مبينة لحقيقة الإسلام وأنه استسلامٌ لله وإخلاصٌ له ﷻ ولزومٌ لشرعه ودينه وثباتٌ على ذلك إلى الممات ، هذه حقيقة الدين ، وقد مر معنا قريباً وصية إبراهيم الخليل ووصية يعقوب عليهما السلام ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴾. فالإسلام إخلاص لله تبارك وتعالى واستسلام له وثبات على ذلك إلى الممات دون تبديل ودون ارتداد ورجوع القهقرى ؛ بل يثبت على ذلك إلى أن يموت على ذلك ويلقى الله ﷻ بذلك .

والمصنف رحمه الله ساق جملة من روايات وأحاديث حوض النبي الكريم ﷺ ليبين من خلالها هذه الحقيقة ، وليشير أيضاً إلى أن فضائل الإسلام وخيراته وبركاته وثماره الدنيوية والأخروية والتي منها الشرب من حوض النبي الكريم عليه الصلاة والسلام شربةً هنيئةً لا يظمأ بعدها الشارب أبداً ؛ هذا كله من ثمار الإسلام والقيام بحقيقة الدين كما أمر الله تبارك وتعالى ، أما المبدِّل ، المغيِّر ، المحدِث، الناكص على عقبيه ، الراجع القهقرى إلى الوراء فهؤلاء لا نصيب لهم من هذه الثمار ، ولهذا ساق المصنف رحمه الله بعض روايات الحوض .

وحديث الحوض كما نص عدد من أهل العلم حديث متواتر عن النبي ﷺ ، وهو من جملة الأحاديث المتواترة ، بل إن عِدَّة الصحابة الذين رووا حديث الحوض عن النبي ﷺ يزيدون على الخمسين صحابياً ، بل قيل يزيدون على الستين كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري، وجمَع روايات الحوض وجمعها غيره من أهل العلم. والحديث والوارد فيه عن النبي ﷺ حديثٌ متواتر ، والحديث المتواتر يأتي في أعلى درجات الصحة في الأحاديث المروية عن النبي ﷺ ، ولو لم يصِلْنا حديث الحوض إلا من طريق واحد من الصحابة لكان كافياً في الإيمان به والتسليم ؛ لأن العقيدة وأمور الدين لا يشترط في أحاديثها أن تبلغ حد التواتر ، بل تؤخذ العقيدة ولو بخبر الآحاد خلافاً لما عليه أهل البدع ، لكن هذا بيان لمكانة هذا الحديث وكثرة عدد الصحابة الذين رووا عن النبي ﷺ هذا الحديث العظيم؛ الحديث المشتمل على ذكر حوض النبي ﷺ .

ومن الأحاديث التي جاءت في ذكر الحوض في الصحيحين وغيرهما أحاديث مشتملة على صفة الحوض ، لأن النبي ﷺ وصف الحوض وصفاً عظيماً يحرك القلوب شوقاً وطمعاً ورغبةً في الورود عليه والشرب منه وأن لا يكون الإنسان ممن يذادون ويردّون عنه ، وصفه بصفات عظيمة فقال ﷺ في وصفه له : ((طوله شهر وعرضه شهر–أي أن طوله وعرضه سواء– ، وماءه أحلى من العسل ، وريحه أطيب من المسك ، ولونه أبيض من الورِق –أي الفضة ، وفي رواية أبيض من اللبن، يعني في غاية البياض، في بعض الروايات في الصحيح: أبيض من الورِق أي الفضة، وفي بعض الروايات أبيض من اللبن –، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا)) يعني إذا شرب من هذا الماء لا يحس بعد ذلك بظمأ ولا يحس بعطش ، وهذه خاصية جعلها الله ﷻ في ذلك الماء العظيم في الحوض المورود الذي يكون في عرصات يوم القيامة .

وقد جاء في بعض الأحاديث أن الكوثر – والكوثر غير الحوض ، الكوثر في الجنة – فيه ميزابان يشخبان ؛ أي يصبان في حوض النبي ﷺ . ولهذا يأتي أحياناً إطلاق الكوثر على الحوض لا لكونه هو الحوض ؛ وإنما لكون الماء الذي يُصَب فيه هو من الكوثر ، وإلا الحوض في عرصات يوم القيامة والكوثر في جنات النعيم ، والكوثر يُمِد الحوض ويشخب منه ميزابان في الحوض المورود الذي يكون في عرصات يوم القيامة .

والناس كما هو معلوم من الأدلة يقفون في عرصات يوم القيامة موقفاً عظيماً جاء في القرآن والسنة أن مقدار ذلك اليوم خمسين ألف سنة ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[المعارج:٤] ، وهو وقوفٌ طويل ويحصل للناس فيه من العناء والتعب والشمس تدنو منهم خمسين ألف سنة . تأمل وقوفك في الصيف والشمس في كبد السماء وليس هناك هواء بارد يلطف الجو وليس هناك ظلٌ يستظل به الإنسان ؛ كيف يكون عطش الإنسان في مثل ذلك المكان!! في يوم واحد ؛ فكيف بيوم كان مقداره خمسين ألف سنة !! والله ﷻ يكرم أهل الإيمان وأهل الصدق مع الله ﷻ وأهل الصلاح وأهل المحافظة على دينه والبعد عن التبديل والتغيير بأن يظلّهم ﷻ بظل عرشه العظيم يوم لا ظل إلا ظله ، وأيضا جاء في المستدرك وغيره بسند ثابت عن النبي ﷺ أن الله ﷻ يهوّن ذلك اليوم الطويل الذي هو مقداره خمسين ألف سنة على أهل الإيمان فيكون لهم كما بين صلاة الظهر إلى صلاة العصر ؛ كرامةً منه ﷻ لأهل الإيمان . نسأل الله الكريم رب العرش العظيم من فضله .

يرِد الناس في ذلك اليوم الحوض الموروود يبحثون عن الماء ؛ العطش شديد ، والحاجة إلى الماء ماسة جداً ، وأكبادهم جفت تريد ماءً ، فيرِدون إلى الحوض ، وقد جاء في حديث ثابت أن لكل نبي حوض ترِد عليه أمته ، ولنبينا ﷺ حوض مورود تميّز عن غيره ، وقد وصفه النبي ﷺ بصفات مر معنا بعضها ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((كيزانه عدد نجوم السماء)) أي : في الجمال والحسن والكثرة ؛ فهي كثيرة عدد نجوم السماء ، وجميلة أيضا مثل جمال نجوم السماء . فيرِد الناس على الحوض البهي الجميل الحسن طيب الريح طيب الطعم طيب المرأى والمنظر ، يردون في أشد ما يكونون من العطش ثم هناك يذاد عنه أقوام ،لم يُذادون ؟ هذا بيت القصيد أو أساس المقصود من إيراد المصنف رحمه الله لأحاديث الحوض ، أساس المقصود هنا : أن يحقق الإنسان في حياته الدنيا حقيقة الإسلام ويجاهد نفسه على معرفة حقيقة الإسلام وتطبيقها والعمل بها والثبات عليها إلى الممات؛ حتى يكون يوم القيامة من هؤلاء الذين يمنّ الله ﷻ عليهم بكرامته فيرِدون حوض النبي عليه الصلاة والسلام دون أن يذادوا عنه.

والأحاديث التي ذكر فيها النبي ﷺ حال من يذادون عن الحوض تخيف المؤمن العاقل ، من الذي يرضى لنفسه أن يرِد إلى الحوض وهو في أشد العطش وأشد ما يكون حاجة إلى الماء ثم يُطرد ويذاد ويُبعد ويؤخذ به إلى النار؟! ولهذا أورد المصنف رحمه الله هذه الأحاديث في هذا الباب الذي فيه بيان إقامة الوجه لله ﷻ نصحاً لعباد الله حتى يجتهد العبد ما دام على قيد الحياة ومادام في الأمر مهلة وسعة وفي الأمر مجال أن يجاهد نفسه على معرفة الإسلام ومعرفة حقيقته ويجاهد نفسه على العمل به وتطبيقه حتى ينال هذه الكرامة العظيمة فيشرب من حوض النبي ﷺ ، ثم تتوالى عليه الخيرات والنعم والبركات متوّجةً بدخول جنات النعيم ، وأعظم ذلك رؤية الرب الكريم ﷻ ولذة النظر إلى وجهه وهذا أكمل نعيم ؛ فهذا كله يحتاج من العبد إلى مجاهدة نفسه على معرفة الإسلام وتكميله والبُعد

عن نواقصه ونواقضه ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣] ، ((لَيْسَ الإِيمَان بِالتَّمَنِّي وَلاَ بِالتَّحَلِّي، وَلَكِن الإِيمَان مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَال)) ؛ ليس الإيمان كلمة تُدَّعى ولا أمنية ترتجى؛ الإيمان حقيقة تقوم في قلب المؤمن يتبعها عملٌ وجدٌّ واجتهادٌ واستسلامٌ لله ﷻ وطواعية وامتثال لأمره وثباتٌ على ذلك إلى أن يلقى المؤمن ربه ﷻ غير مبدِّل ولا مغيِّر كحال من قال الله ﷻ في شأنهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣] ، لا يغيِّر في الدين وإنما الذي يُطلب منه إقامة الدين بحقيقته التي أُرسل وبُعث بها رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

حقيقةً هذه الأحاديث مفيدة جداً في هذا الموضع غاية الفائدة ؛ حتى يتنبه العاقل ويتبصر ويتفكر في هذا الأمر قبل أن يفوت الفوات ؛ مادام في الوقت سعة وعنده مهلة يتعلم ويتفقه ويحقق إسلامه فهذه فرصة كما يقال لا تعوَّض ولا تُقدَّر بثمن ، فوجب على العاقل أن تفتح له أمثال هذه الأحاديث أبواباً في الهداية والاستقامة وإقامة الدين والمحافظة على طاعة رب العالمين والبعد عن البدع والأهواء والضلالات والانحرافات وشغْل الأوقات بطاعة الله ﷻ بما شرع مخلصاً له ويجاهد نفسه على الثبات على ذلك إلى أن يلقى الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله : ((**ولهما**)) أي البخاري ومسلم ((**عن ابن مسعود** ﷺ **قال: قال رسول الله** ﷺ : **أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ**)) ؛ فرطكم : أي سابقكم إليه ومتقدِّمكم إليه ومن يصل إليه أولاً . فالنبي ﷺ يصل الحوض أول الناس ؛ فهو فرَط الناس إلى الحوض صلوات الله وسلامه عليه ، ثم يأتي بعد ذلك الناس تِباعاً يرِدون الحوض للشرب منه بحثاً عن الماء وطلباً لدفع العطش والظمأ فيذهبون إلى الحوض ، والنبي ﷺ قد سبقهم إليه .

قال: ((**وَلَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ من أمتي**)) يعني يتقدمون إليه ويأتون إلى حوضه من أجل الشرب .

قال: ((**حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي**)) يعني أخِذوا عني وصُرفوا عني ؛ حتى إذا أهويت: يعني جاؤوا إليه ﷺ ليشربوا من الماء وإذا أهوى أي بيده للحوض ليغترف لهم منه ولينالوهم من ماءه ليشربوا اختلجوا أي ذيدوا كما في بعض الروايات وأبعدوا عنه ﷺ .

((**فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ**)) يعني يا رب ((**أَصْحَابِي**)) يعني هؤلاء أصحابي لماذا يُذادون عن الحوض ؟ ولماذا يُحرمون من الشرب من الحوض ؟

((**فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) وهذا فيه أنه ﷺ لا يعلم الغيب ، فهؤلاء النفر الذين صحبوا النبي ﷺ ثم يحصل لهم هذا الذود عن حوضه ويعرفهم عليه الصلاة والسلام ، قيل يعرفهم بأشخاصهم لأنه رآهم ، وقيل يعرفهم بعلاماتهم ؛ كما يأتي في بعض الروايات بأثر الوضوء ((غراً محجلين عليهم أثر الوضوء)) ، ومعنى ذلك أنهم

يصلّون وأثر الصلاة عليهم ظاهر ومع ذلك يُذادون عن الحوض ، فيقول ((أي رب أصحابي)) وفي بعض الروايات ((أصَيْحَابي)) بالتصغير ، وقد قال العلماء : التصغير هنا يعني تقليل العدد . فهؤلاء قلة عدد قليل من الذين كان لهم صحبة ثم حصل منهم بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام ارتداد عن دينه ونكوص على العقبين أي القهقرى إلى الوراء ، ووجود الردة أمرٌ معروف بعد موته ﷺ من بعض الذين كان إسلامهم على طرف ، قال الله ﷻ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج:١١] ، فبعضهم يكون إسلامه على طرف وأدنى شيءٍ يغيّره ، فمن كان على هذه الشاكلة أسلم وإسلامه على طرف وبعد موت النبي عليه الصلاة والسلام حصل له ارتداد عن الدين ونكوص على العقبين فهؤلاء يُذادون ، وهم عدد قليل بالنسبة للصحابة عموماً . وقد أجمع أهل العلم قاطبة من أهل السنة والجماعة أن هؤلاء ليس فيهم واحد من المهاجرين والأنصار وأعيان الصحابة الذين لهم المواقف المشهودة والأعمال المشهورة ممن شهدوا بدراً وأُحُداً وشاركوا النبي ﷺ في بيعة الرضوان وأخبر رب العالمين أنه رضي عنهم وكان عددهم كبيراً ؛ فليس من هؤلاء واحد ، وإنما هؤلاء الذين حصل فيهم الارتداد أناسٌ حدثاء عهد بإسلام ، وإسلامهم كان رقيقا وعبادتهم لله ﷻ كانت على طرف ، وهم عدد قليل مقارنة بجموع الصحابة وأعداد الصحابة الذين هم خير أمة أخرجت للناس أخبر عنهم رب العالمين بذلك ، والذين هم خير القرون أخبر عنهم عليه الصلاة والسلام بذلك ، وإنما المعني بهذا أناسٌ قلائل ربما رأى الواحد منهم النبي ﷺ المرة أو المرتين فحصلت له الصحبة بالرؤية والإسلام ، ولكن كان إسلامه على طرف وعلى ضعف وعلى رقة في الدين ، ولما مات النبي عليه الصلاة والسلام ارتدوا بعده ﷺ ؛ فيعرفهم لأنه رآهم ولكنه لا يدري ماذا حصل منهم بعد مماته عليه الصلاة والسلام .

وقوله: ((**فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) ؛ فيه التكذيب لقول من يقول إن النبي ﷺ يعلم الغيب ، وبعضهم يقولون إنه حاضر ناضر ويعلم ما في الصدور ، إلى غير ذلك من الضلال بل من الكفر ، لأن من زعم أن النبي ﷺ يعلم الغيب فهو كافر بالقرآن ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[النمل:٦٥] ، الله ﷻ مختص بالغيب ، وهنا قال: ((**إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . ولهذا قوله ((**فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) فيه دلالة على أن من قال "إن النبي ﷺ يعلم الغيب" ممن أحدثوا بعده حدثاً عظيماً يتعلق بالاعتقاد يترتب عليه فساد العبادة . ولننتبه لهذا – لأن من ادّعوا في حقه ﷺ أنه يعلم الغيب تعلقت قلوبهم به تعلقاً لا يكون إلا بالله ﷻ ، فتوجهوا إليه برغباتهم وطلباتهم وعرضوا عليه حاجاتهم وطلبوا منه المدد والعون وغير ذلك ؛ وهذا كله مبني على أمثال هذه العقائد الباطلة ، فهذا كله داخل تحت قوله : ((**لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) لأن هذا من الحدث في دين الله المتعلق بالاعتقاد المترتب عليه فساد السلوك والعمل .

قال: ((**فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) ؛ قلت وأؤكد أن هذا – وهو أمر أجمع عليه أهل العلم قاطبةً من أهل السنة والجماعة – لا يتناول خيار الصحابة وأئمة الأمة وسلف الأمة من المهاجرين والأنصار ، فليس في هؤلاء واحد ممن شهد بدراً ولا ممن شهد أحُداً ولا ممن شهدوا بيعة الرضوان ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] ورضاه عنهم بقي وحْي يُتلى في كتاب الله ﷻ يخبر ﷻ عن رضاه عنهم ، فكل هؤلاء ليس منهم واحد يتناوله هذا الذود ، وإنما يتناول هذا الذود نفراً قليلاً وعدداً يسيراً بالنسبة لعموم الصحابة ممن كان إسلامهم –كما قدمت– على حرف وعلى طرف .

ومع هذا كله فإن أقواماً ابتلوا – والعياذ بالله – بارتكاس القلوب وانتكاس العقول وقلَبوا الحديث قلباً ، فجعلوا الحديث منصبّاً على خيار الصحابة ؛ بل جعلوا – والعياذ بالله – في مقدِّمة من يذادون أفضل الصحابة وهو صديق الأمة ﷺ الذي لا يوجد أحدٌ في الصحابة نُصَّ على لفظ صحبته في القرآن إلا هو ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ [التوبة:٤٠] ، لا يوجد أحد من الصحابة حظي بمثل هذا صديق الأمةﷺ فجعلوه في مقدمة من يذاد ومعه عمر ومعه عثمان ومعه خيار الصحابة ولم يستثنوا منهم إلا سبعةً أو تسعةً أو عدداً قليلاً يعد على أصابع اليد الواحدة والبقية كلهم يذادون ، ويصفونهم بأنهم أحدثوا وبدّلوا وارتدوا ، ويقولون إن الصحابة ارتدوا إلا نفر قليل: علي وسلمان وعدد قليل ، والله ﷻ في القرآن قال : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠] هؤلاء أخبر الله ﷻ برضاه عنهم ، بل إنه ﷻ زكّاهم تزكيةً عظيمة في التوراة والإنجيل قبل أن تدرج أقدامهم على الأرض وقبل أن يطئوا الأرض ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ [الفتح:٢٩] هذه تزكية لهم في التوراة قبل أن يمشوا على الأرض، زكاهم رب العالمين ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ هذه تزكية لهم في الإنجيل قبل أن يوجدوا. زكاهم رب العالمين في التوراة ، وزكاهم تبارك وتعالى في الإنجيل ، وتُليت تزكيتهم في التوراة والإنجيل رِدْحاً من الزمان ، ثم نزلت تزكيتهم في القرآن وذكر رب العالمين في القرآن رضاه عنهم ؛ ثم يأتي أقوام ويدّعون أنهم ارتدوا عن الدين وأنه لم يسلم منهم إلا قلة قليلة !! هذا – والعياذ بالله – ارتكاس في القلوب وانتكاس في العقول ، ولهذا ابن كثير رحمه الله في تفسيره لما أشار إلى هذه المقالة قال : «وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُقُولَهُمْ مَعْكُوسَة وَقُلُوبَهُمْ

مَنْكُوسَة» ؛ يعني لا يقول هذا أحد عنده قلب سليم وعنده عقل مستقيم إلا إذا ارتكس القلب وانتكس العقل ، وإلا شخصٌ عنده قليل من عقل لا يمكن أن يقول هذه المقالة.

والوقيعة في الصحابة والطعن فيهم ليس مختصاً بهم بل هو طعنٌ في دين الله ، الصحابة هم نقلة الدين ، هم الذين نقلوا لنا دين الله ، الدين كله عرفناه من طريقهم ، فإذا طُعن فيهم يكون الطعن في الناقل طعن في المنقول ، ولهذا قال أبو زرعة الرازي رحمه الله : «إذا رأيتم الرجل ينتقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ فاعلموا أنه زنديق لأن القرآن حق والدين حق وإنما أدى إلينا ذلك الصحابة – هم الذين بلغونا هذا الدين – وهؤلاء أرادوا أن يجرحوا شهودنا فهم بالجرح أولى فهم زنادقة» ، فالجرح في الصحابة والطعن في الصحابة طعن في الدين ذاته.

ثم تجد هؤلاء يستغرب بعضهم يقولون عن أهل السنة أنهم يروون هذا الحديث حديث الحوض وأنه يذاد نفر عن الحوض والنبي ﷺ يقول ((أصحابي أصحابي)) !! يقولون إن أهل السنة يروون هذا الحديث!! نعم نروي حديث الحوض ونعرف من المعني به ؟ وهو حديث متواتر رواه عن النبي ﷺ أكثر من ستين صحابيًا وليس فيهم من كان من هؤلاء ؛ أعيان وخيار الصحابة وأفاضل الصحابة وأماثل الصحابة ورووا الحديث ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ، كانوا من أشد الناس خوفاً من التبديل وإنكاراً له ورداً للبدع ، ومن يقرأ تاريخهم المجيد ومآثرهم العظيمة يجد بلاءهم الحسن في نشر السنة وبيان الدين ورد البدع وبراءتهم من المبتدعة وأهل البدع وأهل الضلال ، وكم من مرة يعلنون البراءة ((أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَهُمْ بُرَآءُ مِنِّي)) ، يعلنون ذلك في مواقف كثيرة جداً ، وبدايات البدع وُجدت في زمانهم فتبرؤوا منها ، فأصول البدع وبداياتها وُجدت ووجد منهم البراءة منها ، كانوا على الإسلام الخالص وبدأت تظهر البدع وكانوا كلما ظهرت بدعة تبرءوا منها ، ثم يأتي الموغلون في الابتداع والإحداث ورجوع القهقرى فيرمون الصحابة بما هم حقيقةً واقعون فيه –أي هؤلاء المحدثون–!! وانطبق عليهم قول القائل "رمتني بدائها وانسلّت" .

فالشاهد أن هذا الكلام يعني أفراداً قلائل كان في إسلامهم رقة وكانوا حدثاء عهد بإسلام وحصل منهم ارتداد بعد موت النبي ﷺ .

ومن مناقب أبي بكر الصديق ومآثره العظيمة : حرب المرتدين ؛ ويزعم هؤلاء أنه زعيم المرتدين ومقدَّم المرتدين!! ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤] ، أبو بكر هو الذي كان من مناقبه العظيمة في خلافته حرب المرتدين ؛ حاربهم وصمَد في محاربتهم وكان له مواقف عظيمة جداً قال: ((وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ)) . وأبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه ليسو أفضل هذه الأمة فقط ؛ بل هم بشهادة نبينا ﷺ أفضل أمم الأنبياء كما جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال : ((أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ)) ، فيأتي في الدرجة الأولى بعد الأنبياء أبو بكر وعمر في الأمم كلها ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ . ونحن نرجو

الله ﷻ ونسأله أن يحشرنا مع أبو بكر ومع عمر ومع عثمان ومع هؤلاء الخيار في زمرة النبي ﷺ وصحابته الكرام الذين نشهد بالله ﷻ أنهم ما بدلوا تبديلا ، كما قال الله ﷻ ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾.

ثم قال رحمه الله : ((**ولهما عن أبي هريرة** ﷺ **أن رسول الله** ﷺ **قال: وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا ، قَالُوا** -أي الصحابة- قال ((**أَنْتُمْ أَصْحَابِي**)) .

انتبه هنا ؛ النبي ﷺ يقول ((**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**)) والصحابة حوله ، قالوا : ((**أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟**)) ، أصحابي وإخواني أي الدرجتين أعلى ؟ درجة الصحبة ؛ الصحبة فيها صحبة وأخوّة ، ولهذا قالوا ((أولسنا إخوانك؟)) هم إخوان النبي ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] ، فقال ((**أَنْتُمْ أَصْحَابِي**)) ، فهؤلاء لهم درجة الصحبة ونصرة النبي وأخْذ الدين منه ورؤيته ﷺ ، وهذه منقبة لا يشاركهم فيها أحد ، كل مَن جاء بعدهم مهما بلغ في الإيمان والعلم لا يبلغ رتبة الصحابة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام :((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)) ، فمن بعدهم لا يبلغ رتبتهم ، وقد منّ الله ﷻ عليهم وأكرمهم بما لا يكون لغيرهم من نصرة وهجرة ونشر للدين ودعوة إلى دين الله ، وكل من جاء بعد الصحابة للصحابة حظٌ من حسناته لأنهم نقلوا الدين لمن بعدهم ، مر معنا الحديث: ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ)) ، هذا العلم الذي سمعناه الآن وصل لابن مسعود أجر ، ووصل لأبي هريرة أجر، وكل صحابي ننقل حديثه ويبلغنا حديث النبي ﷺ من طريقه له أجر في ذلك ؛ لأن ((الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ)) ، ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))

((**قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي**)) وهذا فيه تفضيل الصحابة وتشريفهم ، والأمر واضح.

قال: ((**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**)) ؛ أريد أن نقف هنا وقفة قبل المواصلة في هذا الحديث لنربط بين هؤلاء الإخوان الذين قال عنهم النبي ﷺ ((لم يأتوا بعد)) وبين الأصحاب الذين هم مع النبي ﷺ جنباً إلى جنب؛ اقرأ الرابطة في سورة الحشر ، وصف الله ﷻ الذين يأتون بعد بقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠] هذه حلية الإخوان الذين قال عنهم هنا عليه الصلاة والسلام : ((**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**)) ، ما علامتهم ؟ قال رب العالمين في ذكر علامتهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ فمن كان في قلبه غل على الصحابة ويلهج بلعنهم والطعن

فيهم والوقيعة فيهم هل هو داخل تحت قوله ((**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**)) ؟! حاشا وكلا ؛ لأن رب العالمين ذكر علامة لهؤلاء الذين يأتون بعد ، لما ذكر المهاجرين وذكر بعدهم الأنصار ذكر الذين يأتون بعد قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي علامتهم وحليتهم وزينتهم وصفتهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؛ فلهم سمتان : الأولى تتعلق بالقلب ، والثانية تتعلق باللسان ؛ أما القلب فسليم ، قلوب هؤلاء سليمة ليس فيها غل وليس فيها حسد وليس فيها ضغينة وليس فيها امتلاء ضد الصحابة الأخيار ، قلوب سليمة نقية تجاه الصحابة وتجاه المؤمنين السابقين .

والصفة الثانية: سلامة اللسان ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ؛ ليس في ألسنتهم إلا الترحم والاستغفار والدعاء ، وليس في قلوبهم إلا المحبة والصفاء والنقاء ، فالقلوب نقية والألسن نظيفة ، القلوب ليس فيها تجاه الصحابة إلا محبة ، والألسن ليس فيها تجاه الصحابة إلا الدعاء والاستغفار ، أما من إذا ذُكر عنده أبو بكر وعمر استوحش كأنه ذُكر عنده أشد أعداء الدين ؛ بل بعضهم يستوحش من ذكر أبي بكر وعمر أشد من استيحاشه من ذكر إبليس!! هل هذا يدخل ؟ لا والله ، هيهات أن يدخل .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ وهذه دعوة ينبغي أن يُكثر منها المسلم ، لأن الله أثنى على هذه الدعوة ، وجاء في هذه الدعوة فضائل ، الله قال لنبيه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد:١٩] ، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة)) ، فأنت إذا دعوت بهذه الدعوة التي في الآية ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ كم لك من حسنة ؟ إذا أردت أن تعرف الجواب فكم إخوانك الذين سبقوك بالإيمان !! هذا هو الجواب ، فبعددهم لك بكل واحد حسنة ، وهل قولك ﴿ إِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ يختص بأمة محمد أو يشمل ؟ فلك من زمن آدم إلى ما شاء الله من الحسنات في كلمة واحدة ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ، فانظر الأجور العظيمة التي يكسبها سليم القلب سليم اللسان، وانظر إلى الآثام المتراكمة التي يكتسبها من يقع في الأماثل الأخيار صدر الأمة وخيارها .

وحقيقةً ؛ من يقع في الصحابة بالثلب والسب لا يضر الصحابة شيئاً ؛ بل إن الصحابة يحصِّلون من وراء ذلك أجوراً، أشارت إلى هذا المعنى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما بلغها عن نفر يتكلمون في بعض الصحابة فقالت : «إن الله لما قطع عنهم العمل – يعني الصحابة بالموت – أحب أن لا ينقطع عنهم الأجر» ، ويبين هذا المعنى الذي تشير إليه عائشة رضي الله عنها الحديث المعروف بحديث المفلس يقول فيه ﷺ للصحابة : ((أَتَدْرُونَ

مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)) ؛ فهذا المفلس حقيقةً من يأتي يوم القيامة بهذه الصفة ، وأيُّ إفلاس أشد وأفظع من أن يكون السب للخيار !! إذا كان سب آحاد المسلمين يترتب عليه هذا الأمر فكيف بسب سادات المتقين من الصحابة الأخيار الذين أثنى عليهم رب العالمين وزكاهم وعدّلهم وأثنى عليهم رسوله الكريم ﷺ وزكاهم وعدلهم صلوات الله وسلامه عليه !! إذاً هذا يبين لنا الرابطة بين الإخوان والأصحاب .

قال: ((**أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ، قَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ؟**)) واسمع هذا المثال العجيب من الناصح عليه الصلاة والسلام ((**قَالَ: أَرَأَيْتم لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**)) ؛ الخيل الغر : التي في نواصيها بياض ، والمحجلة : التي في أطرافها في يديها وقدميها بياض . ففي طرف القدم بياض وفي طرف اليد بياض والناصية بيضاء . يقول أرأيتم لو أن رجلا عنده خيل غر محجلة ثم دخلت في خيل دُهمٍ بُهم يعني خيل سوداء بُهم ليس فيها شيء من البياض ولا قطعة يسيرة هل يميز خيله أو لا يميزها ؟! واضحة تماماً .

وهنا اختار النبي ﷺ هذا المثال لأن له ارتباط ، لأن أهل الإيمان وأهل الصلاة يأتون غراً محجلين من أثر الوضوء ؛ فيأتون يوم القيامة الوجه أبيض والأيادي بِيض والأقدام بيض من أثر الوضوء ، من أثر الوضوء غراً محجلين فيأتون بهذه العلامة فكيف لا يُعرفون وكيف لا يميَّزون والعلامة ظاهرة !! وكان عليه الصلاة والسلام قد قال في حديث صحيح ((وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)) ؛ وهذا فيه محافظة على الوضوء الكامل للقدم ولليد ؛ حتى إنه رأى في عِقب رجل قطعة من البياض ما وصلها الماء –وهذا يؤثر على التحجيل– فقال: ((وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)) ؛ فإذا كان ﷺ رأى في عقب رجل ولم ينتبه لذلك دائرة صغيرة لم يصلها الماء فقال ((وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)) ، فكيف بمن إذا أراد أن يتوضأ لا يأتي إلا بقليل من الماء ويمسح على طرف قدمه من أعلى ولا يصل قدمه ؟ ثم يأتي هذا الذي يفعل هذا الأمر ويقول إن الصحابة ارتدوا وأنهم يذادون عن الحوض !! فهذا كله مما يوضح الانتكاس في العقول والارتكاس في القلوب وقلب الحقائق عياذاً بالله تبارك وتعالى . وعلى كل حال هذه علامة واضحة ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الإخوان الذين يأتون بعد .

قال: ((**قَالُوا بَلَى**)) يعني لما ذكر النبي ﷺ هذا المثال قالوا بلى ؛ يعني يميزهم ، إذا كانت الخيل بهذه الصفة سهل التمييز .

((**قَالَ فَإِنَّهُمْ** – وهذا توضيح للأمر – **يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ**)) ؛ وهذا فيه أهمية المحافظة على الوضوء ، والوضوء تحافظ عليه لماذا؟ للصلاة ، ففيه أهمية المحافظة على الصلاة وحسن الإقبال على الله تبارك وتعالى وأن

يحسن الإنسان وضوءه وأن يحسن صلاته ويحسن إقباله على عبادة ربه ﷻ، والوضوء من أجل إقامة الصلاة وصلاة بلا وضوء غير مقبولة ، فالإنسان يحسن وضوءه ويحسن صلاته ويحسن إقباله على الله ﷻ ليكون من هؤلاء الذين يأتون بهذه العلامة العظيمة ويكرمهم الله ﷻ بالشرب من حوض النبي عليه الصلاة والسلام .

هنا فيه : وضوء ، وصلاة ، وحوض ، وغر محجلين ، ولعل فيه ارتباط ؛ جاء في المستدرك للحاكم بسند صحيح عن أنس بن مالك ﷺ قال : «لقد تركت بعدي عجائز ما تصلي واحدة منهن صلاة إلا سألت ربها أن يوردها حوض محمد ﷺ» ؛ وفيه ارتباط ، أنت الآن لما تصلي وتُقبِل على وضوئك وتستحضر هذه المعاني تشتاق ، والوضوء هذه علامة لأهل الإيمان ، فيجتهد الإنسان في تكميل وضوءه وتتميم صلاته ونفسه مقبِلة ، فلعل هؤلاء النسوة من الصحابيات ومِن غيرهم ممن تركهن أنس في المدينة على هذه الحال لا يصلّين صلاة إلا سألن الله ﷻ أن يوردهن حوض النبي ﷺ لأنها معاني مترابطة . الصلاة نفسها صلة بين العبد وبين الله ، ويؤديها لينال كرامته عند الله ﷻ ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام في صلاته كما في حديث عمار بن ياسر يقول : ((اللهم إني أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)) ، فالصلاة بطهارتها ووضوءها وحسن إقامتها تجلب للإنسان خيرات وبركات في الدنيا والآخرة ، وفيه ارتباط بين الصلاة وبين الثمرات التي تنال يوم القيامة .

قال: ((**وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**)) : أي أنا السابق إليه والمتقدم إليه .

((**أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ ، أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا**)) هنا لاحظ ؛ ((**أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ**)) يؤخذ من هذا الحديث أن الذود الذي يحصل ليس مختصاً بأولئك القلة الذين صحبوا النبي عليه الصلاة والسلام ثم حصل منهم ارتداد ؛ بل من وقع منه هذه المعاني فله هذا الوعيد وله هذا الحكم . هناك قال: ((أصحابي)) ، وهنا قال: ((ليذادن رجال)) ، وقال ذلك بعد ذكره للإخوان الذين يأتون بعد الصحابة ، فقال: ((**لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ**)) فهذا نستفيد منه وكذلك من الحديث الآتي بعده : أن الأمر الذي هو الذود عن الحوض ليس مختصًا بأولئك القلة من الصحابة الذين حصل لهم ارتداد بعد موت النبي ﷺ بل يتناول أيضا أناسٌ فيما بعد يحصل منهم مثل هذا الأمر ويحصل لهم التخلي عن الدين والانصراف عنه إلى حيث الشرك والضلال وعدم الاستسلام لله ﷻ وإخلاص الدين له ، ينصرفون إلى هذه الأمور فينطبق عليهم قوله: ((**فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ**)) .

فيقول: ((**سُحْقًا سُحْقا**)) ؛ الذي يقول هذه المقالة هو الذي وصفه الله بقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ؛ فيقول ((**سُحْقًا سُحْقا**)) وهذا يدل على الحرمان العظيم الذي يتبوأه من أحدث وبدّل في دين الله ﷻ .

ثم أورد رحمه الله بعد ذلك حديث النبي ﷺ في صحيح البخاري ، قال عليه الصلاة والسلام : ((**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ ...**)) الخ .

قال: ((**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ**)) الحديث جاء في صحيح البخاري في كثير من النسخ ((بينما أنا نائم)) ، وجاء في رواية الكشميهني لصحيح البخاري ((بينما أنا قائم)) ، يقول الحافظ ابن حجر في فتح الباري : أن هذه الرواية ((بينما أنا قائم)) – بالقاف وليس بالنون – أوجه ؛ لأنها تشير إلى أن النبي ﷺ بينما هو قائم أي على الحوض . وتوجيه رواية ((بينما أنا نائم)) أي أنه ﷺ أُرِي في منامه ما سيكون يوم القيامة على الحوض ، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله اختار هنا رواية الكشميهني ((بينا أنا قائم)) لأنها الرواية التي قال عنها الحافظ ابن حجر أوجه من رواية ((بينما أنا نائم)) ، ومعنى ((بينما أنا قائم)) : أي قائم على حوضي .

قال: ((**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ**)) ؛ والزمرة هي الجماعة ، ومعرفته لهم تكون بالعلامة التي مرت معنا قريبا ؛ غرٌّ محجلين يعني من أثر الوضوء .

حتى إذا عرفهم بهذه العلامة ((**خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ**)) ؛ بين النبي ﷺ وبين هؤلاء الذين هم مقبِلون عليه وعلى حوضه ، فيخرج رجل من بين النبيﷺ وبين هؤلاء وقد ذكر أهل العلم أن هذا ملَك يكِل الله ﷻ إليه هذا الأمر ، فهم مقبلون عليه وهو يرتقب وصولهم إليه عليه الصلاة والسلام بينا هم على هذه الحال إذ خرج رجل من بينهم يعني جاء رجل في الوسط بين النبي ﷺ وبين هؤلاء ؛ ماذا يصنع هذا الرجل ؟

((**فَقَالَ** – يعني هذا الرجل– **هَلُمَّ**)) ؛ اقتربوا الآن من الحوض ما بقي إلا قليل ويصلوا إليه ليشربوا منه شربة من يد النبي ﷺ لا يظمأ بعدها الشارب أبداً ويخرج هذا الرجل بينهم وبين النبي ﷺ فيقول لهم هلم يعني تعالوا.

((**فَقُلْتُ : أَيْنَ ؟**)) النبي ﷺ يقول للرجل أين ؟ يعني أين تذهب بهم ؟

((**قَالَ : إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ**)) ويحلف بالله ، يعني سآخذهم إلى النار .

((**قُلْتُ : وَمَا شَأْنُهُمْ ؟**)) ؛ لأن النبي عرفهم وعليهم العلامة ((حتى إذا عرفتهم)) فيقول : ((وما شأنهم؟)) يعني لماذا إلى النار والله ؟ لماذا تأخذهم إلى النار ؟ وقد عرفهم عليه الصلاة والسلام ورأى فيهم العلامة !! فيقول إلى النار والله !! فيقول ﷺ وما شأنهم ؟

((**قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى**)) يعني إلى الوراء رجعوا .

((**ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ؛ فذكر مثله**)) يعني زمرة ثانية ؛ ((ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلم فقلت أين ؟ قال إلى النار والله قلت وما شأنهم ؟ قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى)) .

((**قال فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ**)) ؛ لا يخلص : أي لا ينجو منهم إلا مثل همل النعم . وهاتان الزمرتان الذين قال ﷺ ((فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ)) يعني إلا قلة ؛ همل النعم : يعني النَّعم الضالة،

الهمل التي ليس لها راعي ، الضائعة ، فلما تقارن همل النعم بالنَّعم نفسها تجد عدد قليل ، قال ((فلا ينجو منهم إلا مثل همل النعم)) .

أحد المعاصرين في قلبه غل على الصحابة وتكلم كلام قبيح جداً في حق الصحابة ، ولما جاء هذا الحديث بدّله ليُروي غلّه على الصحابة فغيّره وقال : "روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال :لا يخلص منكم إلا مثل همل النعم" ، وقال : هذه شهادة من النبي ﷺ أنه لا يخلص ، فغيّر لفظ الحديث ثم فسره على ما يروي غليله الدفين بالحقد على أصحاب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ فجمع بين حشف وسوء كيلة والعياذ بالله، وهذا بسبب الحقد الذي تظلم به القلوب على أصحاب النبي ﷺ ، وأنت ترى الحديث أمامك قال: ((لا ينجو منهم)) الضمير يعود على الزمرتين ، وهاتان الزمرتان هل هما فقط هم من يرد الحوض ؟ لا ؛ يرِد عوالم على الحوض ، وذكَر هاتين الزمرتين وذكَر هذا الوصف لهم وقال في الحديث: ((إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم))، فالحديث واضح المعنى ولكنه حرَّف لفظه ليطوِّعه في الدلالة على ما في قلبه من حقد دفين ضد أصحاب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . ولو كان المعنى الذي يقوله صاحب هذا الحقد وأمثاله مراداً ؛ هل يقول النبي ﷺ مخاطباً الصحابة ((ليذادن أقوام))؟! – وهذا معنى ألمح إليه ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» وغيره من أهل العلم – لو كان المعنى الذي يعنيه هذا وأمثاله مراداً كان الخطاب بهذا اللفظ " لتذادُن عن الحوض " ، ويقول أيضاً "لا ينجو منكم إلا مثل همل النعم " مثل ما حرّف هذا المحرف. لكن النبيﷺ قال: ((ليذادن أقوام)) ، ((ليذادن رجال)) وألفاظ الأحاديث واضحة المعنى والكلام واضح المعنى .

وعلى كل حال من قرأ هذه الأحاديث وتدبرها تحرِّك في قلبه إيماناً وتفتح له تذكرة وتبصرة وعظة ويبدأ يحاسب نفسه ؛ لأنه لا يرضى إنسان لنفسه هذا الأمر أن يُذاد هذا الذود وأن يُطرد هذا الطرد . لاحظ هذه المعاني : ذود عن الحوض ، ملَك يأخذه إلى النار بعد أن أقبل على الحوض ، والنبي ﷺ يسأل ما شأن هؤلاء ؟ وفي الحديث الآخر يقول ((سحقًا سحقا)) ؛ من الذي يرضى لنفسه أن يكون مع هؤلاء !! فالمصنف رحمه الله أراد هنا أن يبين أن قراءة أحاديث الحوض والتفهم فيها والتعقل لها والتدبر في معانيها يحرك في قلب الإنسان يقظة في فهم الإسلام وحقيقة الإسلام ، والثبات على الإسلام ، والبعد عن الارتداد والنكوص على العقبين ، والبعد أيضا عن الإحداث في دين الله ﷻ ، فإن المحدِث في دين الله على خطر عظيم، لأن في عدد من روايات الحديث قال: ((إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) ؛ فهذا يدل على خطورة الحدث في دين الله ﷻ ، وأنه يجني على الإنسان جنايات بالغة منها هذا الذي يتعلق بالحوض ((إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) .

قال : ((**ولهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : ((فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾**)) ؛ أي أنه ﷺ يقول هذا

الكلام كما يقول ذلك العبد الصالح عيسى عليه السلام ، فلما يرى هذه الحال ويرى هذا الوصف وهو عليه الصلاة والسلام الناصح المشفق ، لكن لما يرى ردة وتبديل ونحو ذلك يقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

أحد التابعين كان إذا روى هذا الحديث وذكر تمامه قال عليه الصلاة والسلام في تمامه: ((إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى)) كان يقول : "اللهم إنا نعوذ بك أن نرتد على أدبارنا أو أن نفتن في ديننا" ، لأن الإنسان إذا فُتن في دينه بالبدعة ربما أوصلته بدعته إلى الكفر ، وقد مر معنا أن البدعة بريد الكفر – والعياذ بالله – . فوجب على الإنسان أن يتقي الله سبحانه وتعالى وأن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على البعد عن البدع ومحدثات الأمور وعن البعد عن الأمور التي تصرف الإنسان وتصده عن دينه ، وأن يجاهد نفسه على معرفة الدين والمحافظة عليه والعمل به وسؤال الله تبارك وتعالى الثبات على الدين إلى الممات ، وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما صح بذلك الحديث ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)) ، وفي بعضها ((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)) ، وكان أيضا من دعائه كما في صحيح مسلم ((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)) .

أسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يمن علينا أجمعين بورود حوض النبي الكريم ﷺ ، وأن نشرب منه شربة لا نظمأ بعدها أبدا ، ونعوذ به تبارك وتعالى من البدع والأهواء والضلالات ، ونعوذ به أن نُفتن في ديننا أو أن نرتد على أعقابنا ، ونسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يهدينا إليه صراطا مستقيما ، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أحباب النبي ﷺ حقا وصدقا ومن أنصاره وأعوانه عليه الصلاة والسلام ، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته وتحت لوائه ، وأن يكرمنا بالدخول معه في جنات النعيم ، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الدرس الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف الإمام رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين :

ولهما عنه مرفوعا : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا ثم قرأ أبو هريرة ﷺ: ﴿ فِطْرَةَاللَّهِ الَّتِي فَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠])) **متفق عليه** .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**ولهما**)) أي البخاري ومسلم ((**عنه**)) أي ابن عباس ((**مرفوعا**)) أي إلى النبي ﷺ .

قال: ((**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**)) هذا أحد ألفاظ هذا الحديث ، وقد جاء بألفاظ متقاربه ؛ منها هذا اللفظ الذي أورده المصنف ، ومنها اللفظ المشهور ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وجاء أيضا بلفظ : ((لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وجاء في بعض الألفاظ ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا يولد عَلَى الْمِلَّةِ)) . والحديث يدل على أن جميع بني آدم يولدون على الفطرة ، على الملة ، على الحنيفية ، على الإسلام؛ كلهم يُفطَرون أي يُخلقون مجبولين على ذلك ، الفطرة : الجبلة التي يُخلق عليها الإنسان ويوجد عليها وهي الإسلام .

وقد دل على أن الفطرة هي الإسلام الآية التي جعلها المصنف رحمه الله عنوانا لهذا الباب ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَاللَّهِ الَّتِي فَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] فوصف الفطرة بأنها الدين ، كذلك بعض روايات هذا الحديث ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْمِلَّةِ)) فهذه رواية مفسِّرة ، كذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال : ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) فقوله «حنفاء» وقوله «عَنْ دِينِهِمْ» هذا يدل على أن الفطرة المراد بها الإسلام ، ولهذا جماهير أهل العلم على ذلك ؛ على أن المراد بالفطرة الإسلام ، بل حكاه ابن عبد البر إجماعاً عن أهل العلم .

فقوله : ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) أي يولد على الإسلام ، يولد على الملة ، يولد على الحنيفية ، يولد على الإخلاص ، يولد على الاستسلام لله ﷻ ، يولد على النفور من الشرك ؛ كل مولود يولد على هذه الفطرة ، وما

يحصل له من تغيُّرٍ وتحول بعد ذلك ليس أمراً ولد عليه وجُبل عليه بل هو طارئ ، فالشرك طارئ على الإنسان وهو تغير في فطرته كما أن الشرك طارئ على البشرية ،كان الناس على التوحيد ، آدم وذريته كانوا على التوحيد لا يعرفون شركاً فُطِروا عليه وجُبِلوا عليه ولا يعرفون شركاً أصلاً ، يولدون على التوحيد وينشئون عليه وليس أمامهم وبينهم شرك ، ثم بعد ذلك اجتهد الشيطان في اجتيال الناس عن التوحيد الذي هو الأصل إلى الشرك الذي هو طارئ ، فكما أن الشرك طارئ على البشرية وليس هو موجودٌ معهم في ابتداء الأمر بل كانوا قروناً على التوحيد ؛ فكذلك الشرك طارئ على فِطَر الناس وعلى آحاد الناس وأفرادهم ، فكل مولود يولد على الفطرة سليماً ؛ فإذا حصل فيه تبدُّل إلى يهودية باطلة أو نصرانية منحرفة أو وثنية مشركة أو غير ذلك من الأديان ، فهذه الأديان المحرفة الباطلة الفاسدة لم تولد مع الإنسان وإنما طرأت عليه بمحيطه ووالديه ومجتمعه ؛ وإلا أصله ناشئ على الفطرة التي هي الإسلام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ)) ، وجاء في بعض الأحاديث ((كُلُّ بَنِي آدَمَ)) هذا ليس مختصاً بأبناء المسلمين ؛ بل كل بني آدم يولدون على هذه الفطرة ، ولهذا قال عن أبناء اليهود في الحديث نفسه : ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)) يعني أبناء اليهود يولدون على الفطرة ، أبناء النصارى على الفطرة ، أبناء المجوس على الفطرة . قال: ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**)) ولم يقل يُسْلِمانه لأنه يولد على الإسلام ، فذكَر الأديان المنحرفة الباطلة التي يحوَّل إليها عن الإسلام الذي فُطر عليه وجُبل عليه .

قال: ((**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**)): أي إلا على الملة كما جاء في بعض الروايات ، والملة هي الإسلام؛ الحنيفية السمحة ، والمراد بالإسلام هنا ليس تفاصيل الإسلام وتفاصيل الشرائع ؛ فهذه لا تُعرف بالفطرة ولا يوصل إليها بالفطَر المجردة ، وإنما المراد بالفطرة هنا : الحنيفية التي هي البراءة من الشرك والإخلاص لله والاعتراف بأنه وحده ﷻ المستحق للعبادة والاستسلام له ﷻ والخضوع ؛ فهذا الإسلام فُطر الناس عليه ، أما تفاصيل شرائع الإسلام فهذه لا سبيل إلى العلم بها إلا من طريق الوحي ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى:٥٢] ، يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ !! وهو عليه الصلاة والسلام ولد على الفطرة ولم يحدث لفطرته أي تغير ، حفظه رب العالمين وسلّمه ، مع أنه عاش في مجتمع عاش على الشرك بالله والتنديد وعبادة الأصنام ولكن الله ﷻ حفظ فطرته وسلّمها ولم يدخل عليه شيء من عقائدهم وشركياتهم ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله : «من قال أن محمدًا ﷺ كان على دين قومه فقد أعظم الفرية» ؛ ما كان على دين قومه ولم يقع في شيء مما وقعوا فيه ، بل بقيت فطرته سالمة ، مع أنه عاش في مجتمع متضمخ بالشرك والباطل إلا أنه حفظه رب العالمين من ذلك فنشأ محفوظة فطرته عليه الصلاة والسلام من الشوائب والانحرافات ، ثم يقول الله ﷻ له: ﴿ مَا

كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ، فما المراد بالإيمان الذي لا يدري عنه عليه الصلاة والسلام حتى نزل عليه الوحي ؛ ونحن عرفنا أن الفطرة هي الإسلام ؟

قال العلماء : تفاصيل الشرائع ؛ الصلاة المكتوبة خمس مرات في اليوم والليلة ، صلاة الظهر أربع ، العصر أربع، صيام شهر رمضان ، إلى غير ذلك من الفرائض ؛ هل للفطرة سبيل أن تعرف هذه التفاصيل ؟! لو خُلي بين الإنسان وبين فطرته لم تحوَّل ولم تبدَّل هل له سبيلٌ أن يعرف هذه التفاصيل بالفطرة ؟ الجواب : لا ليس له سبيل إلى ذلك ، فلا تُعرف تفاصيل الشرائع إلا بوحي الله ﷻ ، ولهذا قال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ . وهذه الآية توضح لنا قوله ﷻ في سورة الضحى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى:٧] ، ليس معنى ﴿ ضَالًّا ﴾ أي على دين قومه ، كما سبق بيان بطلان ذلك من كلام الإمام أحمد رحمه الله، كذلك في كلام غيره من أهل العلم ؛ و إنما المراد بـ﴿ضَالًّا ﴾ : أي عن تفاصيل الشرائع ، فهو عليه الصلاة والسلام لم يهتدِ إليها ولم يعرفها إلا بالوحي الذي نزّله الله تبارك وتعالى على قلبه، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥] ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء:٤٥] كما أمره الله جل وعلا.

قال : ((**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)) هنا ذِكر التحول عن الفطَر كيف يكون ؟ كيف يحصل للإنسان أن يتحول عن فطرته وأن يُجتال عن الدين الذي فطر عليه ؟ بيّن ذلك عليه الصلاة والسلام ؛ قال: ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**)) ، وذِكر هذه الثلاث ليس على سبيل الحصر وإنما على سبيل التمثيل ؛ تمثيلاً للانحراف بأشهر المذاهب والأديان المنحرفة وأبرزها ، وإلا كل الأديان المنحرفة والعقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة حتى أيضا هذا الحديث يتناول المذاهب الفاسدة المنتسبة للإسلام ، فالتحول الذي يحصل للفِطَر والتغيَّر الذي يحصل لها بالعقائد الفاسدة مع بقاء صاحبها منتسباً للإسلام هذا أيضا يتناوله الحديث ، بتحول الإنسان عن فطرته إلى مذهب منحلٍّ فاسد منحرف مصادم للدين الذي بعث به النبي عليه الصلاة والسلام حتى وإن انتسب صاحبه إلى الإسلام فالحديث يتناول ذلك ؛ لأنه داخل في جملة الانحراف عن الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها .

فإذاً قوله: ((**يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**)) هذا خرج مخرج التمثيل وليس الحصر ، وإلا فالأمر يتناول كل إبعادٍ للإنسان عما جُبل عليه العبد ، ولهذا جاء في حديث عياض الذي تقدمت الإشارة إليه وذِكره قال الله تعالى: ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ؛ لاحظ هنا قضية التحول

عن الفطرة ، أو تحديداً لاحظ عوامل التغير عن الفطرة من خلال الحديثين : حديث عياض فيه ((أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ)) ، والحديث الذي معنا في هذا الباب قال : ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ)) ، فهذان عاملان للتحول عن الفطرة : الأول : الشيطان ؛ ولهذا لا يلزم أن تتحول فطرة الإنسان عن التوحيد أن ينشأ بين أبوين يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين ، فقد ينشأ الإنسان في مجتمع مسلم وبين أبوين مسلمين ثم -والعياذ بالله- تجتاله الشياطين عن دينه ، ولا يكون أخذ الدين الباطل من أبويه وإنما أخذه من مصدر آخر.

فإذاً قوله : ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ**)) ؛ ذِكر الأبوين هنا لأنه الأغلب في انحراف من ينحرف ؛ لكونه ينشأ على ما كان عليه أبواه كما قيل: «وَيَنشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا عَلى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ»

فالولد ينشأ يحاكي والده ، ولهذا يقولون "الولد سر أبيه" ، يحاكي والده ويقلد والده في حركته وفي مشيته وفي حديثه وأيضا في قناعته بالخطأ الذي يرتكبه والده ، لأن معزّة الوالد ومكانته في النفس تجعله إما أن يتقبل أخطاء الوالد ، أو يحمل أخطاء الوالد على محامل يرى أنها حسنة وجميلة ، وينشأ على ما عوّده عليه والده ، لأنه ينشأ في هذه الحياة بين هذين الأبوين فيصعب عليه أن يخرج عن الشيء الذي نشأ عليه في البيت الذي نشأ فيه وتربى .

فلأن الغالب في الانحراف والتحول في الفطر على يد الوالدين الكافرين قال: ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)) ؛ وإلا الأقارب أحيانا ، والمجتمع أحيانا ، والوسائل الأخرى للانحراف ؛ هذه كلها عوامل تشكل خطورة على فطَر الناس في حرْفهم عن دينهم وعن الفطرة التي فطرهم الله ﷻ عليها إلى حيث الفساد والضلال والخرافة والانحراف والأوهام ، ولا يسْلم من هذا الانحراف في البشرية إلا القليل ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣]، مع أن الجميع يولدون على الفطرة إلا أن الأكثر ينحرف عنها ولا يسلم إلا القليل ، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص:٢٤] ، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] ؛ فالقليل هو الذي يُكتب لفطرته السلامة .

ولهذا مر معنا قريباً ما يستحب للمسلم أن يقوله كل صباح وكل مساء ؛ استحضار الفطرة وسلامتها ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) وفي المساء يقول : ((أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ..)) ، فيومٌ يصبح فيه العبد على الفطرة السليمة وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين محمد ﷺ وعلى ملة إبراهيم غير مبدّل ولا محرَّف ولا مغيَّر خير يوم ، خير يومٍ للإنسان هو هذا اليوم الذي يكون فيه باقيا على الفطرة لم يتحول ، ويجدد كل يوم هذا الثبات على الفطرة ولزومها وعدم الانحراف عنها؛ ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ)) ؛ وفطرة الإسلام : هي كلمة الإخلاص ، هي دين محمد ﷺ ، هي ملة إبراهيم . وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تبين معنى الفطرة من جهة ، وتبين ضرورة ومسيس الحاجة إلى المحافظة عليها ، وأن المحافظة على الفطرة تحتاج إلى تعاهد يومي ؛ بل تحتاج مبادرة في صبيحة كل يوم أن يستذكر

الإنسان الفطرة ، لا يكفي في موضوع الفطرة أن نجلس يوماً نتذاكر أهميتها وعظيم شأنها وضرورة الحاجة إليها بل لابد من استذكار يومي لها وعناية مستمرة دائمة بها كما يربينا على ذلك هذا الذكر العظيم الثابت عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه .

إذاً عوامل صرف الناس عن الفطرة ليس الأبوان فقط ، وذِكر الأبوين في هذا الحديث لكون ذلك هو الأغلب ، وإلا الأخوال والأعمام والقرابة والجيران والأصدقاء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)) ؛ فالخليل إذا كان فاسداً منحرف الفطرة يحرف من يخالِله ، وسليم الفطرة سليم الدين لا يُنصح بمجالسة من كان منحرفاً لأنه يؤثر عليه .

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ إِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

يؤثّر القرين في قرينه ، ولهذا قال الحسن : "ليس للمرء أن يمشي مع من شاء" ، ولهذا أيضا يقولون : "الصاحب ساحب" لأنه يؤثر في صاحبه. وإذا كان القرين الفاسد يشكِّل خطورة بالغة على قرينه في حرْفه عن فطره فماذا يقال في القنوات الفضائية والشبكات العنكبوتية التي يجلس أمامها بعض الناس وبعض الشباب وبعض الشابات الأوقات الطوال!! وهي تحمل صنوف الفساد وأنواع الشر ثم يجلس أمامها بدون ضابط شرعي وبدون علم يزَع وبدون دين قوي يردع ثم يدخل في مواقع الشبهات ويدخل في مواقع الشهوات وفي الوقت نفسه يريد لنفسه سلامة!!

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ إِيّاكَ إِيّاكَ أَنْ تَبتَلَّ بِالْمَاءِ

لا يمكن لمن يمشي في الوحل ويسير فيه ويريد لنفسه سلامةً ونقاءً !! هذه المخاطرات التي تحصل الآن هي من الروافد والعوامل المخلخلة لفطَر الناس والمزعزعة لإيمانهم والمفسدة لأديانهم والمبدِّلة لأخلاقهم وآدابهم ؛ ولهذا الفطرة تحتاج إلى رعاية وإلى عناية وإلى حفظ حتى تبقى سليمةً من التغيّر والتبدّل والانحراف .

فعندما نقرأ هذا الحديث ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)) لا يقف الإنسان موقفاً خاطئاً في فهمه للحديث ويقول : "الحمد لله أنا في بيت أبواي مسلمان مصليان محافظان يدعوان الله ، وأنا لو مارست هذه الأمور أو وقفت لن تؤثر عليّ لأنني في أبوين مسلميْن ففطرتي لن تتبدل" ؛ هذا فهم مغلوط للحديث ، فذكر الأبوين هنا لأنه الأغلب ، وإلا كم من انحرافٍ حصل لأناس ولدوا بين أبوين مسلمين صالحين ، ومن الشواهد على ذلك في القرآن ابن نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[هود:٤٦] ؛ ابن نوح نشأ عند نوح عليه السلام ، والانحراف الذي حصل لفطرته جاءه من طريق آخر ؛ إما من طريق أمه الكافرة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[التحريم:١٠]

، أو من طريق مجتمعه الذي هو نشأ فيه ، لكن والده ليس نبياً فقط بل من أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعلى رسل الله أجمعين .

فالفطرة تَبدُّلها وتغيُّرها قد يكون من الأبوين هو الغالب ، وقد يكون من طرق أخرى وهي تحتاج إلى رعاية متواصلة وعناية بها مستمرة في كل يوم ، ويرشد إلى ضرورة هذه العناية المتواصلة الذكر والدعاء الذي أشرت إليه والذي يستحب للمسلم صبيحة كل يوم أن يأتي به ، إتيانه به تجديد للفطرة وتذكير للنفس بها وضرورة المحافظة عليها ورعايتها وحفظها من التبدل والتغير .

قال: ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**)) ؛ هذا ضرْب مثال لتوضيح الأمر ، وبالمثال –كما يقولون– يتضح المقال ، والأمثلة تُضرب لتبيين المعاني وجعلها بمثابة الأمور المحسوسة المشاهدة الملموسة ، فولادة الإنسان على الفطرة ثم تغيّره عنها وانحرافه هذا المعنى يوضحه هذا المثال ؛ بحيث تقرأ المثال وكأنك تنظر إلى المعنى الذي يوضَّح لك في هذا الحديث.

قال: ((**كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ**)) ؛ تُنتَج : أي تولد البهيمة .

((**بَهِيمَةً جَمْعَاءَ**)) يعني مجتمعة الأطراف مكتملة الأطراف ، عندما تراها للتو مولودة لا ترى فيها أذناً مقطوعة ولا يداً مقطوعة ولا ذنَباً مقطوعاً ولا عيناً مفقوعة إلى غير ذلك ، ترى أطرافها سليمة أعضائها سليمة ، ثم فيما بعد إذا رأيت في أذنها قطع أو قدمها مبتورة أو ذنبها مقطوع أو نحو ذلك هل هذا أمر وُلدت عليه أم أنه طارئ وله سبب وُجد به ؟

قال هنا في الحديث: ((**حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**)) يعني أنتم الذين يحصل منكم هذا الذي يكون فيها من قطع أذن أو طرف أو قدم أو ذنب أو غير ذلك وإلا هي تولد سليمة .

فهذا مثال ضربه عليه الصلاة والسلام لتوضيح هذا المعنى ، فالمولود يولد على الفطرة أي مجتمِع ليس فيه انحراف ، الانحراف لا يولد معه ؛ سواءً من الانحراف الانحراف العقدي أو كذلك الانحراف الأخلاقي هذا لا يولد مع الإنسان ؛ الانحراف العقدي لا يولد مع الإنسان ، والانحراف الأخلاقي لا يولد مع الإنسان. للتوضيح أقول : الكذب ، الخيانة ، الغش ، التدليس ، الظلم ؛كل هذه لا تولد مع الإنسان، وانظر في أكبر ظالم حي أو مات لم يولد ظلمه معه ، مهما بلغ ظلمه ومهما بلغ غشه ومهما بلغ كذبه هذا كله لم يولد معه ، وُلد على الفطرة ، وُلد لا يعرف كذباً ولا يعرف غشاً ولا يعرف ظلماً ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وهذه الأشياء كلها توجد بعد ، لم تولد معه ، أكابر الظلمة أكابر الفسقة أكابر الكذابين أكابر الغشاشين كل هؤلاء على مد التاريخ ليس منهم واحد وُلدت معه هذه الأشياء بل هي طارئة تطرأ على الإنسان ، ولهذا النبي ﷺ رعى فطر الناس والأطفال حتى في هذه الجوانب ، وجاء عنه النهي ﷺ أن يقال للطفل تعال خذ ولا تعطيه شيء ، وهذه يفعلها كثير من الناس ؛ يريد أن يقبِّل طفلاً أو يداعب طفلاً صغيراً عمره سنة أو سنتين يقبض يده ويقول "تعال خذ" يوهمه أن في بيده

حلوى مثلا أو لعبة ، ويأتي هذا الصغير يريد أن يأخذ ثم يفتح اليد ولا يرى فيها شيئا ، لماذا نهى النبي ﷺ عن ذلك ؟ لأن هذا العمل يحرف فطرة الطفل ويدخل عليها الكذب ، الكذب لم يولد مع الطفل ، الذي ولد معه الصدق ، الذي ولد معه الوفاء ، الذي ولد معه الأمانة ، الذي ولد معه العدل ، وهذه أشياء طارئة وتوجد فيه، الآن عندما ترى طفل ثلاث سنوات أو أربع سنوات أو خمس سنوات – وهذا يوجد أحياناً – وتجده كثير الكذب أو يغش هذه لم تولد معه ، مع أن مدة عمره قصيرة وكذبه كثير ! هذا الكذب الذي عنده لم يولد معه ، فتِّش وترى السبب ؛ إما أب أو أم أو أخت أو خال أو عم أو جار أدخَلوا عليه .

ويعظم انحراف الصغير عندما يزداد تعلقه بالكبير وحبه له ، لأن هذا يفتح له باب القدوة ، فإذا كان والده يكرمه ويحبه ويحسن إليه ثم يرى في والده أخلاقيات فاسدة يتقبلها بسرعة ويأخذها بسرعة عن والده ، وأي خطأ يكون عليه والده يجد له مبررات ، قرأت مرة –وآلمني كثيراً– عن أحد الأطفال رأى لوحة فيها تحذير من الدخان «الدخان داء قاتل يفضي بصاحبه إلى الموت» أو عبارة نحو هذه العبارة ونظر إلى اللوحة ووالده من المدخنين بشراهة ، وهنا وصْفٌ للدخان بأنه داء قاتل يفضي بصاحبه إلى الموت ووالده يدخن بشراهة فقرأ اللوحة وقال : "لكن والدي يدخِّن كويس" ، هذه أشياء تنشأ مغالطات في النفس وتغيرات في داخل الإنسان ، ثم أيضا تحوُّل في المقاييس ووزن الأمور على وفق ما نشأ عليه الإنسان في المجتمع الذي وُجد فيه أو بين الأبوين ، ولهذا عظُمت المسئولية على الأبوين تجاه الأبناء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام مؤكدا هذا الأمر : ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ)) هذه مسئولية ، ومعنى مسئولية : أنه سيقف أمام الله ﷻ ويسأله ، وفي القرآن قال ﷻ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[التحريم:٦] . حِفظ فطَر هؤلاء الصغار وإبعادها عما يلوثها هذه مسئولية عظيمة ، أحيانا يأتي بعض الآباء من باب التوسعة على الأبناء والترفيه إلى غير ذلك من المعاني ويُدخل عليهم أشياء تفسد فطرهم وتجتالهم عن دينهم ثم ينشأ في أبناءه أخلاقيات وعقائد وأنواع من الفساد وهو الذي زرعها لهم بما جلبه إليهم ، وهناك وعيد شديد ثابت عن النبي ﷺ في حق من مات وهو غاش لرعيته ؛ لم ينصح لهم ، لم يجهد لهم في إصلاحهم في إبعادهم عن الانحراف ، فهذه مسألة عظيمة جداً .

وهذا الحديث هو من الأحاديث العظيمة التي تعين الإنسان على موضوع هذا الباب؛ وهو إقامة الوجه للدين ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ لا يتم ذلك إلا بحفظ هذه الفطرة ورعايتها وصيانتها وإبعادها عن كل ما يحرفها .

والعلماء رحمهم الله أخذوا من هذا الحديث فائدة عظيمة جداً وأيضا مُفرِحة مبهِجة في الوقت نفسه للآباء وللمربيين وللدعاة وهي : أن التربية على الإسلام هي بناءٌ على أصل موجود ؛ الذي يربي أولاده على الإسلام يبني على أصل موجود ، أما الذي يحرف في تربية أبناءه عن الإسلام هذا ينقلهم إلى شيء لا أصل له موجود ،

ولهذا قبول الطفل الذي وُلد على الفطرة للصدق ، للوفاء ، للأمانة ، لحُسن المعاملة ، للأخلاق الكريمة يقبلها بارتياح لأنها هي أشياء مفطور عليها ، أشياء مجبول عليها ، قبوله للعقائد الصحيحة للإيمان الصحيح هذه أشياء جُبل عليها ، عندما يُزرع فيه عقيدة فاسدة أو خُلقاً فاسداً يبدأ القلب في مرحلة صراع لأن هذا شيء يصادم فطرته ، فيبقى في مرحلة صراع ؛ فيه عوامل تدفع للانحراف وفيه أصول تمنعه منه ، وهو لأيهما غلب ، قد يكتب الله ﷻ له حفظاً لفطرته ، قد يكتب الله له من يحسن تربيته لتبقى فطرته سليمة ، قد يقيّض الله ﷻ له أبواباً من الهداية والصلاح والاستقامة ، وقد يبتلى بعوامل شديدة متواصلة تحرفه عن هذه الفطرة . ولهذا هذا أمرٌ ينبغي أن يُعلم وهو : أن التربية على الإسلام ليس حشراً لأمور تصادم أصل الإنسان، وإنما هو بناءٌ على أصول قائمة في الإنسان وثابتة فيه ، أما حرْف الإنسان عن الفطرة إلى عقيدة فاسدة أو إلى أخلاق فاسدة أو نحو ذلك هذا نقلٌ له عن شيء لم يُجبل عليه ولم يفطر عليه . فهذا يستفاد منه فائدة –كما قلت – أن التربية على الإسلام ليست شاقة .

وأيضا أفيدكم في هذا : أن من يربون أبناءهم على العقائد الباطلة يحتاجون إلى أنواع من الكذب حتى يضطر هذا المولود الذي عندهم إلى التحول ، مثلاً في بعض المذاهب وبعض الأديان تجده يسرق من طفله شيئاً ويخفيه عنه ويظل يبكي ويبقى فترة حزيناً ما وجده ثم يأتيه به ويقول من جاء به ؟ يقول هذا فلان جاء به ؛ حتى يغرس فيه ماذا ؟ يقول هذا عيسى هو الذي جاء لك به ، وعيسى هو الذي دائماً ينقذنا ، ثم يسرق له شيء آخر وهكذا. وأيضا فيمن ينتسبون إلى الإسلام ويعظّمون أشخاصاً باسم الولاية أو اسم الإمامة أو نحو ذلك ويعطونهم من خصائص الله ويريدون ربط صغارهم بهذا يكذبون مثل ذلك . ثم إذا أرادوا أيضا حشر نفوس هؤلاء الصغار ضد بعض الأخيار وضد بعض الأفاضل يسرق منه الشيء فيظل الطفل يبكي ، فيقولون له على سبيل المثال هذا أبو بكر هو الذي سرق ، هو الذي يسرق ودائما يعتدي على الناس ، فينشأ وليس في الدنيا أبغض عليه منه بهذه الطريقة .

لماذا يستعملون هذه الأساليب ؟ ولماذا يضطرون إلى هذه الأساليب ؟ لأن فيه حرْف عن الفطرة ، والحرف يحتاج إلى مثل هذه الروافد ، أما الذي يبني على أخلاقيات الإسلام وعلى آداب الإسلام وعلى عقائد الإسلام الصحيحة فهو معافى من ذلك كله ؛ لأنك تبني على أصول قائمة وأسس ثابتة ، والعمل الذي يقوم به ليس بناء من الأساس وإنما تكميل لشيء قائم .

فهذا أمر –حقيقة– مفرح جداً لمن أكرمه الله ﷻ وحباه ، يعني يكفي في الطفل أن لا يُكذَب عنده؛ يبقى صادقا، أن لا يُخلف الوعد عنده؛ يبقى أميناً ، فإذا كنت تريد أن تربيه على الأمانة وذكرت له بعض الأحاديث هذا تكميل ، لكن الذي يحرف الابن عن هذه المعاني هذا هو الذي يحتاج إلى تلك الأمور وتلك المغالطات وذلك الكذب إلى غير ذلك ، فهذه من النعم العظيمة والفوائد الجليلة التي تستفاد من هذا الحديث .

((ثم قرأ أبو هريرة ﷺ قول الله ﷻ ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾)) ؛ وهذا جزء من الآية التي هي عنوان هذا الباب ، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ ؛ هذا السياق بتمامه في سورة الروم تأملوه فإن فيه فائدة عظيمة ، بل ذكرٌ لركائز عظيمة جداً للسلامة من التفرق والانحراف ، ولا أطيل الكلام في تفصيلها لكن أشير إليها إجمالاً ؛ السلامة من التفرق يكون بأمور ذُكرت في هذا السياق المبارك العظيم :

الأمر الأول : إقامة الوجه للدين بالاستسلام لله وحُسن التوجه إليه وقصده ﷻ بالعمل وإخلاص الدين له ﷻ.

الأمر الثاني : أن يكون الإنسان معوِّدًا نفسه دائماً وأبداً على الميل والانحراف والتجافي عن الباطل ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ فيكون بهذه الصفة متجافي متباعد، كلما يمر عليه باطل أو انحراف أو زيغ يميل عنه ويبتعد عنه ولا يقصده .

الأمر الثالث : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ تعاهد العلم والعناية به والعناية بالتعلم والفقه في الدين ، فهذا من أعظم الأمور التي يُحفظ بسببها العبد بإذن الله ﷻ ، ولا يترك الجهل يلعب به ويعبث به في أودية الباطل والضلال ؛ بل يتفقه ويتعلم .

الأمر الرابع : الإنابة إلى الله ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ ؛ والإنابة هي الرجوع إلى الله ، والإنسان كثير الخطأ ، فيه الخطأ ، فيه التقصير ((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ)) ، فيعوِّد نفسه دائماً على الإنابة وهي الرجوع إلى الله.

الأمر الخامس : تقوى الله ﷻ ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ ؛ في السر والعلانية ، في الغيب والشهادة ، بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر ، ((اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ)) .

الأمر السادس : إقام الصلاة ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ، والصلاة إقامتها كما أمر الله من أعظم أسباب حفظ العبد وسلامته ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ؛ وهي من أعظم الأسبابل حفظ العبد عن الانحراف والضياع ولاسيما إذا أقبل على الله في صلاته بخشوع وصدق مع الله تبارك وتعالى .

الأمر السابع : البعد عن الشرك والبراءة من المشركين ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فبهذه الأمور يسلم الإنسان من التفرق ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

وبهذا السياق المبارك تعلم أن اجتماع كلمة المسلمين واتحاد صفهم لا يكون إلا على هذه الأصول ، عندما تجتمع

فيهم هذه الأصول يتحقق فيهم الاجتماع ، وإذا أخلّوا بهذه الأصول تفكك من اجتماعهم بحسب إخلالهم بها ، ولهذا كم نحتاج إلى أن نقرأ مثل هذا السياق المبارك ونجاهد أنفسنا على تتميمه وتكميله وجبر ما يكون فينا من نقص أو خلل فيه أو في شيء من جوانبه ، ويمكن أيضا مطالعة كلام أهل العلم في كتب التفسير لهذه الآية ونظائرها مما جاء في كتاب الله ﷻ .

ثم بعد ذلك انتقل المصنف رحمه الله إلى حديث حذيفة الطويل ؛ أيضا في تقرير معنى إقامة الوجه للدين وكيف يسلَم الإنسان ، مع أن أمامه في حياته تغيرات ومتغيرات وأمور وفتن متنوعة ، والمصنف رحمه الله يريد أن ينبه بذلك أن إقامة الوجه للدين يحتاج إلى مجاهدة مستمرة من العبد ليسلم مما سيمُرّ به من الصواد والصوارف التي تحرف الإنسان عن دينه والشرور التي يلقاها ، وقد قيل «ليس العجب ممن هلك كيف هلك ولكن العجب ممن نجا كيف نجا» ، الصوارف من حول الإنسان كثيرة جدا فالعجب في نجاة الإنسان من هذه المهلكات ، فهذا باب إقامة الوجه للدين حنيفا يحتاج إلى أمور كثيرة جدا يعتني بها العبد يحفظها ويحافظ عليها حتى يسلم له دينه ، وسيأتي في هذا تفاصيل نافعة ومفيدة جدا في الحديث الآتي حديث حذيفة .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الدرس الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن حُذَيْفَةَ ﷺ قال : كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأنا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ «نَعَمْ» فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟قَالَ «نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ». قُلْتُ وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ». قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ «نَعَمْ فِتْنَةٌ عَمْيَاء ودُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ «قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا

وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا». قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَأمرُنِي إِنْ أدركتُ ذَلِكَ ؟ قَالَ «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». فَقُلْتُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» أخرجاه ، وزاد مسلم : ((ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ ؛ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عنه وِزْرُهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ ، قَالَ : قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ)) .

****

أورد المصنف رحمه الله حديث حذيفة بن اليمان المخرّج في الصحيحين –صحيحي البخاري ومسلم رحمهما الله– في هذا الباب : «باب قول الله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾[الروم:٣٠]» ؛ لأن هذا الحديث العظيم حديث حذيفة فيه بيان ما ينبغي أن يكون عليه من يريد إقامة وجهه للدين حنيفا من حذر وبعد عن الشرور والهلكات والأمور الصارفات عن دين الله ﷻ ، وأنه عليه أن يعلم أن أمامه في هذه الحياة فتنٌ صارفة وأهواء جارفة لابد أن يكون على حذر منها وحَيْطةٍ من الوقوع فيها ؛ ليسلَم له دينه ، وليتم له إقامة وجهه للدين حنيفاً، فكما أن الإسلام حِفظٌ للأوامر والطاعات فإنه كذلك بُعدٌ عن النواهي والأهواء والشبهات وحفظٌ لدين الله ﷻ ، ولهذا ساق المصنف رحمه الله هنا حديث حذيفة العظيم ليبين ما ينبغي أن يكون عليه من أراد لنفسه إقامة الوجه الدين حنيفاً بلا زيغ ولا انحراف .

وحديث حذيفة فيه آية من آيات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه أخبر فيه بأمور أعلمه الله ﷻ بها تكون في المستقبل مما يتعلق بأحوال أمته بعده؛ حيث ذكر عليه الصلاة والسلام أطواراً تمرُّ بها الأمة ، طوراً من بعد طور. أمة محمد عليه الصلاة والسلام بعد أن أنقذهم الله ﷻ من الجاهلية وخلّصهم من عمايتها وغوايتها وضلالها وغيّها وظُلمها وظلامها فأصبحت أمةً على خير يذكر هنا ﷺ أطواراً للأمة ستمُر بها ، وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:٤] ، ثم يذكر عليه الصلاة والسلام ماذا ينبغي أن يكون عليه المسلم الذي يريد لنفسه إقامة الوجه للدين بدون زيغ وانحراف؟ يبين عليه الصلاة والسلام ماذا ينبغي أن يكون عليه الإنسان عندما يمر به طور من تلك الأطوار التي أشار إليها في الحديث . وهو حديث عظيم جداً وفيه فوائد كبار وتأصيلات عظام وتقعيدات جليلة يحتاج إليها المسلم حاجة ماسة .

يقول حذيفة ﷺ : ((**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأنا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**))؛ هذه الكلمة التي قالها حذيفة ﷺ في صدر هذا الحديث هي توطئة منه ﷺ للسؤالات التي ذكرها وذكر أنه تقدم بها إلى رسول الله ﷺ ، سيمُر عليك في سؤالاته «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ ؟» فلِمَ هذا السؤال؟ هو جاء في مقدمة هذا الحديث بتوطئة يبين فيها سبب تلك السؤالات ، لماذا كان يسأل النبي ﷺ تلك السؤالات ؟

سؤالات عديدة : «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟» ، ثم يقول: «هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟» ، ثم يسأل «هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟» ، ثم يسأل «ثُمَّ مَاذَا ؟» ؛ أسئلة كانت متوالية عظيمة جداً نافعة ترتب عليها خيرٌ عظيم لكنه ﷺ وطَّأ لتلك الأسئلة بقوله : «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه**» وأصبحت كلمته هذه قاعدةً علمية عظيمة الشأن جليلة القدر يحتاج إليها كل مسلم ، أعني قولهﷺ «كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه» فهي قاعدة مهمة في باب العلوم والفقه في دين الله ﷻ .

«**كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه**» ؛ منبّهاً بذلك إلى أصل عظيم في فقه الشريعة ومعرفة الدين ألا وهو : أن المسلم لا يكفيه أن يعرف الفرائض والواجبات والرغائب والمستحبات ؛ بل لابد أن يكون على معرفة بالمحرمات ولو إجمالاً من أجل اتقائها ، رب العالمين حرّم في كتابه في آيات كثيرة الشرك ، فمن لم يعرف الشرك كيف يتقيه؟! ، حرّم البدع ونهى عنها وحذر منها ، فمن لم يعرفها كيف يتقيها؟! حرّم الكبائر فمن لم يعرفها كيف يتقيها ؟! وقد قيل : «كيف يتقي من لا يدري ما يَتَّقي» ؛ لابد من معرفة هذه الأشياء للحذر منها ، ولهذا علل ﷺ السر في هذه المعرفة قال : ((وَكنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)) ؛ فيسأل عن الشر ليعرفه ويعرف حقيقته ويعرف صفته ليكون منه على حذر .

وهذا فيه تنبيه أن من لا يعرف الشر قد يقع فيه من حيث لا يشعر ، بل وقع أقوامٌ في شرور كثيرة وفي شركيات صريحة وفي بدع مضلة وهم في قرارة نفوسهم يظنون أنهم على خير وأنهم على هدى وإيمان وصلاح ، فهو يقول : ((كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه)) يعني خوفاً من أن أقع فيه . والقائل لهذه الكلمة صحابي جليل ومن علماء الأمة ومن الفقهاء ومن الأعيان؛ يقول : ((كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه)) يخاف من الشر ، فإذا كان هذا الصحابي الجليل الذي هو في زمن الخيرية وفي صدر الأمة يخاف ويسأل فكيف بالأزمان المتأخرة التي تتكاثر فيها الفتن والشرور والبدع والأهواء والانحرافات والزيغ عن دين الله!! فلا شك أن الأمر أعظم في حق من أراد لنفسه إقامة وجهه للدين ، أما الذي لا يبالي بدينه ويخاطر بإيمانه فهذا شأنه آخر ، لكن الكلام في شأن من يريد إقامة وجهه للدين حنيفاً ، فهذا يتطلب معرفة للشر من أجل أن يُتقى ، كما قيل :

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ وَلَكِنْ لِتَوَقِّيهِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الخَيْرَ منَ الشَّرِّ يقعْ فيهِ

الذي لا يميز بين خير وشر يقع في الشر من حيث لا يشعر ، ولهذا احتاج الإنسان أن يعرف الشر ولو إجمالاً حتى يكون منه على حذر ، والله ﷻ يقول في القرآن : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥] ؛ يعني تكون سبيل المجرمين واضحة ، ما فائدة وضوح سبيل المجرمين للمسلم؟ حتى يحذر منهم ومن سبيلهم ، أما الذي لم تستبن له سبيل المجرمين يذهب إليهم ومعهم وهو لا يشعر، فاستبانة سبيل المجرمين للإنسان، استبانة سبيل الضالين ، استبانة سبيل المنحرفين الزائغين؛ هذا يجعله في حيْطة وحذر من أن يقع في شيء من ذلك. ولهذا كانت كلمة حذيفة ﷺ قاعدةً عظيمة وتأصيلاً نافعاً في هذا الباب .

((**كَانَ أصحاب رسول الله ﷺ يَسْأَلُونَه عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**)) ؛ الشر يدرك من لا يعرفه ، أما الذي يعرف الشر ويعرف أنه شر ويعرف صفة الشر وحقيقته ويجاهد نفسه على البعد منه ويسأل الله أن يعيذه منه فهذا يكون في عافية ، والنبي ﷺكان في تعوذاته يتعوذ بالله من الشرور ؛ شر النفس ، وشر الشيطان ، وشر كل دآبة آخذ بناصيتها رب العالمين ، فمن كان على علمٍ بها مستعيذاً بالله مجانباً محتاطاً لدينه يسلم بإذنه ﷻ ، أما الذي يخاطر بدينه ولا يعرف الشر فهذا دينه على خطر ، قد يدركه الشر بل تدركه شرور كثيرة يقع فيها ويتضمّخ في أنواعٍ من الباطل والضلال .

قال: ((**فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟**))؛ حذيفة ﷺ يتحدث هنا مغتبطاً بنعمة الإسلام ومنَّة الهداية إلى هذا الدين فرحاً بها ويريد لها بقاءً وسلامةً ، ولما سأل هنا «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ ؟» لم يسأل سؤالاً فارغاً من المعاني أو المقاصد ؛ بل له مقصد عظيم جداً وهو : إذا كان هناك شر قادم أو آتي ؛ حتى نحذر منه ونكون في حيطة وفي مجاهدة لأنفسنا في حفظ الدين وإقامته والبعد عن الزيغ والانحراف ، يسأل «فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ ؟» ،يوضح سر السؤال وسببه قوله قبل قليل ((مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)) هو يسأل حتى يعرف إذا كان فيه أشياء يحتاط ويحذر منها .

قال : ((**إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ**)) ؛ يصف الحالة التي كان الناس عليها قبل الإسلام ، حيث كانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء وشرور لا حد لها . أما الجاهلية ؛ فكان في الناس العقائد الباطلة ، والنِّحل الفاسدة ، والأهواء الزائغة ، والمعاملات الفاسدة ، ولا تسأل عن بابٍ من أبواب أحوال الناس وحياتهم إلا وتراه في جاهلية، وكانت جاهليةً مطبقة ؛ ليست في بقعة من الأرض دون بقعة أخرى بل جاهلية خيمت على الأرض بأسْرها ، حتى إن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح: ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ)) جاهلية خيَّمت على الأرض بكل أرجائها وجميع أطرافها غطت على الأرض ، ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) أفذاذ قلائل جداً من أهل الكتاب بقيت فطَرهم لم تتبدل ومستمسكين بالكتب السابقة ، ((بَقَايَا)) وإلا الجاهلية خيمت على الأرض ، ولا تسأل عن ألوان الفساد في عقائدهم وعباداتهم ؛ فساد في البيوع والمعاملات وما يتعلق بالأموال ، فساد فيما يتعلق بالأعراض والفروج والأنكحة ، فساد من جميع الجهات ، انتهاب ، قتل للأنفس ، إراقة للدماء ، انتهاك للأعراض ، استباحة للمحرمات ، جاهلية جهلاء أطبقت على الأرض ، وكان مع الجاهلية شر؛ أي شراسة في الناس وهي وليدة الجاهلية ، شراسة وفظاظة ورعونة وغلظة وعدوان وبغي وقتل ونهب وسلب . فاجتمع لهم هذان الأمران: الجاهلية والشر ؛ الجاهلية : انحلال في العقائد والعبادات . والشر : يعيش الناس حياة خوف وهلع لا يأمن الواحد على ماله ولا يأمن على عرضه ولا يأمن على نفسه، اختلال في جميع الأحوال .

فيقول حذيفة مغتبطاً : ((**كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ**)) ؛ وقوله «فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ» فيه أولاً الاعتراف بالنعمة والمنعِم ؛ النعمة: الإسلام ، والمنعِم: رب العالمين ، ((فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ)) ففيه اعتراف بالنعمة التي هي نعمة الإسلام أعظم النعم ، وفيه الاعتراف بالمنعِم المتفضل وهو رب العالمين، قال ﷻ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات:٧-٨] ؛ فالإسلام فضلٌ من الله ونعمةٌ من الله ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾[النور:٢١] ؛ فهي منّته ﷻ . الصحابة ﷺ كما في صحيح البخاري كانوا يقولون : ((لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا)) يعني لولا أن منّ الله علينا بهذا الدين وهدانا إليه وشرح صدورنا لقبوله لما كان ذلك ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزمر:٢٢] ؛ فهي منة الله ﷻ وهو الهادي ﷻ .

فيقول حذيفة مغتبطاً : ((**فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ**)) ، والمراد بالخير هنا : الإسلام ، وهنا أيضا فائدة : وهي أن حيازة الناس للخير وتحصيلهم له إنما يكون من جهة الإسلام ؛ بمعنى : أنه كلما عظم حظ الإنسان من الإسلام عظم حظه من الخير ، وكلما اجتهد الناس في حفظ الإسلام والمحافظة عليه والدعوة إليه والنهي عما يخالفه أو ينقِصه بقي لهم من الخيرية بحسب ذلك ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠] ؛ فالخيرية مرتبطة بالإسلام ؛ فعلاً له، وتحقيقاً ، ودعوةً ، وأمراً ، ونهياً وإصلاحاً ؛ فكلما كانت الأمة محافظةً عليه عظم حظها من الخيرية بذلك.

قال: ((**فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**)) ؛ يعني هل سينتقل حال الناس بعد هذا الخير الذي عم وانتشر ؟ هل سيكون هناك شر بعده ؟

فقال عليه الصلاة و السلام : ((**نَعَمْ**)) ؛ يعني سيكون هناك شر بعد هذا الخير . وهذا فيه تنبيه للناس أن الإنسان إذا كان يعيش حياة آمنة بالإيمان والإسلام والطاعة والمحافظة على عبادة الله هو وأولاده وأهله قد يفجأه في حياته امتحان بحيث أن شراً يحيط ، ، وكثير من الناس عندما يأتي الشر يتساقطون في الامتحان ، والشر امتحان للإنسان وابتلاء له فكثير من الناس يسقط ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥] ابتلاء

وامتحانا، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] ، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد:٣١] ؛ فيُبتلى الإنسان امتحاناً واختباراً وتمحيصاً ، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢] فيه امتحان وفيه افتتان فيه اختبار ، فهذا الشر يكون امتحاناً وابتلاء من الله ﷻ للناس . وحذيفة سأل للسبب الذي ذكره قريباً : ((مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)) ؛ يعني حتى يحذر ويحتاط ، من ذلكم أنك تسأل الله ﷻ أن يعيذك من الشر ، هذه المعرفة تحرك فيك تعوذاً "اللهم أعذنا من الشر ، اللهم سلِّمنا ، اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا" ، لما يقال لك مثلاً أن عدواً متوقع مجيئه تجد نفسك مجتهد في إصلاح نفسك وفي تهيئة أمرك ودعاء ربك والإلحاح عليه.

((**فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : نَعَمْ**)) هذا طوْر ، الطور الأول: الخير الذي عم وانتشر في حياة النبي ﷺ، ثم يأتي طور وهو الشر ؛ يعني يكثر الشر ويفشو وينتشر ويكثر دعاته وتتبنَّاه دول وجهات وأفراد ، ينتشر ويطغى على كثير من الناس ، فأشار عليه الصلاة والسلام إلى أن بعد هذا الخير يوجد شر ، لما سأله «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : نَعَمْ».

هنا أنبه : أن الشر المعني هنا ليس شراً مطبِقاً تماماً بمعنى أنها عودة إلى الجاهلية الأولى ، فهذا لا يكون ؛ الجاهلية المطبقة انتهت بالإسلام ، وقد قال ﷺ : ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ)) ، فالحق باقٍ وله أعوان وله أنصار ، محفوظ بحفظ الله ﷻ ، ولهذا لا يصح للإنسان في وقت من الأوقات أن يقنِّط الناس ويئسهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح ((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)) وفي رواية ((فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ)) ؛ لأنه إذا قال : "هلك الناس ، ما عاد بقي من خير، الشر أطبق علينا من كل جانب، ما بقي في الناس خير" ؛ إذا قال مثل هذه الكلمات ماذا يُحدِث ؟ قال ((أَهْلَكَهُمْ)) لأنه ييئسهم ، يقنّطهم ، يُضعِف عزائمهم ، يُفتِر هممهم ؛ وهذا باطل لا يجوز ، لأنه إذا كان بهذه الصفة يكون هو نفسه القنوط مسيطر عليه ويرى أن الأمر انتهى ، فهو في نفسه هالك وأيضاً مهلِك للآخرين . وهذا فيه تنبيه: أن الواجب على المسلم أن لا يسيطر عليه يأسٌ في أي مرحلة وفي أي وقت ، بل يكون دائماً متفائل ومستبشر وطامع في رحمة الله ﷻ وفضله ومقبِل ؛ حتى وإن تكاثرت الشرور وأحاطت وتعددت وتنوعت وكثر دعاتها لا يقنط ، بل يكون دائما مستبشراً متفائلاً طامعاً عاملاً ناصحاً داعياً يؤدي عمله ، أما إذا وصل إلى مرحلة يقول فيها : "هلك الناس ، ما بقي خير" أو نحو هذه الكلمات أو ما يؤدي معناها ؛ فهذا يُهلِك نفسه ويهلِك غيره ، ويكون بذلك قد سيطر عليه هو القنوط ، وبدأ ينشر في الناس قنوطاً ويئساً ، وهذا شر والعياذ بالله . فهذا أمر ينبغي أن يتنبه له المسلم وأن يحذر .

وبعض الدعاة أحياناً لا يوفق في طرحه ؛ عندما يبدأ يسرِد للناس في خطب أو في محاضرات قوائم بأنواع الشرور وأماكنها ويسرد لهم سرداً حتى يكون من أمامه الفائدة التي حصّلوها إحباط؛ " الشر من كل جانب ، ولا حول

لنا ولا قوة " ، ويدبّ لقلوبهم يأس وقنوط ، وتُذكر أرقام مهيلة ومخيفة تضر بالناس ؛ فهذا ليس من النصح في دين الله ﷻ ، النصيحة تكون ببيان الحرام والتحذير منه ، ويمكن أن يشار إلى وجوده ، يشار إلى وجود دعاة له ، ويقال للناس الخير باقي ولله الحمد أهله موجودون والناس في خير ، وإذا ذهبتم إلى أماكن خير سترون الخير وترون أهله ، ومن يذهب إلى أماكن الشر يرى الشر ويرى أهله ، فيُدَل الناس على الخير وعلى أماكنه وعلى أهله ، أما إذا ذُكر للإنسان فقط دعاة الشر وأهل الشر وأنواع الشر بالأرقام وأُهمِل جانب الخير هذا من أخطر ما يكون ، والأمر المفروض يكون بالعكس .

قال حذيفة رضي الله عنه ((**فَقُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟**)) ؛ يعني إذا صار حال الناس إلى ذلك الشر فهل يرجعون إلى الخير وهل ينتشر خير بعد الشر الذي وُجد ؟

((**قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**)) ؛ الدخن معروف وهو الكدر والكدورة . يعني فيه خير وفيه أيضاً أشياء تكدر صفوه، والدخن هو في الأصل التعتيم الذي يكون في الجو بسبب الغبار أو الدخان ، وأنت تعلم أن إذا كان الجو فيه دخان أو غبار ثائر يعتِّم عليك الطريق ويُضعِف الرؤية ؛ فكذلك في باب الخير عندما يكون في الخير دخن يكون الأمر بهذه الصفة .

وقوله : ((**فِيهِ دَخَنٌ**)) هذا فيه إشارة إلى أمرين: الأمر الأول يتعلق بقلوب الناس أو قلوب كثير منهم ، من جهة ما قد يكون في القلوب من تكالب على الدنيا أو أحقاد أو حسد أو ضغائن أو نحو ذلك من الأمور؛ هذا دخن. وأيضا من حيث استبانتهم للحق وعلمهم به ومعرفتهم بالطريق والجادة والسنة، فيكون عندهم دراية ، ويكون عند عدد منهم دخن في ذلك وغبش وعدم وضوح ، وربما يدخل عليهم بعض الأعمال التي هي ليست من سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

((**قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**))؛ أنت تتساءل هنا : وما هو هذا الدخن ؟ هذا سؤال –مثل ما يقولون– يطرح نفسه، وطرَحه حذيفة ، حذيفة رضي الله عنه كانت أسئلته عجيبة جداً ، أسئلته أسئلة شخص مغتبط بدينه فرحٌ به مسرور بالخير الذي انتشر وعم وتزايد وكثُر ، يريد هذا الخير يبقى له وللناس فبدأ يسأل أسئلة المشفق الحريص الناصح لنفسه ولغيره ، فهي حقيقة أسئلة عظيمة جداً مباركة طرحها رضي الله عنه وأرضاه وجزاه عنا على هذه الأسئلة خير الجزاء وأعظمه وأوفره .

قال: ((**وَمَا دَخَنُهُ؟**)) ؛ أنظر هذا السؤال العظيم «وما دخنه ؟» .

((**قَالَ : قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)) ؛ هذا معنى «الدخن» . وهنا يشير عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء الذين فيهم هذا الدخن عندهم خلل من جهتين؛ الجهة الأولى : مصدر التلقي ، والجهة الثانية: الأعمال التي يقومون بها .

- فمصدر التلقي ؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((**يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي**)) فتجد أحدهم إذا استدل يستدل إما بمنام، أو يستدل بتجربة ، أو يستدل بعقله ، أو يستدل بقصة ، أو..أو..الخ من أنواع ما جُعلت مصادر للناس في استدلالاتهم ، فتجده يذكر أعمالاً وعبادات إلى غير ذلك ويستدل عليها بغير السنة .

تَبًّا لِمَنْ نَبَذَ الكِّتابَ وَرَاءَهُ وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ

الكتاب والسنة مهجورة ثم يستدل بأشياء أخرى !! لا يستدل بكلام الله ولا بكلام رسوله ﷺ ، فهذا فساد وانحراف وخلل في مصدر الاستدلال .

- النوع الثاني من الخلل: خلل في العمل ؛ وهو نتيجة للأمر الأول ، من لم يستن بسنة النبي ﷺ اختل عنده العمل ووُجد عنده الانحراف ، ولهذا قال: ((**وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي**)) ؛ غير هديه عليه الصلاة والسلام في عباداته وأعماله ، فترى فيهم البدع ، وترى فيهم الخرافات ، وترى فيهم أنواع من الانحرافات التي هي ليست من هديه عليه الصلاة والسلام ، قد كان ﷺ إذا خطب الناس يوم الجمعة يقول: ((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ،وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) فكان عليه الصلاة والسلام يحذِّر من الضلالات والبدع، ويؤكد على لزوم الحق والهدى وسنته صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)) ؛ هذا أيضا فيه توضيح للدخن ، الخير الذي فيه دخن إذا نظرت إلى جانب الخير تعرِف ، وإذا نظرت إلى جانب الدخن تُنكر ، ففيه جانب خير ، ليس شراً محضاً ، وإنما خيرٌ فيه دخن ، فأنت تعرف وتنكر ؛ يعني ترى خيراً وترى أعمالاً وترى سنناً وترى صلاحاً استقامةً نصحاً اجتهادا ، وتنكر أيضا ترى مع ذلك كله أموراً تنكرها ، وهذا يكون في الأفراد وفي عموم الناس . يعني تجد أحياناً شخص مقبل على الخير ومقبل على الطاعة ومقبل على العبادة وحريص على الدين لكنك تنكر فيه أشياء ليست من الدين ؛ بدع وخرافات ليست من دين الله ﷻ ، فأنت إذا نظرت إليه من جانب عرفت ، وإذا نظرت إليه من جانب آخر أنكرت، قال: ((**تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)) ؛ تعرف منهم خيراً وتنكر فيهم شراً ومخالفة .

قال: ((**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)) ؛ هنا الآن لما عرفت هذا الوصف ، الوصف نفسه لهذا الدخن متضمنٌ العلاج ، يعني لو قلت مثلاً : إذا وجد في مراحل الناس وأطوارهم هذه المرحلة وهي أنه يوجد من يستن بغير السنة ويهتدي بغير الهدي وتعرف منه وتنكر؛ ما الحل؟ الحل واضح ، الحل أن يجاهد الإنسان نفسه دائماً وأبداً على لزوم السنة والتمسك بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، ليس هناك مخرج إلا هذا ؛ ولهذا في حديث العرباض بن سارية قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى

اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) ما المخرج ؟ أجاب دون أن يُسأل ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)).

((**قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**))؛ كل هذه الأسئلة المتلاحقة من حذيفة ﷺ أساسها قوله المتقدم «وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي» .

((**قَالَ : نَعَمْ؛ فِتْنَةٌ عَمْيَاء**)) ؛ الفتنة توصف بأنها عمياء لأنه بوجودها غالب الناس لا يبصرون الحق ولا يرونه ، فالفتنة تُعميهم عن الحق ، ولهذا يقال فتنة عمياء صماء ، لأنها تصرف كثير من الناس وتجرفهم وتبعدهم عن الحق والهدى .

((**وَدُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**)) ؛ هؤلاء الذين قال عنهم ﷺ دعاة على أبواب جهنم هل منهم واحد يقول للناس هلُمَّ إلى النار ؟! هل منهم واحد يقول إنني من دعاة جهنم فتعالوا معي إلى جهنم ؟! إذاً ما معنى قوله: ((**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**)) ؟ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر:٤١] ؛ ما معنى ﴿تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ؟ بيّن قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[غافر:٤٢] ، فمعنى قوله ﴿ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ جاء ما يفسره ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ فهذه الدعوة إلى النار، فالذي يدعو إلى الكفر يدعو إلى الشرك يدعو إلى الضلال هو في الحقيقة داعية إلى النار؛ فمعنى قولهﷺ ((**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**)) أي يدعون الناس إليها بدعوتهم إلى أعمالها ، فمن دعا الناس إلى عمل من أعمال جهنم وعمل من الأعمال الموصلة إلى النار فهو داعية على باب جهنم شاء أم أبى.

قال: ((**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**)) ؛ أي من أطاعهم فيما يدعونه إليه قذفوه في النار ، ثم هؤلاء الدعاة على أبواب جهنم عندما يدعون الناس إلى أعمال جهنم هل يدعون الناس إلى هذه الأعمال واصفين لها بأنها أعمال مهلكة أعمال مفضية إلى جهنم مفضية إلى الشر والهلكة ؟ لا ؛ وإنما يصفونها بأوصاف أخرى ويزيّنونها ؛ الشرك يزينونه يقولون : هذا توسل هذا شفاعة ، الربا: يقولون هذه فائدة ، الرشوة : يقولون هذه إكرامية ، الخمور : يقولون هذه مشروبات روحية ، أنواع الفساد : يقولون هذا رقي وتقدم وحضارة ، السنن والفرائض والواجبات بعضهم قال: هذه أغلال ، وبعضهم قال: هذه تعوق الإنسان وتعطله عن مشاركة الناس في ركب الحضارة ، المرأة والأبواب التي تُفتح عليها بالفساد يدخلون من جهة المساواة والعدل ورفع الظلم عن المرأة؛ إلى متى تُظلم المرأة ؟ إلى متى تُهضم حقوقها ؟ إلى متى إلى متى..؟ ويبدأ بعضهم يتجرأ على أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ((مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ)) كيف يقال ناقصة عقل وفي النساء من هي كذا ومن هي كذا !! فيهم الطبيبة والمهندسة ...الخ كيف يقال ناقصات عقل ؟! وبهذا الطريق يدخل دعاة جهنم

على الناس تضييعاً للدين ، وتضييعاً للأخلاق ، وتضييعاً للفضائل ، وكلها تأتي بشعارات براقة : العدل ، المساواة، رفع الظلم ، الحضارة ، الرقي ، التقدم ، أشياء من هذا القبيل حتى يُجرَف الناس ويُصرفون عن دين الله ﷻ ، ومن أكبر ما يدخل دعاة جهنم على الناس فيه من جهة فتنة النساء ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ)) ، ((أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)). وفتنة النساء تدخل في بداية الأمر في فساد الأعراض ثم بعد ذلك فساد العقائد والأديان والانحرافات وضياع الدين . ولهذا ابن القيم رحمه الله في كتابه الطرق الحكمية يقول : «وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكِينَ النِّسَاءِ مِنْ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ أَصْلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَشَرٍّ» ، وذكر عبر التاريخ حوادث وقصص كيف أن الشر يفشو وينتشر ؛ فتأتي دعوات برفع الظلم عن المرأة ويبدؤون ينتقصون الأحاديث ويتكلمون فيها ويطعنون فيها ويقولون على الله وفي الله وفي دين الله ﷻ بغير علم ويحاولون التقوّل على الله ، يقول ﷺ: ((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً)) يطعنون في ذلك ويستدلون استدلالات باطلة في غير بابها ؛ كل ذلك ترويج للضلال وللباطل .

فالنبي عليه الصلاة والسلام ذكر فتنة عمياء ، ودعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها .

قال : ((**يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا**)) ؛ يعني أعطنا صفة هؤلاء . وهذا أيضا فيه فائدة : أن معرفة صفة دعاة الباطل تفيد الإنسان ، كم يحتاج عوام المسلمين أن تعطى لهم صفات لدعاة الباطل ؛ حتى يحذر منهم ومن سماع كلامهم، حتى لا يُدخلوه في أمور وفي ورطات ربما لا يتخلص منها .

((**قَالَ : قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**)) ؛ قال بعض المفسرين : يعني قوم من العرب منا وفينا . وقال بعضهم : منا أي على ملتنا يعني ينطقون ويتكلمون باسم الدين . الكافر عندما يخاطب المسلم تجد المسلم حذِر منه ويخشى على نفسه من آراءه ؛ حتى لو كانت آراءه في ظاهرها له فيها فائدة تجده حذر ويقول يمكن أن يقصد كذا أو يريد كذا ، لكن إذا كان الذي يدعوه من جلدته وينطق بلسانه وبدينه! وبعضهم يبدأ ما يريد أن يقرره من ضلال بآية من القرآن ، يُسمع أحياناً من بعضهم فيما يدعو إليه من ضلال يبدأ بقوله تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ**﴾ [التوبة:١٠٥] ثم يذكر أمور باطلة ، والعوام مثل ما قال بن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين : «والناس أكثرهم مع ظاهر السكة ليس لهم نقد النقاد» ؛ لا يستطيع العامي ينقد ولا يستطيع أن يميّز، ومن دأب أهل الباطل وطريقتهم في قديم الزمان وحديثه أنهم كما وصفهم رب العالمين بذلك يخلطون الحق بالباطل، يلبسون الحق بالباطل من أجل ترويج الباطل على الناس وإيقاع الناس فيه.

((**قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَأْمُرُنِي إِنْ أدركتُ ذَلِكَ ؟**)) ؛ يعني إذا بلغ الأمر هذا المبلغ ووصل هذا الحال ماذا تأمرني إن أدركت ذلك ؟

((قَالَ : **تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)) ؛ إذا كان في جماعة وفي إمام إلزم الجماعة والإمام ، ولا يدخل عليك الشيطان في الوقيعة في الأئمة ؛ كأن يقول أحد هذا إمام جور ، أو يقول آخر هذا إمام ظالم ، أو يقول هذا إمام كذا ، إلزم الجماعة والإمام إذا كان يوجد جماعة وإمام ، ولم يشترط عليه الصلاة والسلام لم يقل : الزم جماعة المسلمين وإمامهم إذا كان الإمام عادلاً أو إذا كان غير ظالم" ما اشترط ، قال : ((**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)) ؛ إذا كان في جماعة وإمام إلزم الجماعة.

ثم ذكر حذيفة ﷺ احتمال ؛ قد يصل الناس في مرحلة من مراحل حياتهم لا يكون إمام ، قال : ((**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟**)) ؛ يعني ليس لهم جماعة وليس لهم إمام فما الذي أفعله؟

((قَالَ : **فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا**)) يعني لا تدخل مع الناس .

((**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**)) وهذه المرحلة التي فيها الإشارة في حديث حذيفة في وقتنا هذا كثير من الناس في بلدانهم فيه جماعة وفيه إمام ويتفاوت الأمر من منطقة إلى منطقة قوة وضعفا ، لكن الجماعة موجودة والإمام موجود ؛ فيلزم المسلم جماعة المسلمين وإمامهم وينصح لعباد الله بالرفق وبالكلمة الطيبة وبالدعوة إلى دين الله ﷻ وبنشر الخير ، والله ﷻ ناصر دينه ومدافعٌ عن عباده المؤمنين ، لكن تُأتى البيوت من أبوابها وتُسلك الأمور من مسالكها الصحيحة بالدعوة والبيان والنصح والتعليم ، وأن يرفع الإنسان الظلم الذي هو واقعٌ فيه بخوفه من الله ومراقبته لله وإصلاح بيته وولده ؛ والله ﷻ يصلح له حال بلده .

ويدعو لولاة أمره بالصلاح والهداية والسداد والتوفيق ، يقول الفضيل رحمه الله : «لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها الا في السلطان» ، قال عبد الله بن المبارك : «ومن يقوى على هذا إلا مثلك»؛ يعني هذه رتبه ودرجه ليس كل أحد يقوى عليها ، لو يتفكر الإنسان ويقال له هذه دعوة مستجابة لك أطلب الآن دعوة مستجابة ماذا تريد ؟ كثير من الناس يقول أريد فيلا جميلة من دورين ، من الذي يقوى أن يقول: اللهم أصلح ولي أمرنا ؟ من الذي يقوى إلا الإنسان الذي عنده فقه ومعرفة وإدراك ، ولهذا من علامة الخير ومن علامة السنة الدعاء لولاة الأمر بالصلاح والهداية . ومن علامة البدعة والهوى الدعاء عليهم ، والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال : ((لاَ تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ)) ، بل يصبر؛ إذا كان الأمير أو الوالي فاجراً يصبر على فجوره وينصح بالرفق وباللين وبالكلمة الطيبة ويدعو له بظهر الغيب؛ يدعو له بالصلاح ، بالهداية ، بالتوفيق ؛هذه النصيحة التي قال عنها عليه الصلاة والسلام: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا لِمَنْ ؟ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)) . ويطرد من نفسه الغل؛ ((ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ﷻ ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ)) ؛ يطرد من قلبه الغل لأن الأهواء إذا وُجدت أوجدت في القلب غلاً ولا يتقبل القلب لا لزوم جماعة ولا يقبل القلب أيضا سمعاً وطاعة لولي الأمر ، ومصالح المسلمين وجماعتهم لا تنتظم إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمع

وطاعة . وساعة يعيشها الناس أو يوم يعيشه الناس بإمامٍ جائر خير من سنوات طويلة يعيشونها بدون إمام "لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم" ، فإذا كان الناس بدون إمام فهذا هلاك لهم .

قال: ((**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)) ؛ فذكر مرحلة أو حالة .

قال: ((**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟**)) إذا وصل الأمر أن لا يوجد جماعة ولا إمام! كلٌ على رأسه فما العمل؟

قال : ((**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا**)) ؛ وهذا تنبيه على الصبر على اعتزال الناس في مثل هذه الحال .

((**وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**)) ؛ يعني تبقى بعيداً عن الناس منشغلاً بعبادة ربك وطاعته ودعائه واستغفاره إلى أن يأتيك الموت وأنت على هذه الحال .

قال: ((**أخرجاه ، وزاد مسلم**)) ؛ قول المصنف رحمه الله «وزاد مسلم» هذه الزيادة في سنن أبي داود بسند ثابت، وليست في صحيح مسلم .

قال : ((**وزاد مسلم : ثُمَّ مَاذَا ؟**)) يعني قال حذيفة : ((ثم ماذا؟)) ؛ لا تزال أسئلة هذا الصحابي الجليل الناصح الحريص على نفسه وعلى إخوانه جزاه الله خيراً ورضي عنه لا تزال أسئلته متوالية .

((**قَالَ : ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ**)) يعني يعقب هذه المرحلة مرحلة خروج الدجال، وهو علامة من علامات الساعة وأمارة من أمارات قُرب قيامها ، لأن الساعة لا تقوم حتى تخرج علامات من ضمنها خروج الدجال .

ولاحظ هنا ارتباطاً بين دعاة على أبواب جهنم وبين خروج الدجال بعد ذلك ، فكأنهم جاءوا قبله تمهيداً وتوطئة، ولهذا قال العلماء : أن قول النبي ﷺ ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) كما أنه يشمل الدجال الأكبر الذي خروجه علامة من علامات الساعة فإنه أيضًا يشمل الجنس ؛ بمعنى أنه يشمل الحذر من كل دجال يقول في دين الله بلا علم ، فأيضاً أمثال هؤلاء يُنأى عنهم، ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) ؛ ففتنة الدجال العظيمة ذاك الرجل الذي يخرج في ذاك الزمان إذا سُمع بها يُنأى عنها ، وأيضًا الدجاجلة الذين يدعون الناس إلى النار ودعاتهم على أبواب جهنم أيضا ينأ عنهم ؛ فلا يسمع إليهم ولا يقرأ لهم ويحذر من أقوالهم وكلماتهم، لأن النتيجة عند هذا وهؤلاء واحدة ؛كلها إفضاء بالناس إلى نار جهنم ، ولهذا يأتون قبله وهو يأتي بعدهم فهم كالتوطئة له والتمهيد لمجيئه وقدومه، وأيضا ترويض الناس لقبول ما يدعو إليه الدجال الأكبر ، فهم يأتون قبله ((دعاة على أبواب جهنم)) .

قال: ((**قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ**)) ؛ سبحان الله العظيم !! امتحان وابتلاء عظيم ، يخرج هذا الرجل ومعه نهر ونار ، ومكتوب على عينيه كافر يقرأها كل مسلم وكافر ، وإحدى عينيه طافية كأنها عنبة أو كأنها زبيبة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((مَا بَعَثَ اللَّهُ ﷻ نَبِيًّا إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ ، وإني أنذركموه ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)) ؛ علامة واضحة ظاهرة عليه بينة ، ومعه نهر ونار ، وفتنته عظيمة ، والله ﷻ جعل في زمانه أموراً تظهر على يديه بإذن الله امتحاناً كما جاء في بعض الأحاديث أنه إذا مر على قرية ودعا أهلها للإجابة إلى

ما يدعوهم إليه ، لأنه يقول لهم أنا ربكم وهذه جنتي وهذه ناري ويرون جنة ويرون نار معه تمشي؛ فتنة ، فإن أجابوه وإلا قال لكنوز قريتهم اتبعيني، فتخرج الكنوز والناس يرونها تخرج وتتبعه ؛ هذه فتنة ، ولهذا يتبعه خلْق يُفتنون والعياذ بالله ، والنبي ﷺ يقول كما جاء في حديث ثابت ((إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ)) ؛ فتنة عظيمة جداً وينجرف وراءها خلق يضلون عن دين الله جل وعلا بسبب الامتحان والافتتان الذي يحصل لهم ؛ ولهذا أُمِرْنا في كل صلاة أن نتعوذ بالله من فتنته قبل أن نسلّم ((وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ)) ، والصحابة كانوا أيضا يجلسون ويتذاكرون فتنته ويحذِّر بعضهم بعضا من شره ؛ حتى يكون الإنسان على حصانة ، على معرفة به وتعوذ بالله تبارك وتعالى من شره .

((**قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ ؛ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ**)) ؛ معنى وقع في ناره : يعني إذا دعاه الدجال أن يستجيب له وقال له إن لم تستجب ألقيتك في النار ؛ فعليه أن لا يستجيب ولو أن يلقيه في النار ، وإذا ألقي في النار ما الذي سيحدُث ؟ قال عليه الصلاة والسلام : ((**فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ**)) فلا يبالي ، يصبر ويصمد ويتحمّل وإذا ألقي في النار التي معه قال: ((**وَجَبَ أَجْرُهُ**)) أي على الله ، ((**وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ**)): تحط عنه خطاياه .

((**وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ**)) ماذا يحدث ؟ قال : ((**وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ**)) الذي وقع في نهره هو الذي استجاب له ولدعوته .

((**قَالَ : قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ**)) ؛ قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ)) ، ((إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ)) ؛ وهنا فيه ارتباط بين هؤلاء وهؤلاء وكلهم شرار وصفهم بذلك عليه الصلاة والسلام ؛ الذين يتخذون القبور مساجد لأن هذه ذريعة الشرك ووسيلة وقوعه ، وشرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة هم الذين ليس عندهم إلا الشرك بالله ﷻ ، فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث بين الوسيلة والنتيجة ؛ وسيلة الوصول إلى الشرك: اتخاذ القبور مساجد سواء بالبناء عليها أو بتحري العبادة عندها ، ونتيجة ذلك: الشرك بالله ﷻ واتخاذ الأنداد .

وعلى كلٍّ ؛ فهذا الحديث العظيم حديث حذيفة بن اليمان مشتمل على فوائد عظيمة وجليلة ترتبت على هذه السؤالات المباركة التي سألها حذيفة ﷺ للنبي ﷺ ، والنبي ﷺ نصح لأمته وأبان الحجة وأوضح المحجة وبيّن السبيل وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذّرها منه ، فكان رسولاً أمينا ، وناصحاً مشفقا ، ومعلّماً رحيما صلوات الله وسلامه عليه . والواجب على أتباعه والمؤمنين به ﷺ أن يجاهدوا أنفسهم على تعلم سنته ولزوم هديه وأن يحذروا أشد الحذر من البدع والأهواء . ومن الدعوات العظيمة الثابتة عنه ﷺ في المستدرك وغيره أنه كان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : ((اللهُمَّ احْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ قَائِمًا ، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ قَاعِدًا ، وَاحْفَظْنِي

بِالإِسْلاَمِ رَاقِدَا ، وَلاَ تُشْمِتْ بِي عَدُوّاً وَلاَ حَاسِدَا ، اللهُمّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ خزَائِنُهُ بِيَدِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ خَزَائِنُهُ بِيَدِك)) وهي دعوة عظيمة جداً وجامعة لخير الدنيا والآخرة .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السادس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وقال أبو العالية : «تَعَلَّمُوا الإِسْلاَمَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلاَمُ ، وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ» انتهى .

تأمل كلام أبي العالية رحمه الله تعالى هذا ما أجلّه ،واعرف زمانه الذي يحذّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام ، وتفسير الإسلام بالسنة والإسلام ، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب ؛ يتبين لك معنى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١] **وقوله :** ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢] ، **وقوله تعالى :** ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة:١٣٠].

وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول والناس عنها في غفلة . وبمعرفته يتبين معاني الأحاديث في هذا الباب وأمثالُها ، وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمنٌ مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبانوا آمِنٌ مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**وقال أبو العالية : تَعَلَّمُوا الإِسْلاَمَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلاَمُ ، وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ هنا ساق المصنف رحمه الله هذه الوصية العظيمة الجامعة لأبي العالية رحمه الله وغفر له ، وهي

وصية من جوامع الوصايا وأعظمها ، وقد أورد المصنف رحمه الله هذه الوصية في موضعها ؛ لما ساق رحمه الله الآيات والأحاديث في إقامة الوجه للدين حنيفاً والبعد عن الانحراف والأهواء والضياع والضلال أورد هذه الوصية الجامعة في تحقيق هذا الغرض الذي هو إقامة الوجه للدين ، وهي وصية من جوامع الوصايا وأنفعها .

وهذه الوصية تشتمل على عدة أمور أوصى بها أبو العالية رحمه الله :

- الأولى : الوصية بتعلم الإسلام ؛ قال: ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ**)) : أي لا يكفي أن يقول الإنسان عن نفسه "أنا مسلم وأصلي مع المصلين وأصوم مع الصائمين" دون أن يعطي الإسلام حظاً من وقته لتعلمه ومعرفته ومعرفة ما يضاده ويناقضه ؛ فإن عدم المعرفة تؤدي إلى ضعف الدين تارة ، وإلى ذهابه عن الإنسان تارة ، بينما معرفة الإسلام ومعرفة فضائله ومعرفة ما يدخل فيه ومعرفة نواقضه ونواقصه كل ذلك من الأمور المعِينة على تحقيقه ، لأن تحقيق الإسلام لا يكون إلا بتصفيته وتنقيته من الشوائب ؛ شوائب الشرك ، وشوائب البدع ، وشوائب المعاصي . أما الشرك بالله ﷻ فإنه يناقض أصله ، والبدع تناقض كماله الواجب ما لم تكن مكفِّرة ، والمعاصي تُضْعِف ثوابه وأجره ، وكلها تؤثر على الإسلام ونيل فضائله العظام . ولهذا أوصى أبو العالية رحمه الله بتعلم الإسلام ؛ أن يعطي المسلم الإسلام حظاً من وقته في تعلمه ومعرفة فرائض الإسلام وواجباته وأيضا المحرمات في الإسلام والنواهي ، يجتهد في معرفة المأمور ليفعله ، ومعرفة المحظور لينتهي عنه ، وكيف يتسنى لشخصٍ لا يعرف المأمور ولا يعرف المحظور كيف يتسنى له الفعل والترك !! وفاقد الشيء -كما يقولون- لا يعطيه . فهذه الوصية الأولى : الوصية بتعلم الإسلام .
- ثم يتبع التعلم العمل به ، وهو مقصود التعلم ؛ مقصود تعلم الإسلام: العمل بالإسلام ، ومقصود العلم: العمل، قال علي ﷺ : «يهتف بالعلم العمل؛ فإن أجابه وإلا ارتحل» ، فالعلم مقصوده العمل والتقرب إلى الله ﷻ ، فيأتي بعد التعلم العمل ، ويكون العمل مبني على العلم وليس مبنياً على الجهل ، ومن كان عمله مبنياً على الجهل سيكثر فيه الخطأ والمخالفة وتدخل عليه البدع ، وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «من عبَد الله بغير علم كان ما يفسِد أكثر مما يصلح» ؛ ما يفسد : أي في عبادته وعمله ؛ لأن عبادة الله ﷻ والتقرب إليه إنما يكون بفعل ما أمر ، وما أمر الله ﷻ به يحتاج إلى علم ؛ أن يتعلم المسلم شرع الله تبارك وتعالى ودينه . فالوصية الثانية : العمل بالعلم والمحافظة على الإسلام الذي تعلمه المسلم وعرفه .
- ثم الوصية الثالثة : عدم الرغبة عنه إلى غيره من الأمور التي تناقصه أو تصادمه أو تعارضه أو تخالفه ، ولهذا قال رحمه الله: ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) ؛ قوله «فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ» أي إذا تعلمتموه وعملتم به ، وهذا واضح «فلا ترغبوا عنه» : لا ترغبوا عنه إلى غيره لا في جانب العلم ولا في جانب العمل ؛ لا في جانب العلم بالانشغال عن علم الإسلام بالعلوم القائمة على الكلام مثلا أو الفلسفة أو نحو ذلك مما يتولد من تعلمها مناقضة الإسلام أو معارضته أو مخالفته ، ولا أيضاً في جانب العمل لا ترغبوا عنه

بممارسة أعمالٍ لم تُشرع وعبادات لم يأذن الله ﷻ بها ، فهذه الوصية الثالثة ؛ أوصى بالعلم والعمل ثم حذّر من الرغبة عن الإسلام قال : ((**فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) . وقوله «فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ» يدل عليه ما تقدم في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ؛ «لا ترغبوا عنه» : أي لا تبغوا غيره بدلاً ولا ترضوا بغيره عوَضاً عنه ، بل هو الدين الحق والدين القويم الذي من حفظه وحافظ عليه سعِد في الدنيا والآخرة .

- قال: ((**وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) وهذه الوصية الرابعة : لزوم الصراط المستقيم ؛ الصراط : الطريق ، والمستقيم : أي غير المعوج ، الذي لا انحراف فيه ، «وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ» والصراط المستقيم هو صراط المنعَم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، والمنعَمُ عليهم : هم أهل العلم والعمل والثبات عليه إلى الممات. والمغضوب عليه: من يعلم ولا يعمل . والضال: من يعمل بلا علم . والصراط المستقيم لزومه بالاستقامة على العلم والعمل ، ولهذا لما أوصى بالعلم والعمل وعدم الرغبة عنه أوصى بلزوم صراط الله المستقيم قال تعالى:﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣] ؛ والمستقيم: هو الذي يوصِل إلى الغاية والمطلوب بأخصر وأقرب طريق ، ولا يوصل إلى المقصود بأقرب طريق إلا الطريق المستقيم ، وقد عرفنا من صفات صراط الله ﷻ : الاستقامة واليسر والسعة .

قال: ((**فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) قول أبي العالية رحمه الله الصراط المستقيم الإسلام يدل عليه : حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي سبق الإشارة إليه ، قال ﷺ : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ،وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، وَالصِّرَاطُ : الْإِسْلَامُ –وهذا هو معنى قول أبو العالية هنا : «وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ»–، وَالسُّورَانِ : حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ : كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) وهو حديث حسن رواه الأمام أحمد وغيره ، وأفرده ابن رجب رحمه الله في جزء مفرد عظيم النفع كبير الفائدة. قال : ((**فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) أي الصراط .

- قال: ((**وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا**)) ؛ وهذا فيه الوصية بالاستقامة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت:٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢] ؛ الاستقامة: هي السير باعتدال على الصراط وبدون انحراف عنه لا يمينًا ولا شمالا ؛ وإنما يمضي مستقيمًا على صراط الله المستقيم، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : «لا يروغ روغان الثعلب» ، الثعلب عندما ينطلق لا ينطلق مستقيماً وإنما تجده يذهب يميناً وشمالاً ، يميناً وشمالاً ، لا يستقيم في سيره وإنما يروغ ذات اليمين وذات الشمال مرة يمين ومرة شمال ؛ فالذي يسير على الصراط لا يصلح أن يكون هذا سيره ، مرة ينحرف عن الصراط يميناً

ومرة شمالا، مرة تأخذه الأهواء ومرة تأخذه الشبهات ، فمثل هذا السير لا يصلح من المؤمن الذي يريد لنفسه السعادة ونيل فضائل الإسلام العظيمة .

- قال: ((**وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ**))؛ وهذه وصية سادسة : الوصية بالسنة ولزومها والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ ، وأن يكون المعوَّل عليها والرد إليها والأخذ منها وأن تكون هي المحكَّمة والمؤمَّرة على النفس، ومتى ما كانت السنة هي المحكَّمة صلح حال الإنسان، بخلاف ما إذا كانت الأهواء هي المحكمة عنده، وقد قال بعض السلف : «من أمّر السنة على نفسه نطق بالحكمة» ، قال مالك رحمه الله : «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق». فأوصى بسنة النبي عليه الصلاة والسلام .
- ثم ختم بأمر سابع وهو : التحذير من الأهواء ، قال: ((**وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ أي احذروها وابتعدوا عنها وجانبوها وكونوا منها على حذر . والوصية بالسنة والتحذير من هذه الأهواء وصية متكررة عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، وكثيراً ما يجمع ﷺ في وصيته بين الترغيب في السنة والتحذير من الأهواء ، وكان إذا خطب الناس ﷺ قال: ((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا)) ، وفي حيث العرباض قال: ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)) ؛ فكثيراً ما يأتي الجمع بين الوصية بالسنة والتحذير من الأهواء والبدعة .

قال: ((**وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ أي احذروها . والأهواء أمورٌ تدخل على قلوب الناس فتعبث بها وتحرفها عن الإسلام ؛ فبدل أن تكون الرغبة في القلب هي الرغبة في الإسلام وأعماله وتفاصيله ، تكون الرغبة متجهة إلى أمور أخرى وأعمال أخرى ليست من الإسلام بل ربما مضادةٌ له ومناقضةٌ له ، وكل غير مستجيبٍ للرسول ﷺ فيما دعا إليه وأمر به متبعٌ لهواه كما قال ﷻ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[القصص:٥٠] وكل غير مستجيبٍ للرسول ﷺ فهو متبعٌ لهواه ، والهوى إذا وُجد في القلب أعمى الإنسان عن رؤية الحق وأصمه عن سماعه ؛ الأهواء تعمي وتُصم ، فحذّر رحمه الله في خاتمة وصيته من هذه الأهواء.

انتهى كلام أبو العالية رحمه الله ، وهو موجود في بعض كتب السنة بالإسناد إليه ، ومن المصادر التي فيها هذا الأثر العظيم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للحافظ اللالكائي رحمه الله .

لما أنهى المصنف رحمه الله ذِكر هذا الأثر العظيم عقّب بالتنبيه على فوائد هذا الأثر العظام الجوامع من هذا الإمام الجليل أبي العالية رحمه الله .

قال المصنف : ((**تأمل كلام أبي العالية رحمه الله**)) ؛ تأمل : أي انظر في كلامه بتدبر وتأمل وتأنٍ ، ولا تقرأه مروراً سريعاً ، لأنك إن قرأته مروراً سريعاً لا تبقى معك الفائدة العظيمة التي اشتمل عليها هذا الأثر ، هذا الأثر

كلماته قلائل لو جمعتها إلى بعض لا تكمل ثلاثة أسطر لكنه جامعٌ للخير ، وشأنه كما قال ابن القيم في كلام السلف عموماً «كلامهم قليل كثير البركة ، وكلام الخلف كثير قليل البركة» ؛ فكلام قليل لكنه مليء بالعلم ، بالخير ، بالإيمان ، بالإسلام ، بالترغيب ، بالترهيب ، بالوصية بالسنة ، بالتحذير من الأهواء ، بالثبات ، بالاستقامة ؛ معاني كثيرة جداً تجدها موجودة في هذا الأثر العظيم .

فيقول المصنف : ((**تأمل كلام أبي العالية رحمه الله هذا ما أجلّه**)) ؛ وهذا ثناء على الكلام ووصف له بأنه كلام جليل عظيم متين مليء بالفائدة والنفع .

((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء**)) ؛ يقول الشيخ : وأنت تقرأ هذا الكلام أيضا أحضِر في ذهنك الزمان الذي قال فيه أبو العالية هذه الوصية ، متى قال هذه الوصية ؟ هل قالها في القرن السادس؟ السابع ؟ الثامن ؟ التاسع ؟ العاشر ؟ في القرون المتأخرة ؟ استحضر الزمان وأنت تقرأ الوصية .

قال: ((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام**)) ؛ بعض الناس في الأزمنة المتأخرة إذا حُذّر من الأهواء ومن البدع يتعاظم هذا التحذير ويتكاثره ، ولسان حاله يقول : أين الأهواء حتى نُحذَّر منها !! وأين البدع حتى نُنهى عنها !! ، وربما قال : نحن والحمد لله على الإسلام والسنة وعلى الاستقامة ما عندنا شيء من الأهواء ولا عندنا بدع فلِمَ التحذير منها وما الحاجة إلى النهي عنها !! ، وربما قال بعضهم بهذا الأسلوب "بدعة بدعة!! ما في إلا بدعة" ؛ يتكاثرون التحذير من الأهواء والبدع والنهي عنها ، مع أن أئمة السلف رحمهم الله لهم مصنفات خاصة ، أدركوا خطورة البدع فأطالوا في النهي عنها والتحذير منها وجمع الدلائل في بيان خطورتها .

فالمصنف هنا ينبّه يقول : وأنت تقرأ هذا الأثر المشتمل فيما اشتمل عليه على التحذير من الأهواء والبدع والتحذير عن الرغبة عن الإسلام إلى حيث الأهواء والبدع ؛ أيضا استحضِر الزمان الذي قيل فيه هذا الكلام ، فإن استحضارك للزمان يوجِد عندك تأثر أكثر بهذا الأثر ؛ لماذا؟ لأنك ستقول: إذا كان هذا الإمام قال هذا الكلام في زمانه فكيف بزماننا!! والناس في كل عام يُرذلون ، فلئن كان الناس في زمانه يحتاجون إلى هذا التنبيه فالحاجة إلى ذلك في زماننا أبلغ وأمسّ .

وأعظم من نهي أبي العالية عن ذلك نهي النبي ﷺ المتكرر في كل خطبة ((وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)) ، والذي أمامه صحابته الأخيار من المهاجرين والأنصار ؛ أنصار الدين وأعوانه ، ويكرر في كل خطبة ((وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)) ، ولما أوصاهم وصية ذرفت منها عيونهم ووجلت منها قلوبهم كما في حديث العرباض بن ساريه قالوا «كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا» فقال في وصيته : ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تمسكوا بها وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) . ولا يزال السلف تتوالى وصاياهم بالتحذير من البدع والنهي عنها وبيان خطورتها وضررها على الإنسان ، والنقول عنهم في ذلك كثيرة .

استحضار الزمان الذي قيلت فيه هذه الوصية فيه فائدة؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله : ((**واعرف زمانه الذي يحذّر فيه من الأهواء**)) أبو العالية ما هو زمانه ؟ أبو العالية من طبقة كبار التابعين ، وطبقة كبار التابعين هم من أدركوا كثير من الصحابة ، وأبو العالية رُفَيع بن مهْران الرياحي رحمه الله أدرك زمن النبي ﷺ ولم يلقه ولم يسلِم كان على الشرك ، ولقي أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأسلم في خلافته ، وروى عن جمْعٍ من الصحابة منهم عمر وعلي وابن عباس وآخرين من أصحاب النبي ﷺ ، فمنّ الله عليه بالإسلام وبلزوم السنة ، وكلٌ من الإسلام والسنة نعمة عظيمة، ولهذا كان يقول -كما في شرح الاعتقاد للالكائي وغيره- : «ما أدري أي النعمتين عليّ أعظم : إذ أخرجني الله من الشرك إلى الإسلام ، أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوى» ؛ يقول: لا أدري أي النعمتين أعظم !! نعمة الإخراج من الشرك إلى الإسلام ، أو نعمة المحافظة على السنة مع البعد عن الأهواء والحذر منها، كلٌ منهما نعمة عظيمة جداً فلا أدري أي النعمتين أعظم ؛ مشيراً إلى عظمة هاتين النعمتين ، فكان كثير التحذير رحمه الله من الأهواء والبدع . والأهواء بدأت تظهر في الناس ، وفي ذاك الوقت -في أواخر عهد الصحابة- بدأت تظهر بذور الفرق المنحرفة الضالة وأنكرها الصحابة وتبرؤا منها ، وتبرأ منها أعلام التابعين وأعيانهم ، وتبرأ منها كل من كان على نهج السلف وجادّتهم وطريقهم .

الشاهد أن التحذير من الأهواء إذا كان في زمان أبي العالية زمن أكابر التابعين الذين أدركوا الصحابة ولقوا الصحابة وأخذوا عنهم فكيف بالأزمان المتأخرة ؟! فالمصنف ينبه على هذه ؛ كأنه يقول إذا كان في ذاك الزمان الحاجة ماسة إلى التحذير من الأهواء فكيف بزماننا ؟

قال: ((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام**)) ؛ وهذه فائدة : إتباع الأهواء رغبة عن الإسلام ، لأن الأهواء ليست من الإسلام ؛ الإسلام هو شرع الله الذي أمر به وأذِن به ﷻ في كتابه وسنة نبيه ﷺ ، والأهواء ليست منه ، فمن رغب في الأهواء فهو راغب عن الإسلام ، قال: ((يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام)) وهذا واضح في كلام أبي العالية المتقدِّم ((**فلا ترغبوا عنه**)) ؛ أي الإسلام ، إلى أين ؟ إلى حيث الأهواء المخالفة له .

قال: ((**وتفسيرَ الإسلام بالسنة**)) ؛ «تفسير» معطوفة على «زمانه» ، يعني واعرف زمانه وتفسيره . هذا أمر آخر اعرِفه ؛ اعرِف تفسير الإسلام بالسنة ، حيث فسر أبو العالية رحمه الله الإسلام بالسنة ولزوم الصراط المستقيم الذي كان عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام ؛ فأيضا اعرِف أن الإسلام هو سنة النبي ﷺ وهي صراط الله المستقيم.

((**وخوفه**)) ؛ أيضا هذه معطوفة على «زمانه» ؛ اعرِف زمانه ، وتفسيره الإسلام بالسنة ، وخوفه . خوفه على من؟ يخاف على مَن مِن الأهواء ؟

قال: ((**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم**)) ؛ لأنه هو من طبقة كبار التابعين ، الطبقة الثانية التي تلي الصحابة ، لما قسّم العلماء أمة محمد عليه الصلاة والسلام أو أهل العلم إلى طبقات : الطبقة الأولى الصحابة ، والطبقة الثانية كبار التابعين منهم أبو العالية ، فوصيته هذه وصية لأكابر علماء التابعين وأعلامهم.

((**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب**)) ؛ وخروج الإنسان عن السنة والكتاب بماذا؟ بالأهواء ، ولعلكم تذكرون حديث معاوية الذي أشار المصنف فيما سبق إليه وذكر طرفاً منه وفيه قول النبي ﷺ : ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء)) ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ)) ، فكان يخاف على أعلام التابعين وأعيانهم وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب بسبب الأهواء التي تجرف .

وهنا أيضا لك أن تقول واعظاً نفسك وغيرك : إذا كان أبو العالية رحمه الله خاف على علماء التابعين وأعيانهم وأعلامهم من الأهواء أن تجرفهم وتبعدهم عن الكتاب والسنة فكيف بمن هو ليس من العلماء ؟! وكيف بمن هو في الأزمنة المتأخرة ؛ لا علم ولا أيضا قُرب زمان ؟! فالخوف على من كان في زمانٍ متأخر ولا علم عنده بالكتاب والسنة أشد ، أضِف إلى ذلك أن مع قلة العلم وبُعد الزمان عن السنة ثمة مخاطرة بالدين ، تجد الواحد لا يبالي ؛ يسمع لأهل الأهواء لأهل البدع يقرأ لكل أحد يخاطر بدينه .

عبد الله ابن المبارك كان مرةً في مجلس فدخل عليه رجل من أهل الأهواء وأراد أن يقرأ آية من القرآن ، فقال أخرجوه عني ، قال آية من كتاب الله ، قال أخرجوه عني، فلما أخرِج قيل إنما أراد أن يقرأ عليك آية من كتاب الله!! فقال عبد الله ابن المبارك وهو من أئمة السلف وعلماء التابعين : «خشيت أن يطرح في قلبي شبهة تجلجل في صدري حتى أموت» ، تجلجل: يعني تتقلب في قلبي وفي صدري حتى أموت ما أستطيع أن أخرِجها . وكان طاووس يمشي مع ابنه فمروا برجل من أهل الأهواء فأراد أن يتكلم فأدخل طاووس أصبعيه في أذنيه وقال لابنه إبراهيم أدخل أصبعيك في أذنيك ، فلما بدأ يتكلم ذلك الرجل صاحب الهوى التفت طاووس إلى ابنه إبراهيم وقال: «يا إبراهيم أشدُد» يعني أدخل أصابعك جيداً في أذنيك بحيث لا يصل إليك ولا كلمة .

يخافون من الأهواء وعندهم علم وفقه ومعرفة بالسنة ، وفي الأزمنة المتأخرة لا علم ولا فقه ولا معرفة بالسنة وتجده يجلس أمام القنوات الفضائية يسمع لكل أحد!! وتجده يجلس أمام الشبكة العنكبوتية يقرأ لكل أحد !! وتجده يفتح كل مجلة ويقرأ كل كتاب ولا علم عنده !! ولهذا ترى في زماننا هذا وبكثرة يسأل الناس عن بدع ومحدثات ، يتصلون بأهل العلم ويقولون هل يجوز أن نذكر الله بكذا وكذا ؟ هل يجوز أن نفعل كذا في اليوم عشر مرات ؟ وهي بدع ليس لها دليل ولا لها أصل ، فيُقبِلون على سماع أشياء يحتاجون بعد ذلك إلى سؤال أهل العلم لتنبيههم على خطئها ، ثم هل يقتنع بأنها خطأ أو لا يقتنع هذه مسألة ثانية ، بعضهم مع قول أهل العلم له أن هذا الأمر لا أصل له ربما تستهويه البدع وتستميله وتجرفه لا يقتنع ، وربما قال له مضِل : "دعك من هؤلاء ؛ ما بقي شيء ،

كل شيء بدعة ، ما تركوا شيء" ، وقوله "ما تركوا شيء" أي من البدع ، أما من الإسلام ما حذّر منه أهل العلم ولا يحذّرون منه ، وإنما يحذّرون ما خالف الإسلام وما لا دليل عليه في الإسلام وما لا دليل عليه في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ودأب أئمة العلم وعلماء السلف في قديم الزمان وحديثه الترغيب في الإسلام الذي هو السنة والتحذير من الأهواء التي هي البدع المحدثات ، ولكن بسبب الجهل وتراكمه على الناس أصبح التحذير من البدع يعد خطئًا ، لِمَ ؟ للرغبة في البدع من جهة ، والرغبة عن السنن من جهة أخرى . ولهذا يظهر في بعض المجتمعات إقبال شديد على بدع لا يفرِّط فيها! وفي المقابل يفرط في فرائض من فرائض الإسلام ، مثلاً صلاة الفجر لا يحافظ عليها وبعض البدع لا يفرط فيها مهما كان الأمر ومهما كانت ظروفه ومهما كانت أحواله ، ويفرط في فرائض !! ، ولم تُحدَث بدعة ولم تُقم بدعة إلا أميت في مقابلها سنة أو سنن كما نبه على ذلك أهل العلم . فالمسألة جدُّ خطيرة ؛ يحتاج الإنسان إلى أن يجاهد نفسه على العلم والتعلم والسنة ومعرفتها ، ولا يخاطر بدينه بالسماع لكل أحد والقراءة لكل أحد ، فهذا نوع من المخاطرة بالدين وقد حذّر منه أهل العلم في قديم الزمان وحديثه .

قال: ((**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب يتبين لك**)) ؛ أي بهذا التأمل ، إذا تأملت في هذه النقاط في أثر أبي العالية :

١- إذا تأملت زمانه.

٢- إذا تأملت تفسيره للإسلام بالسنة .

٣- إذا تأملت تخويفه لأعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب .

إذا تأملت في هذه النقاط يتبين لك معنى قوله تعالى:﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾، وقول إبراهيم:﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ معنى هذه الكلمة تظهر لك بتأمل كلام أبي العالية؛ لماذا ؟ لأن في الناس خلْقٌ يقول كل واحدٍ عن نفسه إنني مسلم ، وبعضهم ليس عنده من الإسلام إلا اسمه -إلا اسم الإسلام- ، وبعضهم عنده الإسلام وعنده بعض أمور الإسلام لكن عنده أمور مخالفة له ، وبعضهم عنده شيء من أعمال الإسلام وعنده أمورٌ تنقض الإسلام ؛ يعبد غير الله ، يشرك مع الله غيره في العبادة ، يستغيث بغير الله ، يطلب المدد من غير الله ، يصرف عبادة لغير الله ، عنده أعمال من أعمال الإسلام وعنده عقائد تهدم الدين ، والله يقول : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] ؛ يكون عنده أمور محبطة ، الله جل وعلا قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥] ، قد يكون عند الإنسان أعمال ولكن عنده أيضا محبطاتٌ لها ، فيقول أنت إذا تأملت في هذه النقاط المتقدمة ستعرف معنى

﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ ،كأنه يريد أن يقول : ليس الإسلام مجرد انتساب ، ليس الإسلام تدين بما يريد العبد وما يهوى من أعمال ، ليس الإسلام ممارسات كيفما كانت ، الإسلام : استسلامٌ لله بما شرع ؛ استسلام لله بالإخلاص ، بما شرع : أي بلزوم الكتاب والسنة ، فمن لم يستسلم لله فجعل مع الله شريك ليس بمسلم ، ومن رغب عن دين الله الذي هو في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فليس بمسلم ؛ الإسلام هو الاستسلام لله بما شرع ﷻ وبما أمر الله ﷻ عباده به .

فيقول : أنت إذا تأملت الكلام المتقدم ستعرف معنى هذه الآية وغيرها من الآيات التي فيها الأمر بالإسلام والاستسلام لله ﷻ ، وستعرف أنه لا يكفيك حظاً ونصيباً من الإسلام مجرد الانتساب أو مجرد أعمال معيّنة وبالمقابل مناقضة ومخالفة للإسلام في العقيدة أو العمل، لا يكفي، أو أن يرغب الإنسان عن الإسلام باتباع الأهواء لا يقيم للكتاب والسنة وزناً ، ويجعل إمامه هواه ، أو يجعل إمامه متبوعه من أئمة الضلال ودعاة الباطل ، أو يجعل إمامه ذوقه ، أو نحو ذلك من الأمور التي بسببها وبسبب التعويل عليها حدث في كثير رغبة عن الإسلام إلى حيث الضلال والباطل .

قال: ((**وقوله**)) أي أيضاً يتبين لك معنى قوله : ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ؛ يتبين لك الإسلام الذي وصى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بنيهم به ما هو ؟ وما حقيقته؟ فبالكلام المتقدم يتبين لك ذلك .

((**وقوله تعالى**)) أيضاً يتبين لك قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ ؛ ما هي الرغبة عن ملة إبراهيم ؟ اقرأ قول أبي العالية ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) ، ثم فسر الإسلام بالسنة فالرغبة عن السنة إلى الأهواء هذا من الرغبة عن ملة إبراهيم، لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة، لزوم شرع الله ﷻ ، وكم من أقوامٍ يمارسون عبادات وأذكار مهلكة ومضنية وشديدة ومتعِبة ولا يقيمون وزناً للأذكار المشروعة بل لا يعرفونها !! تجده لا يعرف الأذكار الصحيحة التي تقال في الصباح وفي المساء ثم يقوم في الليل على قدميه يهز وسَطَه ويقفز قفزاً ويردد كلماتٍ غير مشروعة ، فالعمل منكر والقول منكر وهو في قرارة نفسه يتقرب إلى الله ﷻ ويعبد الله ، وربما يرى نفسه من أحسن العبّاد لله ﷻ بالرقص والهز والقفز وترداد كلمات ليس من شرع الله تبارك وتعالى التقرب إلى الله بها ، حتى إن أقواماً هجروا أفضل الكلمات «لا إله إلا الله» وانتقصوا من قدرها وقالوا إن الذكر إنما يكون بالضمير «هو» ، وقالوا هذا ذكر الخواص أما العوام فلهم «لا إله إلا الله» ، ويرددون هذا الضمير بصوت واحد جماعات وربما مع قفز ورقص .

حدثني أحد من اهتدى من هؤلاء عن هذا العمل قال : كنا نجتمع في حائط -يعني في بستان- عدد كبير ونردد الضمير "هو" بصوت واحد وقتاً طويلاً ، قال لي هو نفسه بالحرف الواحد : لو كنت وراء الجدار تسمع الصوت

ولا ترى شخصنا لم يقع في قلبك شك أن من وراء الجدار ليسوا من بني آدم ، سمى لي حيواناً من الحيوانات ، وهم بزعمهم أنهم في ذكر لله ﷻ.

ثم «لا إله إلا الله» التي قال عنها عليه الصلاة والسلام ((خَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) ينتقصونها ، وفي وصية نوح لابنه قال : ((آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) ثم يرغبون عنها ويشتغلون بمثل هذه الأمور!! هذا كله من الضياع ، وهي ممارسات تُفعل وتمارس على أنها من الدين ، وأشنع من هذا وأفظع من يجعل دعائه لغير الله طالباً مدداً أو عوناً أو غوثاً من نبي أو ولي أو ملَك أو حجر أو شجر ، أو يقول في مناجاته :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

يعني نبي الله عليه الصلاة والسلام. هذا كله من ضياع الدين بالرغبة عنه وعن هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

أمور كثيرة جداً حذّر منها العلماء ونهوا عنها وبيّنوا خطورتها وهي تتكاثر في الناس وتدْرُج بينهم عندما يجهلون سنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فتأتي وصية أبي العالية في مكانها ((**تعلموا الإسلام**)) ، ولتكن هذه لك قاعدة في تعلمك ، عندما يعلمك معلم أو ينصحك ناصح بأمرٍ ما تأكد هل هو من الإسلام أو ليس منه ؟ فإذا قلت له ما دليل ذلك ؟ وروى لك دليلاً عليه : منام ، أو قال هذا شيء عرفناه بالذوق ، أو قال مثلاً هذا خلاصة أفكارنا أو أفكار مشايخنا ، إلى غير ذلك من الكلام دعه جانباً ، الإسلام : قال الله قال رسوله عليه الصلاة والسلام ، وجادة السلف رحمهم الله في تعليم الإسلام هي هذه ؛ يضعون أبواب ويذكرون تحتها آيات وأحاديث ، هذه جادّتهم؛ تعليم الإسلام بتعليم الناس كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ولا ينجي الإنسان من الهلاك إلا تعلم الإسلام الصحيح المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأيضاً بفهم السلف، والمصنف رحمة الله عليه هنا يعطيك منهجاً في فهم النصوص ، لم يستقل هو هنا بفهمه ؛ وإنما أورد لك كلام أبي العالية ونبهك على فوائده ، فالعلم الذي قدّمه لك آيات وأحاديث ثم أوضح لك معناها من كلام السلف ، وهذا هو المنهج الصحيح ؛ أخْذ العلم من الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح . بعض الناس يدخل في فهم الكتاب والسنة وفهم بعض الآيات وفهم بعض الأحاديث بتخرصات أو بخرافات ترِد على عقله ويحاول أن يركّبها فيجعلها فهماً للقرآن أو ربما سماها "فتح" ، أحد المصنفين كتب كتاباً حول القرآن سماه «الفتوح الإلهيه» خرافات كله وسماه فتوحات إلهية ويذكر فيه أشياء من الخرافات .

فهذه الأمور ينبه المصنف على الحذر منها حتى وأن سُميت ما سميت وزُينت ؛ يحذر منها ويكون في فهمه للآية والحديث مستنِداً إلى فهم السلف الصالح ، وهذه جادّة مباركة فيها السلامة وفيها الخير وفيها البركة . والمصنف لما ذكر لك الآيات في إقامة الوجه للدين والأحاديث في هذا المعنى أعقب ذلك بهذا الأثر لأحد كبار التابعين وهو أبو العالية رحمه الله ، ثم نبهك على شيء من فوائده العظيمة .

قال : ((**وأشباه هذه الأصول الكبار**)) يعني أن ذِكره لهذه الآيات الثلاث مثال ؛ وإلا فإن أثر أبي العالية يعينك على فهم القرآن والسنة الفهم الصحيح ، وليس أثر أبي العالية فقط؛ بل الآثار التي عن التابعين وأتباعهم وأئمة العلم المتقدمين تعينك على فهم كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام .

قال: ((**وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول**)) ؛ الإسلام والإيمان وأركان الإيمان وأركان الإسلام هذه الأصول الكبار العظيمة معرفتها وتعلمها والسير فيها على جادةٍ سوية وهديٍ قويم لا يكون إلا بالرجوع إلى فهم السلف الصالح ، أما إذا استقل الإنسان بفهمه فإنه قد يدخل عليه أنواع من الانحرافات يراها سداداً وهي انحراف ، قد قال الإمام أحمد : «إيَّاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةٍ لَيْسَ لَك فِيهَا إمَامٌ» يعني من السلف رحمهم الله ، لأن فهمهم أسدّ ، وقربهم من زمن النبوة وصفاء القلوب وحُسن العلم والسلامة من الأهواء ، ما كانت الأهواء تصل إليهم ، حفظهم الله ﷻ منها ، ويحافظون على السلامة من سماعها ، لا يسمع إلا السنة ، ولا يتيح فرصة لصاحب هوى أن يتكلم عنده ، هل يقارن فهم شخص بهذه الصفة بشخصٍ ذهنه مشوش وأفكاره مضطربة ويسمع يعني لكل أحد ثم يريد أن يبين معاني الإسلام وذهنه مليء بهذه التشوشات؟! هل يقارن أمثال هؤلاء بأئمة السلف في صفاءهم ونقائهم وزكائهم وحرصهم وعبادتهم !! جمعوا بين العلم والعمل ، أبو العالية علمه هذا أخذه برويّة وبأناة وبتؤدة حتى قال في ترجمته : «أذهب إلى الشخص لأتعلم عنه فأنظر في صلاته» ، فجمعوا علمهم هذا بوقت وبأناة وعن أئمة وأكابر فهل يقارن علمهم بعلم غيرهم ؟!

فإذاً فهم السلف ضرورة ، ولهذا الله ﷻ قال في القرآن : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١١٥] سبيل المؤمنين هو هذا ، ونبينا عليه الصلاة والسلام قال: ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي)) ، وقال : ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي)) ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، ومالك رحمه الله يقول : «مالم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فليس اليوم دينًا»، سيأتي معنا أثر ابن مسعود لما رأى بعض الذين يذكرون الله بصفة محدثة قال : «أما إنكم جئتم ببدعة ظلما أو فقتم أصحاب محمد علمًا» ؛ فمثل هذه الأمور تبين لك ضرورة الارتباط بفهم السلف الصالح رحمهم الله لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام .

قال: ((**والناس عنها في غفلة**)) ؛ أي هذه الأصول وهذه المعاني العظام الناس عنها في غفلة ، بسبب الجهل ، وتراكم الأهواء ، وتنوع الفتن وطرقها للناس من مجالات كثيرة ووسائل عديدة .

قال: ((**وبمعرفته يتبن معاني الأحاديث في هذا الباب وأمثالها**)) ؛ يعني أمثال هذه الأحاديث ، وهذا كما قلت ينبهك على قاعدة مفيدة وأصل شريف في العلم وهو : العناية بفهم السلف لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، ومن أنواع التفسير عند أهل العلم : تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسير القرآن بالحديث ، وتفسير القرآن بالمأثور ؛ ولهذا تقرأ في ابن جرير وابن كثير وغيرها من كتب التفسير بالمأثور عقِب كل آية ينقل لك في الغالب عن ابن عباس وعن مجاهد وعن أبي العالية وعن غيرهم معاني الآيات ، وترى في تفسير الآيات كلام مختصر جدًا لكنه فيه الكفاية والغنية ، وبعض التفاسير المطوّلة التي لم تنهج نهج السلف قيل عن بعضها: "فيه كل شي إلا التفسير"، يعني مجلدات كبار وبزعم من كتبها يفسر القرآن ولما نظر فيه العلماء قالوا هذه الكلمة "فيه كل شيء إلا التفسير"، وتجد بعض الناس يرغِّب في هذه التفاسير المتأخرة ويحذِّر من فهم السلف ويقول هذه تواكب العصر!! ولو قال تواكب البدع لكان أوفق ، وتلك تواكب السنن . وعندما يشتغل الإنسان بهذه التفاسير يذهب عن حقيقة الإيمان وعن حقيقة ما دل عليه القرآن إلى أن يسبح بأفكاره وخياله وعقله وفكره ويورِد تصورات يجعلها هو نفسه فهماً للآيات ، بمعنى أنه تصوّر أولا ثم أراد أن يفهم القرآن ، على خلاف طريقة السلف ؛ السلف رحمة الله عليهم كانوا يأتون للقرآن متجردين عن الأهواء وعن غيرها ويريد أن يفهم القرآن ، أما الخلف يأتي وعنده تصورات معيّنه ثم يريد أن يفهم الآيات على ضوء تصوراته فيلوي المعاني إلى حيث يريد ، وهذا ما يسمى بتحريف المعاني الذي كثر في كتب الخلف ، ووُجدت تفاسير مبنية على تحريف وتأويل في صفات الله في أسمائه في الأحكام وما يتعلق باليوم الأخر وأمور أخرى كثيرة وُجد فيها مثل هذه الأشياء. فالمصنف رحمه الله ينبه على هذه الفائدة العظيمة وهي ضرورة وأهمية الرجوع إلى فهم السلف وعلم السلف رحمهم الله وهو كلام كما قدَّمت عن ابن القيم قليل كثير البركة.

قال: ((**وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن**)) ؛ لاحظ هذه الكلمة مهمة جداً في التنبيه على خطأ متكاثر في الناس .

((**أما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله**)) ؛ يعني مثلاً يقرأ ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ يقول : "الحمد لله مسلم وأصلي وأنا في عافية من الرغبة عن الإسلام ، لست من هؤلاء" آمِن ، وتجده يحيط به الجهل وتحيط به البدع وتحيط به الخرافات وتحيط به الأهواء والأوهام وفي الوقت نفسه آمِن ومطمئن ، ويقرأ الآيات ويمر عليها مرات ولكنه يقول هذه لا تعنيني ، وإذا قُرأت عليه هذه الآيات

وأمثالها ونُبه على الخطأ الذي عنده في مخالفته لهذه الآيات يغضب ، وغضبه مبني على امتلاء قلبه بالهوى ، وإلا لو أن الإنسان قلبه راغب في السنة إذا حُذر من الخطأ يُقبِل لا يدبر .

قال: ((**أما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبانوا**)) ؛ يعني يقول "هذه الآيات لا تتحدث عنا" ، ربما يقول "هذه خاصة بالمشركين الذين بُعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام، هذه لا تعنينا ولا تخصنا" ، تجده يستغيث بغير الله وإذا قيل له ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٥] يقول لا ؛ هذه لكفار قريش ليس لنا بها علاقة ، ورب العالمين يقول : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٤٣] ، إذا وُجد الكفر في أي وقت ووُجد الشرك في أي زمان وبأي أسلوب ومن أي شخص الحكم واحد ، وقل هذا في عموم الآيات . والسلف بل الأنبياء كانوا يخافون على أنفسهم ، إبراهيم الخليل وهو الذي كسر الأصنام بيده ذكر الله ﷻ دعائه في القرآن قال : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] ، والنبي ﷺ قال للصحابة: ((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام لهم : ((للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل)) ، فإذا كان الإنسان آمن من الشرك وآمن من البدعة وليس خائفاً ولا يقول بصدق "اللهم أعذني من الشرك ، اللهم أعذني من البدع" آمن ويظن أنه برئ من هذه وسالم منها هذا على خطر ، وقد قال الله تعالى : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] ؛ أفأمن مكر الله أن يكون ما يكون عليه نوع من الاستدراج له ؛ إما توسعة في المال أو توسعة في الرزق أو أشياء من هذا القبيل ، ثم هو يقيم على شركيات ويقيم على بدع وعلى ضلالات ما أنزل الله بها من سلطان ثم في قرارة نفسه يرى أن عمله أصح الأعمال وعباداته أزكى العبادات؛ هذا على خطر إذا كان على هذه الصفة .

وهنا ملاحظة أشار إليها الحسن البصري رحمه الله في بعض كلامه قال: «المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمْن» ؛ المؤمن يحسن في العمل والاتباع ولزوم السنة ويجتهد في الطاعات والعبادات وهو خائف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[المؤمنون:٦٠] ، والآخر المنافق يسئ بفعل الشركيات بفعل الضلالات وهو آمن يرى نفسه من أحسن الناس وأصلحهم حالا . ابن أبي مليكة من أجلَّة التابعين أدرك عدداً من الصحابة يقول رحمه الله : «أدركت أكثر من ثلاثين صحابياً كلهم يخاف النفاق على نفسه» ؛ صلاح في العمل وخوف ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ، وغيرهم فساد في العمل وضعف في العمل وقصور في العمل وأمن!! يرى نفسه من أصلح الناس وأزكاهم وهو مضيّع في أعماله وفي عباداته وفي أموره ، فهذه

مصيبة، وصلاح الإنسان بأن يعود بنفسه إلى إتباع الرعيل الأول ؛ الصحابة ومن اتبعهم بإحسان ، يقرأ كلامهم ، يتأمل في سيَرهم يجد فيها صلاحاً وزكاءً وقدوةً ، وقد قيل :

كرر عليّ حديثهم يا حادي فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

نحن مشكلتنا الآن نقرأ لكل أحد إلا سيرة السلف ، سيرة السلف نحن في غربة عن قراءتها ومعرفتها ، ثم يريد مع ذلك الإنسان لنفسه أن يبقى على سلامة في صحة إسلامه وسنته وإتباعه .

قال رحمه الله :

وعن ابن مسعود ﷺ قال : ((خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ وقَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ رواه أحمد والنسائي .

****

ثم ختم المصنف رحمه الله هذا الباب العظيم ((باب ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا﴾)) بهذا الحديث ؛ حديث ابن مسعود لأنه يبين لك المسار الصحيح ويحذرك من المسارات المنحرفة .

فيقول ابن مسعود : ((**خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ**)) ؛ يعني خط خطاً مستقيما ليس فيه اعوجاج ولا انحراف ثم قال هذا سبيل الله .

((**ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ**)) ؛ انتبه هنا إلى فائدة لطيفة ؛ خط خطاً مستقيماً بدون الخطوط ثم قال هذا سبيل الله يعني خط مستقيم ، ثم بعد ذلك خط في جنبه خطوط عن يمينه وعن شماله وقال في وصفها : ((**هَذِهِ سُبُلٌ؛ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ أي أنك إذا أسلمت واستقمت ومشيت على الصراط سيأتيك على يمينك وعلى يسارك على مد الصراط إلى أن يتوفاك الله سيأتيك باستمرار مفترقات في الطرق .

((**وعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ وهذه السبل ترجع في جملتها إلى سبيلين : سبيل شهوة ، وسبيل شبهة . إما شبهات أو شهوات ؛ شبهات تفسد العقائد والعلوم ، أو شهوات تفسد الأعمال والسلوك ؛ وهي متنوعة ، فالسبل بتنوع ما يتعلق بالشبهات وما يتعلق بالشهوات . فهذه تأتي الإنسان مادام ماضياً على صراط الله المستقيم إلى أن يموت وهي لا تزال تأتيه ، حتى في لحظاته الأخيرة حتى في ساعات الاحتضار لا يزال الشيطان حريصاً على الإنسان وقد أيضا يرافده ويعاونه من شياطين الإنس من يحضرون عند الميت ليثبُت على الكفر أو ليثبُت على الضلال أو ليثبُت على البدعة ، فيحتاج الإنسان في سيره يعني في تحقيق معنى الآية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم:٣٠] أن لا يميل لا شمال ولا يمين ، بل يبقى مستقيماً على صراط الله المستقيم .

قال: ((**عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ هل المراد هنا بالشيطان شياطين الجن ؟ أم أنه يشمل شياطين الإنس؟ والله ﷻ قال: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام:١١٢] فليس خاصاً بهذا . ويدخل تحت قوله : ((**عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ**)) قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المتقدم في الباب نفسه : ((دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)) في النار ، فهؤلاء الدعاة قد يكونون من شياطين الجن وقد يكونون من شياطين الإنس وهم خلطاء الشر وقرناء الفساد ، ولا يلزم أن يكون الواحد منهم قريناً للإنسان ملازماً له ، الآن أصبحت الخلطة لا تختص بالمجالِس من الأشخاص بل بالمشاهَد ، وهذه وسيلة في العصر للخلطة أمام القنوات الفضائية أمام الشبكات العنكبوتية ، والآن يحصل في زماننا بسبب وجود هذه الآلات آلات الفساد يحصل خلوات غير شرعية يتورط فيها كثير من الناس ، يكون وحده في غرفة وأمامه القنوات وأمامه تلك الشبكات العنكبوتية وفيها من وسائل الانحراف في الشبهة والشهوة الشيء الكثير ، ثم يلتفت الشخص في الغرفة التي هو فيها وإذا الباب مغلق ولا أحد من الناس يراه فيكون في خلوة مع أدوات الفساد فتعبث به ، يجلس أمامها وهو مطمئن أنه لا أحد من الناس يراه ، ورب العرش يراه .

إذا خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قل علي رقيب

وربما لو فُتح عليه الباب وهو في تلك الخلوة لاستحيا من الناس أن يروه وهو يشاهد ما يشاهد وينظر إلى ما ينظر إليه ، والنبي ﷺ قال: ((اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ)) ؛ استحي ممن خلقك الذي يراك يطلع عليك في خلوتك وفي جلوتك في سرك وفي علانيتك ، ((اتق الله حيثما كنت)) ، كل هذا من ضعف الدين ورقَّته ومن مخاطرة الناس بأديانهم ، ثم ينشأ عن مثل هذه الخلوات تحلل في الأخلاق ، في العقول ، في الأفكار ، في العبادات ، في الأعمال، تبدأ حال الإنسان تتبلد ، حتى إن بعضهم مع طول مجالسته أنكر قلبه بسبب هذه الأمور .

فالدعاة على أبواب جهنم والسبل التي على كل سبيل منها شيطان في زماننا هذا اتسعت ، واستجدّت في الزمان أمور لم تكن موجودة قبل ، أصبح الإنسان في بيته وفي غرفته فساد العالم كله يصل إليه ، وكانوا قديماً الكفار سبيلهم إلى الوصول إلى عقول المسلمين أو أفراد المسلمين ضعيف جدا ، قديما قبل وجود القنوات هذه وقبل وجود الوسائل الموجودة قبل وجود وسائل الاتصال الحديثة الكافر من أين له أن يصل إلى عقل المسلم ؟ انظر قرى المسلمين في بلدانهم من أين يصل الكافر إلى عقله؟ ماله إلا طريق واحد أن يأتي ، وإذا دخل عليهم في قريتهم طردوه ما أحد يستمع له ، لكن الآن بسبب وسائل الاتصال الحديثة والقنوات وغيرها أصبحت سموم العالم وحثالات البشر وزبالات العقول وعفن الكفار كل هذه الأمور تأتي وتصُب ، وتجد الأولاد والنساء وغيرهم يسمعون ، ثم وُضعت لهم قواعد توسِّع لهم قاعدة السماع لكل أحد ، يعني مثلا يقول لماذا الانطوائية ؟ يأتون بعبارات غليظة شيئاً ما وتزاحم عقل الإنسان ويريد أن ينفك منها فلا يكون انطوائيا فينظر للإباحية مثلا حتى لا

يكون إنطوائيا ، أو ينظر لشبهات أهل البدع وأهل الضلال ، أو يقول مثلا لماذا التقوقع ؟ يأتون بعبارات غليظة يضرب بها قلب الإنسان وعقله ثم يفتح له أبواب ليسمع لكل ناعق وينظر لكل أحد حتى لا يكون بزعم أولئك متقوقعاً أو منطوياً أو منعزلاً أو متحجراً ، يقول لماذا التحجر؟ يأتون بعبارات قوية جدا ، ومن يخاطَب بهذه العبارات ضعيف العلم ضعيف الإيمان ضعيف الفهم ؛ فيريد أن لا يكون متقوقعا ولا متحجرًا ولا من أهل هذه الأوصاف فيبدأ يفتح كل شيء وينظر إلى أن تتخلخل العقائد والأعمال ، فهذه خطورة بالغة جداً يحتاج من أراد أن يقيم وجهه للدين حنيفاً أن يجاهد نفسه في البعد عن هذه الأمور وأن يحفظ نفسه من الوقوع في هذه الأشياء.

قال : ((وقَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾))؛ اللهم اجعلنا من عبادك المتقين ، وأصلح لنا شأننا كله يا رب العالمين ، وأعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأعذنا من البدع والأهواء ، واهدنا اليك صراطاً مستقيما .

والله أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ١٧ إلى الدرس ١٩

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٩/٠١ هـ

الدرس السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا.

قال الإمام شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له والشراح والسامعين :

باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء

وقول الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ **الآية** [هود:١١٦] .

****

قال المصنف رحمة الله : ((**باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء**)) ؛ ما جاء في غربة الإسلام: أي ما جاء في نصوص السنة من دلالةٍ على أن الإسلام يؤول أمره إلى غربة كما أن بدأه كان في غربة ،حيث إن الإسلام بدء غريباً وسيعود كذلك غريباً . والغريب : هو الرجل الذي غادر وطنه وبلده إلى مكان آخر لا يعرف فيه أحداً، ولهذا جاء في الحديث: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)) ؛ الغريب هو الذي يدخل بلداً ليس له فيه معرفة ، لا يعرفه الناس ولا يعرف الناس ، من يراه لا يعرفه ، وهذا أيضًا شأن الإسلام عندما يكون غريباً يصبح من يعرفه قلائل من الناس ، وأكثر الناس ينكرونه ويجهلونه ويعادونه ويعادون أعماله وخِلاله ؛ فيكون أمره غريباً ، وأمر أهله المحافظين عليه المستمسكين به الغربة كذلك ، فيكون الإسلام غريبًا ويكون أهله غرباء ، وقد جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ما يدل على فضل الغرباء وعظيم ثوابهم عند الله ﷻ .

وإيراد المصنف رحمه الله لهذه الترجمة في كتاب «فضل الإسلام» ليبين هذه الفضيلة المخصوصة للإسلام في حق من حافظ عليه وقت غربته وأن له عند الله ﷻ ثواباً عظيمًا ، فالإسلام له فضائل عظام كثيرة ويختص بمزيد فضائل عندما يكون أمره بين الناس غريبا ، فالمستمسك به في هذه الحال شأنه كالقابض على الجمر وثوابه عند الله تعالى عظيمٌ ، ولأجل ذا عقد المصنف هذه الترجمة ليبين فيها أن الإسلام يعود غريباً ، وأن ثواب الاستمساك به والمحافظة عليه وقت غربته أعظم وله ثوابٌ مخصوص ، من كان استمساكه بالدين كالقبض على الجمر من كثرة الأعداء وكثرة المنفِّرين وكثرة الشانئين ويكون مستمسكاً معتصماً محافظا فهذا له ثواب عند الله ﷻ عظيم ؛ ولهذا عقد المصنف رحمه الله هذه الترجمة في باب فضل الإسلام .

قال : ((**باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء**)) ؛ وهو في هذه الترجمة سيتحدث عن أمرين، الأمر الأول: غربة الإسلام؛ أي أن الإسلام سيعود غريباً كما بدأ غريباً .

وحتى تستحضر عوْد الإسلام غريباً كما بدأ تفكر في بدئه غريباً ؛ كيف كان أمر الإسلام ؟ جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) ؛ أبغضهم أي قاطبة . في خضم هذه الظلمة المغطية لأرجاء هذه الأرض بدأ الإسلام ، وأول من بدأ بالإسلام دعوةً إليه ونصرةً له ونشراً له هو نبينا ﷺ ؛ فبدأ وحده يدعو إلى الإسلام الصحيح ودين الله القويم الذي نزل عليه بالوحي ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء:٤٥] ، ثم آمن معه نفر قلائل ، وأول من آمن هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم آمن أيضا بلال وقلائل من الصحابة ، قلائل هم الذين أسلموا في بادئ الأمر وكان شأنهم في غربة ، هم غرباء لكن بين من ؟ يمشي جنباً إلى جنب مع والده وأمه وأخته وأخيه وعمه وخاله وجاره وهو في الوقت نفسه غريب ، غريب بين أهله ، مثله مثل شخص دخل بلد لا يعرف فيها أحد وكل من رآه أنكره ، هكذا بدأ ، وكانوا قلائل الذين كانوا مع النبي ﷺ ، حتى أنه عليه الصلاة والسلام في بدء الأمر لما سُئل عمّن أسلم معه قال : ((أسلم حر وعبد)) ؛ الحر أبو بكر والعبد بلال . وبدأ الإسلام يتزايد الداخلون فيه والمهتدون إليه ويتكاثر عددهم يوماً بعد يوم حتى دخل الناس في دين الله أفوجا ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [سورة النصر] .

فبدأ الإسلام غريباً وسيعود غريبا كما بدأ ؛ أي كما أنه بدأ غريب فستعود له غربته ، ثم ينتهي آخر الأمر عندما يبعث الله ﷻ ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى إلا شرار الخلق ((مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ)) ، و ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ)) ؛ ينتهي الإسلام ولا يكون له وجود، فيبدأ أمر الإسلام إلى الغربة ثم بعد ذلك تُرسل الريح التي تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الخلق عند الله ﷻ وأولئك الذين تقوم عليهم الساعة .

فالإسلام بدأ غريباً وسيعود غريبا ، وإخبار النبي عليه الصلاة والسلام -وهذا أهم أمر في هذا الموضوع- بعودة الإسلام غريباً ثم قوله ((طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) كما سيأتي ماذا يعني هذا ؟ يعني حض الناس ودعوتهم نصحاً منه ﷺ إلى مجاهدة النفس على الاستمساك بالدين في كل وقتٍ وحين ولاسيما وقت الغربة ، ولا يستوحش الإنسان من قلة السالكين ولا يغتر أيضا بكثرة الهالكين ، بل يجاهد نفسه على الاستمساك بدين الله تبارك وتعالى، فإخبار النبي عليه الصلاة والسلام بعوْد الإسلام غريبا كما بدأ هذا جاء على وجه النصيحة للناس أن يحرصوا على الاستمساك بدينهم والمحافظة عليه في كل وقت وحين ولاسيما عندما يكون الإسلام غريباً فتكون المحافظة عليه أمرها أشد ، والاعتصام به أمره أعظم .

قال : ((**وقول الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾**)) ؛ هذه الآية ساقها المصنف مشيراً بها إلى معنى الغربة الذي جاء إشارة إليه وذكر في القرآن ؛ وهو أن يكون أهل الحق المستمسكين به الداعين إليه قلائل بين خلقٍ كثيرين ، ففي الآية إشارة إلى هذا المعنى ولفت انتباهٍ إليه وبيانٌ لعظيم ثواب من كانوا كذلك ، ففيها إشارة إلى فضل الغرباء وعظيم ثوابهم عند الله ﷻ .

وقوله ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي : هلَّا وُجد من أهل القرون الماضية ، ﴿ أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ يعني بقايا ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ حال كثرة الفساد وانتشاره وكثرة الدعاة إليه ينهون عن الفساد في الأرض ؛ بقايا من أهل الخير والفضل أهل الدعوة إلى الله والنصح لدينه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ ولينتبه هنا إلى لفتة مهمة في الآية : أن الدعوة إلى الله ﷻ كما أنها أمرٌ بالمعروف فهي نهيٌ عن المنكر ، النهي عن المنكر جزء من الدعوة إلى الله ﷻ ، خلافاً لما يتوهمه بعض الناس أن في الأمر بالمعروف كفاية ويقولون يُؤمر الناس بالمعروف وإذا نُشر فيهم المعروف زال المنكر ؛ هذا فهمٌ خاطئ ، بل النهي عن المنكر لزيم وقرين الأمر بالمعروف ، فالأمر بالمعروف مطلوب والنهي عن المنكر مطلوب ، والأمر بالمعروف يكون بالمعروف ، والنهي عن المنكر لا يكون بالمنكر ، بل لابد من الاعتدال في الأمر والنهي ، ويكون ذلك على وجه النصيحة للعباد ودلالاتهم على الخير وإنقاذهم من الشر والفساد .

قال : ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ والمراد بالفساد في الأرض : أي بالمعاصي والذنوب واتباع الأهواء والشرك بالله ﷻ ، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] أي بعد أن أصلحها الله ﷻ ببعثة الأنبياء. ولك أن تتأمل هنا الجهود العظيمة التي بذلها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في نشر الدين الصحيح والمسلك القويم والصراط المستقيم وصحابته معه ثم أنصار الدين من بعدهم من التابعين وأتباعهم ؛ كم جهود بُذلت وأوقات بذلت في سبيل نصرة الدين ؟ إذا تأملت ذلك تدرك الجناية العظيمة التي يرتكبها أئمة الضلال ودعاة الباطل وأهل الأهواء ؛ يفسدون في الأرض بعد أن أصلحها الله ﷻ ، فهذه جناية من أكبر الجنايات ووزر من أعظم الأوزار ، تُصلَح الأرض ببعثة الأنبياء ونصرة الدين والنهي عن الفساد ويصلُح حال الناس ويمشون في الأرض على السداد والاستقامة ثم يأتي بعد هذا الصلاح أقوام يفسدون الأرض ولا يصلحون!! فيكونون دعاة إلى الأهواء ، دعاةً إلى البدع والخرافات ، دعاةً إلى الضلال ، ينصرون البدع ويزهِّدون في السنن ، هذه جناية عظيمة ،

هذا فساد في الأرض بعد إصلاحها . والغرباء ضد هؤلاء ؛ الذين ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ بدعوة الناس إلى الحق وتحذيرهم من الباطل والصبر على ذلك .

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ وهذا موضع الشاهد للغربة ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي قلائل ، فهم الغرباء ، قد ذكر الله ﷻ ثوابهم وهو النجاة ، فالناجون هم وإن كانوا قلة ، الناجون هم وإن كانوا شخصاً واحدًا . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ فكانوا معتصمين بالله ثابتين على دينه دعاةً إليه إلى أن توفاهم الله ﷻ وهم على هذا الحال . أما من سواهم فما شأنهم ؟

قال : ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ؛ شغَلَهم الترف واللهو ومُتع الدنيا الزائلة وشهواتها الفانية وملذاتها المنقضية ، انشغلوا بها عما خُلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه .

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: أي كانوا أهل إجرام ؛ أجرموا في حق أنفسهم وأجرموا في حق الناس وأجرموا في حق الأرض التي خلقهم الله ليمشوا عليها ؛ فكانوا يمشون على هذه الأرض التي خلقهم الله ﷻ ليكونوا عليها صالحين فتحولوا إلى أناسٍ يمشون على الأرض مفسدين ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥٢] ؛ فكانوا مجرمين في حق أنفسهم وفي حق الناس وفي حق الأرض إفساداً وتخريباً وتغييراً وضياعاً وانحرافاً وزيغاً ، هذا شأن أكثر الناس، وقلائل الذين اعتصموا بالله تبارك وتعالى فهداهم الله إليه صراطاً مستقيماً ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران :١٠١] .

الشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إشارة إلى حال أهل الغربة وعظيم ثوابهم عند الله تبارك وتعالى ، وأن النجاة لهم، وما سواهم فهم أهل هلكة ، قد مر معنا قريباً قول مالك رحمه الله : «السنة سفينة نوح؛ فمن ركبها نجا ومن تركها غرق» ؛ من ركبها نجا ولو كان واحداً ، وهذا يفيد الإنسان أن لا يغتر بكثرة الهالكين ولا يستوحش من قلة السالكين، بعض الناس إذا عرف السنة وفهِمها واقتنع بها وقامت عنده دلائلها وبراهينها الصحيحة الثابتة ثم ذهب إلى أهله ووطنه ووجد نفسه وحيداً في هذه السنة ومن حوله على خلافها يستوحش ، وربما ترك بعضهم السنة بسبب الاستيحاش ، وتجده لا يراقب الله وإنما يراقب الناس ماذا قالوا عنه ؟ وأي شيء يقولون عنه ؟ فتجده مع شدة مراقبته للناس يترك السنة وهو مقتنع بها ، وربما يكون أمره أشد من أولئك الذين جهلوها ؛عرفها واقتنع بها وقامت دلائلها عنده ولكنه يدعها ولا يستمسك بها التفاتاً إلى حال أكثر الناس الذين هم على خلافها وعلى نقيضها ، وربما بعضهم أيضا من هذا القبيل يشاركهم في اجتماعاتهم المحدثة الباطلة ويمارسها معهم عن غير قناعه من باب "حتى لا يقال" ، وحتى لا يكون وحيداً فريداً ، وحتى لا يُنتقد إلى آخره . فالأمر يحتاج من الإنسان إذا عرف الحق أن يلزمه وأن يستعين بالله تبارك وتعالى حتى لو وجد نفسه في وطنه وبين أهله غريباً ليس أحد على

شيء مما هو عليه ؛ يصبر ويعتصم بالله ويسأل الله تبارك وتعالى العون والثبات والهداية والسداد وأن يهديه وأن يهدي به وأن يهدي له وأن ييسر الهدى له ، يسأل الله تبارك وتعالى ذلك ويلح عليه إلى أن يتوفاه الله ﷻ وهو على هذه الحال .

قال :

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً : ((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) رواه مسلم .

****

قال : ((**وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً**)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

((**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا**)) ؛ بدء الإسلام غريباً من الابتداء ، ولهذا ذكر ما يقابل ذلك وهو العوْد ، بدأ من الابتداء ثم بعد ذلك سيعود إلى الغربة .

ومعنى بدأ غريباً : أي ابتدأ الإسلام في الناس غريباً لا يعرفه أحد ، وعرفنا أن بدأه كانت على يد رسول الله ﷺ ، صفى الله وخليله صلوات الله وسلامه عليه ، فبدأ الإسلام غريبًا ، ثم تبعه قلائل من الناس أو أفراد كانوا في أول الأمر يُعَدّون على أصابع اليد الواحدة ، ومن على وجه الأرض كلهم ينكر ذلك ،كلهم يرى أن ذلك ضلال ومنكر وأن الحق ما هم عليه وما عليه آبائهم ، بدأ غريباً ثم كتب الله ﷻ له ظهوراً ورفعة وعلواً ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة:٣٣] ، ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنه سيعود غريباً كما بدأ ؛ وهذا ابتلاء من الله ﷻ وامتحان لعباده ، ولهذا نبَّه شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله –كما في مجموع فتاواه في المجلد الثامن عشر في رسالةٍ فيها شرح لهذا الحديث– إلى أن عود الإسلام غريباً لا يعني تركه ، وإنما عود الإسلام غريباً يعني قوة مجاهدة النفس على الاستمساك به ؛ إذ الأمر يحتاج إلى قوة مجاهدة ، فليس الإخبار عن عود الإسلام غريبًا يعني ترك الإسلام ، لأن هذا الذي يتبادر إلى حال كثير من الجهلاء ؛ إذا كان الإسلام غريب وليس عليه أحد تجد كثير من الناس يقول أنا مع الناس حالي حالهم ، ((لا يَكُونُ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً)) يكون حاله من حال الناس ، ما يرى الناس عليه يمضي عليه لا يريد أن ينفرد ، وربما بعضهم عبّر بـ"لا أريد أن أكون شاذاً" .

فقوله : ((**وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا**)) ؛ هذا فيه دعوه إلى شدة الاستمساك به وشدة مجاهدة النفس على المحافظة عليه لا أن يُترك الإسلام ، والنبي ﷺ أخبر بذلك ناصحا من أجل أن يزيد الإنسان في مجاهدة لنفسه على حفظ الإسلام والمحافظة عليه .

قال : ((**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**)) ؛ قيل «طوبى»: الثواب العظيم ، وقيل الجنة ، وقيل الحسنى ، وقيل أقوال عديدة وكلها صحيحة ، لأن طوبى موعود عظيم لله ﷻ يتناول كل خير في الدنيا والآخرة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد:٢٩] ، فلهم عظيم موعود الله ﷻ وكريم نواله في دنياهم وأخراهم، وليس هذا ثوابٌ يختص بالأخرى بل كما قال ﷻ : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣] أي في دورهم الثلاثة ؛ نعيم في الدنيا ، ونعيم في البرزخ ، ونعيم يوم القيامة عندما يلقون الله ﷻ .

قال: ((**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**))؛ من هم ؟ هم الذين يستمسكون بالإسلام حال غربته ، وعندما يكون الإسلام في نفسه غريباً بين الناس – أي قلائل من الناس الذين يعرفونه – فإن المستمسكين به في هذه الحال يكونون غرباء ، ويكون المستمسك به غريبا ولو كان بين أهله ، ولو كان المجتمع الذي ولد فيه ونشا وترعرع فيه.

ثم أورد رحمه الله روايات للحديث فيها تفسير من هم الغرباء ، والذي رواه مسلم من الحديث هو هذا القدر بدون هذه الزيادة ، وقد جاء في أحاديث أخرى عنه صلوات الله وسلامه عليه تفسير الغرباء من هم؟ ما صفتهم؟ ،وهذا التفسير يعين المسلم المتأمل في هذه الأحاديث على تحقيق المعاني والصفات التي عليها أهل الغربة .

قال :

ورواه أحمد من حديث ابن مسعود ﷺ **وفيه : ((قيل مَنْ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ)) ، وفي رواية: ((الْغُرَبَاءُ : الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) ، ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص** ﷺ **وفيه : ((فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) . وللترمذي من حديث كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده: ((فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي)) .**

****

هذه روايات ساقها المصنف رحمه الله للحديث فيها تفسير وبيان للغرباء ، من هم الغرباء ؟ ، وهذه الروايات اعتنى من قبل أهل العلم بجمعها في مصنفات لما في ذلك من فائدة للمسلم ولطالب العلم ، لأن النبي ﷺ قال ((أن الإسلام سيعود غريباً)) ، وقال ((طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) فالناصح لنفسه يتساءل من هم الغرباء؟ ما صفتهم؟ ما حليتهم؟ ما أعمالهم؟ يتساءل عن ذلك ليكون محافظاً وليكون مستمسكاً ، فكتبوا في ذلك كتابات نافعة جداً ، ومن أحسن ما كُتب في ذلك : كتاب الآجري رحمه الله وهو مطبوع ، وكتاب الحافظ بن رجب رحمه الله وهو مطبوع «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» ؛ رسالة صغيرة وضمّنها فوائد في وصف حال الغربة ووصف حال الغرباء ، واعتنى بها في حديثٍ عن هذا الأمر ساقه مبني على الأدلة وعلى كلام أهل العلم وعلى نقل الآثار عن سلف الأمة .

لأن الحديث عن الغربة أحياناً يخلط فيه الناس وتجد بعض من ابتُلي بشيء من الأهواء يوظّف أحاديث الغربة لنصر هواءه ؛ وهذا أيضاً من المصائب وتأييد باطله أو فكره أو نحو ذلك ، وهذا مضرٌ بالناس ، لأن أحاديث

غربة الدين إذا وُظفت في أهواء معيّنه فهذا أيضاً من الخطورة بمكان على عوام الناس وجهالهم . وقد كان سَنن السلف رحمهم الله في هذا الباب هو الحديث عن الغربة وبيان معانيها على ضوء الآيات والمأثور عن السلف ، لا أنهم يُقحمون تصوراتٍ يفهمونها أو أفكار يصِلون إليها ثم يجعلون أحاديث الغربة متنزّلة عليها ؛ فهذا إشكال وإضرار بالناس في فهم أحاديث الغربة ، وأحاديث الغربة تُفهم على جادة السلف رحمهم الله وعلى ضوء الروايات التي وردت عن النبي ﷺ في بيان الغرباء وحالهم ، تُفهم الغربة من حال السلف وأعمالهم وصفاتهم وسَنن الصحابة ومن اتبعهم بإحسان والنهج الذي كانوا عليه ، والدين الذي كان عليه الصحابة هو الدين إلى قيام الساعة ، «وما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون ديننا إلى قيام الساعة» .

الآجري رحمه الله في كتابه «الغرباء» وهو مطبوع كما قدمت قال : «معناه والله أعلم أن الأهواء المضلة تكثر – أي في الناس– فيضل بها كثير من الناس ، ويبقى أهل الحق الذين هم على شريعة الإسلام غرباء في الناس» ، هذا تفسير ذكره الآجري رحمه الله في كتابه «الغرباء» وأشار فيه أن الغربة تكون عندما تُتبع الأهواء ويكون للأهواء دعاة فتفشو في الناس وتنتشر ثم يبقى قلائل من الناس مستمسكين بالسنة غير مغترين بالأهواء والبدع ولا ملتفتين إليها ؛ فيكون حالهم حال أهل الغربة ويكونون هم الغرباء ((الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) ؛ يصلحون : أي بتمسكهم بالسنة ، إذا فسد الناس : أي بإتباعهم الأهواء . وهذا معنى الحديث الآتي.

ساق المصنف رحمه الله روايات فيها تفسير للغرباء من هم ؟

الرواية الأولى : ((**قَالَ: النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) ؛ النزاع : من ينزع من وطنه إلى وطن آخر ، وما سبب هذا الرحيل والانتقال من الوطن ؟ يرى أن وطنه وأهله وعشيرته وقومه والمجتمع الذي نشأ فيه مجتمعٌ عم فيه الفساد وكثُر فيه الشر وكثر فيه الضياع ، ويكون قلبه خائفاً على دينه مشفِقاً على دينه ، يريد لدينه حفظاً وبقاءً ، ويجد المجتمع الذي حوله بدءً ببيته وبيت جيرانه والبيوت التي حوله والناس الذين يمشون حوله يجدهم في ضياع ؛ إما أخذتهم الشهوات مأخذاً عظيماً ، أو تلقفتهم الشبهات فحرفتهم عن دينهم ، أو جُمع لهم بين الأمرين : شهواتٌ أفسدت أعمالهم وشبهات أفسدت عقائدهم وأديانهم ، فيعيش في مجتمع هذه صفته فيرحل .

قال: ((**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) ؛ والمراد : الفارُّون بدينهم ، ينزع من قبيلته، يرحل ، يغترب ، يترك الوطن والأهل والأولاد والقرابة فراراً بدينه ، يبحث عن مكانٍ يبقى ويجاهد نفسه فيه على سلامة دينه ، ويجد نفسه في بقاءه في مجتمعه الذي أنكَر دينه فيه بقاؤه يترتب عليه ضعف دينه ورقته ، فيريد علماً ، يريد أهل علم ، يريد أهل صلاح واستقامة يصبر نفسه معهم ويجالسهم ليحافظ على دينه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف:٢٨] ؛ أمره ﷻ بالصبر ثم قال في تمام الآية: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ، فيكون راحلاً للبحث عن وطنٍ يجد

فيه قرار دينه وزيادة إيمانه وقوة يقينه وحسن صلته بالله وفقهه في دين الله ، هؤلاء هم النزاع من القبائل؛ يستنكر دينه في وطنه ويجد أموراً عمت وطمت في وطنه ليست من دين الله ؛ إما شبهات منحرفة أو شهوات متبَعة والدين في ضياع ، فينزع أي يرحل بحثًا عن دينه .

قال: ((**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) ؛ هذا أحد الأحاديث الذي ورد في تفسير الغرباء – وهو من أصح ما ورد في هذا الباب – يعني الذي يرحل من بلده ويتحمل عناء الغربة . الإنسان إذا كان بين أهله وقرابته وجيرانه أموره المعيشية أهون ، لأنه قد يذهب إلى بلادٍ يصعب عليه أمر المعاش فيها وربما يتعسر عليه أمر المعاش فيها ويجد معاناةً في هذا الباب فلا يبالي ولا يهتم ؛ لأن أمر دينه أهم وصلاح دينه ألزم عنده فلا يبالي بذلك ، قال ((**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) وهذا يدل على أن أعظم شيء استحكم في قلوبهم العناية به والاهتمام هو دينهم ؛ ولهذا لا يبالي، يرحل ويغترب ويترك الوطن مع حبه له ، والأهل مع حبه لهم وحرصه عليهم ، يرحل في سبيل حفظ دينه . قال: ((**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) ؛ هذه رواية وفيها تفسير للغرباء .

قال : ((**وفي رواية: الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**)) ؛ يصلحون : أي بالتمسك بالسنة والدين الصحيح . والصلاح يكون بتعلم الدين ومعرفته والمحافظة عليه ، مثل ما مر معنا قريباً في كلام أبي العالية الرياحي العظيم ؛ فيكون ذلك بإصلاح النفس بتعلم الدين والمحافظة عليه والثبات عليه إلى الممات .

((**إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**)) أي : بإتباع الأهواء وإتباع الشهوات ، فيكون الناس اهتماماتهم متجهة إلى أهوائهم أو جرفتهم الشبهات وحرفتهم عن دينهم ، ويكون هو صالحاً في وسط هذا الفساد .

قال : ((**ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص** ﷺ **وفيه : فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**)) ؛ وهذا بمعنى الرواية التي قبلها ، طوبى للغرباء : أي أهل الصلاح ، ولم يُذكر لدلالة السياق عليه .

قال : ((**وللترمذي من حديث كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده ((فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي**)) ؛ وهذا المعنى دلائله كثيرة وشواهده عديدة ، ومن شواهده الآية التي صدّر بها المصنف رحمه الله الترجمة ﴿ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ ينهون عن الفساد في الأرض أي : بالإصلاح فيها وإنكار المنكر وإنكار الفساد ، وهذا المعنى شواهده كثيرة جدًا ، والآيات التي فيها فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والأحاديث الواردة في هذا الباب كلها شواهد على هذا المعنى .

فهذه المعاني التي ذكر المصنف : «**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**» ، «**الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**» ، «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**» كلها صحيحة ، وكلها أوصاف صحيحة لأهل الغربة جُمعت في سورة العصر ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ﴾ ؛ فجمعوا بين صلاحٍ في أنفسهم ، وجدٍّ واجتهاد في إصلاح مجتمعهم ، وصبر على ذلك وما ينالهم من أذىً فيه ، وقد جاء عن الشافعي رحمه الله أنه قال : « كفى بهذه السورة حجة على الناس» لأنها جمعت الأوصاف التي يكون بها السلامة من الخسران ، لأن من سوى الغرباء في خسران ، متفاوتين في حجم الخسران الذي هم عليه ، ولا ينجو ولا يسلم إلا الغرباء ، والغرباء السالمون من الخسران هم أهل هذه الصفات المذكورة في سورة العصر.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته التي في المجلد الثامن عشر من مجموع فتاواه أن الغربة قد تكون في بعض شرائع الدين وقد تكون أيضاً في بعض الأمكنة ؛ يعني تذهب إلى بلد من بلدان المسلمين وأنت تعرف أن هذا البلد كان من منارات الإسلام ومن البلدان التي كثر فيها العلم والعلماء وكان لهم قوة ونشاط ، وتقرأ أحياناً بعض الكتب المختصة بتراجم أهل العلم من أهل بلدان معينة ، ثم تذهب إلى ذلك البلد فترى غربة ، وترى الذي انتشر في الناس أموراً خلاف الدين ، فالغربة قد تكون في مكان وقد تكون في أعمال ؛ يعني تجد أعمال من الدين غريبة بين الناس . ولعله يلاحَظ أن بعض الناس قد تُذكر له سنة من السنن فيسمع بها أول مرة فيستغرب ، وربما ذُكرت السنة لجماعة من الناس فيستغربونها أجمعين ، وربما حلفوا قالوا والله ما سمعنا بهذا من قبل ، وهي سنة ثابتة عن النبي ﷺ!! لكنها أصبحت غريبة بين الناس بسبب قلة العلم وضعفه ودروسه بين كثير من الناس .

فالغربة قد تكون في مكان؛ بحيث إذا بقي الإنسان في مكان يجد غربة وإذا انتقل إلى مكان آخر لا يجد غربة بل يجد أمثاله من أهل السنة المحافظين عليها كثير ، وأحيانا تشتد الغربة في الأمكنة حتى جاء عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : «إذا بلغك عن رجل في أقصى المغرب وهو من أهل السنة فابعث إليه بالسلام» ، فقد تشتد الغربة وقد يكون في وطنه وحيداً .

على كلٍّ هذه أوصاف جاءت في روايات الأحاديث في وصف الغرباء ، وما ذكره المصنف هنا هو أصح ما ورد في الباب ، وقد جاءت أحاديث أخرى في تفسير الغرباء فيها ما هو أسانيده ضعيفة وفيه ما أسانيده واهية جداً .

قال :

وعن أبي أمية قال : سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ ﷺ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ؟ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ((بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ؛ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّابِرُ فِيهِنّ مِثْلُ القَابِضِ عَلَى

الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكم)) ، قلنا: مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : ((بَلْ مِنْكُمْ)) رواه أبو داوود والترمذي .

****

قال رحمه الله : ((**وعن أبي أمية قال : سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ ﷺ **كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟**)) ؛ قد يفهم بعض الناس عندما يقرأ هذه الآية أن المراد بها أن اشتغال الإنسان بإصلاح نفسه فقط دون اجتهادٍ منه في إصلاح من حوله يكفيه ولا يضره. ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ أي إذا صلحتَ في نفسك واستقمت ليس عليك في الناس من صلح منهم ومن استقام ؛ وهذا مفهوم خاطئ وليس هو مراد الآية .

لأن قوله ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ من الهداية التي لا يضر الإنسان إذا ضل الناس إذا كان هو مهتدياً ، من الهداية المطلوبة: الدعوة والأمر والنهي ، وهي من هدايات القران وهدايات السنة ، وهي هداية مطلوبة من العبد ؛ فتركه لها ترك لجزء من الهداية ؛ لأن الأمر والنهي هداية ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧] ؛ فالأمر والنهي جزء من الهداية وهو داخل فيها . فقوله ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ من الهداية : الأمر والنهي والدعوة إلى دين الله تبارك وتعالى ؛ هذا من وجه .

ومن وجه آخر : أن دعوة صاحب الحق إلى الحق من وسائل حفظ الهداية التي عنده ، وقد قيل : «إذا لم تدعو تُدعى» ، فدعوة الإنسان إلى الحق الذي منّ الله ﷻ عليه به فيه حفظٌ للهداية التي أكرمه الله ﷻ بها ، فمن وسائل حفظ الهداية في الشخص أن يدعو الناس إليها ، وإن لم يكن كذلك أصبح هدفاً لدعوة الناس ومستهدفاً من دعاة الضلال .

قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ سأله عن هذه الآية كيف يقول في معناها ؟ قال : ((**أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا**)) ؛ ولم يقل ذلك تزكيةً لنفسه ، وإنما قالها ليُطمئن سائله بالعلم الذي أكرمه الله ﷻ به في هذا الأمر ، فإذا قال الإنسان في مسألةٍ ما أو في موضوع ما "هذه المسألة أنا عندي خبرة بها درستها شهور مثلا " هذا لا يكون تزكية ؛ إلا إذا أراد في نيته تزكية نفسه ولاحظ الرياء والشهرة وهذه المعاني ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ، أما إذا كان مقصوده النصح للناس وطمأنة قلوبهم لتحصيل الفائدة فهذا ليس من التزكية .

قال : ((**لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ** ﷺ)) ؛ ولاحظ الخبرة التي عنده في هذه المسألة علمٌ بالسنة ، مما يبين لك أن علم الصحابة هو هذا ، ولو لم يكن عنده هذا السؤال لما قال سألت عنها خبيرا ، ومن

الناس من لا يكون عنده علم بالسنة ويعدّ نفسه خبيرا ؛ فيخوض في كلام الله وفي كلام رسوله عليه الصلاة والسلام بغير علمٍ وغير فهم .

قال : ((**سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ**)) ؛أي ليس معنى قوله ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليس هذا مراد الآية بل مراد الآية : ((**بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ**)) .

((**حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ**))؛ يعني يلزم الإنسان شأن نفسه في مثل هذه الحال ؛ ما هي ؟

قال أولا : ((**إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا**)) ؛ والشح : هو بخل الإنسان الذي ملأ قلبه وأصبح في سيره في حياته أسير بخله ، يطيع بخل نفسه ولم يوق شح نفسه بل أصبح مطيعاً لما امتلأ به قلبه من البخل . ومن كان بهذه الصفة لا يلتفت إلا إلى بخل نفسه وشحِّها أين أذنه التي ستسمع وستصغي وقد سيطر على قلبه شحُّه وبخله ؟!

((**وَهَوًى مُتَّبَعًا**)) أيضا سيطر عليه أمر آخر وهو إتباع الأهواء ، تجارت به الأهواء كما يتجارى الكلَب بصاحبه ، فرمَته في أودية الضلال ومواضع الهلكة .

((**وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً**)) ؛ اهتمام الناس منصرف إلى الدنيا ليس لديهم اهتمام بالدين وليس عندهم وقت للدين والعناية به. دُنْيَا مُؤْثَرَةً يعني آثرتها القلوب وأقبلت عليها النفوس .

((**وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ**)) ؛ يصبح أصحاب الآراء كلٌّ منهم معجَب برأيه ، وإذا بُيِّنت له السنة أنكرها لمخالفتها لرأيه ، وهو معجب برأيه فينكر السنة لكونها مخالفة لرأيه .

((**وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ**)) ؛ والله ﷻ يقول : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾[الأعلى:٩] ، فإذا صار الإنسان في حال يصل فيها من حوله بهذه الصفات قال: ((**فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ**)) يعني دع عنك خلطتهم ، الزم نفسك بالحفظ لدينك والمحافظة عليه ومجاهدة النفس على الاستقامة عليه .

((**وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّابِرُ فِيهِنّ** -أي على دينه- **مِثْلُ القَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**))؛ لأن القابض على الجمر يحس بألم من قبضه على الجمرة ، وكذلك المحافِظ على الحق يجد مثل هذا الإحساس من شدة العنَت والخصومة وإنكار الناس له وتسفيههم له وطعنهم فيه إلى غير ذلك ؛ فيكون فيها كالقابض على الجمر لاستحكام أو لشدة الغربة التي يعيشها بين الناس .

قال: ((**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكم**)) ؛ فأراد الصحابة الاستفصال عن قوله ((**مِثْلَ عَمَلِكم**)) هل المراد مثل عمل الصحابة؟ أو مثل عمل من جاء بعدهم ؟

قال: ((**قلنا مِنَّا**- أي الصحابة - **أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ بَلْ مِنْكُمْ**)) ؛ أي من الصحابة .

قال أهل العلم وذلك لأن هؤلاء الذين بهذه الصفة غرباء ينصرون الدين وهو متجه إلى مزيد من الغربة ، والصحابة نصروا الدين وهو متجه إلى الخلاص من الغربة ، وكل يوم والإسلام يحقق انتصارات وعزاً ورفعة وكثرة داخلين فيه . وأيضا نبّه العلماء أن هذا لا يعني تفضيلهم على الصحابة ، بل ما حازه الصحابة من السبق ونصرة النبي عليه الصلاة والسلام ولزومه وأخذ الدين عنه فهذه أمور لا يقارنهم فيها من جاء بعدهم ، قد قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: ((لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)) ، فالأمر الذي حازه الصحابة والفضائل التي حازها الصحابة هذه لا يلحقهم فيها أحد ممن جاء بعدهم ، فالصحابة لهم فضل مخصوص لا يناله من جاء بعدهم . فقوله ((**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا**)) لا يعني تفضيل هؤلاء على صحابة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال :

وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه : ((إن من بعدكم أياماً الصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم)) .

****

ثم أورد هذه الرواية عند ابن وضاح في كتابه «البدع والنهي عنها» وهو مطبوع قال : **وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه : ((إن من بعدكم أياماً الصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم))** ؛ وتأمل هنا وصفاً للغرباء قال : ((**المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم**)) ؛ فالغريب هو الذي يتمسك بمثل ما كان عليه الصحابة ، وهذا المعنى دل عليه قول النبي ﷺ وقد تقدم عندما ذكر الافتراق قال: ((كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)).

قال :

أنبأنا محمد ابن سعيد قال أنبأنا أسد قال أنبأنا سفيان ابن عيينه عن أسلم البصري عن سعيد أخي الحسن يرفعه قلت لسفيان : عن النبي ﷺ ؟ قال نعم ، قال : ((إنكم اليوم على بينة من أمركم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في الله ولم تظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل، وسكرة حب العيش ، وستَحوَّلون عن ذلك ولا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان ، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين قيل منهم؟ قال : لا بل منكم)).

****

ثم أورد هذه الرواية التي ساقها ابن وضاح بسنده عن سعيد أخي الحسن البصري يرفعه أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو مرسل ؛ سعيد أخي الحسن إلى النبي ﷺ هذا مرسل. قال : ((**قلت لسفيان عن النبي ﷺ ؟ قال نعم**)) .

قال : ((**إنكم اليوم على بينة من أمركم**)) ما هي هذه البينة ؟

قال: ((**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في الله، ولم تظهر فيكم السكرتان سكرة الجهل وسكرة حب العيش**)) ؛ هذا الآن بيان لوصف الحالة التي كان عليها الصحابة ﷺ وبيان للدين الصحيح ، والدين الصحيح: هو ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته ، فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله ، ولم تظهر فيهم السكرتان سكرة الجهل وسكرة حب العيش .

((**سكرة الجهل وسكرة حب العيش**)) ؛ أن يمشي الإنسان في هذه الحياة في سكرة جهله يخوض فيما يخوض فيه من ضلال بسبب سكرة الجهل التي تسيطر عليه . وأيضا يخوض فيما يخوض فيه من شهوات بسبب سكرة حب العيش الذي سيطر عليه ، فهو بين سكرتين سيطرتا عليه : سكرة جهل وسكرة حب عيش ، فإذا وُجدت هاتان السكرتان لا تسأل حينئذ عن هلكة الإنسان ،جاهل ويحب الدنيا وهي أكبر همه !! ماذا ستكون حال من كان كذلك ؟ من سيطرت عليه هاتان السكرتان ؟

قال: ((**وستَحوَّلون**)) ؛ أي ستتغير الأمور تتبدل عن ذلك ، ماذا سيكون ؟ عكس المتقدم .

((**فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان**)) ؛ أي تفشو فيكم وتنتشر هاتان السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش .

ثم نصح النبي عليه الصلاة والسلام ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في مثل هذه الحال قال : ((**فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين . قيل منهم ؟ قال لا بل منكم**)) ؛ منكم : أي من الصحابة .

هذه الرواية وإن كان فيها ضعف فالمصنف لم يذكرها في هذا الباب اعتماداً وإنما ذكرها استئناساً لما فيها من معاني صحيحة ولما فيها من توضيحات ، فهي ليست كلاما يُرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام ولكنه كلام درج عند أهل العلم ، مثله مثل أقوال أهل العلم ، فهو فيه معاني صحيحة قوية مفيدة تفيد في تفسير هذا الباب وليست هي كلامًا للنبي عليه الصلاة والسلام ، لهذا جرت عادة العلماء ذكر ما لا يشتد ضعفه من المراسيل أو مثلاً فيه ضعف يسير أوفيه راوٍ ضعيفُ حفظٍ أو نحو ذلك ؛ يذكرونها على سبيل الاستئناس لا على سبيل الاعتماد .

ولو تأملت هذا الحديث ليس عمدة في هذا الباب ، العمدة في الباب مر ؛ آيات وأحاديث اتضح بها المقصود ولكن هذه روايات يُستأنس بذكرها لا أنها عمدة الباب ، وإذا تأملت المعاني التي فيها فشواهدها مبسوطة في الكتاب والسنة ، كم في القرآن من الأدلة الدالة على خطورة الجهل ؟ وكم في القرآن والسنة من الأدلة الدالة على خطورة حب الدنيا والتهالك ورائها والانشغال بها ؟ فهذا المعنى ليس معنىً العمدة فيه هذا الحديث ، وكذلك ترك

الأمر بالمعروف وترك النهي عن المنكر وترك الجهاد ليس العمدة فيه هذا الحديث ، وإنما العمدة نصوص أخرى واضحة بيّنة ، فيكون ذكر هذا على وجه الاستئناس ، وأمثال هذه الأحاديث تُذكر للاعتضاد لا للاعتماد ، وتُذكر للاستئناس بها لا لكونها عمدة في الباب ، وهذا نهج معروف عند أهل العلم من قديم ، يذكرون أمثال هذه الأحاديث من مرسلٍ ضعيف أو فيه راوٍ خفيف الضبط أو فيه ضعف أو نحو ذلك للاستئناس بذكرها .

قال :

وله بإسناد عن المعافري قال : قال رسول الله ﷺ : ((طوبى للغرباء؛ الذين يمسِّكون بكتاب الله حين يُترك، ويعملون بالسنة حين تُطفئ)).

****

وهذا مثل ما سبق ساقه المصنف رحمه الله ليستأنس بذكره ، لأن المعنى الذي فيه معنى صحيح في وصف الغربة .

قال : ((**طوبى للغرباء**)) من هم ؟

قال: ((**الذين يمسِّكون بكتاب الله حين يُترك ويعملون بالسنة حين تُطفئ**)) يعني يُطفئ نورها بين الناس ولا يكون للناس بها معرفة ، فإذا بلغ الناس هذا الحال ووُجد من هو متمسك بالكتاب والسنة فهو الغريب ، وهذا المعنى الذي دل عليه هذا الحديث في تفسيره الغربة دلت عليه النصوص المتقدمة .

هذه الترجمة عموماً ترجمة عظيمة جداً في بيان الغربة –غربة الدين– التي توجد في الناس بسبب كثرة الجهل وغلبة الأهواء والانشغال بالدنيا وحظوظ النفس والإعراض عن دين الله ﷻ ، وأورد المصنف رحمه الله فضل الغرباء الذين يتمسكون بالدين ويحافظون عليه ويدعون إليه حال تخلي أكثر الناس عنه وحال تفريط كثير من الناس به ، وأن فضلهم عند الله ﷻ عظيم وثوابهم جزيل ، قد ساق من النصوص والشواهد ما يدل على ذلك ، وساق أيضا من النصوص تفسير الغرباء ومن هم الغرباء .

ولعلك تلحظ فيما ساقه المصنف وفي طريقته رحمه الله النهج الذي ألمحتُ إليه ؛ نهج السلف الصالح رحمهم الله ، فالمصنف شأنه كأئمة السلف لا يحْمِل فكراً أو رأياً أو تصوراتٍ ابتكرها وأنشأها ودعا إليها أو أخذ يدعو إليها ، وإنما دعوته إلى دين الله ﷻ ، ولهذا لما تكلم عن الغربة وفضلها ذكر تفسيرها بسوق الروايات التي تفسِّر لنا ما هي الغربة ، وترى في الناس من يأتي ويتحدث عن الغربة وغربة الدين ليوظفها لآرائه وأفكاره ويسوّد صفحات ٍكثيرة يبث فيها فكراً نشأ عليه أو رأياً درج عليه ثم يوظف الأحاديث ، هذه ليست طريقة أهل الحق . وانظر هذه الصفحة الواحدة التي سطرها المصنف رحمه الله في الكلام عن الغربة تغنيك عن مطولات ، لأنها جمعت خلاصة الأمر وزبدة الموضوع ، ففي باب الغربة يكفيك هذا الذي ذكره المصنف ، خلاصة وافية وكافية من جهة ذِكر

الغربة ووجودها ، وذِكر فضل الغرباء وثوابهم ، وذِكر أعمال الغرباء وصفاتهم ؛ كلها اجتمعت لك في هذه الخلاصة التي سطرها المصنف رحمه الله في صفحة واحدة .

وإذا قرأت أيضاً ما ساقه هنا لا تجد له فيه كلمة واحدة ، لم يذكر كلمة واحدة ، لو كان يحمل أراءً معيّنة أو أفكاراً معيّنة أو توجهات معيّنة لبثها في كتبه ؛ لكن ليس في كتبه إلا الآيات والأحاديث ؛ ومع ذلك يشن عليه دعاة الضلال ودعاة الباطل حملات شعواء يسألهم عنها رب العالمين يوم القيامة لصدِّهم عن دين الله وصدهم عن حملته من أئمة السنة ودعاة الحق والهدى ومن أصلح الله تبارك وتعالى بهم دينه جل وعز .

وهذا الإمام – أعني الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله– إمام من أئمة أهل السنة وداعية من دعاة الحق والهدى ، وكتبه التي صنفها كلها داعية إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ قائمة على الآية والحديث والمأثور المروي من كلام السلف الصالح ، ثم كذبوا عليه وافتروا عليه كذباً يسأله عنه رب العالمين يوم القيامة، ورموه بعظائم لا يوصف بها أحاد المسلمين! حتى إن بعضهم قال إثما وزورا أنه لا يصلى على رسول الله ، وقال آخرون : لا يحب آل بيت رسول الله ، وقال آخرون.. وقال آخرون ؛ كلماتٌ ترمى هنا وهناك في الصد عن هذا الحق الذي يدعو إليه هذا الإمام .

ولهذا من وفقه الله ﷻ من هؤلاء فقرؤوا كتبه وجدوا كذب الدعايات التي بُثت والباطل الذي أشيع ، رجل ليس عنده في كتبه إلا النصح والدعوة لدين الله ﷻ ، ولهذا لما نقرأ الآن «فضل الإسلام» لهذا الإمام لا نرى له فيه كلام ، لو كان يحمل مذهباً خامساً أو يحمل فكراً أو يحمل كذا إلى آخره لبثه في كتبه ، وأولئك اكتفوا في حال هذا الرجل بدعاية بُثت بثها أعداء الدين من الكفار الأصليين ومن المنتسبين للدين من خصوم الدين وخصوم الدعوة ، لكن من وفقه الله ﷻ وقرأ ما كتبه من هذه الآيات وهذه الأحاديث لوجد حقاً .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا.

قال الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب التحذير من البدع

عن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَة وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) قال الترمذي حديث حسن صحيح .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**بابٌ التحذير من البدع**)) أي : ذكر الدلائل والشواهد الدالة على خطورة البدع وشدة ضررها على فاعليها وأهلها ، وأنها ليست من دين الله ﷻ ، وهي عبادة له جل وعلا بغير ما شرع وبغير ما أذِن به ﷻ .

وقد جعل المصنف رحمه الله هذا الباب خاتمةً لكتابه «فضل الإسلام» ؛ منبهاً بذلك أن فضائل الإسلام العظيمة وخيراته العميمة لا تُنال بالانشغال بالبدع والأهواء وبالتعبد لله ﷻ بغير ما شرع ؛ وإنما تُنال بالاستسلام لله بما شرع وبما أذِن به ﷻ وبما بعث به رسوله عليه الصلاة والسلام ، فمن أراد لنفسه تلك الفضائل العظيمة المترتبة على حفظ الإسلام والمحافظة عليه فليحذر من البدع ، وهذا هو السبب الذي لأجله أورد المصنف رحمه الله هذا الباب وجعله خاتمةً لكتابه «فضل الإسلام» .

والتحذير من البدع : أي ذكر ما يدل على وجوب الحذر منها والبعد عنها ومجانبتها ، والنصوص في هذا المعنى متكاثرة عن نبينا عليه الصلاة والسلام في تحذيره من البدع ؛ بل هو وصيته ﷺ لأمته كما في حديث العرباض بن سارية الذي ساقه المصنف رحمه الله في هذه الترجمة .

والبدع سبق الكلام على المراد بها عند ذكر قول النبي ﷺ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، فالبدعة: هي التقرب إلى الله ﷻ بما لم يشرع وبما لا أصل له في الدين ؛ بما لم يأت في الدين الأمر به أمر إيجابٍ أو أمر استحباب ، فكل قربةٍ يتقرب بها الإنسان إلى الله ﷻ لم يشرعها الله ولا أصل لها في دين الله ولا دليل عليها في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فهي من البدع المحدثات ، حتى وإن حسُن قصد صاحبها ، حتى وإن رآها صاحبها حسنةً ، ولهذا روى محمد بن نصر المروَزي رحمه الله في كتابه السنة بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» ؛ أي أنه لا يشفع للإنسان استحسانه للبدعة ورؤيته لها أنها حسنة ، كذلك لا يشفع له إعجابه بها ، كل هذه لا تفيد ، فالبدعة ضلالة مهما كان مبرر الإنسان لها ومسوغاته فهي ضلالة ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) ، والنبي ﷺ أكد هذا المعنى مرات كثيرة ؛ بل كان عليه

الصلاة والسلام في كل جمعة يقرر هذا الأمر ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) ؛ ترسيخاً لهذا الأصل العظيم ليحذر الناس من البدع ، وهذا التأكيد المتوالي منه عليه الصلاة والسلام في بيان ضلالة البدعة وبطلانها لأن قلوب كثير من الناس تستهويهم البدع وتستميلهم . وقد يدخل بعضهم في البدعة من بابٍ حسن وهو باب حب الخير –كما سيأتي معنا في أثر ابن مسعود الذي ختم به المصنف رحمه الله هذه الترجمة– فقد يفعلها الإنسان من باب إرادة الخير والرغبة فيه والحرص عليه ؛ ولكن كما قال ابن مسعود ﷺ «ليس كل من أراد الخير حصَّله» ، الذي يحصل الخير ويفوز به هو من لزم سنة النبي ﷺ وأمَّرها على نفسه ، ولهذا قال بعض السلف : «مَنْ أَمَرَّ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ وَمَنْ أَمَرَّ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ» ؛ الذي يجعل السنة هي المحكَّمة وعليها المعوَّل وإليها المرجع وهي المعتمد هذا ينطق بالحكمة ، أما الذي يطلق لهواه العِنان ويرخي له الزمام فإنه ينطق بالبدعة وتكون أفعاله وأعماله وممارساته هي البدع .

ثم إن هذا فيه تنبيهٌ إلى أن كون الإنسان من أهل السنة أو من أهل البدعة مرتبط بحقيقة عمله لا بمجرد دعواه ، إذ لا يكفي في هذا الباب ادِّعاء الإنسان أنه من أهل السنة ؛ بل لابد من وجود حقيقة هذه الدعوى بلزوم السنة ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «أهل السنة سموا أهل سنة لأنهم مظاهر ظهرت بهم السنة ، وأهل البدعة سموا أهل بدعة لأنهم مصادر صدرت منهم البدعة» ، ولهذا صاحب السنة وصاحب الحق يحتاج إلى مجاهدة لنفسه ليحذر من البدع فلا تستهويه ولا يستجِرنَّه الشيطان إلى حيث البدع ولا تستميله نفسه إلى أعمال لم يشرعها الله تبارك وتعالى ولم يأذن بها .

قال : ((**عن العرباض بن سارية ﷺ قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) ؛ قوله «**وعظنا**» ؛ الموعظة : هي النصيحة المشتملة على ترغيبٍ وترهيب ، فإذا كان النصح فيه ترغيب بالفضائل وترهيب من الرذائل وذِكرٌ للثواب والعقاب فيقال لها «موعظة» ، ففيها ترقيق للقلوب وتليين للنفوس وتأثير بما اشتملت عليه من ذكرٍ للثواب وذكرٍ للعقاب . فيقول العرباض ﷺ :((**وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) ؛ وصف ﷺ هذه الموعظة بصفات ثلاث :

الأولى: بلاغة هذه الموعظة ؛ قال «**مَوْعِظَةً بَلِيغَةً**» ، والمراد بالبلاغة هنا : إيصال المقصود بالكلام الواضح الجلي البيّن دون أن يكون فيه تعقيد أو غموض ، كلمات بليغة : أي كلمات واضحة سهلة يسيرة الفهم مؤثرة .

قال: ((**وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) هاتان الصفتان الأخريان ؛ وجلت القلوب : أي أصاب القلوب منها وجل وهو الخوف من الله ﷻ والخوف من عقابه ولانت وتأثرت . وذرفت العيون : أي بالدمع ؛ سال الدمع منها متأثرةً بهذا الوعظ من النبي ﷺ .

وقد أخذ أهل العلم من هذا الحديث ونظائره : أهمية تخوُّل الناس بالموعظة بين الفيْنة والأخرى ؛ فلا يُتركون هكذا بدون وعظ ، ولا يكون أيضاً الوعظ هو كل حديثهم ، وإنما يُتخولون بالموعظة تليينا للقلوب وجلباً لها وطرداً

لغفلتها فيُذكَّرون بالثواب والعقاب ، فلا يُترك الناس بلا موعظة ولا أيضاً تكون الموعظة هي غاية ما عندهم في العلم فلا ينشغلون إلا بها ولا يجلسون إلا لها ، لأن القلوب إذا لانت بالموعظة ولم يُبيَّن لها العلم ربما انشغلت بالبدع لأن الموعظة أوجدت فيها رغبةً في الخير وحرصاً عليه ، فإذا وُعظ الإنسان ولم يُدَل على الحق والهدى بالعلم الصحيح المسدد من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام أقبلت نفسه على العمل بلا علم ، قد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «من عبَد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلِح». ولهذا ترك الناس بلا وعظ هذا خطأ، والاقتصار على الوعظ في تعليم الناس وحده هذا خطأ ، والصواب التخوّل بالموعظة بين الفينة والأخرى والوقت والآخر حسب حاجة الناس ، ويُنشغَل بالعلم وبيانه ودلالة الناس إلى السنن . وقد صار واضحاً في حال أقوام قصروا علمهم على الوعظ وحده أن جر ذلك إلى أعمالٍ وأمورٍ لم يأذن بها اللهﷻ، وقع فيها من وقع بسبب لين قلبه وشدة حرصه وعظيم رغبته ، وفي الوقت نفسه قلة علمه بدين الله ﷻ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولعل هذا الحديث يرسم للدعاة والمعلمين منهاجاً يُحتذى ومسلكاً يُسار على ضوءه ، فهو عليه الصلاة والسلام وعظهم فطلبوا منه الوصية ، يعني وصية يعملون بها إثر تأثرهم بهذه الموعظة ؛ فلم يُقتصَر عليها ، فأرشدهم إلى التقوى ، والسمع والطاعة ، والحرص على السنة ، والحذر من البدع ؛ أوصاهم عليه صلوات الله وسلامه بهذه الوصايا العظام التي هي من العلم النافع بل هي أساس العلم الذي يُبنى عليه وتبنى عليه الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات .

قال : ((**قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا**)) ؛ ولعل هذا الحديث كما أشار بعض شرَّاحه كان في أواخر حياته ﷺ ، وكأن الصحابة أحسوا بقرب توديعه ودنو أجله عليه الصلاة والسلام فأرادوا أن يعهد إليهم بوصية وتكون هذه الوصية جامعة لأبواب الخير مقرِّرة لأصوله وقواعده فقالوا : ((**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ**)) ، وليس هناك جزم وإنما وُجد عندهم شيء من الإحساس بذلك فقالوا : ((**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا**)) .

ووصية المودِّع سواء كان مسافراً وودع أهله وقرابته ولاسيما إن كان السفر الذي يقصده طويلاً، أو كان أيضا مسافراً السفر الذي لا عودة بعده إلى أهله وهو إلى الدار الآخرة ، إلى الله ﷻ ، بمعنى أن يحس أن منيَّته دنت وأجله اقترب ، فتجد وصية من كانت هذه حاله أبلغ وأجمع وأوعب ، وقد كان من سنن الأنبياء وهديهم عند دنو الأجل العهد لذويهم ولعموم الناس بالوصية ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢] هذه وصية من يعقوب ومن إبراهيم عليهما صلوات الله وسلامه ، والله ﷻ سماها وصية ، والوصية هي قولهما : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، والعادة في الوصية أن يكون فيها كلام قليل جامع لأبواب الخير لا يُنشغل فيها

بالتفاصيل إلا عند الحاجة للتفصيل ، أما الأصل فيها أن تكون مشتملة على كلمات قلائل جامعة للخير ويفصَّل عند الحاجة ، ولهذا كان يأتي في وصايا بعض السلف شيء من التفاصيل يقتضيها المقام أو يحتاج إليها ؛ مثل قول بعضهم في وصيته : " إني أبرأ من كل حالقة وسالقة ونائحة" إذا خشي أو وُجد في مجتمع الإنسان من البدع التي تُمارس في حق من مات ، و ((الْمَيِّت يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ)) قال أهل العلم : إذا كان مُقِراً لذلك راضياً به أو داعياً إليه ، فمثل هذه الوصايا التي هي نوع من التفصيل تأتي للحاجة ؛ وإلا فالأصل أن تكون الوصية تجمع ؛ يعهد إليهم بحفظ الإسلام والمحافظة عليه ، يعهد إليهم بلزوم تقوى الله ﷻ في السر والعلانية ، يعهد إليهم بالتحذير من الأهواء واتباع حظوظ النفس والشهوات ، إلى غير ذلك من الأصول الجامعة والكليات والقواعد .

((**قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ** ﷻ)) ؛ استهل صلوات الله وسلامه عليه وصيته الجامعة هذه بالوصية بتقوى الله ﷻ، وتقوى الله ﷻ هي وصيته ﷻ للأولين والآخرين من خلقه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[النساء:١٣١] ، وهي وصية الرسول ﷺ لأمته ، وهي وصية السلف الصالح رحمهم الله فيما بينهم.

وتقوى الله : هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من سخط الله ﷻ وعقابه وقايةً تقيه . الذي يشعر ببردٍ يتقيه بملابس الشتاء ، الذي يخشى الشمس يتقيها بمظلة ، والذي يخشى عقاب الله ﷻ وسخطه يجعل بينه وبين هذا العقاب والسخط شيئاً يقيه منه . تقوى الله : هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من سخط الله ﷻ وعقابه وقايةً تقيه وذلك بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وتصديق الأخبار . وأي إخلالٍ بشيء من هذه الثلاث نقص في تقوى الله ﷻ ، ولا تتحقق هي إلا بهذه الأمور : أن يفعل العبد ما أُمِر به ، وأن ينتهي عما نُهِي عنه ، وأن يصدِّق الأخبار الواردة عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ومن أجمع ما قيل في حد التقوى : قول طلق بن حبيب رحمه الله وهو من علماء التابعين عندما سألوه عن الفتنة التي حصلت كيف الخلاص منها ؟ قال : «اتقوها بالتقوى» ، فقالوا له : أجمِل لنا التقوى ؟ اذكر لنا تعريفاً مجملاً جامعاً لتقوى الله ﷻ . فقال رحمه الله : «تقوى الله : هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله» . وهذا التعريف للتقوى هو من أحسن ما قيل في حدها ، وقد أثنى على هذا التعريف جمع من أهل العلم؛ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتلميذه العلامة ابن القيم، والذهبي ، وابن رجب، وآخرين من هل العلم . وقد جمع رحمه الله في تعريفه للتقوى بين فعل الأمر وترك النهي وفي كل منهما أن يكون الإنسان على علم ، فقوله «على نور» أي على علم ؛علم بالمأمور ليفعله وعلم بالمحظور ليجتنبه ، ثم الجمع في ذلك بين الرجاء والخوف ؛ يفعل ما أمره الله ﷻ راجياً ثوابه ، ويجتنب ما نهاه الله ﷻ عنه

خائفاً من عقابه ، ففيه إحسانٌ في العمل يرجو ثواب الله ﷻ ، وبُعدٌ عن الإساءة يخاف من عقابه ﷻ وسخطه .

وبهذا يُعلم أن تقوى الله ﷻ ليست مجرد دعوى يدّعيها الإنسان ؛ لأنه من اليسير على كل إنسان ومن السهل على كل لسان أن يقول إنني من المتقين ، فالدعوى أمرها سهل ولكن العبرة بتحقيق التقوى والقيام بحقيقتها ؛ ذلاً وخضوعاً لله ﷻ ، وقياماً بطاعته ، وبُعدًا عن نواهيه ، ومعرفةً بعظمته جل وعلا وقدرته واطلاعه ، وأنه لا تخفى عليه ﷻ خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه الغفور الرحيم ، وأنه شديد العقاب ، كل هذا تحقيق لتقوى الله ﷻ .

قال : ((**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)) ؛ أي السمع والطاعة لمن ولاه الله ﷻ أمركم ، مَن وَلِيَ أمر المسلمين السمع لكلامه والطاعة لأمره.

والسمع والطاعة لم يأت في هذا الحديث فقط السمع والطاعة لولاة الأمر ؛ بل جاء في أحاديث كثيرة جداً عنه صلوات الله وسلامه عليه تأكيداً على هذا الأمر العظيم الذي به انتظام أمر المسلمين واجتماع كلمتهم ؛ لأن انتظام أمر المسلمين لا يكون إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمعٍ وطاعة ؛ أمور مترابطة، انتظام أمر المسلمين لابد فيه أن يكونوا مجتمعين ، وإلا لو كان كل إنسان على رأسه كيف يتحقق لهم أمن!! كيف تتحد لهم كلمة !! كيف تجتمع القلوب !! كيف يؤمَن على الدماء أو الأعراض !! كيف تُستردّ الحقوق !! كيف تعاد المظالم !! الخ ، فهذا لا يتحقق إلا بجماعة ، أما إذا كانوا متفرقين لا تنتظم أمورهم أبداً ، ولا جماعة إلا بإمام ؛ لابد من وجود إمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ؛ إذا كان لهم إمام ولا يُسمع له ولا يطاع فوجوده مثل عدمه ، لا تتحقق المصلحة بمثل هذا . ولهذا تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في الحث على السمع والطاعة ، بل جاء في بعض الأحاديث ضم السمع والطاعة لولي الأمر إلى الطاعات الكبار مثل الصلاة والزكاة ، وعدُّ ذلك من أسباب دخول الجنة ، ومن خطب النبي ﷺ في حجة الوداع قوله ﷺ : ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ)) ؛ فضمّ عليه الصلاة والسلام الطاعة لولاة الأمر إلى الصلاة والزكاة والصيام ، ضمها إلى هذه الطاعات الكبيرة وجعل هذه كلها من أسباب دخول الجنة .

وهناك ارتباط بين الصلاة والصيام والزكاة وبين طاعة ولي الأمر ؛ لأن هذه المصالح الدينية العظيمة لا تتحقق للناس إلا باجتماع وأمن وسلامة وزوال للمخاوف والاعتداءات والظلم ، وهذه كلها لابد فيها من جماعة ، والجماعة لابد فيها من إمام ، ولهذا إذا لم يكن الناس في جماعةٍ أمرهم منتظم ولهم إمام قد لا يتمكنون من أداء الصلوات في المساجد ، وقد لا يتمكنون من الاجتماع فيها لطلب العلم ، وقد .. وقد .. أمور كثيرة ، والله ﷻ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، يعني بعض الناس لا يردعه عن ممارسات خاطئة واعتداءات آثمة إلا خوفه من

السلطان ، مجرد وعظه أو نهيه أو تذكيره لا يكفيه ، فالسلطان يتحقق بوجوده مكاسب كبيرة وعظيمة لأمة الإسلام ، وهذه المصالح لا تتحقق إلا بالقيام بهذا الأمر وهو السمع والطاعة .

بل إنه عليه الصلاة والسلام أكد في بعض أحاديثه على السمع والطاعة حتى وإن كان السلطان أو ولي الأمر ظالم أو جائر أو غير عدل ، وهذا السمع والطاعة على خلاف ما يفهمه بعض الناس أنه يرجع إلى شخص السلطان ، هو يرجع إلى مكانة السلطان ومنزلته ،هو ولي أمر المسلمين ، وهذه مكانة عظيمة ، فالسمع والطاعة لمكانته ومنزلته وهي ولاية أمر المسلمين ؛ فيُسمع له ويطاع حتى تنتظم الأمور وتصلح وتستقيم ، هذا إذا كانت حاله – كما أشرت – الظلم والجور والفسق والاعتداء يُسمع له ويطاع من أجل مكانته ومنزلته التي بها تنتظم الأمور ، وإلا تصبح أمور الناس فوضى؛ تراق الدماء وتنتهك الأعراض وتُستلب الأموال وتتفرق الكلمة وتعم الفوضى وينتشر الفساد إلى غير ذلك من المفاسد التي تترتب على ذلك .

بل لو فُرض أن السلطان من جوره وظلمه اعتدى على مال الشخص وأخذه ظلماً قال عليه الصلاة والسلام مؤكداً على هذا الأمر العظيم : ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) ؛ وهذا فيه تنبيه من النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن بعض الناس مقابل أخذ حقه أو عدم إيصال حقه إليه ينزع اليد من الطاعة لحظ نفسه ، وقد يكون فيه هو نفسه فيه خلل ، فيكون المقياس في باب السمع والطاعة عنده النظر إلى حظ نفسه ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨] ؛ إذا أعطي من المال رضي وبارك السلطان وأثنى عليه ، وإن لم يُعطَ أو أخِذ منه شيء من حقوقه نزع اليد من الطاعة ، فأصبح نزع اليد من الطاعة ليس مرتبطاً بقضية نصرة الدين وإنما مرتبطة بمطامع ، ولهذا عمر بن عبد العزيز جاءه مرة حال ولايته نفر من الخوارج بزعمهم أنهم يعارضونه في مال المسلمين ومصارفه ، فأخذوا يتكلمون عن المال وكان كلما أوردوا عليه شيئا أجابهم بالآية والحديث والحجة والبرهان حتى لم يبقَ عندهم شيء وسكتوا ، فلما انتهوا قالوا : نحن جئنا من بلد كذا وكذا والمسافة بعيدة وليس عندنا مال ونريد أن تحملنا على البريد حتى نذهب ، قال عجباً أنتم تكلمونني الآن في المال ولا حق لكم في مال البريد أن تُحملوا عليه ، معنى كلامه : كيف تجادلون في المال وأنتم تطالبون في أمر يتعلق بالمال لا حق لكم فيه ، ثم أعطاهم شيء من أموال الصدقة ونحو ذلك ليركبوا بها إلى بلادهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[التوبة:٦٠] .

فبعض الناس في هذا الباب يستنكف من السمع والطاعة لحظ نفسه ؛ فتجده مثلا يخوض في أعراض الولاة ويطعن فيهم وفي عدالتهم مثلا لأنه لم يجد عملاً أو لم يُعطَ مالاً أو لكونه فقيراً ونحو ذلك من المعاني ، فالنبي ﷺ نبَّه على هذا الأمر قال : ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) هذه الكلمة لو قيلت لأحد الناس «اسمع وأطع ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك» قال لا والله ، وربما أتبعها بسب وشتم ، هذا أنفة من قبول الحق ،

هذا دين؛ الذي قال ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) هو نفسه الذي قال: ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ))، فبعض الناس يتقبل الصلاة ويتقبل الزكاة ولا يأنف، وإذا جاء إلى باب السمع والطاعة يستوحش . أيضاً كُتُب أهل العلم وكثيراً ما أضرب المثال بكتاب الإمارة في صحيح مسلم ، كتاب الإمارة في صحيح مسلم مضموماً إلى كتب الصلاة الزكاة الحج الإمارة ، فبعض الناس يقرأ كتاب الصلاة وكتاب الحج ولا يستوحش وأما كتاب الإمارة يستوحش منه!! لأنه مليء بالأحاديث ((اسمع وأطع، اسمع وأطع)) ونفسه فيها هوى منعه من قبول ذلك فلا يسمع ولا يطيع ، ولهذا جاءت التأكيدات عنه ﷺ في قضية السمع والطاعة لمن ولي أمر المسلمين مراعاةً لمكانة ومنزلة من ولي الأمر ، وحفظاً لجماعة المسلمين واجتماع كلمتهم واتحاد صفهم وبقاء هيبتهم في نفوس الأعداء .

وهنا ينبغي أن يلاحظ أن العدو لا يريد للمسلمين اجتماع الكلمة ، ولهذا ربما غرس فيهم من بني جلدتهم وممن يتكلمون بألسنتهم من يُفُتُّ في الاجتماع ويخلخل الاجتماع فيتكلم من الداخل ، لأنه لو تكلم العدو الخارجي لما قُبِل منه ، فربما زرع فيهم من داخلهم من يتكلم بألسنتهم وهو من جلدتهم من يُفُتُّ في هذا الاجتماع ويخلخل هذا الاجتماع من داخله من أجل انهيار الكيان الإسلامي والكلمة الإسلامية واجتماع المسلمين . وهذا من كيد الأعداء ومكرهم بأهل الإسلام ؛ فلهذا ينبغي أن يلاحظ المسلم هذا الأمر العظيم وأن يكون محل اهتمامه وعنايته عملاً بوصية النبي عليه الصلاة والسلام ، وانظر في قيمة هذه الوصية حيث ضمها إلى تقوى الله قال: ((**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ** ﷻ ، **وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)) أي : أوصيكم بالتقوى وأوصيكم بالسمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم .

ونبّه هنا عليه الصلاة والسلام بل حذّر من الاستنكاف والاستكبار ، ولاحظ تنبيهه وتحذيره من الاستنكاف والاستكبار بقوله: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) لأن النفس قد يدخلها استكبار ، بعضهم يقول : "ومَن يكون !! لا أسمع ولا كرامة " يستكبر ولا ينظر إلى مصلحة الأمة واجتماع المسلمين وإنما ينظر إلى أنفةٍ جاهلية كانت معهودة في أهل الجاهلية ، بل من أعظم خصال الجاهلية وأبرزها ثلاث خصال : الشرك ، والفرقة ليسو جماعة ، وعدم السع ؛ الأنفة من السمع والطاعة لمن ولي الأمر ، ولهذا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لما ألّف كتاب مسائل الجاهلية بدأها بهذه الأمور الثلاثة ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ)) وذكر هذه الأمور الثلاثة ، يعني لا يجد فيها غل ؛ قلبه نظيف تجاهها ((لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَالنُّصْحُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ)) ، قلب المسلم نظيف تجاه هذه الأمور الثلاث .

قال: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) بل أيضا زاد في الأوصاف في بعض الأحاديث قال: ((وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) ؛ عبد ، وحبشي ، ورأسه كأنه زبيبة ، وأيضا اسمع وأطع ؛ هذا كله تنبيه وتحذير من قضية الأنفة والكبر التي قد توجد في قلوب بعض الناس لأي مبرر كان ، فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول لا تأنف ولا تستكبر من السمع والطاعة مهما كان الأمر وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ.

هل قوله عليه الصلاة والسلام ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) تحديد أو ضرب مثال ؟ ضرب مثال ؛ يعني اسمع وأطع هذه مصلحة للأمة ، مصلحة للمسلمين ، اجتماع لكلمة المسلمين . ((اسمع وأطع وَإِنْ تأمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) وبإجماع أهل العلم أن العبد ليس أهلاً للولاية ، لكن إن تأمّر وغَلَب وأصبحت له ولاية بالغلبة واستتب له الأمر وأصبحت الولاية بيده قال: ((اسمع وَأطع وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد حبشي)) .

بعض أهل العلم قالوا : أن قوله ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) هذا مبالغة أريد بها التأكيد على قضية السمع والطاعة في كل الأحوال .

ومن أهل العلم من قال : بل حتى ولو حصل هذا الأمر له بالغلبة ، وقد يفيد في هذا المعنى قوله: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ**)) ؛ يعني إن حصلت له ولاية عليكم بالغلبة ، تغلّب عليكم وأصبح له غلبة وأصبح له ولاية واستقر له الأمر . قال: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عبد**)) .

الشاهد أن هذا فيه تأكيد عظيم جداً على قضية السمع والطاعة والتحذير من نزع اليد من الطاعة والخروج على الولاة الذي لا يترتب عليه إلا الشرور وإراقة الدماء .

جاء نفر من أهل بغداد إلى الإمام أحمد رحمه الله وذكروا الحال التي آلت إليه ولاية أمر المسلمين وانتشار البدع بل والكفريات على أيدي بعض الولاة في زمانهم والقول بخلق القرآن وغير ذلك ، فجاء بعض علماء بغداد إلى الإمام أحمد يشاورونه في الخروج على ولي الأمر ونزع اليد من الطاعة وأخذوا يعدِّدون عليه ؛ فعَل كذا وفعَل كذا وفعَل كذا ، فناظرهم ساعة قال لهم : «اتقوا الله، لا تريقوا دماءكم ولا دماء المسلمين» ، وقال لهم : «اصبروا حتى يستريح بَر أو يستراح من فاجر» ، وقرأ عليهم الأحاديث الواردة في الباب حديثاً تلو الآخر ذكّرهم بذلك كله ، ولما خرجوا عند باب بيته بعد بيانه لهم ونصحه قالوا لحنبل بن إسحاق – ابن أخي أحمد – تخرج معنا ؟ والإمام أحمد نصحهم الآن في البيت وعند باب بيته يكلمون ابن أخيه!! قالوا تخرج معنا ؟ يقول فشاورت والدي فقال لا تصاحبهم فإنما نهاهم أحمد عن شر ، قال حنبل ابن إسحاق ثم إنهم خرجوا فقُتل منهم من قتل وسُجن من سجن، وهذه نتيجة متكررة عبر التاريخ . وابن تيمية رحمه الله في كتابه منهاج السنة استقرأ قصص من كان منهم خروج على الولاة من أجل إنكار المنكر وخرج من ذلك بخلاصة قال : «فما أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا» ؛ يعني هؤلاء الذين خرجوا خلاصة أمرهم أنهم ما أقاموا دين الذي بزعمهم أنهم سيقيمونه ، ولا بقيت دنيا الناس لأن الدماء أريقت والأموال انتهبت والأعراض انتهكت والفوضى عمّت إلى غير ذلك ، وهذا كله يأتي بسبب تضييع السنة والأنفة من فعل ما أوصى به النبي عليه الصلاة والسلام .

فعهد إليهم عليه الصلاة والسلام هنا بالسمع والطاعة قال: ((**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) وفي رواية ((حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) .

ثم قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) ؛ لاحظ بعد أمره بالتقوى والسمع والطاعة لولي الأمر أشار إلى أنه سيوجد فيما بعد اختلاف كثير ؛ وهذا علَم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، يخبِر بأمورٍ تقع في المستقبل يخبره الله ﷻ بها وينبؤه بها وتقع طبقاً لما أخبر عليه الصلاة والسلام ، فقال للصحابة الذين حوله: ((**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) ؛ من يعش منكم : أي من يطول عمره من الصحابة ويمتد به العمر فسيرى اختلاف ، أما من يموت قريباً فلا يرى ذلك ، ولهذا في آخر عهد الصحابة بدأت بذور البدع وأصول البدع الكبار وأنكروها واحدةً واحدة ، فوُجدت بدعة القدر ووُجد أيضا بدع تتعلق بالإيمان والتكفير ، وجد أيضاً بدع السبابة الذين يطعنون في الصحابة ﷺ ، وأصول البدع وجدت وأنكرها الصحابة ، كل من كان من الصحابة قد أدرك تلك البدع أعلن إنكاره لها وبراءته منها ، لما نُقل -كما في صحيح مسلم- لابن عمر بدعة القدرية قال : ((فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، ولَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ)) ثم ساق الحديث الطويل حديث جبريل ، فالصحابة ﷺ من تأخر أو طال به العمر أدرك بدايات البدع وبدايات خروجها وأنكروا ذلك . وهنا عليه الصلاة والسلام أشار إلى هذا قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) .

ثم إن تساؤلاً يأتي هنا في قلب الناصح المحب للخير الطالب للفوز والنجاة ، إذا سمع ((**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) سيرِد في ذهنه سؤال : ما هو الحل ؟ ما هو المخرج ؟ كيف النجاة ؟ هذا كما يقولون سؤال يطرح نفسه ، وقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن هذا السؤال دون أن يُسأل ؛ فذكر الاختلاف وذكر المخرج قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) ، وفي بعض الروايات ((فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) .

المخرج عند وجود الاختلاف الكثير يتلخص في أمرين لا نجاة إلا بهما ولا سلامة إلا بتحقيقهما :

- الأمر الأول : لزوم سنة النبي عليه الصلاة والسلام وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؛ قال ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**))، والخلفاء الراشدون المهديون من بعده المعنيون بهذا الحديث هم أربع ليس لهم خامس ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً)) وهي مدة خلافة هؤلاء الأربعة ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ وهم خير الصحابة .

فأوصى هنا بلزوم سنتهم ، وسنتهم ليست أمراً جديداً خلاف ما كان عليه ﷺ ؛ بل هو توطيد وتثبيت لسنة النبي ﷺ ، فليس منهم من يأتي بشيء من قِبل نفسه ، وعمر بن الخطاب ﷺ لما قال: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» – وهي كلمة كم تعلق بها من يُحدِثون في الدين – هي من هذا الباب توطيد السنة وتثبيتها ، لأنه لما جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح وأعجبه هذا الاجتماع قال: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» ، هل هذا إحداثٌ في الدين أو تثبيت

وتوطيد لسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؟ ثبت أنه ﷺ صلى بالناس التراويح واجتمعوا خلفه جماعةً في المسجد وتوقف عن ذلك ولما سألوه قال: ((خَشِيتُ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ)) ؛ هذا هو الذي منعه ، إذاً هي سنة ثابتة وتوقف عنها ﷺ خشية أن تُفرض رحمةً بأمته ، وهل هذه الخشية – خشية أن تفترض عليكم – موجودة في زمن عمر رضي الله عنه ؟ انتفت ؛ فجمع الناس ، إذاً هذا توطيد للسنة . وقوله : «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» هذه بدعة لغوية ليست بدعة شرعية ؛ لم يُحدِث في الدين ما ليس منه ، لم يخالف قول النبي ﷺ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، ثم يأتي أقوام بأمور لا أصل لها في الدين ويقولون هذه بدعة حسنة !! قد مر معنا قريبًا قول ابن عمر رضي الله عنهما : « كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» يعني لا يشفع لهم ذلك .

ثم لاحظ في الحديث وصف النبي ﷺ لهؤلاء الخلفاء بوصفين ؛ قال : ((**الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) وصفهم بهاتين الصفتين : الرشاد والهداية ؛ وهما وصفان وصف بهما رب العالمين نبيه ﷺ في قوله ﷻ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم:٢] ، فنفي الضلال يقتضي ثبوت ضده وهو الهداية ، ونفي الغواية يقتضي ثبوت ضدها وهو الرشاد ، والضلال : فساد العمل ، والغواية : فساد العلم ، وإثبات الرشاد والهداية يعني صلاح العلم والعمل .

فهنا قال عليه الصلاة والسلام: ((**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) خص هاتين الصفتين بالذكر منبهاً بذلك إلى صلاح علم الخلفاء وصلاح عمل الخلفاء ، فهم في باب العلم والعمل قدوة ؛ علمهم صالح وعملهم صالح ، فهم في العلم أهل علم نافع ، وفي العمل أهل العمل الصالح ، فأمَر بلزوم سنتهم والتمسك بها .

وقوله : ((**الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) هذا فيه تنبيه إلى ما أشرت إليه وهو: أن سنّتهم وصفها براشد ومهدي ، سنته تثبيت وتوطيد ليس عنده شيء من قِبل نفسه ، فالراشد المهدي : هو من صلُح علمه وعمله بالسنة والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فسنتهم من سنته وهديهم من هديه وطريقتهم من طريقته عليه الصلاة والسلام، وهم أبعد الناس عن البدع والأهواء وعن الوقوع فيها ، فأكد عليه الصلاة والسلام على لزوم سنتهم .

قال: ((**وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**)) بعض العلماء قال : إن مثل الإنسان في الفتن والبدع مثل شخص سقط في بحر لجي متلاطم الأمواج ووجد في هذه الأمواج الجارفة حبل ، من شدة حرصه على الخلاص لا يكتفي بمسك الحبل بيده ، يقول ربما أني أمسكه بيدي وترتخي يدي تنفلت منه ، فتجده من شدة حرصه يعض عليه بناجذه ، يُدخل الحبل في ناجذه في أضراسه ويعض عليه بقوة إضافةً إلى إمساكه بيديه ، وليته أيضا يسلم ، يخشى من الغرق . فهذا يوضح لنا ضرورة وحاجة الإنسان الشديدة في خضم الفتن والبدع والأهواء إلى الاعتصام بالسنة والتمسك بها والتعويل عليها وأن تكون هي قائد الإنسان وهي أميره يؤمّرها على نفسه .

((**عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ؛ وإذا كان عليه الصلاة والسلام أوصى في هذا الحديث بسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ولم يتهيأ للإنسان لقيا هؤلاء الخلفاء ، ولم يعطِ نفسه أيضا وقتاً لمعرفة سيَر هؤلاء الخلفاء فكيف يعَضّ بالنواجذ ؟ وإذا كان جُلّ اهتمام الإنسان في قراءاته اليومية فيما يسمى بالثقافة العامة ولا يقرأ سيَر هؤلاء وأخبارهم فكيف يعض بالنواجذ ؟ وفاقد الشيء لا يعطيه . فهذا فيه تنبيه على أهمية معرفة سيَر هؤلاء الأجلاء النبلاء الأفاضل وتكرار مدارسة أخبارهم وأخبار غيرهم من الصحابة ، فإنه بمثل هذه القراءة ومثل هذه المعرفة لسيَر وأخبار هؤلاء يتيسر للإنسان العض عليها بالنواجذ ، وإلا كيف يتسنى لشخص أن يعض بناجذيه على سنة الخلفاء الراشدين وهو ما عنده منها خبر! وليس لديه بها معرفة! ولا قرأ عنهم يوماً حرفاً !! بل يوجد في بعض المسلمين من قيل له من هم الخلفاء الراشدون الأربع ؟ قال ما أدري ، وربما غلط في أسماءهم ، مثل أن يقول بعضهم : عمر بن عفان ، أو يقول الآخر عثمان بن الخطاب ، يحصل هذا ، يعني حتى أسماءهم ما يعرفها ، وربما لو سُئل عن بعض التافهين من البشر وحثالات الناس لكان عنده معرفة تفصيلية بأسمائهم وتفاصيل حياتهم ، فكيف يتسنى للإنسان الاستنان بسنة الخلفاء الراشدين وهو ما عنده منهم خبر ولا قرأ لهم سيرة ولا وقف لهم على أثر !! فهذا فيه تنبيه على أهمية النظر في سير هؤلاء وأخبارهم وهديهم وسلوكهم ومنهجهم وطريقتهم ومجاهدة النفس على الاقتداء بهم ، هذا معنى قوله : ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**)) هذا الذي به النجاة ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**)) ، هذا الأمر الأول .

- الأمر الثاني : ((**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ، قلت فيما سبق الحديث دل على أن المخرج من الاختلاف الكثير بأمرين: الأول لزوم السنة ، والثاني : مجانبة البدعة؛ وذلك في قوله : ((**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**))؛ «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ» إياكم والأمور المحدثة التي أحدثها الناس ، أوجدوها من باب التدين والتقرب إلى الله ﷻ ، أو أوجدوها من باب النصرة للدين ، أو أوجدوها من باب ذكر الله والتقرب إلى الله .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ؛ والمراد بالأمور: أي الأمور التي أحدثت في دين الله مما ليس عليه أمر رسول الله ﷺ كما يوضح ذلك قوله: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) .

وقوله : ((**إِيَّاكُمْ**)) هذا تحذير ، كما أن قوله السابق ((**عَلَيْكُمْ**)) هذا ترغيب ، فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الباب بين الترغيب والترهيب ، رغّب في السنن وحذّر من البدع ؛ قال في السنن «عليكم بها» أي الزموها ، وقال في البدع «إياكم وإياها» أي احذروها .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) أي : إياكم وكل أمرٍ أُحدِث في دين الله لا أصل له ولا دليل عليه في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكل ما كان من هذا القبيل احذروه ، تريدون النجاة كونوا من كل أمر أحدِث في

دين الله لا دليل عليه من كتاب الله ولا من سنة النبي ﷺ على حذر ، حتى وإن أعجبك ، حتى وإن رأيته حسنا ، حتى وإن زُيّن في عينك ، حتى وإن مضيتَ عليه سنوات ، حتى وإن مضيت عليه عمرك ؛ دعه .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) ؛ وقوله : ((فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) هذه قاعدة وأصل كلي جامع لا يخرمه شيء ولا يستثنى منه شيء ، والنبي ﷺ في مثل هذه الكليات الجوامع إذا كان فيها استثناء يستثني هو عليه الصلاة والسلام نصحاً للعباد ، وقد مر معنى قوله ﷺ : ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى)) لما كان في هذا العموم استثناء استثنى عليه الصلاة والسلام ، فهنا قوله : ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) لا يستثنى منه بدعة ، حتى ما كان من البدع ما يراه الناس حسناً جميلاً جيداً نافعاً مفيداً إلى غير ذلك فهو ضلالة ، ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله كلمته العظيمة التي أوردها الشاطبي في كتابه الاعتصام قال : «قال ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول : {اليوم أكملت لكم دينكم} فما لم يكن يومئذ ديناً ، فلا يكون اليوم ديناً» ، فالبدع كلها ضلالات حتى وإن استحسنها الناس ، حتى وإن قال صاحبها "ما أردت إلا الخير" ، وهذا سيأتي معنا ، وكم من بدعة فُعلت وأصحابها لم يريدوا بها إلا الخير ، لكن هذا لا يكفي ؛ لابد مع إرادة الخير من موافقة السنة ولزومها والتمسك بها ، فمن أراد النجاة فليحذر من البدع .

قال رحمه الله :

وعن حذيفة ﷺ قال: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها ؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالا، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم» رواه أبو داود.

****

ثم أورد هذا الأثر عن حذيفة ابن اليمان ﷺ أنه قال : ((**كل عبادةٍ لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبّدوها**)) يعني كل عبادة لم تكن موجودة عند الصحابة وبين الصحابة فلا تعبّدوها ؛ لماذا؟ لأنها ليست من دين الله ، دين الله ﷻ هو الدين الذي بلّغه النبي ﷺ ومات وترك الصحابة عليه ، ولعلك تلاحظ هذا المعنى في قوله: ((إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا)) ، أما الدين فهو الدين الذي ترك النبيﷺ الصحابة عليه ، وكانت توجد بعض الأخطاء من بعض الأفراد فينبه عليه الصلاة والسلام على الخطأ في حينه ويُترك ، فالدين هو الدين الذي كان عليه الصحابة . وما نشأ بعدُ مما لم يكن عليه الصحابة فهذا ليس من دين الله ، ولهذا سيأتي إنكار ابن مسعود البدع التي وجدها في بعض مساجد الكوفة؛ أنكر عليهم بأن هذا العمل ليس معهوداً بين الصحابة فقال لهم : «لقد جئتم ببدعة ظلما أو فُقْتُم أصحاب محمدٍ عِلْما» يعني بلغتم في العلم موصلاً ودرجة لم يبلغها الصحابة .

فالدين هو ما كان عليه الصحابة ، ولهذا جاءت هذه الوصية من حذيفة قال : ((**كل عبادةٍ لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها**)) ؛ يعني كل عبادة لا يوجد عليها عمل الصحابة لا تعبّدوها ، وهذا فيه إشارة إلى الطريقة، الآن بسبب كثرة المحدثات تسمع هنا وهناك : "أنا طريقتي كذا وأنا طريقتي كذا وأنا طريقتي كذا" من الطرق المحدثة، وتحت كل طريقة من تلك الطرق المحدثة –طرق المتصوفة– تحت كل طريقة ركام هائل من البدع وزخم كبير من الضلالات لا حد لها ولا عد ، وكلٌ مفتخر بطريقته ، وكلٌ منتسب إلى طريقته بما فيها من ذاك الركام الكبير من الضلالات والبدع ، بدءً من الشرك وانتهاءً إلى أنواع كثيرة من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، فالطريقة هي طريقة الصحابة .

ما الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم ؟ قال : ((**كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبدوها**))؛ أي لتكون طريقتكم طريقتهم ومسلككم مسلكهم . ولم يرضَ هذا أقوام ، ولهذا بعضهم يقسِّم أمره؛ في الاعتقاد يعتقد عقيدة أحد مؤسسي البدع ، وفي العمل يذهب مذهب بعض أهل الخرافة والضلال وهو في بُعدٍ تام عن هدي الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

فهذه وصية عظيمة أوصى بها حذيفة بن اليمان ﷺ قال : ((**كل عبادة لا يتعبّدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها**)) ؛ هذه قاعدة عظيمة في هذا الباب ، يعني كل عبادة لم يكن لها وجود في زمن الصحابة فلا تعبَّدوها ، ولهذا وجدنا أهل العلم لما أنكروا بدعة المولد ماذا قالوا في الإنكار؟ طرحوا سؤالاً لم يجب عنه أصحاب المولد ، قالوا لهم هل أنتم أحرص على الدين وأحرص على النبي ﷺ وأبلغ في حبه من الصحابة ؟ هل أنتم أفضل في محبة النبي ﷺ من أبي بكر ومن عمر ومن عثمان ومن علي ؟ هل درجة المحبة التي عندكم أبلغ من درجة هؤلاء وأكبر ؟ الجواب : لا ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة مع شدة حرصهم وعظيم حبهم للنبي ﷺ ما منهم واحدٌ احتفل ، لم يحتفلوا لا بمولد ولا برجبية ولا شعبانية ولا ولا .. إلى غير ذلك ، هذه وجدت من بعد في القرن الثالث ((**فكل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**)) .

فإذا جاءك شخص وقال "هذا من باب كذا ومن باب كذا وهذا أمر حسن وهذا أمر عظيم" قل له : قال ابن عمر ﷺ : «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» ، والهدي القويم والصراط المستقيم هو ما كان عليه الصحابة ، يقول من يحيون المولد : "نظهِر حب نبينا عليه الصلاة والسلام" ، هل ندَّ هذا الإظهار عن أبي بكر وعمر وهم أحرص منك وغاب عنهم !! هل هو خيرٌ حجبه الله عز وجل عن الصحابة وادَّخره لك !! لو كان خيرًا لسبقوا إليه ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ممتدحًا ومثنيًا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة:١٠٠] هؤلاء أهل الثناء؛ ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ ، أما الذين أحدثوا هؤلاء شأنهم آخر ليسو من أهل هذا الثناء ، ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾وهذا يؤكد لنا

وصية حذيفة هذه ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ يعني اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، أما شخص لا يقنع بطريقتهم ولا يرضى سلوكهم ويخترع وينشئ ويُحدث ويعمل أعمالا ليست من هديهم ولا من طريقتهم فهذا خاسر ، والربح إنما يكون باتباعهم بإحسان ، قال: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ هذا معنى قول حذيفة ((**فكل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**)) .

((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)) ؛ وهذا حق ، هل تُرك لنا شيء من الحق والهدى لم يبيَّن في الصدر الأول ؟! ولم يتبين في الزمن الأول ! لم يدع لقائل مقالا ؛ ولهذا كل مقال لا يكون قائما على الكتاب والسنة ليس منطلقًا من الكتاب والسنة ليس مؤسسًا على الكتاب والسنة فهو ضلال ، لا مانع أن يتحدث العالِم على ضوء الكتاب والسنة موضحا ومبينا ؛ موضحا المعاني مبينا الدلالات رابطًا بين النصوص متكلمًا في هذا الباب بعلم وفهم وأصل ودرايةٍ من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ لا مانع من ذلك ، أما أن يُترك الكتاب والسنة ثم يتكلم الإنسان في باب العبادات من خلال الذوق ، أو يتكلم في باب العبادات من خلال التصور ، أو من خلال الفكر، أو من خلال الرأي، أو من خلال النظريات العقلية أو من خلال التجارب أو إلخ " هذا كله ضلال .

((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)) ؛ وكل مقال لم يؤسَّس على ما كان عليه الأول ولم يُبنَ على ما كان عليه الرعيل الأول فهو ضلال ؛ هذا معنى قوله ((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)).

((**فاتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ و«القراء» عندما تطلق في هذا الزمان لا يراد بها حفظة حروف القرآن ومن يجوّدونه ويحسنون مخارجه ؛ المراد بالقرَّاء : العلماء الذين جمعوا في قراءة القرآن بين العلم والعمل ، لأن الجادة التي كان عليها الصحابة في تعلم القرآن : الجمع بين العلم والفهم والعمل ، بعضهم يمكث في سورة البقرة سبع سنوات، والآن في زماننا تُعقد منافسات ويحفظ القرآن في ستة شهور !! ما الذي يحفظ في ستة شهور؟ حروف القرآن ، ابن عمر مكث في سورة البقرة سبع سنوات لماذا؟حفظ وفهم وتدبر وعمل ، فالقراء المراد بهم: من اعتنوا بالقرآن علما وعملا.

وقد ذم النبي عليه الصلاة والسلام من كان حظه من القرآن مجرد القراءة دون عناية بفهم القرآن ودون عناية بالعمل بالقرآن ، بل ذكر عليه الصلاة والسلام من حال الخوارج أنهم يقرؤون القرآن قراءةً يحقر الصحابة قراءتهم مع قراءتهم، ويصلّون صلاةً يحقر الصحابة صلاتهم مع صلاتهم ، ووصفهم مع ذلك كله بقوله : ((يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ، يعني ما يتعدى حظه من القرآن الحنجرة ؛ ما معنى الحنجرة؟ يعني صوت جميل رائع ، مخارج جميلة ، قراءة حسنة عظيمة ما يجاوز هذا الحد ، حظه من القرآن الصوت الذي يخرج من الحنجرة هذا معنى قوله ((لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ، يعني لا يتجاوز حظه من القرآن الصوت الذي يخرج من الحنجرة ، فإذا قرأ قيل ما أجمل صوته ما أحسن صوته ، أما فهم القرآن والعمل بالقرآن والعناية فهذا شأنه أمر آخر .

فقال: ((**اتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ والقراء يخصون بالوصية بالتقوى لأنهم أصبحوا بذلك موضع قدوة للناس، فإذا كان من قرأ القرآن وحفِظه مضيعاً مقصراً متهاوناً مفرطاً فكيف بمن سواه !! وإذا كانت قراءة القرآن مجرد منافسة في باب حفظ القرآن فقط دون عمل فهذا فيه خطر على الناس ، قد جاء عن الحسن البصري رحمه الله أنه ذكر جماعة من القراء في زمانه قال «يقول الواحد منهم قرأت القرآن كله ولم أسقِط منه حرفا» يعني أنني قرأته من أوله إلى آخره بدون لحن بدون أي خطأ ؛ لا في المخارج ولا في المدود ولا الخ، «وقد أسقطه والله كله ، لا يُرى عليه القرآن لا في خُلقٍ ولا في عمل» يعني إن نظرت إلى أخلاقه لا تجد فيه الأخلاق الموجودة في القرآن ، وإذا نظرت إلى أعماله لا ترى فيه الأعمال التي يدعو إليها القرآن، ثم قال رحمه الله : «ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة ، وإذا كانت القراء مثل هؤلاء لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء» ؛ هذا في زمن الحسن البصري زمن التابعين !! .

فالقراء هم أهل العلم بالقرآن والعمل بالقرآن ومجاهدة النفس على القيام بما جاء في القرآن . والآن تجد في زماننا من يشتهر بقراءة القرآن وبصوته الجميل ثم إذا رأيت أعماله تُصدم والله ، يعني تجد معاصي معروفة ومتقررة وبيِّنة في الكتاب والسنة ما يبالي بها ؛ تجد فيهم من هو حليق ، وتجد فيهم من هو مدخن وتجد فيهم من هو مسبل ثيابه ، وتجد فيهم من هو أعظم من ذلك متهاون في صلاته ينام عن صلاة الفجر وينام الخ ، بل وجد في فترة الماضية أحد مشاهير القراء افتتح أغنية لإحدى المغنيات الكبار بآيات جاء وقرأها بين يدي الأغنية !! يا سبحان الله أي حال هذه وأي أمر هذا !! وعبارة الحسن التي قالها في زمانه خفيفة في مثل هؤلاء ، وبعضهم أخذ أيضا يطوِّع القرآن وصوته بالقرآن إلى إيقاعات معيّنة تُعرف عند أهل الموسيقى وذهب بالقرآن مذهباً آخر ؛ هذا كله عبث ، وكله من عدم معرفة قدر القرآن ومكانة القرآن -تنزَّهَ كلام الله ﷻ- ، وقد قال أحد أهل العلم قديما : «من أراد أن يعرف الفرق بين كلام الله وكلام البشر فهو كالفرق بين الله وخلقه»؛ هذا كلام رب العالمين ﷻ .

فأوصى حذيفة ﷺ هذه الوصية العظيمة قال : ((**فاتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ خصهم بالوصية مع أن التقوى يوصى بها الجميع لأن القراء في موضع القدوة ، أرأيتم الآن لما ينظر الناس إلى أحد المشاهير الذين عُرفوا بالصوت الجميل وتأثر بصوته وقراءته ثم لما رأى عمله ماذا سيقول من رآه ؟ يقول إذا كان هذا بهذه الصفة فأنا من باب أوْلى ، فكم يكون على أيديهم من خطر على أعمال الناس وعلى سلوكهم ، والقرآن كما قال الحسن : «أنزِل ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملا» ، وإذا أردت أن تعرف معنى قوله «أنزل ليُعمل به» اقرأ حديث عائشة لما سُئلت عن خُلق النبي ﷺ قالت : «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» .

قال: ((**اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم**)) ؛ يعني يا معشر القراء إذا أردتم النهج السديد والمسلك القويم فخذوا طريق من كان قبلكم ، يعني انظروا في طريقة الصحابة ﷺ ، ولهذا من الحسنات الطيبة والجميلة أن مدارس القرآن ومدارس التحفيظ تسمى بأسماء مشاهير القراء من الصحابة ، هذه دعوة للطلاب أن

ينظروا إلى هؤلاء القدوات من الصحابة الأعلام قراء القرآن حفظة كتاب الله الذين جمعوا بين العلم والعمل ، وهذا فيه تنبيه من حذيفة إلى أن من أكرمه الله ﷻ بالقرآن وقراءته والجلوس لحفظه عليه أن يأخذ بطريقة الصحابة وينظر في هدي الصحابة ونهج الصحابة مع كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الدرس التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا.

قال الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين تحت باب التحذير من البدع:

وقال الدارمي: أَخْبَرَنَا الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ ، أَنْبَأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ ﷺ فَقَالَ : أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ ؟ قُلْنَا : لاَ ، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفاً أَمْراً أَنْكَرْتُهُ ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً ، قَالَ : فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ : إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ ، قَالَ : رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْماً حِلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ : كَبِّرُوا مِائَةً فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : هَلِّلُوا مِائَةً فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً. قَالَ : فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئاً انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ. قَالَ : أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء . ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ ؟ قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ : فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ ، هَؤُلاَءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ. قَالُوا : وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلاَّ الْخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَمْ

يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، وَأَيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ . ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ ﷺ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ .

والله المستعان وعليه التكلان ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

****

قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في خاتمة كتابه هذا العظيم «فضل الإسلام» تحت باب التحذير من البدع : ((**قال الدارمي**)) أي الإمام المعروف صاحب كتاب «السنن» ، وهذا الأثر ساقه الإمام الدارمي رحمه الله في سننه بسند ثابت عن رسول الله ﷺ ، وفيه قول النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج: ((إِنَّ قَوْماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ؛ وهو حديث متواتر عن النبي عليه الصلاة والسلام رواه عنه جمْعٌ من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

والمصنف رحمه الله سبق أن ساق هذا الحديث بلفظٍ آخر في موضعٍ من كتابه «فضل الإسلام» ، لكنه أعاد هذا الحديث هنا لقصة ابن مسعود ﷺ مع أصحاب تلك الحِلَق المحدثة في دين الله ﷻ ؛ لينبه المصنف رحمه الله بذلك إلى خطورة البدع حتى وإن صغُرت البدعة في عين الإنسان ، فالبدعة أياً كانت خطيرة ، والبدعة الصغيرة تولِّد البدع الكبار ؛ كما حصل لأصحاب هذه الحِلق الذين لما رآهم ابن مسعود ﷺ على تلك الحال أورد حديث النبي ﷺ في ذم الخوارج والتحذير منهم ثم قال : ((وَأَيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ)) ؛ مشيراً بذلك ﷺ إلى خطورة أن يفتح الإنسان على نفسه باب الحدث في دين الله واتباع الهوى ولو كان في أمرٍ صغير في عينه ، لأنه إذا فُتح الباب دخل الإنسان ، والبدعة –كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله– أول ما تبدأ تكون شبراً ، ثم تكون ذراعاً ، ثم تمتد إلى ما شاء الله ، فلا يفتح المرء العاقل لنفسه البدايات ؛ لأنه إذا فتح لنفسه بدايات البدع جرّته إلى بدع أخرى ، فالبدعة تولِّد البدعة ، كما أن السنة تنادي أختها ، إذا عمل المرء بالسنة وحافظ عليها نادت السنة السنن الأخرى وأصبح يرغب في السنن ، بينما إذا فتح على نفسه باب الهوى وباب البدعة فالبدعة تجُرّ إلى البدعة وتدفع صاحبها إلى بدع أخرى ، والبدع الصغار تولِّد بدعاً كباراً وينفتح على الإنسان الباب ويصبح رجوعه إلى السنة من الأمور الصعبة ، وهذا معنى الحديث المتقدم: ((إن الله احتجر التوبة عن صاحب البدعة حتى يدع بدعته)) ، ولهذا أيضاً كانت البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية ؛ لأن البدعة صغُرت أو كبُرت يفعلها من يفعلها تديّناً وتقرباً واعتقاداً لصحتها .

فالشاهد ؛ المصنف رحمه الله أعاد حديث ذم الخوارج هنا مع أنه سبق أن أورده من أجل هذه القصة العظيمة قصة ابن مسعود ﷺ مع أصحاب تلك الحِلَق الذين اجتمعوا في المسجد واجتمعوا لأجل ذكر الله ، والذكر الذي كانوا يذكرون الله به هو الكلمات التي يحبها الله ؛ سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وهذا أحب

الكلام إلى الله ، ولكن كانت الصفة ليست صفةً معهودة ولا معروفة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام بل صفة محدثة ؛ أن يجتمع جماعة ويتحلّقون ويقوم عليهم رجل ويضعون بين أيديهم حصى ثم يقول : "سبّحوا مئة " فيبدأ الجميع جماعةً يعدّون الحصى مئة تسبيحة ، فإذا انتهوا قال : "هللوا مئة " وهكذا ، فهؤلاء الذي جمَعهم هو ذكر الله ؛ أرادوا ذكر الله ﷻ ، أرادوا خيراً ، لكن النهج الذي سلكوه في إرادة الخير ليس نهجاً مشروعاً وليست جادةً مسلوكة في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

ساق المصنف رحمه الله هنا ما رواه الدارمي عن عمرو بن يحيى قال: ((**سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ**)) ؛ قبل صلاة الغداة : يعني قبل صلاة الفجر ، يجلسون عند باب عبد الله بن مسعود ؛ العالم الفقيه الإمام من علماء الصحابة وفقهاءهم ، فكانوا يجلسون عند بابه أي ينتظرون خروجه إلى المسجد ، والقصد من هذا الجلوس : الاستفادة من الوقت الذي يكون بين المسجد والبيت في سؤاله والتفقه عليه وأخذ العلم عنه ، وهذا يدل على أمرين في حق هؤلاء :

- ❖ الأمر الأول : الحرص الشديد على العلم وتحصيله والمكابدة والصبر على ذلك ، وهذا واضح جداً ؛ يأتون قبل صلاة الفجر ويجلسون عند بابه ينتظرون أن يخرج لصلاة الفجر ليمشوا معه إذا خرج فيستفيدوا علماً ، أو يستفسروا عن حكمٍ ، أو يستفتوا في أمرٍ ، أو نحو ذلك . هذا أمر واضح في جلوس هؤلاء الصحابة وهؤلاء الأفاضل عند بيته .
- ❖ الأمر الثاني المستفاد من جلوسهم : أدبهم في العلم وتحصيله ، وأدبهم في صحبة العلماء ، وهذا أمر واضح ، يعني ينتظر خروجه ، ويبكر إلى مجلس العلم أو إلى مكان العالم ، ويصحب العالم بأدب ، ويسأله بأدب ، ويستفيد من علمه ؛ فهذه صفات كانوا عليها . كلما عظُم أدب الإنسان في طلب العلم وتحصيله وأدبه مع أهله وحملته عظُم نصيبه وحظه منه ، وإذا فقد طالب العلم الأدب مع كتاب العلم ومع حملة العلم ضعُف حظه من العلم ونصيبه منه ، فهذا فيه جِدّ الصحابة في الطلب وأدبهم فيه ، فيهم من هو من الصحابة وفيهم كذلك من هو من التابعين .

قال : ((**كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ**)) ؛ وهذا يشير إلى أن هذه عادة لهم متكررة للاستفادة من ابن مسعود ﷺ ، ومن كان عرَض له استفتاء أو أمر معيّن أيضاً يتحرى هذا الوقت مثل ما حصل من أبي موسى الأشعري ﷺ .

قال: ((**فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ** ﷺ **فَقَالَ : أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا : لاَ**)) وأبو موسى الأشعري في ذاك الوقت كان أمير الكوفة ، ورأى أمراً منكراً فجاء إلى أحد كبار فقهاء الصحابة وعلماء الصحابة ليعرض عليه هذا الأمر المنكر الذي رآه ينتظر رأيه ، فجاء إلى هؤلاء وهم جلوس عند بيت ابن مسعود ﷺ وعن الصحابة أجمين ينتظرون خروجه فقال: أخرج إليكم بعد ؟ قالوا لا ؛ فجلس معهم ينتظر خروج ابن مسعود ﷺ .

((**فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ آنِفاً فِي الْمَسْجِدِ أَمْراً أَنْكَرْتُهُ ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**)) ؛ انظر عرض أبي موسى الأشعري ﷺ للأمر الذي رآه وأدبه أيضًا مع ابن مسعود ، ((**يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفاً أَمْراً أَنْكَرْتُهُ**)) لاحظ تعبيره بـ«أنكرته» ولم يقل إني رأيت أمراً منكراً ؛ جزما منه بأن الأمر منكر ، وإنما قال «أنكرته» يعني رأيت أو ظهر لي أو تبين لي أنه منكر.

((**وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**)) ؛ يعني الشيء الذي أنكرته هو في ظاهره خير؛ ذكر لله ﷻ وتسبيح وتحميد وتهليل.

((**قَالَ : فَمَا هُوَ؟**)) يعني ما هو هذا الأمر الذي رأيته وأنكرته ؟

((**فَقَالَ : إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ**)) ؛ يعني إن كتب الله عز وجل لك حياة فسترى هذا الأمر ، ولعله هنا يرِد قول الناظم :

اللهُ أَخَّرَ مَوْتَتِي فَتَأَخَّرَتْ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبَا

فيقول : أنت إن كتب الله لك حياة فسترى هذا الأمر الذي أنكرتُه وستقف عليه في المسجد كما وقفتُ عليه.

وقول أبو موسى هنا «**سَتَرَاهُ**» يدل على أن هذا الأمر أصبح متكرراً في المسجد بحيث أنه جزم بأنه سيراه لأنه أمر متكرر .

((**قَالَ : رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْماً حِلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً**)) ؛ انظر جوانب هنا جعلت أبا موسى الأشعري يقول «**وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**» :

- الجلوس في المسجد ؛ هذا أمر .
- انتظار الصلاة ؛ هذا أمر آخر .
- ذكر لله ﷻ بألفاظ شرَعَها ، بل يحبها ﷻ ، بل هي أحب الكلام إليه كما قال عليه الصلاة والسلام : ((أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)) ، وفي هؤلاء الكلمات ورد أحاديث كثيرة تدل على عظم فضلها ورفعة مكانتها وعظم ثوابها عند الله .

فهم في المسجد ، وفي انتظار الصلاة ، وفي ذكرٍ لله ﷻ بألفاظ يحبها الله ﷻ بل هي أحب الكلام إليه ﷻ ، ولكنَّ طريقة الذكر والصفة التي اجتمعوا عليها بحيث يقوم عليهم رجل ، وبحيث أيضا يأتون بهذه الأذكار جماعةً بصوت واحد ، وأيضًا استخدام الحصى للعد كلما فرغوا من مئة عدوا مئة أخرى بالحصى ؛ هذه أمور لم تكن موجودة بين الصحابة . وأخذ يمارسها هؤلاء في المسجد والصحابة متوافرون ، ابن مسعود كانت وفاته في سنة اثنين وثلاثين ، كان أكثر أعيان الصحابة موجودون في ذاك الوقت ، وعدد من المبشرين بالجنة كانوا موجودين في

ذلك الوقت ، وعدد من فقهاء الصحابة كانوا موجودين ؛ ومع ذلك انشغل هؤلاء بهذا الأمر الذي لا أصل له بهذه الصفة في دين الله ﷻ ، والذي دفعهم إليه هو حب الخير والرغبة في الخير ولكن بدون رجوعٍ إلى أهل العلم وحملته ، وبدون فقهٍ وبصيرة في دين الله تبارك وتعالى.

أيضا لاحظ هنا : أنها حِلق وليست حلقة واحدة ؛ وهذا يدل أن البدعة تجُرّ إلى البدعة ، وفتح الباب على الناس في البدعة يجعل الجهال ومن لا علم لهم بدين الله ﷻ يدخلون في البدعة وينغمسون فيها ، وهذا أمر معروف من حيث الواقع ؛ أن الناس كثير منهم يوجد عنده رغبة في الخير وأيُّ أمرٍ يُذكر له أنه خير ينشره ويعمل به دون تمحيص ، ولعلكم تلاحظون الآن يكثر في زماننا إما أوراق مكتوبة أو عبر رسائل الجوال تُذكر أعمال ويُذكر ترغيب فيها والعمل لا أصل له والترغيب لا أصل له ولا دليل عليه، وتجد الناس ينشرونها ، وإذا قيل لأحدٍ هذا لا أصل له قال : " والله ما أردنا إلا الخير ، ودَّنا تنتشر الأعمال الصالحة ، ودّنا ينتشر الخير بين الناس " ، فكثير من الناس رغبته الشديدة في الخير وفي الوقت نفسه قلة بصيرته وعلمه بالدين تجعله إما يمارس البدعة ، أو يدعو إلى البدعة ، أو يكون من أنصار البدعة ؛ وينفتح عليه باب الإحداث والابتداع في دين الله ﷻ واتباع الأهواء . فهي ليست حلقة واحدة وإنما عدة حِلق في المسجد ، لكنها يقيناً بدأت بحلقة واحدة ، وهذه الحلقة وعليهم رجل سبّحوا مئة ، يدخل الناس المسجد ويرون جماعة ويسبحون ويهللون ويكونوا ناس لا علم لهم يقولون لماذا لا نكون مثل هؤلاء أهل الجد والاجتهاد في الذكر والمواظبة على ذكر الله ليسو غافلين ، لماذا لا نفعل مثلهم ؟ فتبدأ حلقة ثانية ، والحلقة الثانية تنادي الحلقة الثالثة ، والثالثة تنادي الرابعة وهكذا ، فنشوء الفرق والبدع والجماعات هذه بداياتها ، حتى الآن الفرق المحدثة تنشأ فرقة ثم يُعجب بها أفراد من الناس جهلة بدين الله فأيضاً يختطُّون لأنفسهم فرقةً أخرى فتكثر الضلالات والأهواء في الناس ويذهب عنهم العلم والدراية بسنة النبي ﷺ .

قال ابن مسعود : ((**قَالَ : فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ ؟**)) ؛ يعني لما رأيتهم على هذه الحال ماذا قلت لهم ؟

((**قَالَ : مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئاً انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ**)) يعني انتظار ما تأمر به أو ما توجّه إليه . وهذا أيضاً واجب الناس مع أهل العلم والفقهاء ؛ أبو موسى الأشعري عنده علم وعنده فقه ولكن ابن مسعود ﷺ منزلته في الفقه ومكانته فيه معروفة ، ولهذا لم يكتفِ بإنكاره هو لذلك – وإنكاره لذلك كان عن فقهٍ ولكنه دون مكانة ابن مسعود ﷺ في الفقه – فانتظر حتى يلقى ابن مسعود ﷺ ويعرض عليه الأمر . قال ((**انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ**)) : أي توجيهك في هذا الأمر .

((**قَالَ : أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء؟**)) ؛ يعني أفلا قلت لهم عدّوا سيئاتكم ، لأن العمل الذي يقومون به عمل غير مشروع ؛ حتى وإن كانوا يسبّحون ويهللون ويحمدون ، العمل الذي يقومون به غير مشروع في دين الله ، والله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان مشروعاً مأموراً به أمر استحبابٍ أو أمر إيجاب ، أما التقرب إلى الله ﷻ بالعمل الغير مشروع هذا من موجبات رد العمل وعدم قبوله

كما قال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ، ولهذا قال : ((**أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء**)) .

((**ثُمَّ مَضَى**)) ؛ يعني بعد أن قال لأبي موسى هذا الكلام .

((**ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟**)) والاستفهام هنا استفهام إنكار ، فهو يستنكر هذا الأمر الذي هم عليه ، ما هذا الأمر الذي أنتم تصنعون ؟ قوله «**مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟**»هذا استفهام إنكار ؛ هو لا يسألهم هنا عن هذا العمل هل أنتم تصنعون عملاً مشروع ؟ هل عندكم دليل عليه؟ هو لا يسألهم عن ذلك ، وإنما ينكر ما هذا الأمر الذي تصنعونه، وفهموا من كلامه أنه يسألهم عن صفة العمل ؛ ما صفته ؟ وصفته ظاهرة له ، سمع بها ورآهم عليها ، ففهموا أنه يسألهم عن صفة العمل أو طبيعة العمل الذي هم عليه فأخذوا يشرحون له عملهم ((**قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ**)).

((**قَالَ : فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ**)) ؛ عدّوا سيئاتكم لأن العمل هذا الذي تعملونه ليس من شرع الله ولا دليل عليه في كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، ولم يكن يعمله الصحابة الذين هم قدوة للناس ، ومر معنا ثناء الله ﷻ على أتباع الصحابة بإحسان ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾[التوبة:١٠٠] ، فهذا الذي عليه هؤلاء أصحاب تلك الحِلق ليس من الإتباع في شيء بل هو من الإحداث في دين الله ﷻ ؛ فلهذا قال لهم: ((**عُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ**)) .

لاحظ هنا ملاحظة مهمة : القوم يذكرون الله ، وابن مسعود يقول لهم ((عدوا سيئاتكم)) !! أعظم من ذلك : يذكرون الله ﷻ بأفضل الذكر الذي هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وابن مسعود يقول ((عدوا سيئاتكم)) !! فإذا كان ابن مسعودٍ قال هذا الكلام في حق من اجتمعوا في المسجد انتظاراً للصلاة مسبّحين مهللين حامدين مكبرين وقال في حقهم هذا الكلام ؛ فكيف بمن اجتمعوا على غير دين الله لا في الصفة ولا في الذكر ولا في الهيئة إلى غير ذلك !! مثل من يجتمعون في المسجد يُنشدون الأناشيد بصوت واحد ، إذا كان أنكر ابن مسعود من يسبح ويهلل ويكبر جماعةً بهذه الصفة فكيف بمن يجتمعون للأناشيد أو خرافات أهل الفرق الباطلة وضلالاتهم أو أذكارهم المحدَثة ، فالأمر ولا شك أعظم وأفظع .

((**وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ**)) يعني ما أسرع سيْركم إلى طريق الهلكة ، ما أسرع ذهابكم إلى طريق الهلكة . و«ويح» : هذه كلمة يؤتى بها للتقريع والزجر ونهر الإنسان عن الأفعال القبيحة الذميمة المنكرة ، ((ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم)) يعني ما أسرع سيْركم إلى الهلكة .

((**هَؤُلاَءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ**)) ؛ يعني موجودون .

وهذه الكلمة؛ قوله ((هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون)) تشير إلى أن أصحاب تلك الحِلق ليسو من الصحابة وإنما من المسلمين الذين هداهم الله ﷻ إلى الإسلام وعرفوه من طريق الصحابة ثم اجتهدوا في فعل أعمالٍ في الإسلام يتقربون بها إلى الله لم يروا عليها الصحابة ، وطريق الإسلام إليهم جاء من طريق الصحابة ، فأخذوا يعملون أعمالاً ليست من هدي الصحابة ولا من طريقتهم ولا من سبيلهم ، ولهذا قال: ((**صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ**)) مشيراً بذلك إلى قاعدة عظيمة مهمة في الباب قررها الإمام مالك رحمه الله : «ما لم يكن ديناً زمن النبي ﷺ فلا يكون اليوم دينا» ، بل قررها حذيفة كما تقدم قريبا عندما قال : «كل عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها» . فهذا مراد ابن مسعود ﷺ بقوله : ((**صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ**)) منبهاً إلى هذه القاعدة : أن كل عمل يتقرب إلى الله به ليس عليه عمل الصحابة وليس معروفًا عند الصحابة فهو بدعة ، ولهذا جرت عادة أهل العلم في إنكار الأمور المحدثات بالتنبيه إلى أن هذه لم تكن موجودة عند الصحابة ﷺ ، فهل يكون هذا الأمر الذي يعمله هؤلاء خيرٌ حجبه الله عن الصحابة وحرم الصحابة منه وادّخره لهؤلاء !! قل هذه الكلمة لأصحاب الموالد وأصحاب الاحتفالات ؛ قل لهم : هذا العمل الذي تمارسونه الآن وتدّعون أنه إظهار لمحبة النبي ﷺ هل هو خير ادَّخره الله لكم وحجبه عن أبي بكر ، وحجبه عن عمر ، وحجبه عن عثمان ، وحجبه عن علي ، حجبه عن هذا الصدر المبارك! حُرموا منه وفزتم به !! حُجب عنهم وادّخر لكم ؟ أيمكن ذلك ؟

من كان عنده أدنى تأمل وأدنى فهم في هذا الأمر لأبصر ما عليه هؤلاء من ضلالة ومخالفة للهدي القويم والصراط المستقيم ، لأننا نجزم يقيناً أن هذا الأمر لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم السبّاقون ، ولاحظ هنا هذه اللفتة الكريمة في الآية ؛ الله ﷻ وصفهم بالسبق وجعل فرضنا في هذا الباب إتباعه ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ ؛ فرضنا نحن اتباعهم بإحسان ، ولهذا حظنا من الخير بحسب إتباعنا لهم ، أما السبق إلى الخير من جميع أبوابه فهو حظهم ، فكل خيرٍ لم يوجد عندهم أو بينهم أو فيهم فليس خيراً وليس من دين الله ، لأنهم السبّاقون لكل خير ، بل كل خيرٍ وصل إلى الأمة بعدهم وصل إليها من طريقهم هم نقلته ، نقلة الخير إلى الأمة، سمعوه من النبي عليه الصلاة والسلام وتحملوه بأمانةٍ وصدق وبلَّغوه الأمة .

فهذا أصل في هذا الباب من فقِهه سلِم من البدع ، من روّض نفسه عليه سلِم من البدع ، «أيُّ عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها» ، وهذا الأثر يفتح لك أيضا باباً عظيما في فهم هذا الأصل؛ وهو أن تقول: إذا كان هذا الأمر الذي حدث حدَث في زمن الصحابة ، وأعيان الصحابة موجودون ومتوافرون ، ومع ذلك وُجد والصحابة بين أيديهم ؛ فلأن توجد محدثات أكثر بعد زمانهم من باب أحرى وأولى .

وهذا أيضا يفتح لك باباً آخر في الفهم وهو : أن لا تستصغر في عينك بدعةً ، فالبدعة أياً كانت عظيمة وخطيرة وتجر صاحبها إلى مخاطر عظام جداً ، فلا تستصغر بدعةً ولا تقالّها ؛ بل إياك وإياها؛ احذرها .

قال: ((**وَهَذِهِ ثِيَابُهُ** -أي النبي عليه الصلاة والسلام- **لَمْ تَبْلَ ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ**)) ؛ مشيراً إلى أن موته ﷺ مبلِّغا الدين كاملاً غير منقوص كان عهده قريب ، كم بينهم وبين وفاة النبي ﷺ ؟ ربما لا يزيد على عشرين سنة ، إذا قلنا ابن مسعود توفي في السنة الثانية والثلاثين فيكون بينهم وبين وفاة النبي ﷺ في حدود عشرين سنة، يعني وقت قريب . ((**ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ**)) ثم تذهبون تفتتحون هذا الباب في الإحداث في الدين والصحابة لا يزالون بينكم !! فإذا كان هذا وُجد في ذاك الوقت فما بالكم بالأوقات المتأخرة !!.

ثم قال: ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ**)) ، وجاء في بعض الروايات ((لقد جئتم ببدعة ظلماً أو فُقْتم أصحاب محمد علما)) لأن هذا العلم الذي عندكم والعمل الذي تمارسونه لا وجود له بين الصحابة ، وهنا يقول: ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ**)) كأنه يقول لهم : أمامكم خياران ليس لهم ثالث؛ الخيار الأول: أنكم على ملة خير من ملة محمد ﷺ ، وانظر هذا الكلام القوي الذي أطلقه ابن مسعود في حقهم ، مع أنهم كانوا يمارسون نوعاً من الذكر المشروع بصفة غير مشروعة فقال: ((أنتم على ملة هي خير من ملة محمد ﷺ، أو مفتتحوا باب ضلالة)) وانظر أيضا متأملاً قوله «أو مفتتحوا باب ضلالة» ففي هذا تنبيه إلى أن الدخول في البدع الصغار يجر إلى بدع كبار . وقوله ((**مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ**)) تشمل أمرين :

١- تشمل مفتتحوا باب ضلالة على أنفسكم ؛ بحيث تتوسعون في البدع وتكبر فيكم البدع ، وهذا سيأتي شاهده من الحديث .

٢- وأيضاً تحتمل معنى آخر : مفتتحوا باب ضلالة على الناس ؛ فتستمر هذه البدعة ونظائرها وأمثالها وينطبق عليكم الحديث: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)) ، وليس من شرط الإنسان أن يسن السنة بقوله بل بفعله ، مثل ما حصل من هؤلاء في سن هذه الطريقة في الذكر .

اسمع الآن إلى الاعتذار ((**قَالُوا : وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلاَّ الْخَيْرَ**)) يعني لم نُرِد بهذا العمل إلا الخير ، ما أردنا شراً ، ما قصدْنا إحداثاً في الدين ، ما قصدْنا افتتاح باب ضلالة ، ما أردنا إلا الخير . وهذا لسان حال كثيرين ممن يعبدون الله تبارك وتعالى بغير بصيرة وبغير هدى من دين الله ، إذا سُئلوا عن الأمر الذي يعملونه أحيانا يقولون : " ما أردنا إلا الخير "، وأحيانا يسمّون أمراً يدل على أنهم ما أرادوا إلا الخير ، يعني مثلا من يقيمون الموالد يقيمونها بزعمهم لإظهار محبة النبي ﷺ ، إظهار محبته خير أرادوه لكن المسلك الذي سلكوه غير مشروع ولا دليل عليه في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ ولا في عمل الصحابة الأخيار رضي الله عنهم وأرضاهم ،

ولو كان فيه خير لسبقنا إليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأعيان الصحابة الذين هم أشد الناس حبًا للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فقال ابن مسعود ﷺ: ((**وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ**)) ؛ يعني كم من إنسان أراد الخير ولكنه لا يصيب الخير، إذاً إذا كان ليس كل من أراد الخير أصابه من الذي يصيب الخير ؟ من وُفق للسنة ولزومها والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ والحذر من المحدثات ؛ من كان بهذه الصفة أصاب الخير ، أما الذي يفتتح لنفسه ولغيره أبواب العمل والتقرب إلى الله تبارك وتعالى بغير ما شرع الله ﷻ فهذا أمرٌ في غاية الخطورة .

ثم ساق ابن مسعود ﷺ لهم حديث النبي ﷺ في شأن الخوارج قال: ((**وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ أَنَّ قَوْماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**)) ؛ لاحظ إيراد حديث الخوارج هنا وهو أن من يفتتح باب البدعة على الأمة ليس من لازم افتتاحه باب البدعة أن يأتي بأمرٍ لا أصل له مطلقًا من الدين ؛ بل يأتي بأعمال مشروعة ثم يضيف لها إضافات فتخرج عن حيّز السنة ، فهنا يأتي بالذكر ولكن يضيف له بعض الصفات بحيث يخرج به عن السنة وعن الدين عن هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . فأورد هذا الحديث لينبه على هذا الأمر ، يعني أن البدعة تكون أحياناً في الإتيان بالأمر المشروع ثم يضاف إليه إضافة غير مشروعة ، فهنا هؤلاء في بداية أمرهم أتوا بالذكر وأضافوا إليه ما ليس منه ، ثم انتقلوا إلى أمر آخر وهو أنهم جاءوا بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أرادوا إنكار المنكر وأضافوا إليه حمل السيف على الأمة ، ثم إنكار المنكر الذي هو بزعمهم منكر ، وهو في حقيقة الأمر ليس منكراً وإنما هو منكر بزعمهم ؛ لأنهم جهلة في دين الله .

فلاحظ كيف يرتقي بهم الضلال!! ينفصلون عن أهل العلم وعن الرجوع إلى العلماء ويستقلون بآراءهم مع جهلهم بدين الله تبارك وتعالى ، ثم يحصل منهم رفع السيف زعماً منهم أنهم يريدون إنكار المنكر ، يرفعون السيف على الأمراء وعلى العلماء وعلى أفراد المجتمع لأنهم على ضلال بزعم هؤلاء .

قال: ((**وَأَيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ**)) ؛ يعني كأنه توسم فيهم ورأى من حالهم أو علم من حال من فتح على نفسه باب الضلالة أنه تجرّه إلى ضلالات أكبر فقال ﷺ : ((**لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ**)).

((**ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ**)) ؛ يعني ذهب وتركهم .

((**فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ ﷺ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْخِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ**)) ؛ رأينا عامة هؤلاء: يعني جُلّ هؤلاء . ويكون معنى هذا أن بعضهم اهتدى ورجع وترك، وعامتهم يقول عمرو رأيناهم يطاعنونا يوم النهروان. والنهروان: هي المعركة التي دارت بين علي ﷺ وبين الخوارج وقَتل ﷺ منهم خلْقاً عظيما بعد أن اجتهد في مناصحتهم وأرسل لهم ابن عباس وناظرهم ورجع منهم من رجع ثم امتنع منهم من امتنع وقاتلهم رضي الله عنه وأرضاه .

فيقول عمرو : ((**رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْخِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ**)) ؛ وهذا كما قدّمت فيه فائدة عظيمة في خطورة البدع والتحذير منها من جهة أن الإنسان لا ينبغي أن يتقالّ بدعة أياً كانت ، بل يحذر من البدع ، فالبدع تجر إلى بدع ، والبدع الصغار تجر إلى بدع كبار والأمر جد خطير . والواجب على الإنسان أن يحفظ إسلامه ؛ ومن حفظ الإسلام : الحذر من البدع ، ومن أبواب نيل فضائل الإسلام : البعد عن البدع ، لأن البدعة تضر بالإنسان وتضر بعمله وتسبب رد العمل وعدم قبوله وعدم نيل فضائل الإسلام .

فتوَّج المصنف رحمه الله كتابه «فضل الإسلام» بالتحذير من البدع مع أنه سبق أن عقد أبواباً متعددة في التحذير منها ، لكن هذا التكرار وهذه المعاودة للبيان كله تنبيهٌ على خطورة البدع وشدة ضررها على أصحابها في البُعد عن الإسلام وهديه القويم وسَننه المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

ثم ختم رحمه الله كتابه بقوله ((**والله المستعان وعليه التكلان**)) ؛ أي أن العون من الله والتوكل على الله ، فكأنه ينبهك هنا قائلا : يا من عرفت الحق الزم الحق واستعن على لزومه بالله ﷻ وتوكل عليه . منبهاً بذلك إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)) ، ما ينفعك بسطَه لك في هذا الكتيب «فضل الإسلام» وعرفته ؛ فاطلب من الله ﷻ العون ، وتوكل على الله ﷻ بحفظ هذا الأمر والمحافظة عليه والثبات عليه ، ((**والله المستعان وعليه التكلان**)) لأن الأمر بيده تبارك وتعالى.

ثم ختم بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قائلا : ((**وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين**)) . وبهذا انتهى هذا الكتاب .

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا بما علّمنا ، وأن يجعل ما تعلمناه حجة لنا لا علينا ، وأن يغفر لمؤلفه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وأن يجزيه خير الجزاء على هذا الكتاب العظيم وعلى كتبه الأخرى العظيمة النافعة التي ترتب عليها خيرٌ عظيم ونفعٌ عميم وفوائد جليلة لأمة الإسلام ؛ فجزاه الله عن أمة الإسلام خير الجزاء وأوفره ، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .